روايات
مصرية للجيب

ملف المستقبل
سرى جدًّا !!

156

د. نبيل فاروق

عالم جديد



ملف المستقبل ..

فى مكان ما من أرض (مصر) ، وفى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسريَّة مطلقة ؛ من أجل حماية التقدُّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدُّم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدَّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل .

د. نبيل فاروق

1 ـ بلا أجوبة ..

على الرغم من استعادته وعيه ، وأسلوب (نور) فى شرح الموقف ، الذى استيقظ أعضاء فريقه ، ليجدوا أنفسهم فيه ، لم يستطع (أكرم) قط استيعاب أو هضم الموقف ، وخصوصًا مع طبيعته البدائية ، التى طالما مالت للزمن الماضى ، بكل هدوئه ورصانته ، فإذا به يقفز مع الفريق إلى المستقبل ..

وبلا عودة ..

لم يكن باستطاعته أن يتقبَّل هذه النقطة الأخيرة بالذات ، والتى جعلته يتحرَّك فى حجرته الخاصة ـ التى تحوى عشرات الأشياء التى يجهلها ـ على نحو أشبه بالأسد الحبيس ..

أو الجريح ..

وعندما التقطت أذناه وقع الأقدام ، التى تقترب من حجرته ، قفزت يده على نحو غريزى إلى موضع مسدسه ، فلما لم يجده فى مكانه ، غمغم فى سخط :

ـ يا للسخافة !

كان يبغض كل ما حوله ، على نحو لم يبغض به شيئًا من قبل ..

بل ربما لم يبغض شيئًا من قبل ..

ولكن أن يفقد وعيه ، فى زمن ما ، ثم يستعيده ، ليجد نفسه فى زمن آخر[*] ، فهذا يفوق احتماله ..

ألف مرة ..

ثم ما الذى تعنيه عدم قدرتهم على العودة إلى زمنهم ؟!

الفريق سافر عبر الزمن عدة مرات[**] ..

وعـاد ..

وانتصر ..

فلماذا لا يعود هذه المرة ؟!..

لمـــاذا ؟!..

لمـــاذا ؟!..

كان عقله يلتهب بالسؤال ، دون أن يحصل على جواب شاف ، عندما سمع طرقات هادئة على باب حجرته بغتة ..

(*) راجـع قصة (الكهـف) .. المغـامرة رقم (155) .

(**) راجع قصة (عبر العصور) .. المغامرة رقم (54) .

وقصة (ألف عصر) .. المغامرة رقم (118) .

وعلى الرغم من هدوئها ، الذى يوحى بأن صاحبها يحرص علـى ألا يشعر به أحد ، فقد انتفض جسد (أكرم) فى قوة ، وهتف فى عصبية :

ـ من الطارق ؟!

أتاه صوت (نور) خافتًا ، وهو يقول :

ـ إنه أنـــا .

أسرع (أكرم) يفتح الباب ، ويفسح الطريق لـ (نور) ، علـى الرغم من أن عقـارب تلك السـاعة الهولوجرافيـة ، الطـائرة فـى سماء الحجرة ، التى يعتبرها مـن أسخف الأشياء فـى حجرتـه ، كانت تشير إلى الثانية صباحًا ، إلا بضع دقائق ..

وفى سرعة ، دلف (نور) إلى الحجرة ، وأغلق بابها خلفـه ، وهو يهمس :

ـ كنت أخشى أن تكون نائمًا .

غمغم (أكرم) بعصبية :

ـ ومن يمكنه النوم ، فى مقبرة رقمية كهذه ؟!

ثم استطرد ، يسأل (نور) فى اهتمام :

ـ ولكن يسعدنى أنك قد أتيت يا (نور) ، فلدىَّ عشرات الأسئلة ، التى أبحث عن أجوبة لها ، و ...

أوقفه (نـور) ، بوضـع سبَّابته على شفتيه ، ثم تحرك فى خفـة ، والتقط غطـاء السـرير ، ثـم راح يفـرده ، فـوق نـافذة الحجرة ، قائلاً :

ـ ساعدنى .

أسرع إليه (أكرم) ، دون أن يسأل عن السبب ، وتعاون معه فى فرد الغطاء ؛ ليخفى النافذة ، وما حولها من الجدار ، ثم همس فـى عصبية :

ـ ماذا يحدث هنا ؟!

أشار (نور) بسبَّابته مرة أخرى ، ثم اتجه نحو جزء من الجدار يحوى جهازًا موسيقيًا منمنمًا ، وأخرج من جيبه قطعة مطاطية ، ألصقها عليه فى عناية ، قبل أن يلتفت فى ارتياح إلى (أكـرم) ، الذى قال فى عصبية أكثر :

ـ هل يمكننى أن أفهم الآن ؟!

أجابه (نور) ، وهو يجلس على طرف الفراش :

ـ بالتأكيد .

وأشار إلى الغطاء ، المعلَّق على الجدار ، مستطردًا :

ـ لقد قضيت وقتًا طويلاً ، أدرس كل تفاصيل حجرتى ، قبل أن أدرك أننا مراقبون .

كاد (أكرم) يصرخ ، وهو يقول فى استنكار :

ـ مراقبون ؟!

أشار إليه (نور) بالهدوء ، وقال :

ـ نعم .. تلك النـافذة تحـوى مـا تصوَّرنـا أنـه زجـاج عـاكس ، يسمح لمن فى الداخل برؤية الخـارج ، والعكس غير صحيح .. والمفتـرض أن هنـاك زرًّا صغيرًا إلـى جوارهـا ، لتغيير سـطح الانعكاس ؛ عندما يرغب المرء فى الظلام والهدوء ، ولكن الواقع أن الزجاج يعكس الصورة ، ولكن إلى أجهزة رصد خاصة .

سأله (أكرم) ، فى دهشة وتوتر :

ـ وكيف كشفت هذا يا (نور) ؟!

مال نحوه ، مجيبًا :

ـ لو أنك فحصت قاعدة النـافذة جيدًا ، للاحظت تلك المستقبلات الرقمية الدقيقة ، التى تشبه ما كان فى زمننا .

شعر (أكرم) بـالضيق ، من مصطلح (زمننـا) هذا ، فسأل (نور) فى عصبية ، نشأت من غضبه وتوتره وضيقه :

ـ وماذا عن مشغِّل الموسيقى ؟!

أشار (نور) بيده ، مجيبًا :

ـ جهاز تنصُت منمنم .

تلفَّت (أكرم) حوله ، وقد تضاعف توتره ، وبدا لـه وكـأن كل ما حوله ، من تلك الأدوات والأجهزة ، التى يجهلها ويمقتها قد نبتت له آذان وعيون ..

فى منزله ، كل ما يحيط به ، من إنتاج القرن العشرين ..

وليس حتى من عقده الأخير ..

طيلة عمره يعشق النمطية ، والتقليدية ، فى كل ما حوله ..

الأثـاث ..

الأجهزة ..

الديكورات ..

ولقد كان هذا أكثر ما يزعج زوجته (مشيرة) ..

(مشيرة محفوظ) ، صاحبة ورئيسة تحرير جريدة أنباء الفيديو ..

يا إلهى !.. كم يشتاق لها !

كم يشتاق !

ويشتاق ..

ويشتاق ..

كل ما حوله ، يجعله يشتاق إليها ..

وإلى منزله ..

وزمنه ..

وحياته السابقة ..

وفى حنق شديد ، صنعه ذلك المزيد ، مـن غضبـه واشتياقه ، تساءل :

ـ ولكن من يراقبنا يا (نور) ؟!.. ولمـاذا ؟!

صمت (نور) لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ لست أدرى لماذا .. ولكننى أدرك أنهم من يفعلون هذا ..

هتف (أكرم) :

ـ من هم ؟!

أشار (نور) بيده إلى الجدار ، قائلاً :

ـ هـم .

اتسعت عينا (أكرم) ، وشعر بعاصفة عاتية ملتهبة ، تعربد فى عقله ، وبإعصار يكاد يلتهم مشاعره ، فحدّق فى وجه (نور) فـى ذهول ، قبل أن يتمتم :

ـ كيف برزت الفكرة فى رأسك ؟!

انعقد حاجبا (نور) ، وهو يجيب :

ـ منذ البداية ، كانت هناك عشرات الأسئلة ، التى لم أجـد لها جوابًا .

تمتم (أكرم) فى حنق :

ـ لست وحدك .

تابع (نور) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ أولها (أيمن) نفسه .

غمغم (أكرم) :

ـ ذلك الشاب لم يرق لى قط .

نهض (نور) ، قائلاً :

ـ المسألة لا شأن لها بالقبول والرفض ، ولكن هناك جزء من ذاكرتى ، يرفض وجوده بشدة ، بعد أن تمزّق جسده فـى عنف ، فى مهمة سابقة(*) ..

اتسعت عينا (أكرم) ، وهو يقول :

ـ يا إلهى !.. هذا صحيح !.. كيف نسينا هذا ؟!

لوّح (نور) بيده ، مجيبًا :

ـ لم ننسه ، ولكننا كنا جميعًا فى حالة ، يمكن أن نطلق عليها اسم شوشرة ذهنية .. شوشرة كـان من نتائجها ، أن اضطربت ذاكرتنا .

صمت لحظة ، ثم رفع عينيه إلى (أكرم) ، مكملاً :

ـ وأصدقك القول : إننى قد بذلت جهدًا خرافيًا ، حتى أمكننى استعادة صفاء ذهنى .

التقط (أكرم) نفسًا عميقًا ، محاولاً السيطرة به على أعصابه الثائرة ، قبل أن يقول فى خفوت ، وكأنه يخشى أن يسمعوه :

ـ أهذا ما أثار شكوكك ؟!

(*) راجع قصة (سادة الكون) ... المغامرة رقم (134) .

هزَّ (نور) رأسه نفيًا ، قبل أن يقول :

ـ كان هناك أمر يثير حفيظتى ، منذ اللحظة الأولى ؛ فملف (أيمن) لم يكن بالجودة ، التى تسمح بترقيته إلى منصب القائد الأعلى ، الذى لا يبلغه سوى أصحاب الكفاءات المتميزة ..

أشار (أكرم) بسبَّابته ، مكملاً فى انفعال :

ـ وهناك جسده نصف الآلى .

تطلع إليه (نور) لحظة فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ هذا لم يكن ليصنع فارقًا ، حتى فى زمننا ؛ فمنصب القائد الأعلى يحتاج إلى الرصانة والحكمة والخبرة ، بالإضافة إلى الكفاءة الذهنية ، ولا الجسدية .

قال فى عصبية :

ـ يقولون : إن العقل السليم فى الجسم السليم .

ابتسم (نور) ابتسامة باهتة ، وقال :

ـ وهل تؤمن بكل مقولة شهيرة ؟!..

قال فى تحد :

ـ أليست صحيحة ؟!

هزَّ (نور) رأسه نفيًا ، وأجاب فى حزم :

ـ مطلقًا .. كل مشاهير العلماء ، أو معظمهم على الأقل ، كانوا ضعاف البنية ، على نحو ملحوظ .

غمغم (أكرم) :

ـ أنت أكثر دراية .

ثم استدرك ، مستعيدًا عصبيته :

ثم إن هذه ليست قضيتنا .

قال (نور) فى حزم :

ـ بالضبط .. لدينا قضية أخرى ، شديدة الخطورة والأهمية .

تساءل (أكرم) ، فى حذر قلق :

ـ وهى ؟!

أجابه بمنتهى الحزم :

ـ (محمود) ...

وعلى الرغم منه ، سرت قشعريرة باردة ، فى جسد (أكرم) .. قشعريرة قوية ..

ومثلجة ..

للغاية ..

* * *

فى صمت تام ، واهتمـام شديد ، جلس القائد الأعلى ، للمخابرات التكنورقمية ، يتطلَّع إلى شاشة هولوجرامية كبيرة ، تسبح فى سماء حجرته ، حتى سمع ذلك الصوت الأنثوى الناعم ، يهمس :

ـ الرائد (هيثم) .

غمغم ، دون أن يرفع رأسه عن الشاشة :

ـ أدخليه .

تموَّج الجدار المواجه له ، وتحوَّل إلى شكل ضبـابى ، قبل أن يدلف الرائد (هيثم) ، وهو شاب مفتول الذراعين ، عريض الصدر والفكين ، ممشوق القوام ، يبدو أشـبه بالمصارعين القدامى ، ولقد تقدم بوجهه غليظ الملامح ، من القائد الأعلى ، وأدى التحية العسكرية فى قوة ، قائلاً بصوت خشن :

ـ الرائد (هيثم) ، فى خدمتك يا سيِّدى .

أشار القائد الأعلى إلى الشاشة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لقد كشف الأمر .

تساءل (هيثم) فى توتر :

ـ مـــن ؟!

التفت إليه القائد الأعلى بنظرة صارمة ، فاستدرك فى ارتباك :

ـ أتقصد المقدَّم (نور) ؟!

نهض من خلف مكتبه بحركة حادة ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يدور فى المكتب ، قائلاً :

ـ من الواضح أنه أذكى مما تصوَّرنا بكثير .. لقد كشف الكثير من ألعاب التكنولوجيا ، التى تفوق زمنه بثلاثين عامًا على الأقل ، وهذا يشف عن ذكاء ، يتجاوز حتى ما تتحدَّث عنه الأساطير .

قال (هيثم) فى توتر :

ـ ولكننا اتخذنا كل الإجراءات الممكنة ، حتى ...

قاطعه القائد الأعلى بإشارة من يده ، وهو يقول :

ـ من حسن حظنـا ، أنـه حتى عقليتـه المتطوِّرة ، لم يمكنهـا كشف كل ألعابنا .. إنه و(أكرم) لم ينتبها إلى أن تلك السـاعة الهولوجرامية ، التى تسبح فى فراغ كل حجرة ، هى فى واقعها ، نظام مراقبة وتنصُّت .

غمغم (هيثم) :

ـ حتى بعض مواطنينـا ، لا يعلمون بأمر هذه التكنـولوجيـا المتطوِّرة .

زفر القائد الأعلى فى توتر ، وقال :

ـ لقد رصدت وسجلّت ، كل ما قالوه وفعلوه ، ومن الواضح أن (نور) قد استعاد كامل ذاكرته ، ويسعى لمعرفة مصير زميلهم ، الذى أعدنا طاقته ، من نهر الزمن .

هزّ (هيثم) رأسه نفيًا ، وقال فى خشونة وصرامة :

ـ يمكننا أن نخفيه ، فى أحد أقبيتنا السرية ، فلا يمكنهم التوصّل إليه أبدًا .

قال فى صرامة :

ـ كلاً .. هذا سيضاعف شكوكهم .

قالها ، وضغط زرًا على سطح المكتب ، دون أن يعود إليه ، فاختفت الصورة من الشاشة الهولوجرامية ، وظهرت بدلاً منها صورة كبيرة للمدينة ..

كانت مدينة هائلة ، تحمل نفس الاسم القديم ..

القاهرة الجديدة ..

ولكنها لم تكن تشبه تلك التى تركها (نور) ورفاقه خلفهم ..

كانت تختلف ..

كثيرًا ..

كانت قليلة المبانى ، كثيرة الأطلال ، وأجزاء كاملة منها غطاها السواد ..

سواد كثيف ..

سميك ..

مخيف ..

وهناك ، فى منتصفها ، كان يرتع علم ..

علم ، لا يشبه أيضًا علم (مصر) القديم ..

ولا الحديث ..

ولا يوحى بأدنى قدر من المصرية ..

أو الراحة ..

ولثوان ، ظلّ القائد الأعلى يتطلّع إلى ذلك العلم ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ ونحن لا نرغب فى أن يعرفوا الحقيقة .. لا ينبغى أن يعرفوها أبدًا ، ولا حتى أن يفكروا فيها .

شد (هيثم) قامته ، فى وقفة عسكرية صارمة ، وهو يقول :

ـ بِمَ تأمر أيها القائد الأعلى ؟

التفت إليه القائد فى بطء ، وتطلَّع إليه لحظة ، قبل أن يقول :

ـ فلتبق الأمور على ما هى عليه حاليًّا ، حتى نعمل على إزالة شكوكهم .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يشرد ببصره ، مضيفًا :

ـ المشكلة الأساسية هى كيف يمكننى مواصلة لعب دور (أيمن) ، بعد أن ساورته الشكوك بشأنه ؟!.. كيف ؟!

قالها ، وملامحه تتبدَّل ، بتكنولوجيا شديدة التطوّر ، إلى ملامح (أيمن) ..

الكهل ..

الزائف ..

* * *

2ـ محمود ..

مع انعدام وسائل الطاقة الرئيسة ، بدا الظلام حالكًا ، فى (القاهرة) الجديدة ، إلا من بضع بقاع من وهج نيران صغيرة ، تشتعل هنا وهناك ، وتألق مصابيح ضوئية محدودة ، فى أماكن شتى من المدينة ، التى كانت يومًا ما ، درة العالم ، فى فترة ما بعد الاحتلال(*) ..

وفى أحد الأحياء ، التى اشتهرت بثرائها فيما مضى ، والتى تحوَّلت إلى كومة من الأطلال ، فى مرحلة ما بعد الكارثة ، تحرَّك أحد الرجال فى خفة ، متسترًا بالأطلال ، وكأنه يختبئ من شىء ما ، وتوقَّف لحظات عند ناصية قديمة ، قبل أن يعدو مسرعًا إلى مبنى نصف متهالك ، له باب شبه محترق ، ودق الباب ثلاث دقات متتالية ، وانتظر لحظة ، ثم دقه دقتين أخريين ..

ومرَّت لحظة من الصمت والسكون ، قبل أن ينفتح الباب بصرير مزعج ، وتظهر على عتبته فتاة صغيرة ، تساءلت فى براءة :

ـ من القادم ؟!

(*) راجع قصة (الاحتلال) ... المغامرة رقم (76) .

وعلى الرغم من براءة وبساطة السؤال ، بدا الجواب غريبًا ، عندما قال الرجل ، فى صرامة شديدة :

ـ ذئب البرارى .

وما إن سمعت الفتاة الجواب ، حتى أفسحت له الطريق ، فدلف إلى الداخل فى سرعة ، وهو يسأل :

ـ هل حضر الباقون ؟!

أجابته ، مشيرة إلى الجدار :

ـ كلهم هنا .

اتجه مباشرة نحو الجدار ، ودق عليه مرتين ، فانزلق على نحو هادئ ، كاشفًا حجرة واسعة ، تناثرت فيها أجهزة كمبيوتر قديمة ، نسبة إلى ذلك الزمن ، وتتوسَّطها مائدة مستديرة ، جلس عليها أربعة رجال ، استقبلوا القادم فى ترحاب ، وقال أحدهم فى احترام :

ـ أقلقنا تأخرك أيها الذئب .

أجابه ، وهو يخلع معطفه السميك :

ـ الشوارع لم تعد آمنة أيها الدب .

التقط الرجل معطفه ، وعلَّقه على مشجب بدائى ، ثم عاد إلى المائدة ، قائلاً :

ـ الجميع هنا كما ترى .. الفهد ، والليث ، والتمساح ، وأنا .

اعتدل الذئب فى ارتياح ، قائلاً :

ـ عظيم .. الآن يمكننا وضع القواعد الأساسية ، لما نستعد لعمله .

رفع الليث يده ، قائلاً :

ـ هناك أمر يقلقنى أيها الزعيم .

سأله الذئب فى اهتمام قلق :

ـ وما هو ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ رجال الأمن يبتكرون فى كل يوم وسائل جديدة ، للبحث عنا ، وعلى الرغم من فشلهم حتى الآن ، فلا يمكننا أن نضمن فشلهم طوال الوقت .

سأله الدب :

ـ هل وصلتك معلومات جديدة ، من رجلنا هناك ؟!

تردَّد لحظة ، فصاح فيه الذئب فى غضب :

ـ غير مسموح بإخفاء المعلومات .

شحب وجه الرجل ، وهو يقول :

ـ لست أحاول إخفاء أية معلومات أيها الذئب ، ولكن المعلومات التى بلغتنى يصعب تصديقها .

قال الذئب فى صرامة :

ـ أخبرنا بها ، واترك لنا تقدير الموقف .

تردَّد الليث لحظة أخرى ، قبل أن يندفع ، قائلاً :

ـ يقولون : إنهم قد عادوا .

سأله التمساح فى حذر :

ـ من هم ؟!

انخفض صوته بمنتهى الشدة ، وهو يجيب :

ـ الفريق .

لم يحسن أحدهم الاستماع إليه ، فتساءل الفهد فى قلق :

ـ من ؟!

ارتفع صوته أكثر مما ينبغى ، وهو يقول :

ـ فريق (نور) ؟!

حدَّق فيه الكل ، فى ذهول مستنكر ، قبل أن يقول الذئب فى عصبية :

ـ أى قول أحمق هذا يا رجل ؟!.. الفريق الذى تتحدَّث عنه ، أعلن مصرعه رسميًا ، منذ أكثر من ثلاثين عامًا .

أضاف الفهد :

ـ وحتى لو عادوا ، سيكونون قد أصبحوا مجرَّد شيوخ .

هزَّ الليث رأسه فى عصبية ، وقال :

ـ كلاً .. رجلنا أكَّد أنهم عادوا ، فى نفس السن الذى اختفوا فيه ، وكأن الزمن قد قفز بهم إلى هنا ، فى لحظة واحدة .

اتسعت عيونهم كلها فى هلع ، من فرط غرابة الخبر ، وهبط على رءوسهم صمت ثقيل ، استغرق ما يزيد عن الدقيقة ، قبل أن يتراجع الذئب فى مقعده ، ويقول :

ـ الأساطير التى تحاك عنهم ، تقول : إنهم قد فعلوا ما هو أكثر من هذا بكثير .

تمتم التمساح :

ـ ربما هى مجرَّد أساطير .

قال الذئب فى حزم :

ـ أو حقائق ، اكتسبت لغرابتها سمة الأساطير .

ثم استغرق فى التفكير طويلاً ، والكل يراقبه فى صمت ، وينتظر ما سيقول ؛ لثقتهم فى ذكائه ورجاحة عقله ..

ثم فجأة ، اعتدل الذئب ، وقال الليث :

ـ لا بد وأن نجد وسيلة للاتصال بهم .

غمغم الليث فى توتر :

ـ وربما يكشف هذا الاتصال رجلنا .

وقال الفهد :

ـ وربما كشف أمرنا جميعًا .

ولوَّح الدب بيده ، قائلاً :

ـ ثم من يضمن ، لمن سيكون ولاؤهم الآن ؟!.. لقد غابوا أكثر من ثلاثين عامًا ، والعالم لم يعد كما تركوه خلفهم .

أشار الذئب بسبَّابته ، قائلاً فى حسم :

ـ السؤال إذن هو : هل يعلمون ؟!

تطلَّع إليه الجميع ، فى صمت متسائل ، فتابع :

ـ لو أننى فى مكان رجال الأمن ، لمَا أعلمتهم ، إلا بعد أن أمهِّد للأمر ، على نحو جيد .

قال الليث فى عصبية :

ـ إنهم رجال أمن ومخابرات ، ولن يختلف موقفهم عن موقف السلطات الرسمية حتمًا .

غمغم الذئب ، وكأنه يحدِّث نفسه :

ـ من يدرى ؟!

وشرد ببصره بضع لحظات ، وهو يدير بعض الحسابات المعقَّدة فى رأسه ، قبل أن يميل نحوهم ، قائلاً فى حزم :

ـ جدوا وسيلة للاتصال بأحدهم ، على أى نحو كان .

ثم عاد يتراجع فى مقعده ، ويضم كفيه أمام وجهه ، مضيفًا :

ـ لا بد وأن يعلموا .

كان من الواضح أن هذا يعنى له الكثير ..

الكثير جدًّا ..

* * *

على الرغم من خطورة منصبه كرئيس لمركز الأبحاث ، اضطرب الدكتور (راشد) كتلميذ هارب ، وهو يقف أمام (نور) ، قائلا :

ـ زميلكم (محمود) ؟!.. ماذا عنه ؟!

أجابه (أكرم) فى صرامة ، قبل أن يجيب (نور) :

ـ نريد الاطمئنان على حالته .. هذا من حقنا .. أليس كذلك ؟!

قال الدكتور (راشد) فى توتر ملحوظ :

ـ بالطبع ، ولكن هذا يحتاج إلى موافقة القائد الأعلى .

حاول (أكرم) أن يقول شيئًا ، ولكن (نور) استوقفه هذه المرة ، وهو يقول :

ـ ولماذا ؟!.. إنه زميلنا .. ومن المفترض أن ..

قاطعه الدكتور (راشد) فى عصبية :

ـ إنه ليس زميلكم .

بدت دهشة مستنكرة ، على وجهى (نور) و(أكرم) ، فاستطرد فى توتر :

ـ ربما تدفعكم العاطفة إلى ما تفعلون ، ولكن الواقع ربما لم ينجح فى تشكيل ذلك الجزء من عقولكم بعد .. ما نحتفظ به ليس زميلكم الذى تعرفونه .. ربما كان نسخة طبق الأصل منه .. وربما تشف جيناته عن أنه كذلك ، ولكن أى تحليل متقدِّم ، سيثبت لكم أنه مجردً نسخة من الزوريوم .. نسخة قابلة للانهيار فى أية لحظة .

انعقد حاجبا (نور) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ولكنكم لم تخبرونا بهذا ، عندما استدعيتموه ، من عالم الطاقة ، إلى ذلك الجسم الوهمى .

قال الرجل فى ضيق ، وهو يشيح بوجهه ، وكأنما لا يستطيع مواجهة عينى (نور) :

ـ لا نخبركم إلا بما يمكننا .

تبادل (نور) و(أكرم) نظرة متوترة ، ثم قال هذا الأخير فى غضب ، وهو يهم بإمساك عنق الدكتور (راشد) :

ـ اسمع يا هذا .

أمسك (نور) يده ؛ ليمنعه مما كان يهمُّ بفعله ، وإن لم يستطع منعه من إكمال عبارته الغاضبة :

ـ لو مس صديقى (محمود) أى ضرر على أيديكم ، فلن يكفينى سحقكم سحقًا ، وذَرُّ ما تبقى منكم فى الهواء كالرماد .

وبقدر الرعب ، الذى ارتسم فى عينى الدكتور (راشد) ، كانت دهشة (نور) ..

فالواقع أن (أكرم) لم يلتق (محمود) قط ..

لقد بدأ عمله فى المخابرات العلمية ، بعد أن ضاع هذا الأخير ، فى نهر الزمن(*) ..

ولكنه يعتبره صديقه ..

بل ومستعد لمواجهة كل شىء من أجله ..

عجيب هو (أكرم) هذا !..

هيئته وتصرفاته فى مواجهة الجريمة ، توحى بأنه همجى ، بدائى ، قاس ، لا يرحم أبدًا ..

ولكنه ، فى العلاقات الإنسانية ، إنسان آخر تمامًا ..

إنسان شهم ..

رقيق ..

حسّاس ..

ورومانسى ..

تناقض مدهش ، صنع تلك الشخصية ، التى لم يعد (نور) يشعر بالأمان والقوة ، إلا إذا تآزرت معه ، فى كل مواجهة ..

(*) راجع قصة (الزمن يساوى صفر) ... المغامرة رقم (100) .

التناقض القوى بينهما ، فى أسلوب مواجهة الخطر ، صنع مزيجًا مدهشًا .. قويًا ..

وناجحًا ..

ومتوازنًا ..

مزيج حقّق انتصارات عديدة ..

وناجحة ..

وفى ذعر ، هتف الدكتور (راشد) :

ـ لا يمكنك أن تمسّنى .. أنا رئيس مركز الأبحاث .

قال (أكرم) فى حدة ، ويده تبحث عبثًا عن مسدسه :

ـ لن يعنينى أو يوقفنى أى منصب فى الدنيا ..

كان الموقف يوشك على التطوّر ، خلافًا لما ينشده (نور) ، لذا فقد قال فى صرامة شديدة :

ـ اصمت يا (أكرم) .

احتقن وجه (أكرم) ، وكأنما يهم بالانفجار فى وجه (نور) ، إلا أنه استطاع بصعوبة كتمان مشاعره ، وغمغم مبتعدًا :

ـ سأتركك لكما المكان كله .

ابتسم (نـور) متعاطفًا ، وهو يتابعه يبتعد ، ثم التفت إلى الدكتور (راشد) ، يسأله :

ـ ماذا تريدون من (محمود) بالضبط ؟!

أجابه الرجل ، محاولاً كتمان عصبيته :

ـ إنها أوَّل حالة من نوعها ، ومن الطبيعى أن نقوم بدراستها ، و ...

قاطعه (نور) بمنتهى الصرامة ، مكرِّرًا :

ـ ماذا تريدون من (محمود) ؟!

امتقع وجه الرجل ، وكأنما ألقى إليه (نور) سؤالاً عسيرًا ، ولاذ بالصمت بضع لحظات ، ثم قال فى بطء :

ـ يمكنك سؤال القائد الأعلى .

انعقد حاجبا (نـور) فـى صرامـة ، وتفرَّس ملامـح الدكتـور (راشد) بضع لحظات ، وكأنمـا يحـاول أن يستشف ما يدور فى ذهنه ، ثم قال فى صرامة :

ـ ماذا تغيَّر فى هذا الزمن ، يا دكتور (راشد) ؟!

التقط الرجل نفسًا عميقًا ، وأجاب :

ـ الكثير .

سـأله فى سرعـة :

ـ مثـل مــاذا ؟

طال صمت الدكتور (راشد) هذه المرة ، ولكنه لم يحاول أن يبعد عينيه عن عينى (نور) ، ثم لم يلبث أن أجاب فى بطء :

ـ كل الأجوبة تجدها هناك ..

ثم مال نحو (نور) ، وبدا صوته أشبه بالهمس ، وهو يضيف :

ـ عند القائد الأعلى .

قالها ، واستدار على عقبيه ، وانصرف دون أن يضيـف كلمـة أخرى ..

ولم يحاول (نور) منعه ..

أو حتى استيقافه ..

فقط اكتفى بمتابعته ، وهو يبتعد ..

ويبتعد ..

ويبتعد ..

أما (أكرم) ، فقد بدا شديد الحنق ، وهو يعود إلى (نور) ، قائلاً :

ـ لماذا يخفون عنا الأمور ؟!

سأله (نور) :

ـ هل كنت تنصت إلينا ؟!

غمغم (أكرم) :

ـ لم أستطع منع نفسى .

وعلى عكس ما توقَّع ، أجابه (نور) :

ـ أحسنت .

ألجمت الدهشة لسان (أكرم) ، فلاذ بالصمت التام ، وهو يحدِّق فى وجه (نور) ، الذى تحرَّك ، قائلاً فى حزم :

ـ لا بد وأن نلتقى بأفراد الفريق ... فورًا .

وكان هذا يعنى أن يجتمع الفريق مرة أخرى ..

فى عالم جديد ..

غريب ..

وغامض ..

للغاية ..

* * *

« لقد خرجوا إلى الحديقة .. »

قال (هيثم) العبارة فى اهتمام ، وهو يقف أمام القائد الأعلى ، الذى تحسَّس ذقنه بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ إنهم يبتعدون عن أجهزة المراقبة والتنصُّت .

وصمت لحظة أخرى ، ثم تمتم مستدرجًا :

ـ التى يعرفونها .

وافقه (هيثم) بإشارة من رأسه ، وقال :

ـ لن يمكنهم أن يتصوَّروا ، أن بعض أوراق الأشجار المحيطة بهم ، تراقبهم وتتابعهم طوال الوقت .

ابتسم القائد الأعلى ابتسامة باهتة ، ثم ضغط ذلك الزر على مكتبه ، فظهرت الشاشة الهولوجرامية ، المعلَّقة فى سماء حجرته ، وظهرت عليها صورة (نور) وفريقه ، وهم يسيرون فى حديقة مركز الأبحاث ، التى تحيط بها الأسوار العالية ، شديدة الارتفاع ، والتى تعلوها أجهزة صغيرة يجهلونها ، ولكنها متراصة بترتيب منتظم ..

وفى اهتمام قلق ، سأله (هيثم) :

ـ أليس من الخطر أن نسمح لهم بالتجوال ، فى حديقة المركز ؟!

هزَّ القائد الأعلى رأسه نفيًا ، وأجاب فى بطء :

ـ كلاَّ .

وصمت لحظة مفكرًا ، ثم استطرد :

ـ إننا نحتاج إلى إزالة كل ذرة شك من نفوسهم .

تساءل (هيثم) ، فى خفوت حذر :

ـ بهذه الوسيلة .

أشار القائد الأعلى بيده ، وهو يسأله :

ـ وما عيبها ؟!

قال (هيثم) ، بمنطق أمنى بحت :

ـ يمكنهم رؤية المكان كله من هناك .

ابتسم القائد الأعلى ابتسامة باهتة ، وقال :

ـ لن يقلقنى أن يروا كل ما داخل الأسوار .

ثم مال نحو (هيثم) تمامًا ..

المهم ألا يروا ما خارج الأسوار ..

ما خلفها ..

فهذا قد يقلب الموقف كله ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

لم يكن أفراد الفريق قد استوعبوا موقفهم الجديد بعد ، عندما فاجأهم (نور) بهذا التطورّ المقلق ..

وبكل القلق والتوتر ، قال (رمزى) :

ـ ولكن ما الذى يمكننا أن نفعله يا (نور) ؟ إننا خارج نطاق علومنا بثلاثين عامًا على الأقل ، ونظرًا لسرعة دوران عجلة التطورّ فى هذا العصر ، فعلومنا ستبدو أشبه بعلوم الإنسان البدائى ، نسبة إلى علومهم .

أضافت (نشوى) :

ـ ثم إننا فى قبضتهم .

قال (نور) فى حزم :

ـ لقد واجهنا ما هو أخطر .

ثم التقى حاجباه فى حزم ، مضيفًا :

ـ وهزمناه .

أشارت إليه (سلوى) ، قائلة :

ـ إننى أتفق معك .

ضرب (أكرم) فخذه براحته فى حنق ، وهو يقول :

ـ آه لو أستعيد مسدسى .

قال (نور) :

ـ حتى لو استعدته ، لست أظنك تجد له ذخيرة ، فى هذا الزمن .

مطَّ (أكرم) شفتيه فى حنق ، ثم قال فى اهتمام مفاجئ :

ـ هل لاحظت أن رجال الحراسة هنا ، لا يحملون أية أسلحة يا (نور) .

أجابه (نور) :

ـ لا يحملون أية أسلحة نعرفها .

انعقد حاجبا (أكرم) فى ضيق ، وهمهم بكلمات غير مفهومة ، فى حين قالت (سلوى) :

ـ ولكن .. أليس من الضرورى أن نفهم علومهم أولاً يا (نور) ؟!

هزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ كلاَّ .. سيستغرق هذا وقتًا طويلاً ؛ فكما قال (رمزى) ، إنهم سيبدون أشبه بحضارة متقدِّمة ، تحاول حضارة سابقة فهمها .

ثم ابتسم ابتسامة غامضة ، مكملاً :

ـ ولكننا سنستخدم علمًا ، يصعب أن يتطوَّر بسرعة .

سألته (نشوى) فى دهشة :

ـ أى علم هذا ؟!

أشار بيده إلى (رمزى) ، مجيبًا :

ـ علم الإنسان .

وبدت عبارته غامضة للغاية ..

ولكنها مثيرة للانتباه ..

بشدة ..

* * *

راجع القائد الأعلى هذا الحوار عدة مرات ، وهو يدير المشهد على الشاشة الهولوجرامية عدة مرات متتالية ، ثم أوقفه عند نقطة بعينها ، وتراجع فى مقعده مفكرًا .. ترى ما الذى يعنيه بالضبط ؟!..

إنه لم يذكر شيئًا ..

فقط تطلَّع إلى (رمزى) فى صمت ..

فقط !!

وهذا ربما يعنى ...

قبل أن يستطرد فى تساؤله ، انبعث ذلك الصوت الأنثوى الهامس :

ـ الرائد (طارق) يطلب الإذن بالمقابلة .

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى توتر ، عندما سمع الاسم ..

الرائد (طارق) يطلب الإذن بمقابلته !..

فماذا يريد ؟!..

وفقًا لما يعرفه عنه ، فظهوره يمكن أن يؤدى إلى مزيد من التعقيد فى اللعبة ..

ومنعه من المقابلة ، قد يزيد تعقيدها أكثر ..

شعر بالحنق ، عند هذه النقطة ، خاصة وأنه يدرك جيدًا من هو (طارق) ، ومدى ما يدين به من ولاء لأسرته ، حتى ولو عادت بعد ثلاثين عامًا ..

ولكن الحكمة كانت تستلزم ألا يمنعه من الدخول .. أبدًا ..

وفى توتر ، قال :

ـ له الإذن بذلك .

تموّج الجدار ، واختفى تمامًا ، ليدلف الرائد (طارق) ، فى خطوات عسكرية ثابتة ، ويؤدى التحية فى قوة ، قائلاً :

ـ الرائد (طارق) فى خدمتك يا سيِّدى .

تجاهل النظر إليه ، وهو يسأله فى صرامة :

ـ ماذا تريد ؟!

صدم الأسلوب (طارق) ، فقال بأسلوب عسكرى بحت :

ـ لماذا تم إعفائى من متابعة فريق (نور) يا سيِّدى ؟!

أجابه بنفس الصرامة :

ـ ليس من حقك حتى أن تلقى السؤال .. المفترض أن تنفذ الأوامر دون مناقشة .

قال (طارق) فى إصرار :

ـ لن تجد هناك من يفهم شئونهم أفضل منى يا سيِّدى .

قال القائد الأعلى فى صرامة :

ـ ولن نجد من يتعاطف معهم ، ويغلّب مصلحتهم على المصلحة العامة مثلك .

اتسعت عينا (طارق) لحظة ، على نحو أشبه بالذعر ، ثم لم يلبث أن استعاد ثباته ، وهو يقول :

ـ كنت أتصوَّر أن مصلحتهم لا تتعارض مع المصلحة العامة .

هب القائد الأعلى من خلف مكتبه بحركة حادة ، قائلاً فى حدة :

ـ وماذا لو تعارضت ؟!..

ولم يجب (طارق) ..

إنه لم يتخيَّل مثل هذا الموقف أبدًا ..

أن تتعارض مصالح أسرته ، التـى تعتبر أقوى فريق أمنـى ، فى تاريخ (مصر) ، مع مصلحة (مصر) نفسها ..

ولكن ، إذا ما حدث هذا ، فهو يجهل إلـى أى فريق سينحاز بالضبط ؟!..

إلى أمـه ، ووالده وجديه ..

أم إلى (مصر) ؟!..

لا يمكنه أن يجزم أبدًا ..

مهما حاول ..

وبنفس الصرامة ، قال القائد الأعلى :

ـ تعلم أننى على حق .. أليس كذلك ؟!

أجاب فى حذر :

ـ لست أتصورّ أن ...

قاطعه القائد الأعلى ، بمنتهى الصرامة :

ـ ليس المهم ما تتصورّه .

ولم يعترض (طارق) ..

بل ، لم ينبس ببنت شفة ..

القواعد الأمنية ، التى تربى عليها ، كانت تحتم هذا .

لا مناقشة للأوامر ..

ولا أسئلة ..

أو اعتراضات ..

وفى أسف ، غمغم :

ـ كما تأمر يا سيِّدى .

قال القائد الأعلى فى صرامة :

ـ ستنضم ، اعتبارًا من اليوم ، إلى دوريات مكافحة التمرد فى المدينة ، ولمدة أسبوعين مبدئيًا .

شعر (طارق) بأنه يعاقبه على أسئلته ، فقال فى مرارة مكررًا :

ـ كما تأمر يا سيِّدى .

أشار القائد الأعلى بيده ، قائلاً :

نفذ الأمر حالاً ..

أدّى التحية العسكرية فى احترام ، واستدار على عقبيـه لينصرف ، وتموّج الجدار مرة ثانيـة بعد انصرافه ، ثم عاد يتجسّم ، فانتظر القائد الأعلى لحظات ، ثم لوّح بيده فى الهواء ، فظهرت فى موضع تلويحتـه شاشـة اتصـال هولوجراميـة صغيرة ، وظهر عليها وجـه

(هيثم) ، وهو يقول :

ـ فى خدمتك أيها القائد .

تراجع القائد الأعلى فى مقعده ، وهو يقول فى صرامة :

ـ كما توقعنا .. الرائد (طارق) بدأ يصبح مثار قلق شديد .

سأله (هيثم) فى حسم :

ـ وبِمَ تأمر ؟

صمت لحظة ، ثم أجابه :

ـ لقد ألحقته بالدورية المدنيَّة نفسها ، التى تقودها ، مما يعنى أنه سيخرج بصحبتك ، اعتبارًا من اليوم .

سأله (هيثم) :

ـ أهذا يكفى ؟!

هزَّ القائد الأعلى رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ المتمردون يشنون غارات عنيفة ، على الدوريات المدنية طوال الوقت ، ومن الطبيعى أن تتعرَّض دوريتكما لهجوم مباغت ، فى أية لحظة .

تساءل (هيثم) فى حماس :

ـ وعندئذ .

أشار إليه القائد الأعلى ، قائلاً :

ـ وعندئذ ، يأتى دورك .

ثم تراجع فى مقعده ، وأردف :

ـ وتتخلَّص منه .

وتألقت عيناه ، مع نهاية العبارة ..

وتألَّقت عينا (هيثم) ..

فهذا يعنى نهاية أحد أفراد أسرة (نور) ..

الفرد الوحيد ، الذى ينتمى فعليًا إلى ذلك الزمن .. إلى المستقبل .

* * *

3ـ المتمـــردون ..

فى بطء ، أشرقت الشمس على أطـلال (القـاهرة) الجديدة ، وراحت أشعتها الذهبية تنتشر ، وتضىء لمحـات من تلك الأطـلال القديمـة ، التى ـ وعلى الرغم ممـا تدعـو إليـه هيئتها من كآبة ـ بدت أكثر تألقًا ، فى ضوء النهار ..

ومن أماكن مختلفة من الأطلال ، ظهر رأس بشرى ..

ثم ثان ..

وثالث ..

وعشرات ..

ومئـــات ..

وألـوف ..

وكما كان يحدث ، منذ آلاف السنين ، بـدأت الحياة مـع مطلـع الشمس ..

وبسرعة مدهشة ، تحولّت الأطلال إلى شعلة نشاط ..

أسواق ..

ومـارة ..

وبيـع ..

وشراء ..

وحوارات ..

ومشاجرات ..

وهمسات ..

وحتى تآمرات ..

ووسط أحد الأسواق المزدحمة ، راح أحد الباعة ينـادى علـى بضاعته ، كما كان يحدث فى العصور القديمة ، حتى اقترب منـه رجل ضخم الجثة ، وتظاهر بتقليب بعض البضائع ، على الأسـلوب القديم ، قبل أن ينتهز فرصته ، ويهمس للبائع :

ـ الأخبار صحيحة .

رفـع البـائع عينيـه إليـه ، وهمس فـى لهجـة صارمـة آمـرة ، وكأنما اعتاد الزعامة :

ـ اتبعنى .

ثم هتف بأحد معاونيه :

ـ خذ مكانى .

وعاد يخاطب الضخم بصوت مرتفع ، سمعه الجميع :

ـ البضائع التى طلبتها وصلت ، ولست أدرى ، إذا كانت مطابقة للمواصفات أم لا .. انظر بنفسك .

قاده إلى الداخل ، حيث منزل جيد التأثيث ، إلى حد كبير ، بالنسبة إلى ذلك المشهد فى الخارج ، وما إن دخلاه ، حتى أغلق بابه خلفهما فى إحكام ، والتفت إلى الضخم ، متسائلاً :

ـ هل تأكَّدت شخصيًا أيها الدب ؟!

قال الدب بنفس الاهتمام :

ـ من المستحيل التأكُّد شخصيًا أيها الذئب ؛ فعبور الأسوار العالية أمر غير ممكن كما تعلم ، ولكن رجلنا هناك استخدم تلك الوسيلة السرية فى الاتصال ، وأرسل لى صورة لهم ، داخل الحديقة .

وأخرج من جيبه كرة ، وضعها على المائدة ، ولمس طرفًا منها ، فانبعثت من قمتها دفقة من الإشعاع ، رسمت صورة ثلاثية الأبعاد لأفراد الفريق ، وهم يتناقشون ، داخل تلك الحديقة الواسعة ، فتطلَّع إليها الذئب فى دهشة بالغة ، وراح يتابع الحركة بضع لحظات ، قبل أن يجلس على مقعد قريب ، ويقول :

ـ من كان يصدِّق أن يعودوا ؟!

تمتم الدب :

ـ ولكنهم عادوا .

غرق الذئب فى أفكاره بضع لحظات ، وقال :

ـ لو علم الشعب بهذا .

قال الدب فى حماس :

ـ يمكننا أن نصنع عشرات النسخ من هذا الفيلم ، و ...

قاطعه الذئب فى صرامة :

ـ كلاً ..

ثم نهض بحركة حادة ، وأضاف :

ـ تلك الأمور يسهل تزييفها الآن ، وهذا ما سيقولونه عندئذ ، خاصة وأنه من المستحيل ، بالنسبة للعامة ، أن يستوعبوا أمر عودة فريق أسطورى ، بعد أكثر من ثلاثة عقود من الزمن .. هذا يفوق قدرتهم على التفكير .

وصمت لحظة ، ثم أكمل فى توتر :

ـ ثم إن هذا سيكشف رجلنا حتمًا ، ونحن نحتاج إليه ، داخل تلك الأسوار ، حتى اللحظة الأخيرة .

وعاد إلى صمته وتفكيره ، قبل أن يستطرد :

ـ إننا نعتمد عليه تمامًا ، لتحقيق ما نصبو إليه .

وافقه الدب بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ هذا صحيح .

ثم استطرد فى حدة :

ـ ولكن كيف نستفيد منهم ؟!

وصمت لحظة ، ثم استدرك فى سرعة :

ـ هذا لو أنه بإمكاننا الاستفادة منهم .

غرق الذئب فى تفكيره طويلاً ، وراح يدير الأمر فى رأسه من كل الوجوه ، قبل أن يرفع عينيه إلى الدب ، قائلاً :

ـ قالوا : إنهم سيعيدون تشغيل محطات الطاقة ، فهل اتخذوا خطوات فى سبيل هذا ؟!

أجابه الدب فى أسف :

ـ إنهم يحاولون ، ولكن كلما بدءوا فى إصلاح بعضها ، راحت الميليشيات تهاجمها ، وتفسد ما أصلحوه .

مطَّ الذئب شفتيه ، وغمغم :

ـ للأسف .

راح يدور فى المكان ، وقد غرق فى تفكير عميق ..

الموقف متدهور بالفعل ...

تلك الحروب العنيفة ، التى دارت ، بعد الكارثة الكبرى ، أفسدت الكثير .. لقد ضعفت قدرات (مصر) كثيرًا بعدها ، مما شجَّع القوى الأخرى على مهاجمتها .. ومحاولة احتلالها ..

ولقد قاتل المصريون من أجل حريتهم ..

قاتلوا ..

وقاتلوا ..

وقاتلوا ..

عشرون عامًا من القتال ..

والحروب ..

والدمار ..

ثم انتصروا ..

انتصروا وفازوا بحريتهم ..

وخسروا كل شىء آخر ..

كل محطات الطاقة تم نسفها ..

كل الطرق ..

والجسور ..

والمنشآت ..

كانت حربًا طاحنة ، أعادت البشر أكثر من ألف عام إلى الوراء ..

وبعد أن كانت التكنولوجيا قد بلغت أوجها ، انحدر كل شىء دفعةً واحدة ..

قلة فقط ، أمكنها الحفاظ على ما بلغته التكنولوجيا ..

ولكن المصانع العامة ، والمعامل ، والمختبرات كلها دمرت ، ولم يعد من الممكن منح التكنولوجيا ، وإتاحتها للجميع ، كما كان يحدث من قبل ..

لذا ، فقد اقتصرت التكنولوجيا على الخاصة ..

فقط الخاصة ..

وبعدد محدود للغاية ..

أما العامة ، فى كل الدول ، فلم يحظوا بشىء ..

أى شىء ..

وهكذا ، انقسم العالم ، بعد آلاف السنين من الصراعات ، إلى قسمين كبيرين ، فى كل دولة .

خاصة ، يعيشون حياة نهايات القرن الحادى والعشرين ..

وعامة ، يغرقون فى الظلام ..

والبدائية .

والعنف ..

ميليشيات عديدة ، ظهرت فى كل دولة ، ومن كل التيارات ..

ميليشيات تتقاتل ..

وتتنافس ..

وتتصارع ..

وللأسف .. تدمِّر ..

فى البداية، كان لكل منها هدف ..

وطريق ..

واتجاه ..

ومبادئ ..

ثم ، ومع الوقت ، أصبح صراع قوة ..

قوة فحسب ..

أصبحت مجرَّد ميليشيات تتصارع ، من أجل أن تبلغ إحداها قمة السلطة ، وأن تنجح فى السيطرة على الآخرين ..

أو هزيمتهم ..

أو حتى محوهم من الوجود ..

ومع صراعهم ، ورغبة كل منهم فى الوصول إلى السلطة ، تدهورت الأوضاع أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

استعاد ذهن الذئب كل هذا ، وهو غارق فى تفكيره أمام الدب ، ثم لم يلبث أن انتزع نفسه من أفكاره ، وقال فى حزم :

ـ ولدىَّ خطة ..

واستمع إليه الدب ..

وبمنتهى الاهتمام ..

والقلق ..

* * *

ارتفع حاجبا القائد الأعلى فى دهشة ، عندما سمع ذلك الصوت الأنثوى الهامس الآلى ، وهو يعلن اسم الشخص ، الذى يطلب الإذن بالمقابلة ، وتساءل بصوت مرتبك ، ربما لأوَّل مرة فى حياته :

ـ من ؟!

كررَّ ذلك الصوت الهامس :

ـ الدكتور (رمزى) ، يطلب الإذن بالمقابلة .

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى شدة ، وهو يحاول دراسة واستيعاب هذا الموقف غير المتوقَّع ..

لماذا يطلب الدكتور (رمزى) مقابلته ؟!..

بل لماذا يطلب أحد الأعضاء غير المقاتلين ، بأى فريق علمى ، مقابلة القائد الأعلى للمخابرات العلمية شخصيًا ؟!

لماذا ؟!

الآن فهم سر تلك النظرة الصامتة ، بين (نور) و(رمزى) ..

الآن فقط ، فهم كيف يتعامل أفراد الفريق ..

لقد فهم كل منهم الآخر ، حتى لم تعد هناك بينهم حاجة للكلام ..

تكفيهم نظرة ..

نظرة واحدة ..

صغيرة ..

وسريعة ..

نظرة لا يفهمها من حولهم ..

ولكنهم يفهمونها ..

ويستوعبونها ..

وينفذون فحواها ..

فـورًا ..

تلك النظرة ، هى حتمًا التى قادت (رمزى) إليه ..

ولكن لمـاذا ؟!

هذا هو السؤال ..

ولكن إجابته ليس لها سوى سبيل واحد ..

أن يلتقى (رمزى) ..

فـورًا ..

« اسمحى له بالدخول .. بعد دقيقتين من الآن .. »

قالها ، ونهض من مقعده ، إلى نقطة بعينها ، توقَّف عندها لحظات ، فتبدلَّت ملامحه ، على نحو متموجّ هادئ ، لتصبح شبيهة بملامح (أيمن) ، إذا ما تقدَّم به السـن ، ثم عاد إلى ما خلف مكتبه ، المصنوع من مادة شبه شفافة ، وقال بلهجة حازمة :

ـ الآن .

لم يكد ينطقها ، حتى تموجّ الجدار كالمعتاد ، وظهر (رمزى) ، وهو يتقدَّم مرتبكًا ، ويشير بيده ، قائلاً :

ـ معذرة أيها القائد الأعلى ، ولكنها أوَّل مرة ألتقى فيها بمن هو فى رفعة منصبك ، و ...

قاطعه فى صرامة :

ـ طلباتك يا دكتور (رمزى) .

ظلَّ (رمزى) مرتبكًا لحظات ، قبل أن يقول فى خفوت :

ـ (محمـود) .

سمعها القائد الأعلى فى وضوح ، على الرغم من خفوتها ، ولكنه سأل :

ـ مـن ؟!

حاول (رمزى) أن يتماسك ، أو هكذا بدا ، وهو يقول :

ـ (محمود) .. زميلنا السابق (محمود) ... لقد أتيت بشأنه .

انعقد حاجبا القائد الأعلى ، وهو يسأله فى صرامة :

ـ ماذا عنه ؟!

راح (رمزى) يلوّح بذراعيه ، وهو يقول :

ـ الرفاق يودّون رؤيته والاطمئنان عليه ، ولا يصدقون حتـى أنـه قد عاد ، ويخشون أن تريدوا به ضررًا .

أجابه بنفس الصرامة :

ـ لسنا نريد به أى ضرر .

سأله فى قلق واضح :

ـ لماذا تحتفظون به ، وتخفونه عنا إذن ؟!

صمت القائد الأعلى طويـلاً ، عند هذا السؤال ، وتطلّع إلـى (رمزى) لحظات ، فى اهتمام شديد ، قبل أن ينهض من خلف مكتبه ، وهو يقول :

ـ من الواضح أنكم قد أسأتم الفهم .

واتجه نحوه ، ليضع يده على كتفه ، مستطردًا :

ـ الموجود لدينا ليس زميلكم الذى عرفتموه ، وإنما هو نسخة حيوية ، تحوى طاقة زميلكم ، ولقد صدم جمودها (نور) نفسه فى البداية ، لذا فنحن نسعى لفهم طبيعته الحالية ، وانعاش الذكريات التى اختزنتها طاقته ، وهذا يستدعى عمل فريق علمى كامل ، فى ظروف تعزله عن المؤثرات الخارجية تمامًا ، ووجودكم إلى جواره ، أو حتى رؤيتكم له ، يتعارض تمامًا مع ما يدور الآن ، ولهذا نمنعكم من الاتصال به ، بأية وسيلة من الوسائل .

تطلّع (رمزى) إلى عينيه مباشرة ، وهو يسأله :

ـ فقـط ؟!

أجابه بابتسامة مرسومة :

ـ فقـط ؟!

صمت (رمزى) لحظات أخرى ، قبل أن يخفض عينيه ، قائلاً :

ـ لا نرغب حتمًا ، فى فعل ما يتعارض وصالحه ، لذا ...

لم يكمل عبارتـه ، ولكنهـا بدت شديدة الوضوح ، حتـى إن القائد الأعلى ربّت عليه مرة أخرى ، مغمغمًا :

ـ قرار حكيم .

ابتسم (رمزى) ابتسامة باهتة ، وهمهم بكلمات غير مفهومة ، قبل أن ينصرف ، والقائد الأعلى يتابعه ، بنفس الابتسامة المرسومة ..

ولقد ظلّ (رمزى) صامتًا جامدًا ، وهو يجتاز كل نظم الأمن الرسمية ، حتى وصل إلى الحديقة ، حيث اجتمع الفريق ، وما أن انضم إليهم ، حتى نظر إلى (نور) مباشرة ، وقال فى هدوء :

ـ سلبى .

وفهم (نور) على الفور ..

وكذلك فهم الباقون ..

فمهمة (رمزى) كانت محدودة للغاية ..

وتناسب خبراته تمامًا ..

فلقد ذهب إلى القائد الأعلى ، ليحصل على جواب سؤال واحد ..

أهم صادقون ؟!..

ولأنه خبير نفسى ، لا يشق له غبار ، ولأن الطبيعة البشرية لا تتغيَّر أبدًا ، منذ عصر الإنسان البدائى ، وحتى نهاية الكون ، فقد أدرك الحقيقة على الفور ..

أدرك أن القائد الأعلى يكذب ..

ولسبب ما ..

سبب ما زال غامضًا ..

مقلقًا ..

ومخيفًا ..

ويحتاج إلى تحرُّك الفريق كله ، من أجل بلوغه ..

ولكن فى نفس اللحظة ، التى كان (رمزى) يوجِّه فيها كلمته ، إلى (نور) كان القائد الأعلى يغمغم ، وهو يمرِّر يده على جزء من سطح مكتبه ، وهو يغمغم :

ـ مشكلتهم أنهم يجهلون تمامًا ، كم تطوَّرت أجهزة كشف الكذب ، فى هذا العصر !..

قالها ، وهو يستعيد اللحظات ، التى فحص فيها (رمزى) ، بالعدسات اللاصقة الخاصة ، التى ألصقها على عينيه ، والتى قامت بعمل تحليل طيفى خاص ، لانفعالات هذا الأخير ، وهو يتحدَّث إليه ، والقرص الحسَّاس المنمنم ، الذى ألصقه براحته ، لينقل كل التغيرات الفسيولوجية ، التى طرأت عليه أثناء حديثه ..

وكل هذه الوسائل أثبتت أمرًا واحدًا ..

أن (رمزى) كان يكذب ..

وأن السؤال عن (محمود) ، لم يكن السبب الرئيس لزيارته ..

وهذا يعنى أن عودة فريق (نور) أصبحت أمرًا شديد الخطورة .

أمرًا ، يستلزم اتخاذ قرار حاسم ، بشأن (نور) وفريقه ..

قرار بإزاحتهم عن الطريق ..

إزاحتهم تمامًا ..

ونهائيًا ..

* * *

على الرغم من أن (طارق) قد التحق بالمخابرات العلمية ، فور تخرُّجه تقريبًا ، احترامًا لتاريخ جده الأسطورى ، إلا أنه لم يألف تلك الدوريات المدنية أبدًا ..

كان يشعر ، وهو يجوب طرقات المدينة المتهالكة ، مع فريق من رجاله ، أنه أشبه بجنود الاحتلال ، الذين يحاولون حماية وجودهم ، وليس مجرَّد رجل أمن يؤدى مهمته ، كما هو مفترض ..

لذا ، فقد ظلَّ صامتًا ، وهو يجلس إلى جوار (هيثم) ، فى سيارة الدورية المصفَّحة ، والمزوَّدة بعدد من أحدث الأسلحة الفتَّاكة ، فسأله هذا الأخير مبتسمًا :

ـ غاضب ؟!

أومأ برأسه ، ولكنه أجاب :

ـ إننى أنفذ الأوامر .

لوَّح (هيثم) بيده ، قائلاً :

ـ لست أظن وجودك فى الدورية سيستغرق طويلاً .. لقد اعتدت العمل ميدانيًا ، وسرعان ما سيعيدونك إلى الميدان .

غمغم (طارق) ، وهو يشيح بوجهه :

ـ إنهم يعتبرون هذا أيضًا ميدانًا .

أجابه (هيثم) فى سرعة :

ـ إنه كذلك .

انتبه إلى معنى ما قاله ، فاستدرك فى سرعة :

ـ من وجهة نظرهم بالطبع .

صمت (طارق) لحظات ، ثم سأله فى ضيق :

ـ هل تمضى الدوريات كلها على هذا النحو ؟!

قالها ، وهو يتابع سيارة الجنود ، التى تنطلق خلفهما ، عبر مرآة السيارة الجانبية ، فأجاب (هيثم) :

ـ كثيرًا ما يهاجمنا المتمردون ، ولكننا اعتدنا أن ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، وهو يوقف السيارة بحركة حادة ، فسأله (طارق)فى قلق :

ـ ماذا حدث ؟!

أشار (هيثم) إلى أطلال قريبة ، قائلاً :

ـ لقد لمحت أحدهم هناك .

التفت (طارق) إلى حيث أشار ، ولكنه لم يلمح أحدًا ، فعاد إليه ، متسائلاً فى حيرة :

ـ ماذا فى هذا ؟!.. المفترض أن المدينة مأهولة بالسكان .

سحب (هيثم) مسدسه الترودَى ، وهو نوع شديد التطوّر من مسدسات الليزر القديمة ، وهو يثب خارج السيارة :

ـ ولكن وجهه يبدو مألوفًا .. لا ريب فى أنه أحد زعمائهم .

تساءل (طارق) ، وهو يلحق به ، دون أن يسحب مسدسه :

ـ زعماء المتمردين ؟!

أجابه (هيثم) فى حزم :

ـ بكل تأكيد .

شعر (طارق) بشىء من الضيق ، مع اضطراره لمطاردة أحد زعماء المتمردين ، الذين يؤمن بأن الضغط الحكومى غير المبرَّر ، هو الذى دفعهم إلى هذا ، ولكنه كتم شعوره هذا فى أعماقه ، وتبع (هيثم) إلى الأطلال ، وهذا الأخير يشير إلى الجنود ، فى السيارة خلفهما ، هاتفًا :

ـ حاصروا المكان .

غمغم (طارق) ، وهما يدلفان معًا ، إلى ذلك المبنى المتهدِّم وسط الأطلال :

ـ هل سنطارده وحدنا ؟!

قلب (هيثم) شفتيه ، وقال :

ـ وهل يحتاج زعيم المتمردين ، لأكثر من ضابطين ؟!..

لم يحاول (طارق) التعليق ، ولكنه أضاء مصباحه اليدوى ذاتى الطاقة ، وتبع (هيثم) فى حذر :

كان المكان شديد الإظلام فى الداخل ، فراحا يسيران فى حذر عبر ممراته ، على الرغم من ضوء مصباحيهما ، حتى بلغا حجرتين متجاورتين ، فأشار (هيثم) إلى الأخرى ..

وفى حذر شديد ، دلف (طارق) إلى الحجرة ، وهو يصوِّب ضوء مصباحه اليدوى داخلها و ...

وفجأة ، وقع ضوء المصباح على رجل نحيل ، يلتصق بالجدار ، عند ركن الحجرة ، ويرتجف فى شدة ..

شىء ما فى مظهره ، جعل (طارق) يشعر بالشفقة تجاهه ، فسأله فى شىء من الهدوء ، وبصوت حاول أن يجعله مطمئنًا :

ـ ماذا تفعل هنا ؟!

بدا الرجل شديد التوتر ، وهو يغمغم بصوت مرتجف :

ـ أطيع الأوامر .

بدا له الجواب عجيبًا ، فسأل ، فى حذر أكثر :

ـ أوامر من ؟!

أشار إلى نقطة ما خلفه ، مجيبًا فى رعب :

ـ الرائد (هيثم) .

لم يكد ينطقها ، حتى انطلقت نبضات الليزر القاتلة فجأة ، عبر فراغ الحجرة ، لتنسف رأس المسكين ، فى مشهد بشع رهيب ، ولتتناثر دماؤه الساخنة على وجه وملابس (طارق) ، الذى استدار فى سرعة ، وانتفض جسده كله بمنتهى منتهى العنف ..

لقد كان (هيثم) يصوِّب مسدسه إلى جبهته مباشرة ..

ويضغط الزناد .

* * *

4ـ أصل اللغة ..

على الرغم من وجودهم داخل الحديقة الواسعة ، ومن ضوء الشمس الذى يغمرهم ، تحت سماء صافية ، لم يشعر (نور) أو فريقه بأى ارتياح ، و(سلوى) تقول :

ـ لست أدرى لماذا أشعر أنهم يراقبوننا !

قال (نور) ، فى هدوء عجيب :

ـ أنا واثق أنهم يفعلون .

تلفَّت (أكرم) حوله ، فى توتر شديد ، وهو يقول :

ـ وكيف هذا ؟!.. نحن وسط الحديقة ، والأشجار تحيط بنا من كل صوب .

قالت (نشوى) ، وهى تمنع نفسها فى صعوبة من أن تتلفَّت مثله :

ـ لا ريب فى أن كل شىء قد شهد ثورة هائلة ، خلال ثلاثين عامًا من التطوّر .

وافقها (رمزى) بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ ثلاثة أعوام كانت تكفى ، مع عجلة التطوّر الرهيبة ، حتى نجهل تمامًا ما يحدث حولنا .

قالت (نشوى) :

ـ بالتأكيد .. إننى خبيرة كمبيوتر ، وما زالت عاجزة عن فهم تلك الأقراص الصغيرة ، التى تنبعث منهـا أجهـزة الكمبيوتـر الهولوجرامية بعد .

غمغم (نور) بنفس الهدوء :

ـ ستفهمينها بسرعة بإذن الله .

حدَّق فيه (أكرم) لحظة فى دهشة ، ثم قال فى حدة :

ـ (نور) ... ما سر هدوءك المستفز هـذا ، علـى الرغم من ثقتك فى أنهم يراقبوننا طوال الوقت .

نظر إليه (نور) فى هدوء ، دون أن يجيب تساؤله ، ثم قال للجميع :

ـ هل تذكرون تلـك اللغـة ، التـى ابتكرناهـا فـى مقـر الفريـق ، ولا يعرفها سوانا ، وتصورْنا أنه سيأتى يوم ، نحتـاج فيـه إليهـا حتمًا .

تألَّقت عيونهم فى فهم ، وقال (رمزى) فى حماس :

ـ لقد أتى هذا اليوم .

أشار (نور) بيده ، وهو يبتسم ابتسامة غامضـة ، ثم قال شيئًا لرفاقه ..

شىء لا يشبه أية لغة معروفة ..

لغة ليست ضمن اللغات الحية ..

أو حتى الميتة ..

بل ولا تشبه حتى لغة (أرغوران)(*) ..

ولكن كل رفاقه فهموه ..

وتحدثوا إليه باللغة نفسها ..

وأمـام تكنولوجيـا المراقبـة والتنصُّت شـديدة التطوّر ، راحـوا يناقشون ما حولهم ، ويضعون خطتهم ، وكل هذا بلغتهم ..

لغتهم الخاصة ..

جدًا ..

* * *

فى رد فعـل سريـع ، وهبتـه إيـاه جيناتـه الوراثيـة ، استوعب عقل (طارق) الموقف كله ، فى جزء من الثانية ، ومال برأسـه جانبًا ، فى الجزء الثانى منها ..

(*) راجع قصة (جحيم أرغوران) ... المغامرة رقم (59) .

وضغط (هيثم) زناد مسدسه الترددى ..

وانطلقت النبضات القاتلة ..

ولكنها تجاوزت رأس (طارق) ، بأقل من سنتيمتر واحد ..

وأصابت النبضات الجدار ، ونسفت جزءًا منه فى عنف ..

وعلى الرغم من الارتجاج الرهيب ، الذى أصاب أذنه من مجرَّد مرور النبضات إلى جواره ، وثب (طارق) نحو زميله (هيثم) ، قبل أن يطلق هذا الأخير طلقة أخرى قاتلة ..

وسقط كلاهما أرضًا ..

وبعضلاته المفتولة ، أمسك (هيثم) (طارق) ، قائلاً فى شراسة ، لم يفصح عنها من قبل قط :

ـ كنت طيلة عمرك تنفر من بناء العضلات .

وانتزع (طارق) من فوقه فى قوة ، وألقى به نحو الجدار ، مستطردًا :

ـ وتُفضّل بناء العقل .

ارتطم (طارق) بالجدار فى عنف ، وسقط أرضًا ، و(هيثم) ينهض بقامته المديدة ، مكملاً :

ـ فهل أفادك العقل اليوم ؟!

درس عقل (طارق) الموقف فى سرعة ..

درس موقعه ..

وموقع (هيثم) ..

وفارق القوة الواضح بينهما ..

وألقى نظرة سريعة على الجدران ..

ثم تحرّك فى سرعة ، فى نفس اللحظة ، التى رفع فيها (هيثم) مسدسه ، ليطلق عليه مرة ثانية ..

وقبل أن يضغط (هيثم) الزناد ، وثب (طارق) إلى الجدار المقابل ، وضربه بقدمه ، ثم دفع جسده إلى أعلى ، وحرّك ساقيه فى سرعة مدهشة ، جعلته يبدو كما لو أنه يسير على السقف ، وهو يدور حول نفسه ، فى رشاقة مدهشة ، ثم يركل (هيثم) بقدميه معًا ، فى صدره وأنفه ، بمنتهى القوة ، فى لحظة واحدة ..

وانطلقت نبضات مسدس (هيثم) مرة أخرى ..

وتفجَّر جزء آخر من الجدار ..

ودار (طارق) دورة أخرى ، وركل (هيثم) فى ظهره بكل قوته ، ثم أحاط عنقه بساقيه ، ولواهما فى قوة ، فدار معهما جسد (هيثم) مرغمًا ، حتى لا يتحطم عنقه ، وهو يهتف فى سخط هائل :

ـ أيها الـ ....

لم يستطع إتمام عبارته ، عندما ارتطم رأسه بالأرض فى عنف ، فتفجَّرت الدماء من جرح فى جبهته ، وامتزجت بالدماء التى تسيل من أنفه المكسور ، وحاول أن يكمل سبابه الساخط ، ولكنه تلقى لكمة شديدة العنف ، أسقطته فاقد الوعى ، فنهض (طارق) على قدميه ، ولهث وهو يقول :

ـ وهل أفادتك العضلات ؟!

استند إلى الجدار ، وراح يواصل لهاثه لحظات ، وهو يحاول استيعاب المنطق البشع ، الماثل أمامه ..

زميله حاول قتله ..

رتَّب ودبَّر للأمر ، وأتى به إلى هنا لقتله ..

السؤال هو لماذا ؟!..

لماذا يحاول زميل ، لم تكن له به قط أية علاقة قوية سلبية أو إيجابية ، القضاء عليه ، على هذا النحو ؟!..

الخطة بدت له واضحة للغاية ..

يدّعى أن إرهابيًا يختبئ فى الأطلال ..

ويتبعه معه ..

ثم يقتلهما معًا ..

وفى التقارير الرسمية ، سيعلن حتمًا أن أحد المتمردين قد قتله ، فقام هو بقتله ..

وأمام المحققين ، ستكون هناك جثتان ..

جثته ..

وجثة ذلك المسكين ، الذى كان يرتجف خوفًا ..

ولن يكون هناك شاهد آخر على الجريمة ..

وسيغلق الملف حتمًا ..

وينتهى أمره إلى الأبد ..

ولكن لماذا ؟!

لماذا ؟!..

لماذا ؟!..

لم يستطع عقله استيعاب الأمر أبدًا ، فعاد يتطلَّع إلى (هيثم) الفاقد الوعى ، وإلى جثة المسكين ، و ....

وفجأة سمع دوى انفجار فى الخارج ..

ثم ثان ..

وثالث ..

ثم أصوات قتال عنيف ، يدور أمام المبنى ، حيث الجنود ..

ومن منطلق واجبه ، اندفع إلى الخارج ، وهو يستل مسدسه ، حتى بلغ المدخل ، و ...

وتوقَّف دفعة واحدة ..

فأمامه مباشرة ، كان هناك جيش صغير من المتمردين ، نجح فى القضاء على الجنود ، ونسف سيارتهم وسيارة (هيثم) ..

ولقد صوَّب الجميع أسلحتهم إليه ..

مباشرة ..

وبكل التحفُّز ..

والشراسة والعزم ..

* * *

على نحو ملحوظ ، راح جسد الدكتور (راشد) يرتجف ، وهو يشاهد (نور) وفريقه ، على الشاشة الهولوجرامية الكبيرة ، فى حجرة القائد الأعلى ، الذى لاذ بالصمت التام ، وتراجع ، مشبكًا أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يراقب وجه الدكتور (راشد) ، بأكثر مما يراقب الشاشة ، حتى انتهى المشهد ، فغمغم الدكتور (راشد) فى توتر :

ـ لم أفهم شيئًا .

سأله القائد الأعلى فى بطء :

ـ أتعنى اللغة ؟!

أجابه بنفس التوتر :

ـ بل الموقف كله .

ثم التفت بجسده كله إلى القائد الأعلى ، متابعًا :

ـ لماذا نراقبهم ؟!

أجابه القائد الأعلى فى برود :

ـ إجراءات أمنية .

تساءل فى عصبية :

ـ ولكنهم فخر تاريخنا الأمنى ، و ...

قاطعه فى صرامة غاضبة :

ـ هذا لا يندرج تحت مقتضيات وظيفتك .

ارتبك رئيس مركز الأبحاث ، وهو يقول :

ـ معذرة .. لم أقصد أن ...

قاطعه القائد الأعلى ، وهو يتجاهل عبارته ، مكملاً :

ـ ثم إننى لم أستدعك لهذا السبب .

تضاعف ارتباك الرجل ، وهو يقول :

ـ أنا رهن إشارتك .

أشار إلى الشاشة ، قائلاً :

ـ تلك اللغة ، التى يتحدثون بها .

قال الرجل فى سرعة :

ـ ليست لغة معروفة .

رمقه بنظرة شديدة الصرامة ، جعلته يستدرك فى خفوتٍ :

ـ وسنحاول التوصُّل إلى مفرداتها .

أشار القائد الأعلى بيده ، قائلاً :

ـ استخدم أى عدد تريد ، من خبراء اللغات القديمة ، وخبيرين أو ثلاثة من خبراء الشفرة ، واستعن بأحدث كمبيوتر هنا ، وأحدث برنامج لفك الشفرة .. المهم أن أعرف ماذا يقولون .

ثم مال نحوه ، مضيفًا بمنتهى الصرامة :

ـ لا أريد أن يفوتنى حرف واحد .. هل تفهم ؟!

امتقع وجه الدكتور (راشد) ، وهو يجيب منكمشًا :

ـ أفهم .

ولكن الواقع أنه لم يفهم ..

لم يفهم قط ..

* * *

وفقًا لجيناته الوراثية ، كان أوّل رد فعل لـ (طارق) هو أن يقاتل ..

أن يسحب مسدسه الترددى ، ويتبادل القتال ، مع أولئك الذين يقفون أمامه .. ولكنه لسبب ما ، لم يفعل ..

بل إنه حتى لم يحاول ..

ومع الفوهات القاتلة ، المصوبة إليه ، والأصابع المتحفزة على الأزندة ، والنظرة الغاضبة المطلة من العيون ، توقع ضربة قاتلة فى أية لحظة ..

والعجيب أن سبَّابة واحدة لم تضغط زناد أى سلاح ..

وعلى الرغم من أنهم قد سحقوا كل جنود الدورية بلا رحمة ، ظلّوا جميعًا صامتين ساكنين ، يصوبون إليه أسلحتهم ، كمن يترقّب شيئًا ما ، أو كمن ينتظر أمرًا ما ..

وفى هدوء ، وعبر صفوف المتمردين ، سار رجل متوسّط القامة ، أشيب الفودين ، على الرغم مما توحى به ملامحه من صغر السن ، وتحرك حتى أصبح أمام الجميع ، فى مواجهة (طارق) مباشرة ، و ...

وابتسم ..

وانعقد حاجبا (طارق) فى دهشة ..

كان هذا آخر ما يتوقعه بالتأكيد ..

أن يبتسم عدوه ..

أو من يتصورُ أنه عدوه ..

وفى هدوء شديد ، قال :

ـ يا لها من مفاجأة !.. عندما رأيتك على شاشتى ، لم أصدقَ أن يقودك القدر إلينا ، فى أشد لحظات احتياجنا إليك .

خُيِّل لـ (طارق) أن الرجل يتحدث إلى شخص آخر ، فمال إلى الأمام ، متسائلاً فى حذر :

ـ أنا ؟!

اتسعت ابتسامة الرجل ، وهو يقول :

ـ (طارق رمزى) .. ابن الدكتور (رمزى) ، أسطورة التحليل النفسى ، وحفيد العملاق (نور الدين) ، رمز الكفاح والنجاح والمقاومة .. أليس كذلك ؟!

تمتم فى خفوت حذر ، وهو لا يدرى إذا ما كانت إجابته ستعود عليه بنتيجة سلبية أم إيجابية :

ـ بلى .

تنهَّد الرجل فى ارتياح ، ثم استدار إلى رجاله ، قائلاً :

ـ اخفضوا أسلحتكم .

خفض الجميع أسلحتهم دون مناقشة ، فقال (طارق) بنفس الحذر ، وقد أدهشته تلك الطاعة العمياء :

ـ ألا تخشى أن أرفع أنا سلاحى ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وقال فى ثقة :

ـ لن تفعل .

لم يدر (طارق) سر هذه الثقة !!

ولم يدر حتى من هذا ؟!..

من الواضح أنه أحد كبار زعماء المقاومة ولا شك ..

طاعتهم العمياء له تؤكد هذا ..

وتؤكد مدى اقتناعهم به ..

وثقتهم فيه ..

وفى توتر ، صنعته كل هذه التساؤلات ، قال (طارق) :

ـ ماذا تريد منى بالضبط ؟!

سأله الرجل ، بدلاً من أن يجيب سؤاله :

ـ أما زال زميلك فى الداخل ؟!

تحرك الرجال إثر سؤاله ، وكأنهم يهمون بتفتيش المكان ، فرفع (طارق) أحد ذراعيه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لقد لقى مصرعه ..

كان يحاول حماية (هيثم) ، الذى حاول اغتياله منذ قليل ..

طبيعته الآدمية ، وما ورثه عن جده (نور) ، دفعه إلى تأدية واجبه ، أيًا كانت الظروف أو الملابسات ..

وابتسم الرجل مرة أخرى ..

ابتسم ، على نحو يوحى بأنه قد فهم ..

وقبل ..

وبإشارة أخرى منه ، تراجع الرجال ، ولم يواصلوا طريقهم إلى المكان ، فى حين حافظ الرجل على ابتسامته ، وهو يقول :

ـ لا بأس .

ثم عقد كفيه خلف ظهره ، فبدا أشبه ما يكون بالزعيم ، وهو يستطرد :

ـ بعد أقل من نصف ساعة ، ستنقض خمس فرق أمنية على الأقل ، على هذه المنطقة ، التى التقطت أجهزتكم المتطوّرة ضوضاء القتال فيها حتمًا ، لذا ، فالأفضل أن نتجه إلى مكان آخر .

ردد (طارق) ، فى حذر متوتر :

ـ مكان آخر .

توقّفت خلف الصفوف سيارة قديمة ، أشار إليها الرجل ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ أنت تحمل سلاحًا ، وأنا لا ..

وفى حذر ، تردّد (طارق) لحظة ، ثم لم يلبث ذهنه أن استعاد مشهد (هيثم) ، وهو يحاول قتله ، فاتجه نحو السيارة ، وتبعه الرجل ، وركب الاثنان فى أريكتها الخلفية ، والرجل يلتفت إليه مبتسمًا ، وهو يقول :

ـ لم أعد أذكر اسمى الحقيقى ، الذى لم يخاطبنى به أحد ، منذ عقد من الزمان ، ولكن الرجال هنا يسموننى الذئب .

وانعقد حاجبا (طارق) فى شدة ، والسيارة تنطلق بهما مبتعدة ..

فبعد سنوات من الصراع ، ها هو ذا يلتقى زعيم كل المتمردين .. شخصيًا ..

* * *

مع اقتراب الليل ، اختفى كل أفراد الفريق فى حجراتهم ، فيما عدا (نور) و(أكرم) .. وفى الحديقة ، وعلى الرغم من الظلام ، الذى ينتشر فى سرعة ، راح الاثنان يتجولان ، و(أكرم) يكتم مشاعره الخاصة بما يحدث فى أعماقه ، ويقول لـ (نور) ، باللغة العربية العادية :

ـ هذا العصر لا يروق لى يا (نور) .

قال (نور) فى هدوء :

ـ حاول أن تعتاده ؛ لأننا أصبحنا بالفعل جزءًا منه ..

قال فى حدة :

ـ ولماذا لا نعود إلى زمننا ، كما حدث من قبل ؟!

أجابه فى حسم :

ـ لأننا لم نعد ننتمى إليه .

توقَّف (أكرم) بحركة حادة ، هاتفًا فى استنكار :

ـ لم نعد ننتمى إليه ؟!

التفت إليه (نور) ، الذى توقَّف بدوره ، وقال :

ـ نعم إلى يا (أكرم) .. عندما كنا نعبر الزمن ، ثم نعود إلى عالمنا ، كنا نعود إلى زمن ننتمى إليه بالفعل ، ولو كنا فى زمن يخالف زمننا الفعلى ، فستتفكك جزيئاتنا مع الوقت ، وسرعان ما نفقد توازننا الحيوى ، وتنهار أجسادنا فى النهاية .

غمغم (أكرم) فى توتر :

ـ إلى هذا الحد ؟!

أومأ (نور) برأسه مجيبًا :

ـ للأسف .

بدا تأثُّر واضح ، فى عينى (أكرم) ، وهو يعاود السير ، مغمغمًا فى مرارة :

ـ هذا يعنى أننا قد علقنا فى هذا الزمن ، إلى الأبد .

قال (نور) ، وهو يعاود السير إلى جواره :

ـ إنه زمننا الآن .

قاوم (أكرم) دمعة حزينة فى عينيه ، وهو يقول ، فى صوت مختنق :

ـ وماذا عن (مشيرة) ؟!.. ألن تكتب لى رؤيتها مرة ثانية أبدًا ؟!

عض (نور) شفته فى مرارة ، وهو يقول :

ـ المفترض أنها ترعى (طارق) و(محمود) الصغيرين ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، وهو يلتفت إلى (أكرم) ، ويمسك يده فى قوة ، قائلاً فى انفعال :

ـ ولِمَ لا ؟!

التفت إليه (أكرم) فى دهشة ، هاتفًا :

ـ ماذا أصابك ؟!

تابع (نور) بنفس الانفعال ، وكأنه لم يسمعه ..

ـ ما مر بنا زمن ، يزيد قليلاً عن ثلاثة عقود من الزمن ، وهذا يعنى أن الصغيرين صارا فى الثلاثينات من عمرهما فحسب ، ومن المحتمل جدًا أنهما مازالا على قيد الحياة ، وأننا نستطيع رؤيتهما مرة أخرى .

تألَّقت عينا (أكرم) ، وهو يهتف :

ـ وماذا عن (مشيرة) ؟!

قال (نور) فى حذر :

ـ ستكون قد تجاوزت الستينات ، و ...

قاطعه بمنتهى اللهفة :

ـ ولكن سيمكننى رؤيتها .. أليس كذلك ؟!

أجابه (نور) بنفس الحذر :

ـ لو أنها ما زالت على قيد الحياة .

أمسك (أكرم) كتفيه ، فى انفعال شديد ، وهو يهتف فى فرحة غامرة :

ـ إنها كذلك .. مازلت أشعر بنبض قلبها فى قلبى .. إنها كذلك يا (نور) .

تمتم (نور) :

ـ بإذن الله .

ترك (أكرم) كتفيه ، وراح يتحرك فى الحديقة ، فى انفعال عصبى ، وهو يهتف ، بصوت يقطر أملاً ولهفة :

ـ سأطلب رؤيتها .. سأفعل أى شىء فى الوجود ، لأظفر بنظرة واحدة إليها .

غمغم (نور) ، محاولاً تخفيف انفعاله :

ـ لن تكون كما اعتدت رؤيتها .

هزَّ رأسه فى قوة ، وهو يبتسم فى حنان ، قائلاً :

ـ أنت لا تعرف (مشيرة) .. إنها لا تتغيَّر أبدًا .

حاول (نور) أن يجذب انتباهه بعيدًا ، وهو يسأله :

ـ قل لى يا (أكرم) : ماذا تعتقد أنه يوجد ، خلف تلك الأسوار ؟!

أجابه فى سرعة :

- (مشيرة) ..

وبمنتهى الدهشة ، تطلَّع إليه (نور) ..

ولم يستطع فهمه هذه المرة ..

لم يستطع بحق ..

* * *

فى حجرتها ، جلست (نشوى) صامتة ، أمام ذلك القرص الكمبيوترى ، الذى شاع استخدامه فى المكان ..

لم يكن يشبه ، على أى نحو كان ، تلك الأجهزة ، التى عرفتها فى زمنها ..

كان مجرَّد قرص صغير ..

قرص أشبه بعملة معدنية كبيرة ..

ولقد وضعت ذلك القرص أمامها ، ومرَّرت سبَّابتها فوقه ، فانبعثت منه مجموعة من خيوط الليزر ، لترسم صورًا هولوجرامية فى الهواء ، لملفات الكمبيوتر الرئيسة ..

وفى نعومة ، كانت أصابعها تحرِّك أى ملف من مكانه ، أو تفتحه ، أو تنقل البيانات من ملف إلى آخر ، دون أن تشعر حتى بلمساتها ، التى تحرِّك صورة هولوجرامية فى الهواء ..

حاولت أن تدرس كيف يحدث هذا ..

كيف يشعر ذلك القرص بلمساتها ، ويحولها لصور هولوجرامية سابحة ؟!..

كيف يفهم أوامرها ؟!..

وكيف ينفذها ؟!..

كيف ؟!..

حاولت استرجاع كل معلوماتها ، عن الصور الهولوجرامية ، وتكنولوجيا المنمنمات ، وعلوم الكمبيوتر والاتصالات ..

حاولت استرجاع كل معلوماتها ..

حاولت ..

وحاولت ..

وحاولت ..

ولكن الأمر كان يفوق أقصى ما استوعبته ، فى حياتها كلها ، حتى إنها شعرت باليأس والإحباط ، وأدركت أنها حتمًا ستفقد مهاراتها السابقة كلها ، لو بقيت فى هذا العصر ..

استلقت على فراشها فى مرارة ، وهى تتأمل تلك الصور الهولوجرامية ، السابحة فى سماء حجرتها ، وعقلها ما زال يعمل ، كما لو أنه محرِّك جبار ، لسفينة فضاء قديمة من تسعينات القرن العشرين ..

كانت صور مدهشة ، شديدة الدقة والأناقة ، وثلاثية الأبعاد ، على نحو لم تبلغه تكنولوجيا عصرها ..

ولكنها تتبع حتمًا المبدأ نفسه ..

مبدأ انقسام خيوط أشعة الليزر ، و ...

فجأة ، تألَّقت عيناها على نحو عجيب ..

نعم .. هنا تكمن اللعبة كلها ..

المبادئ الأساسية ..

كل الأجهزة ، مهما تطوَّرت ، تتبع المبادئ والقواعد الأساسية نفسها ..

اعتدلت بحركة حادة ، عندما بلغ تفكيرها هذه النقطة ، وارتفعت أصابعها تفتح أحد تلك الملفات الهولوجرامية ..

الآن فقط ، تستطيع أن تبدأ دورها فى الخطة ..

خطة فريق (نور) لقهر المستقبل ..

مستقبل الأرض ..

ومستقبلهم .

* * *

5ـ أســــــوار ..

لم يستطع (طارق) كتمان دهشته العارمة ، عندما دخل إلى تلك القاعة ، أسفل بناية قديمة نصف متهدِّمة ..

لقد بدا له وكأنه قد انتقل ، مع عبوره بابها ، من الوضع المتردِّى فى الخارج ، إلى أحد الأقسام الجديدة فى إدارته ..

قسم يحوى معدات ومبتكرات ، لم تعد متاحة للعامة ، منذ أكثر من عشر سنوات ..

ثم إن القاعة كانت مضاءة ، بذلك السقف الأبيض ، الذى تم اختراعه ، بعد فترة الكارثة مباشرة ، والذى اعتمد على تركيبة كيميائية غير مستقرة ، تجعل مادته فى حالة تفاعل مستمر ، ينتج عنه ضوء قوى ، دون الحاجة إلى طاقة خارجية ..

ولكن معظم الأجهزة فى القاعة كانت تدور بالفعل ..

وهذا يعنى وجود مصدر دائم للطاقة ..

مصدر خارجى ..

ومستمر ..

وبكل دهشته ، سأل الذئب :

ـ كيف أنشأتم هذا المكان ؟!

ابتسم ، وهو يجيبه ، فى هدوء رصين :

ـ إنه هنا طوال الوقت .

لم يكن جوابًا شافيًا ، ولكنه يوحى بأن صاحبه لا ينوى كشف الأمور ..

على الأقل ، ليس فى هذه المرحلة ..

ولقد استطرد ، فور عبارته الأولى ، وهو يشير إلى جزء من الجدار :

ـ تفضّل .

اتجه (طارق) نحو هذا الجزء ، وهو يسأل :

ـ وماذا عن الطاقة ؟!.. من أين تحصلون عليها ؟!

مع آخر سؤاله ، برز مقعد هلامى من الجدار ، فاستقر فوقه ، وشعر به يتكيَّف على نحو هادئ أسفله ، ليتخذ أفضل وضع يناسب جسده ، ولكن هذا لم يثر به أدنى اهتمام ، وكأنما اعتاد هذا ، فى حين برز مقعد مماثل استقر عليه الذئب ، وهو يقول :

ـ من الواضح أن طبيعتك الأمنية تغلب على تفكيرك ..

أنت تلقى الأسئلة طوال الوقت .

قال (طارق) :

ـ ولا أحصل على الأجوبة .

هز الذئب كتفيه ، قائلا :

ـ ربما لأنها غير متاحة .

حاول (طارق) أن يلقى سؤالاً آخر ، ولكن الذئب مال نحوه ، قائلا :

ـ هل لاحظت أننى أكشف أمامك أدق أسرارنا ، دون تردُّد أو خوف ؟!

غمغم (طارق) فى حذر :

ـ وهذا يدهشنى .

تراجع الرجل ، وتغيرت طبيعة ابتسامته ، وهو يقول :

ـ وهل يقلقك ؟!

فهم (طارق) ما يعنيه الذئب ، فأجاب فى حذر أكثر :

ـ قليلاً .

تألَّقت عينا الذئب ، وتراجع فى مقعده الهلامى ، وهو يقول :

ـ يراودك خاطر أننا سنتخلَّص منك فى النهاية ؛ ولهذا لا نجد فارقًا ، أو ضررًا ، من إطلاعك على أخطر أسرارنا .

غمغم فى قلق :

ـ ربمـا .

أومأ الرجل برأسه متفهمًا ، وتألَّقت عيناه مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ خطأ .

بدا لحظة وكأنه سيكتفى بالقول ، إلا أنه لم يلبث أن استدرك :

ـ الواقع أنك أكبر رهان فى حياتى .

ردَّد (طارق) ، بكل الدهشة ، والحذر :

ـ رهـان ؟!

أشار الذئب بيده فى رصانة ، وقال :

ـ نعم .. لقد راهنت على أن ابن الدكتـور (رمزى) ، وحفيد القائد (نور) ، لن يخون من ائتمنوه أبدًا .

قال (طارق) فى توتّر :

ـ ولكننى رجل أمن .

هزَّ الذئب رأسه نفيًا ، وقال فى حزم :

ـ أنت خبير أشعة .

قال (طارق) فى حزم :

ـ ورجل أمن أيضًا .

عاد الذئب يميل نحوه ، قائلاً :

ـ لحساب من ؟!

أجابه بمنتهى الحذر ، وقد بدا له السؤال مخادعًا ، على نحو لم يستوعبه :

ـ حساب الدولة .

هزَّ الذئب رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يقول :

ـ خطأ .. أنت تعمل لحساب النظام .

تساءل (طارق) فى دهشة :

ـ وما الفارق ؟!

أشار الذئب بيده ، قائلاً :

ـ النظم تأتى وتذهب ، وتعلو وتهبط ، أما الدول ، فهى ثابتة ، راسخة ، لا تذهب ، إلا لو ذهب شعبها كله .

قال (طارق) فى حزم :

ـ الجميع يعمل لحساب الأنظمة ، وليس لحساب الدولة مباشرة .

قال الذئب فى صرامة :

ـ حتى ولو كانت نظمًا ديكتاتورية فاسدة .

قال (طارق) فى تحد :

ـ هذا أمر قد نختلف فيه .

ثم هبَّ من مقعده ، مستطردًا فى حدة :

ـ وعليك أن تخبرنى فورًا ، لماذا أحضرتنى إلى هنا ؟!

أجابه على الفور ؛ وكأنه كان ينتظر السؤال :

ـ لأن مكانك هنا .

ثم مال نحوه ، مجيبًا نظرة التساؤل الحذرة ، التى أطلَّت من عينيه :

ـ فى المقاومة .

واتسعت عينا (طارق) عن آخرهما ..

وتفجرَّت قنبلة فى رأسه ..

قنبلة مدوية ..

فى عنف ..

* * *

اعتدل القائد الأعلى فى اهتمام ، إثر سماعة صوت (هيثـم) ، عبر جهاز اتصال خاص ، وهو يقول :

ـ من عُقاب واحد إلى القيادة .. هل تسمعنى ؟!

ضغط القائد الأعلى زرًا إلى جواره ، ليرفع قوة الصوت ، وهو يقول :

ـ من القيادة إلى عُقاب واحد .. لماذا لا يأتى صوتك واضحًا ؟!.. هل أصيبت سيارة الدورية بتلف ما ؟!

أجابه فى عصبية :

ـ سيارتنا الدورية تم تدميرهما ، وكل الفريق لقى مصرعـه ، فى هجوم مباغت من المتمردين .

سأله القائد الأعلى فى لهفة :

ـ و(طارق) أيضًا ؟!

أجابه ، وعصبيته تتزايد :

ـ لقد فرّ .

هتف فى حنق :

ـ منهم ؟!

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يقول (هيثم) فى عصبية انفعالية :

ـ بل منى . ؟!

احتقن وجه القائد الأعلى فى غضب ، وهو يسأله :

ـ وكيف هذا أيها الأحمق ؟!

أجابه فى توتر بالغ ، محاولاً تبرئة نفسه :

ـ لقد بدأ المتمردون هجومهم ، فى اللحظة التى صوبت فيها مسدسى إليه ، و ...

قاطعه فى حدة :

ـ لا تحاول التبرير .

صمت (هيثم) لحظات ، ثم قال فى انكسار :

ـ أريد وسيلة للعودة .

قال القائد الأعلى فى غضب :

ـ أنت لا تستحق العودة .

صمت (هيثم) فى رعب ، متصورًا أن القائد سيتركه هناك ، وسط المتمردين والأطلال ، ولكن هذا الأخير أضاف فى غضب :

ـ سأرسل من يعيدك .

أنهى الاتصال فى حنق ، وعاد يطالع شاشته الهولوجرامية ، التى انقسمت إلى أربع شاشات ، نقلت إحداها صورة (نور) و(أكرم) ، وهما يسيران فى أحد ممرات المكان ، وفى الثانية صورة سلوى ، وهى تستمع إلى موسيقى هادئة ، وتقلّب مؤشرات مشغّل الموسيقى الصغير طوال الوقت ، وكأنها لا تستطيع الاستقرار على معزوفة بعينها ، والثالثة تنقل مشهد (رمزى) ، وهو يراجع بعض البيانات ، عبر شبكة المعلومات الفائقة ، على الكمبيوتر الهولوجرافى ، فى حين بدت (نشوى) ، على الشاشة الرابعة ، وهى تعمل على كمبيوتر مماثل فى حجرتها ، وكأنها تستعرض برامجه الحديثة ، نسبة إلى ما تركته خلفها ، منذ ما يزيد عن ثلاثين عامًا ..

وفى توتر ، غمغم القائد الأعلى :

ـ يبدون جميعًا أبرياء ، فى كل ما يفعلونه ، ولكنهم يخفون شيئًا ما حتمًا .

تراجع فى مقعده مفكرًا ، وهو يغمغم :

ـ إنهم ينفذون خطة ما حتمًا .. خطة لست أدرى ما هيتها .

غرق فى تفكيره طويلاً ، وعاد يطالع الشاشات ، محاولاً فهم ما يفعلونه ..

ولكنه ، وعلى الرغم من ذكائه الشديد ، لم ينجح فى هذا .

الخطة حتمًا شديدة التعقيد ..

وشديدة الذكاء ..

ولكن كيف تبادلوا تفاصيلها ؟!..

ما سر لغتهم ، التى يعجز فريق من الخبراء عن كشف مفرداتها ؟!..

كيف ابتكروها ؟!..

كيف ؟!..

لم يكد يبلغ هذا الحد من أفكاره ، حتى فاجأه ذلك الصوت الأنثوى الهامس ، قائلاً :

ـ الرائد (طارق) يطلب الإذن بالدخول .

كاد يقفز من مقعده ، من فرط المفاجأة وهو يهتف :

ـ من ؟!

كرَّر الصوت الهامس العبارة ، فاتسعت عينا القائد الأعلى ، وهو يغمغم :

ـ (طارق) ؟!.. هل عاد ؟!

تصوَّر كمبيوتر الأمن أنه لم يسمع الاسم جيدًا ، فكرَّر العبارة مرة ثالثة ، مما جعله يقول فى حدة :

ـ لقد سمعت .

ثم عقد حاجبيه ، وهو يحاول فهم هذا الموقف ..

كيف عاد ؟!..

هل نجح فى الفرار من المتمردين ؟!..

هل أدرك أن (هيثم) قد حاول قتله ؟!..

وهل سيبلغ الأمر رسميًا ؟!..

كعادته ، وجد أن الوسيلة الوحيدة ، لإجابة كل هذه الأسئلة ، هى أن يلتقى به ، فضغط زر تشغيل نظم الأمن والحماية الداخلية ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ سأستقبله .

مرَّت لحظة ، قبل أن يتموَّج الجدار ، ويدخل (طارق) ، فى حالة جيدة ، لا تشف عن خوضه أى قتال من أى نوع ، لذا فقد انعقد حاجبا القائد الأعلى ، وهو يقول فى صرامة :

ـ كيف تم تدمير الدورية كلها ، ولم تصب أنت بخدش واحد ؟!

ارتفع حاجبا (طارق) ، وهو يقول :

ـ كيف بلغتكم أخبار تدمير الدورية ؟!

كان السؤال مباغتًا ، لم يتوقعه القائد الأعلى ، الذى لم يشأ إخبار (طارق) أن (هيثم) قد أبلغه ، فقال فى صرامة ، أخفى بها توتره :

ـ لا نحتاج إلى من يبلغنا .

ثم نهض من خلف مكتبه ، وقال فى حدة :

ـ ثم إنك لم تجب سؤالى .

شد (طارق) قامته ، فى وقفة عسكرية صارمة ، وهو يقول :

ـ الواقع أننى وقعت أسيرًا للمتمردين يا سيِّدى .

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى دهشة ، وهو يقول :

ـ أسيرًا لهم ؟!

واتجه نحوه ، حتى كاد يلتصق به ، وهو يسأله فى صرامة شديدة :

ـ وكيف هربت منهم ؟!

أجاب (طارق) على الفور :

ـ لم أفعل .

حدَّق فيه القائد الأعلى فى توتر مندهش ، فأكمل :

ـ لقد أطلقوا سراحى .

هتف مستنكرًا :

ـ أطلقوا سراحك ؟!..

قال (طارق) ، فى لهجة عسكرية متماسكة :

ـ هذا ما حدث يا سيِّدى .

سأله فى حدة :

ـ يدمرون الدورية كلها ، ويقتلون جنودنا بلا رحمة ، ثم يطلقون سراحك فى بساطة ؟!.. أى منطق هذا ؟!

قال (طارق) بنفس اللهجة :

ـ لقد تركوا الرائد (هيثم) أيضًا .

انفرجت شفتا القائد الأعلى ليقول شيئًا ، إلا أنه لم يلبث أن أطبق شفتيه فى سرعة ، قبل أن يفر منه حرف واحد ..

إنه على حق ..

لقد تركوا (هيثم) أيضًا ..

قتلوا كل الجنود ، وتركوا الضابطين ..

وهذا أمر لم يحدث من قبل قط ..

أمر غير مفهوم ..

على الإطلاق ..

منذ بدأت حالة التمرُّد المسلح ، وهم يفتكون بكل دورية مدنية يظفرون بها ..

ولم يتروا قط أحدًا منها على قيد الحياة ..

وكل الوسائل التكنولوجية المتطوّرة ، فشلت فى منع هذا ..

ولكنهم فجأة ، ولأوّل مرة ، يتركون ضابطين على قيد الحياة ..

ويطلقون سراح أحدهما أيضًا ..

أو ربما الاثنين ..

وبكل توتره وتساؤلاته ، سأل (طارق) :

ـ لماذا أسروك إذن ؟!

أجابه على الفور :

ـ أرادونى أن أنقل رسالة إلى هنا .

سأله فى توتر شديد :

ـ أى رسالة ؟!

أجاب (طارق) فى سرعة :

ـ إنهم يعلمون .

ضاقت عينا القائد الأعلى ، وهو يتساءل فى حذر :

ـ يعلمون ؟!

قال (طارق) ، بنفس اللهجة العسكرية الهادئة :

ـ يعلمون أن فريق (نور) قد عاد .. حيًا .

انتفض جسد القائد الأعلى فى عنف ، عندما سمع العبارة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدِّق فى وجه (طارق) ، الذى ظلّ هادئًا متماسكًا ، خلال الدقيقة ، التى استغرقها ذلك الصمت الشديد ، الذى خيَّم على المكان ، قبل أن يقول القائد الأعلى ، فى صوت مبحوح :

ـ كيف عرفوا أمرًا كهذا ؟!

هزّ (طارق) رأسه نفيًا ، وهو يجيب فى هدوء :

ـ لست أدرى .

ولم يرق هدوءه هذا للقائد الأعلى ..

لم يرق له قط ..

وفى توتر بالغ ، ظلَّ يتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، محاولاً أن يستشف منهما شيئًا ..

وتفجَّر السؤال المخيف فى أعماقه ..

لقد حرص على إخفاء أمر عودة الفريق تمامًا ..

فكيف عرفوا ؟!..

كيف ؟!

لا يوجد سوى تفسير واحد ..

لديهم عميل هنا ..

عميل سرى ..

خائن ..

وبكل توتره وانفعاله ، قال للرائد (طارق) :

ـ اذهب إلى قسم التحقيقات .. سأطلب منهم استجوابك رسميًا .

أدَّى (طارق) التحية العسكرية ، ودار على عقبيه مغادرًا الحجرة ، وتموَّج الجدار خلفه مرة أخرى ، ثم عاد يتكوَّن ، ليصبح القائد الأعلى وحيدًا فى حجرته ، يطرح على نفسه ذلك السؤال المخيف ..

كيف عرفوا أمرًا شديد الخطورة كهذا ؟!..

كيف ؟!..

* * *

فى صمت ، وقف (أكرم) إلى جوار (نور) ، فى حديقة المكان ، وهذا الأخير يتطلَّع طويلاً إلى تلك الأسوار العالية ، حتى لم يطق (أكرم) صبرًا ، وقال ، بتلك اللغة الخاصة :

ـ هل سنبقى هنا طويلاً ؟!

لم يجب (نور) سؤاله ، وإنما سأله فى اهتمام :

ـ لماذا تظنهم أحاطوا المكان بأسوار ضخمة كهذه ؟!

أجابه (أكرم) فى دهشة ، وقد بدا له الجواب منطقيًا وبديهيًا تمامًا :

ـ للحماية !

قال (نور) مفكرًا :

ـ فى زمننا ، كنا نوفِّر حماية كاملة لمبنى المخابرات العلمية ، ومركز الأبحاث الملحق به ، والمفترض أن العلوم ووسائل الأمن تتطوَّر ، مع مرور الزمن ، فكيف بعد ثلاثين عامًا وأكثر ، يعود الأمن إلى نظم الحماية القديمة ، ويحيط الأماكن الهامة بأسوار عالية .

حطَّمت كلمـات (نـور) إحساسـه بمنطقيـة وبديهيـة الإجابـة ، فغمغم فى حيرة :

ـ لماذا أقاموها إذن ؟!

أشار (نور) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ هذا هو السؤال .

ثم صمت بضع لحظات ، ليضيف فى عمق :

ـ ربما للعزل .

ردَّد (أكرم) فى حذر :

ـ عزل ؟!

قال (نور) ، مواصلاً استخدام لغتهم الخاصة :

ـ نعم .. عزل من خارج المكان عمن بداخله ...

أو العكس .

قال (أكرم) فى دهشة :

ـ ولماذا ؟!

التفت إليه (نور) فى بطء ، مجيبًا :

ـ هذا ما نحاول معرفته .

انعقد حاجبا (أكرم) فى توتر شديد ، وهو يحـاول استيعاب كل ما يحيط به .. ما زال يبغض هذا الزمن ...

يبغض تطوّره ..

وغموضه ..

وأسواره ..

ولكـن أكثر مـا يبغضـه ، على كـل المستويات ، هو أنهم لـم يعطوه مسدسًا ..

دونه ، يشعر وكأنه عارٍ ..

ضـعيف ..

أسـير ..

و(مشيرة) ..

كم يشتاق إليها !

كم يتوق لرؤيتها ، ولو لحظة واحدة ..

لحظة يبثها فيها كل حبه ..

وعشقه ..

ولوعته ..

يا إلهى !.. كم يفتقدها !..

« و(مشيرة) يا (نور) !.. »

ألقى الكلمة باللغة العربية العادية ، فالتفت إليه (نور) ، وأجابه بالعربية أيضًا :

ـ سأطلب منهم البحث عنها ، وعن (محمود) و(طارق) الصغيرين أيضًا .

غمغم (أكرم) :

ـ لم يعودا صغيرين .

ابتسم (نور) فى حنان ، قائلاً :

ـ وكذلك (مشيرة) .

قال (أكرم) ، فى سرعة وحزم :

ـ لن يصنع هذا فارقًا .

ابتسم (نور) ، وهو يربِّت على كتفه ، قائلاً :

ـ يا لها من محظوظة !

التمعت دمعة فى عينى (أكرم) ، وهو يتمتم فى تأثر :

ـ لا يمكنك أن تتصوَّر كم أحتاج إليها يا (نور) !! لقد فقدنا

ثلاثة عقود من الزمن ، ولكنك هنا مع زوجتك ، وكذلك (رمزى) .. أما أنا ، فقد أصبحت وحيدًا دونها .

قال (نور) فى تردُّد :

ـ أنت ما زالت شابًا ، ويمكنك أن ...

قاطعه فى حدة :

ـ كلاً .

وعادت عيناه تلتمعان ، وهو يضيف ، فى لهجة أقرب إلى البكاء :

ـ إما هى أولا .

لم يتخيَّل (نور) قط أن يشعر بكل هذا التأثُّر ، فى محادثة مع (أكرم) ، الذى بدا شديد الرومانسية والحنان فى تلك اللحظة ، فعاد يربِّت عليه ، محاولاً إخراجه من تأثُّره ، وهو يغمغم :

ـ ألم أقل لك : إنها محظوظة ؟!

التفت إليه (أكرم) يسأله :

ـ أتظنها ما زالت على قيد الحياة يا (نور) ؟!

تردَّد (نور) فى الجواب لحظة ، ولم يكد يهم بإلقائه ، حتى وصل باقى أفراد الفريق ، وقال (رمزى) ، مستخدمًا لغتهم الخاصة :

ـ شبكة المعلومات الفائقة ، التى تم تطويرها فى هذا العصر ، عن شبكة الإنترنت القديمة ، تعمل بكفاءة يا (نور) .. لقد بحثت عن مراجع نفسية فى كل أنحاء العالم تقريبًا ، وتأكدت أن الشبكة متصلة ، مما يؤكِّد أن العالم كله ما زال حيًا ، ويواصل تطوّره .

التفت (نور) إلى (سلوى) فى صمت ، فقالت باللغة نفسها :

ـ النظم الصوتية فى هذا العصر ، تختلف تمامًا عن كل ما درسناه وعهدناه يا (نور) ، ولكننى اقتربت من فهمها ، وحصلت على بعض المعلومات الأساسية ، عبر الشبكة الفائقة ، وفى خلال يومين ، ومع جهد شاق ، أعتقد أننى سأستطيع التعامل ، مع تلك النظم الجديدة ..

بدا شىء من الارتياح على وجه (نور) ، وهو يستدير إلى (نشوى) ، التى لم تنطق حرفًا واحدًا ، وإنما أشارت بإبهامها ، مع ابتسامة ظافرة ، فأغلق (نور) عينيه بكل الارتياح ، وقال بلغتهم الخاصة :

ـ على بركة الله إذن .. (سلوى) تحكم البداية .

وكان هذا يعنى أن خطتهم السرية قد اقترب موعد تنفيذها ...

وأصبحت ساعة الصفر متوقِّفة على ما تتوصَّل إليه (سلوى) .. فقط ..

* * *

« لقد أخطأت .. »

قالها القائد الأعلى فى غضب ، وهو يواجه الرائد (هيثم) ، الذى حاول أن يشد قامته ، وهو يجيب متوترًا :

ـ لقد باغتنى ، و ...

قاطعه فى حدة :

ـ كان المفترض أن تباغته أنت .

خفض (هيثم) عينيه فى انكسار ، فلوَّح القائد الأعلى بذراعه فى وجهه بحنق ، ثم عاد إلى ما خلف مكتبه ، قائلاً فى حنق :

ـ المشكلة الرئيسة أنك حاولت قتله مباشرة ، وأنه قد أدرك هذا ، وقاتل فى شراسة ، وعلى الرغم من كل ما حدث ، فهو لم يشر إليه رسميًا قط ، فما الذى يعنيه هذا ؟!

تمتم (هيثم) فى حذر :

ـ ربما يخطِّط للثأر .

هزَّ القائد الأعلى رأسه نفيًا ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ملفه النفسى يشير إلى أنه ليس من هذا الطراز .

ثم ضاقت عيناه ، وهو يتابع ، وكأنه يحدِّث نفسه :

ـ هناك شىء ما لا نفهمه .. شىء يخفيه (طارق) ، لسبب ما !

قال (هيثم) ، فى حذر أكثر :

ـ يمكننا استجوابه ، بنظم كشف الكذب الحديثة ، و...

قاطعه فى حدة :

ـ هذا ما نفعله الآن .

وضاقت عيناه أكثر ، وهو يفكِّر فى عمق ، قبل أن يقول :

ـ ولكن لدينا سلاح أكثر خطورة ، لم ننتبه إليه من قبل ..

سأله فى اهتمام :

ـ وما هو ؟!

أجابه بلهجة عجيبة :

ـ (مشيرة) .

ولقد بدا الجواب للرائد (هيثم) غامضًا .. تمامًا .

* * *

6ـ مشــيرة ..

بذل (طارق) جهدًا حقيقيًا ، ليبدو هادئًا متماسكًا ، وهو يجلس فى منتصف حجرة الاستجواب ، وتلك الخيوط الرفيعة من الأشعة تجوب جسده كله طوال الوقت ؛ لتنقل أدق انفعالاته ، وأدنى تغيُّر فى معدلاته الحيوية ..

وعبر أجهزة صوتية خاصة ، انبعث صوت صارم ، يقول :

ـ تعانى من توتر شديد .

غمغم (طارق) :

ـ أظنه انفعالاً طبيعيًا .

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يعود الصوت الصارم ليقول :

ـ كيف أسرك المتمردون ؟!

أجاب (طارق) ، دون لحظة واحدة من التوتر :

ـ لقد حاصروا المكان .

سـأله :

ـ ولماذا لم يحاولوا أسر الرائد (هيثم) أيضًا ؟

قال فى حسم :

ـ كان فاقد الوعى ، وأقنعتهم بأنه قد لقى مصرعه .

بدا الصوت عدوانيًا ، وهو يسأل :

ـ وهل صدقوك ؟!

أجاب ، دون أن يطرف له جفن :

ـ لست أدرى لماذا ؟ ولكنهم فعلوا .

سأل فى اهتمام :

ـ وهل صحبوك إلى وكرهم ؟!

أجاب بنفس الثقة :

ـ أعتقد هذا ؟!

قال الصوت ، فى صرامة شديدة :

ـ تعتقد أم تعرف ؟!

أجاب فى هدوء عجيب :

ـ لقد صحبونى إلى مكان يخصهم ، ولست أدرى إذا ما كان وكرهم أم لا .

سأله :

ـ وهل تعرف مكانه ؟!

أجاب :

ـ كلاً .

مرَّت لحظة من الصمت ، كان الواضح أن فريق الاستجواب يراجع إجاباته خلالها ، قبل أن يقول الصوت مرة أخرى :

ـ فسرِّ هذا .

أجاب (طارق) ، وقد بدأ يتململ فى مجلسه :

ـ السيارة التى حملتنا إلى هناك قديمة الطراز ، ذات نوافذ داكنة ، فلم يمكننى معرفة أو تحديد مسارنا .

سأله :

ـ وماذا عن جهاز تحديد الموقع فى ساعتك ؟!

أجاب فى ضيق :

ـ توقَّف آنذاك عن العمل .

بدا الصوت شديد الصرامة والغضب ، وهو يسأل :

ـ وكيف ؟!

هزَّ (طارق) رأسه ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. ربما استخدموا جهاز شوشرة .

مرّت لحظات طويلة من الصمت ، قبل أن يسأله الصوت ، فى صرامة لا حدود لها :

ـ هل انتقل ولاؤك إلى المتمردين ؟!

ولم يجب (طارق) بسرعة هذه المرة ..

فقد كان هذا هو السؤال ، الذى ينتظره منذ البداية ..

السؤال الذى سيحسم موقفه ..

تمامًا ..

* * *

فى اجتماعهم التالى ، فى تلك الليلة ، ران على زعماء المقاومة صمت تام ، شملهم جميعًا بلا استثناء ، حتى صاروا وكأنهم جزء من باقى الجوامد ، فى وكرهم السرى الخاص .. كانوا يتطلّعون إلى بعضهم البعض ، فى توتر ملحوظ ، دون أن يجرؤ أحدهم على فتح باب الحوار ، حتى حطم الذئب جدار الصمت ذلك بصوته الرصين ، وهو يقول :

ـ هاتوا ما لديكم .

بدا وكأن قوله قد حرّرهم من صمتهم ، وأطلق ألسنتهم ، إذ راحوا كلهم يتحدثون فى آن واحد ، حتى هتف بهم :

ـ النظام أيها السادة .. النظام .

عادوا إلى صمتهم دفعة واحدة ، فيما عدا الليث ، الذى قال فى عصبية :

ـ معذرة أيها الذئب ، ولكننى أرى أن ما حدث خطأ فادح .

رفع الذئب عينيه إليه بنظرة متسائلة ، فتابع :

ـ لم يكن ينبغى أن نطلق سراح رجل الأمن ، بعد أن أطلعناه على أهم أسرارنا .

سأله الذئب ، دون أن يفقد هدوءه :

ـ مثل ماذا ؟!

هتف الفهد :

ـ مركز العمليات .

شاركه التمساح غضبه ، مضيفًا :

ـ وشخصيتك .

تراجع الذئب فى مقعده ، وقال :

ـ هناك احتمالان لا ثالث لهما .. فإما أن يحافظ حفيد القائد (نور) على سرنا ، أو يكشفه لقادته، وفى رأيى أنه من العسير أن يقدم شاب مثله على خيانتنا .

زمجر الدب ، قائلاً :

ـ لمجرَّد أنه حفيد (نور الدين) ؟!

قال الذئب فى صرامة :

ـ التحليل النفسى ، الذى أجريناه له ، يؤكِّد وجهة نظرى .

قال التمساح فى غضب :

ـ لم أثق يومًا فى تلك الهلاميات .

التفت إليه الذئب فى حركة حادة ، وأراد أن ينفجر فى وجهه ، ويخبره أن التحليل النفسى قد صار جزءًا من الأساسيات ، منذ بدأ (رمزى) عمله ، فى مخابرات الطمية ، ولكن الليث أضاف فى حنق :

ـ ربما يفعلها ، على الرغم منه .

استدار إليه الذئب ، فأضاف فى سرعة :

ـ أنت تعلم كم تطوَّرت وسائل الاستجواب !

أشار بسبَّابته ، قائلاً :

ـ اطمئن بهذا الشأن .

صاح الدب :

ـ وماذا لو كشف ما علمه ؟!

قال فى حزم :

ـ وما الذى علمه ؟!.. لقد رأى غرفة عملياتنا ، وأدرك أنها شديدة التطوّر ، وليس كما كانوا يتصوّرون ، وهذا يفيدنا بأكثر مما يضرنا ؛ لأنه سيجعلهم يعيدون حساباتهم ، ويتوقفون لدراسة الموقف ، على ضوء المعلومات الجديدة ، مما يمنحنا فترة نحتاج إليها بشدة ، لتنفيذ خطتنا .

قال الليث :

ـ وماذا عن شخصيتك ؟!

هزَّ كتفيه ، مجيبًا :

ـ ماذا عنها ؟.. لقد رأى وجها لشخص ، لم يكن شهيرًا على أية مستويات ، ويصعب العثور عليه ، وسط الملايين ، من سكان (القاهرة) الجديدة .. مجرَّد شخص .

ساد الصمت بضع لحظات أخرى ، قبل أن يغمغم الدب :

ـ ما زالت أعتقد أنه سيكشف أمرنا ، إما بإرادته ، أو مضطرًا .

صمت الذئب لحظة ، ثم واجههم ، قائلاً :

ـ من يدرى ؟!

نعم ..

من يدرى ؟!..

* * *

أطلَّت اللهفة واضحة ، من عينى (سلوى) ، وهى تتشبَّث بـ (نور) ، قائلة :

ـ إذن فهما على قيد الحياة يا (نور) .. ابنى وحفيدى على قيد الحياة .

تردَّد لحظة ، قبل أن يقول :

ـ أتعشَّم أنهما كذلك .

تراجعت فى ارتياع ، قائلة :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابها فى مرارة واضحة :

ـ الملايين قضوا نحبهم فى الكارثة ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم ، كم ألفًا لقوا مصرعهم بعدها ، وهناك احتمال أن ...

استوقفته ، وهى تشيح بوجهها ، غير راغبة فى سماع المزيد :

ـ كفى .

شعر بدموعها ، من قبل حتى أن يراها ، فأمسك كتفها ، وأدارها إليه فى رفق ، ثم احتواها بين ذراعيه فى حنان ، وهو يقول :

ـ سيكونان على قيد الحياة بإذن الله .

هتفت ، ودموعها تغرق صدره :

ـ كم أتمنى ذلك يا (نور) ! كم أتمناه !!

مسح شعرها بيده فى رفق ، وهمس فى أذنها فى حنان دافق :

ـ كلنا نتمناه .

اندفع (أكرم) نحوهما فى هذه اللحظة ، وارتبك عندما رآهما على هذا النحو ، وقال بكل ارتباكه :

ـ معذرة .. لم أقصد أن ...

تباعدا فى حرج ، وقال (نور) :

ـ لماذا تبدو متوترًا هكذا ؟!

مال (أكرم) نحوه ، وقال فى توتر شديد :

ـ لقد استدعانى إلى مكتبه .

بدت الحيرة على (سلوى) ، فى حين تساءل (نور) :

ـ من ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ القائد الأعلى .

ارتفع حاجبا (سلوى) بكل الدهشة ، وهى تهتف :

ـ شخصيًا .

أومأ برأسه إيجابًا فى انفعال ، فسأله (نور) فى قلق :

ـ ولماذا يستدعيك ؟!

أجاب فى توتر :

ـ لو أننى أعرف الجواب ، لما هرعت إليك يا (نور) .

انعقد حاجبا (نور) فى تفكير عميق ، فى حين تساءل (أكرم) ، بعصبيته المعهودة :

ـ هل أذهب ؟!

تطلَّع إليه (نور) فى صمت ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ ليس أمامك سوى هذا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان القائد الأعلى فى حجرته ، يبدو أكثر توترًا من (أكرم) وهو يقول للرائد (هيثم) :

ـ كل أجوبته صادقة .. لقد أنقذ حياتك ، على الرغم مما حاولت فعله به .. كل أجوبته صحيحة .

صمت (هيثم) مبهورًا ، وهو يحدِّق فيه ، غير مصدِّق لما سمعه ..

(طارق) أنقذ حياته !...

أنقذ حياة من حاول قتله ؟!..

أى شاب هذا ؟!..

كيف يفكِّر ؟!..

ما المنطق الذى يسير وفقه ؟!..

قطع القائد الأعلى تساؤلاته ، وهو يقول فى حدة :

ـ ألم تسمعنى ؟!

انتفض جسده ، قبل أن يعتدل فى سرعة ، متسائلاً :

ـ ماذا يا سيِّدى ؟!

صاح به فى غضب :

ـ سألتك : هل توجد وسيلة ، لخداع تكنولوجيا الاستجواب الحديثة ؟!

لم يكن لدى (هيثم) جواب مباشر ، فغمغم :

على نحو عام .. كل تكنولوجيا لها تكنولوجيا مضادة .

لوَّح القائد الأعلى بيده ، وكأنما يحنقه الجواب ، ثم قال فى حدة :

ـ تكنولوجيا مضادة ؟!.. لديهم ؟!

أجاب فى حذر :

ـ من يدرى ؟!

بدا التساؤل منطقيًا للغاية ، على الرغم من غضب القائد الأعلى ، فأشاح بوجهه ؛ ليخفى انفعاله الجارف ، وهو يفكر فيما قاله (هيثم) ..

نعم .. من يدرى ما الذى يمتلكه المتمردون بالضبط ؟!..

ربما لديهم بالفعل تكنولوجيا متطوِّرة ..

تكنولوجيا مضادة ..

صحيح أن مصارد الطاقة الرئيسة فى المدينة متوقِّفة ، ولكن هناك وسائل عديدة لتوليد الطاقة ، فى هذا العصر ..

وسائل لا تصلح لتغذية المدن ، أو الكيانات الكبيرة ، ولكنها تكفى حتمًا لتغذية مكان محدود ..

معمل ..

أو مختبر ..

أو مركز ..

مركز قيادة ..

للمتمردين ..

مركز يمكنهم فيه تخزين وسائل تكنولوجية ..

ووسائل مضادة ..

وهذا يجعل مواجهة المتمردين أمرًا أكثر صعوبة .. بكثير ..

« (أكرم) يطلب الإذن بالدخول .. »

أعلن ذلك الصوت الأنثوى الهادئ هذا ، فاعتدل القائد الأعلى بحركة حادة ، وقال بكل توتره ، مع قطع أفكاره :

ـ فليدخل ، عندما آمر بهذا .

ثم انتقل إلى تلك البقعة ، ليتحوَّل إلى هيئة (أيمن) الكهل ، قبل أن يقول :

ـ الآن .

غمغم (هيثم) فى قلق ، مع تموّج الجدار :

ـ هل أنصرِف ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ ابق .

شد (هيثم) قامته ، وهو يثبت فى مكانه ، فى وقفة عسكرية قوية ، فى حين دخل (أكرم) فى توتر ، وهو يقول :

ـ لن أعتاد تلك الأمور قط .

أشار إليه القائد الأعلى بالجلوس ، وهو يقول فى صرامة :

ـ سرعان ما تعتادها .

همّ (أكرم) بقول شىء ما ، وملامحه كلها شديدة التوتر ، ولكن القائد الأعلى استوقفه ، قائلاً :

ـ هل ترغب فى رؤية زوجتك ؟!

حدّق (أكرم) فى وجهه ، فى دهشة بالغة ، وغمغم بكل عصبية الدنيا :

ـ كيف عرفت ؟!

أجابه فى صرامة شديدة :

ـ هل ترغب فى رؤيتها أم لا ؟!

تمتم ، وعصبيته تتزايد :

ـ بكل تأكيد .

استدار القائد الأعلى إلى (هثيم) ، وأشار إليه ، قائلاً :

ـ أحضرها .

وانتفض جسد (أكرم) فى عنف ، مع الكلمة ..

أهى هنا ؟!..

هل زوجته (مشيرة) هنا ؟!..

هل عثروا عليها ؟!..

هل يمكنه رؤيتها بالفعل ؟!

هـل ؟!..

قبل أن تقتله تساؤلاته ، عاد (هيثم) ، وهو يمسك ذراعها ..

وانتفض جسد (أكرم) مرة أخرى ..

لم ينتفض بعنف ، وإنما بمنتهى منتهى العنف .

وفى صدره ، خفق قلبه ، كما لم يخفق فى حياته كلها من قبل ..

إنها هى ..

زوجته وحبيبته (مشيرة) ...

هى نفسها ، بشحمها ولحمها ، ولكنها صارت أكبر سنًا ..

أكبر بثلاثين عامًا أو أكثر ..

لم تكن ملامحها قد تغيرت كثيرًا ، ولكن التجاعيد انتشرت فى وجهها وعنقها ، وذبلت عيناها بعض الشىء ..

ولكن هاتين العينين اتسعتا عن آخرهما ، عندما وقع بصرهما عليه ، وهتفت ، وكل ذرة فى جسدها ترتجف :

ـ (أكرم) ؟!

ارتفع حاجباه ، وهو يقول بكل حب الدنيا :

ـ هو أنا يا حبيبتى .

اندفع نحوها ، فتشبَّث (هيثم) بذراعها أكثر ، ولكن القائد الأعلى أشار إليه ، فأفلتها على الفور ، لتقع بين ذراعى (أكرم) ، الذى تطلَّعت إليه فى ذهول ، مغمغمة :

ـ ولكنهم قالوا : إنك .. إنك ..

قال فى حب جارف :

ـ لقد عدت يا حبيبتى .. عدت من أجلك .

قالت ، وهى تملأ عينيها بملامحه ، والدهشة لم تفارقها بعد :

ـ ولكنك لم تتغير قط .. ما زالت كما أذكرك ، فى آخر مرة .

أمسك يدها ، وطبع عليها قبلة ، وهو يقول :

ـ سأشرح لك كل شىء فيما بعد .

خفضت وجهها ؛ لتخفى عنه ملامحها العجوز ، وهى تقول فى أسى :

ـ ولكن أنا ..

أوقفها بسبَّابته على شفتيها ، ورفع وجهها إليه ، وهو يقول :

ـ أنت أجمل أهل الأرض فى عينىَّ .

قالها ، ومال يطبع قبلة محبة على جبينها ، فى حنان دافق ، جعل الدموع تتفجَّر من عينيها ، وهى تدفن وجهها فى صدره ، هاتفة :

ـ يا إلهى !.. كم أشتاق إليك !

ضمَّها (أكرم) إليه ، بكل حب الدنيا ، و...

« هذا يكفى .. »

قالها القائد الأعلى ، فى صرامة شديدة ، فاندفع (هيثم) نحو (مشيرة) ، وجذبها من ذراعها فى قسوة ، جعلتها تطلق صيحة ألم ، فقبض (أكرم) على يده فى قسوة غاضبة ، وهو يهتف به :

ـ كيف تجرؤ ؟

وفى سرعة البرق ، هوى على فك (هيثم) بلكمة ، أودعها كل قوته وغضبه ..

وعلى الرغم من قوة (هيثم) البدنية ، التى تبدو ظاهريًا ضعف قوة (أكرم) ، إلا أن لكمة هذا الأخير انتزعته من مكانه ، وألقت بـه مترين إلى الخلف ، ليسقط فى عنف شديد ، ثم يهبّ واقفًا ، والغضب يكسو كل لمحة من وجهه ..

وفى حزم ، أزاح (أكرم) (مشيرة) ، لتحتمى خلفه ، وضمّ قبضتيه متحفزًا ، وهم (هيثم) بالانقضاض عليه ، ولكن القائد الأعلى أشار إليه بالتوقّف ، ثم أشار إلى (أكرم) بسبّابته فى حزم ، فانطلقت من نقطة خفية ، فى سقف الحجرة ، دفقة من أشعة أرجوانية ، أصابت (أكرم) مباشرة ، فانتفض جسده بمنتهى العنف ، وجحظت عيناه عن آخرهما ، وسقط أرضًا ، وجسده يواصل انتفاضاته ، فصرخت (مشيرة) ، وهى تندفع نحوه :

ـ (أكرم) .

صاح بها القائد الأعلى ، فى صرامة مخيفة :

ـ كلاً .

توقّفت فى هلع ، والتفتت إليه فى خوف ، فعاد يعقد كفيه خلف ظهره ، قائلاً بكل صرامة :

ـ سيستعيد وعيه خلال لحظات .

نقلت بصرها فى خوف ، بينه وبين زوجها ، ولكنه التفت إلى (هيثم) ، قائلاً :

ـ خذها .

سحبها (هيثم) ، على الرغم منها ، خارج الحجرة ، وهى تنظر إلى زوجها فى لوعة ، وعاد الجدار إلى موضعه بعد خروجهما ، فتطلّع القائد الأعلى إلى (أكرم) ، الذى خفتت انتفاضاته ، واسترخى جسده أرضًا ، والعرق يغمره فى غزارة ، ثم عاد يجلس خلف مكتبه فى هدوء ، حتى اعتدل (اكرم) فجأة ، وهو يهتف :

ـ (مشيرة) .

أجابه فى صرامة :

ـ لقد رحلت .

عاد يضم قبضته ، هاتفًا :

ـ رحلت ؟!

أجابه القائد الأعلى ، فى صرامة أكثر :

ـ نعم رحلت ، ولن تعود .

اشتعلت عينا (أكرم) غضبًا ، وهبّ واقفًا على قدميه ، وضم قبضتيه فى تحفز ، جعل القائد الأعلى يضيف فى هدوء :

ـ إلا إذا ..

توترت كل خلجة من خلجات (أكرم) ، وهو يقول :

ـ إلا إذا ماذا ؟!

ابتسم القائد الأعلى ابتسامة هادئة ، وهو يشير إليه بالاقتراب ، قائلاً :

ـ تفضل بالجلوس ؛ فالحديث بيننا سيطول .. كثيرًا .

وانعقد حاجبا (أكرم) فى شدة ..

وسرى فى جسده ألف ألف انفعال ..

على الأقل .

* * *

7ـ طـــارق ..

« سيتم إيقافك عن العمل مؤقتًا .. »

قالها رئيس (طارق) المباشر ، فانعقد حاجبا هذا الأخير فى ضيق ، وهو يقول :

ـ ولماذا ؟!.. أخبرونى أن الاستجواب الإلكترونى أثبت صحة أقوالى .

قال رئيسه فى صرامة :

ـ هناك بضع نقاط ، يحتاجون إلى التيقن منها ، وهذا يحتاج إلى بعض الوقت .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ وأنت تعرف القانون .

انعقد حاجبا (طارق) ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

ثم انتزع شارته الإلكترونية ، ومسدسه الترددى ، ووضعهما أمام رئيسه ، قائلاً :

ـ والمفترض أن أسلم شارتى ومسدسى .. أليس كذلك ؟!

أومأ رئيسه برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ ولكنك ستحتفظ بجهاز التتبُّع .

سأله فى حذر :

ـ ولماذا ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ يريدون معرفة موقعك طوال الوقت .

قال (طارق) :

ـ من منطلق الشك ؟!

أجابه :

ـ بل الحماية .

التقط نفسًا عميقًا محنقًا ، وقال :

ـ فليكن .. ماذا سأفعل ؟!.. أو ماذا يفترض أن أفعل ، أثناء فترة الإيقاف ؟!.. هل سأخرج إلى المدينة ؟!

بدا رئيسه صارمًا ، وهو يقول :

ـ لا أحد يخرج من هنا إلى المدينة .

غمغم (طارق) :

ـ بخلاف الدوريات المدنية .

قال فى خشونة :

ـ هذا واجبهم .

ثم أشار إليه ، مكملاً :

ـ القائد الأعلى أمر بنقلك إلى قسم أبحاث الأشعة ، بصفة مدنية مؤقتة ، حتى ينتهى فريق الاستجواب من حسم أمرك .

صمت (طارق) لحظات ، ثم غمغم :

ـ لا بأس .. أحتاج إلى استعادة بعض مهاراتى فى هذا المجال .

تابع رئيسه ، وكأنه لم يسمعه :

ـ وستستخدم الكمبيوتر فى نطاق بحثى محدود فحسب .. لن يكون هناك أى امتداد داخلى ، عبر شبكة المعلومات الفائقة .

قال (طارق) فى ضيق :

ـ وكيف يمكننى إجراء أبحاث جادة ومجدية ، فى غياب شبكة المعلومات الفائقة .

أجابه بمنتهى الصرامة :

ـ إنها الأوامر .

لم يكن أمامه سوى الطاعة ، فأومأ برأسه ، واستدار لينصرف ، فاستوقفه رئيسه ، فى غضب شديد :

ـ لم تؤد التحية أيها الرائد .

أجابه ، دون أن يلتفت إليه :

ـ الموقوفون عن العمل ، غير مضطرين لتأدية التحية .

انعقد حاجبا رئيسه ، إلا أنه لم يعترض ، فى حين سار (طارق) فى سرعة ، عبر تلك الممرات ، التى طالما لم يشعر بها ، وهو منشغل فى مهمة قادمة ، أو فى تقرير مهمة انقضت ، وغادر القسم الأمنى إلى قسم الأبحاث ، وهو شارد بأفكاره ، فى مجالات عديدة ، حتى سمع (رمزى) يقول :

ـ (طارق) .. كم يسعدنى أن وجدتك !

انتزعته عبارة (رمزى) من أفكاره ، فالتفت إليه ، قائلاً :

ـ مرحبًا يا دكتور (رمزى) .. ماذا تفعل هنا ؟!

أشار (رمزى) بيده ، مجيبًا :

ـ (نور) طلب حجرة لاجتماعات الفريق ، تمهيدًا لعودتنا إلى عملنا ، كفريق علمى ، وأنا فى طريقى للانضمام إليهم .

غمغم (طارق) :

ـ هل سينضم إليكم (محمود) أيضًا ؟!

أشار (رمزى) بيده ، قائلاً :

ـ إننا لا نعرف حتى أين هو .

قال (طارق) فى سرعة :

ـ أنا أعرف .

سأله (رمزى) فى لهفة :

ـ وهل يمكنك أن تبلغنا حقيقة موقفه ؟!

ابتسم (طارق) ابتسامة حزينة ، وقال :

ـ كان يمكننى هذا ، قبل ربع ساعة فحسب .

سأله (رمزى) :

ـ ماذا تغير ، خلال هذه الدقائق الخمس عشرة ؟!

أشار (طارق) بيده ، مجيبًا :

ـ أوقفونى عن العمل .

هتف (رمزى) مستنكرًا :

ـ ولمــاذا ؟!

هزَّ كتفيه ، مجيبًا فى مرارة :

ـ إجراءات قانونية .

وصمت لحظة ، ثم استدرك :

ـ كما يزعمون .

تطلَّع (رمزى) إليه ، فى اهتمام شديد ، فابتسم فى ارتباك ، قائلاً :

ـ أراهن أنك تحاول كشف أغوارى ، فما قرأت عنك ، فى كتب التاريخ ، يؤكِّد أنك كنت أبرع أهل الأرض ، فى الـ ...

قاطعه (رمزى) فى اهتمام :

ـ قرأت ؟!

ابتسم (طارق) فى حنان ، وقال :

ـ لا يمكنك أن تتصورَّ كم أشعر بالفخر ، كلما قرأت ما يتعلَّق بـك !! إنهم يعتبرونك أسطورة فى التحليل النفسى ، و ...

قاطعه (رمزى) ، وهو يميل نحوه ، قائلاً بلغة الفريق الخاصة :

ـ ألا تذكر عملك معنا فى زمننا ؟!

نظر إليه (طارق) فى دهشة ، مغمغمًا :

ـ أية لغة تلك ؟!

اعتدل (رمزى) ، وابتسم فى هدوء ، قائلاً :

ـ هل تعرف يا (طارق) ؟!.. لعبة الزمن هذه بالغة الغرابـة ، ومهما تصوَّرت قدرتك على فهمها ، بعد عبورك الزمن عدة مرات ، فهى مصرَّة دومًا على مفاجأتك وإبهارك ، مهما حاولت !!

قال (طارق) فى حذر :

ـ من الواضح أن هذه ليست إجابة سؤالى .

قال (رمزى) بلهجة غامضة :

بل هى إجابة .. إجابة مباشرة للغاية .

وانعقد حاجبا (طارق) فى شدة ..

فقد بدت عبارة (رمزى) غامضة .. للغـاية ..

* * *

توتر غامر ذلك الذى شمل كيـان (أكرم) كلـه ، وهو يقول للقائد الأعلى فى عصبية شديدة :

ـ هل تطلب منى خيانة فريقى ؟!

أجابه القائد الأعلى فى صرامة :

ـ بل أطلب منك أن تنتمى إلى وطنك ، أكثر مما تنتمى لفريقك .

قال فى صرامة غاضبة :

ـ فريقى هو وطنى .

قال فى صرامة شديدة :

ـ وفريقك يعمل من أجل وطنه .

أشاح (أكرم) بوجهه ، قائلاً :

ـ هذا يحتم ألا أخونه .

قال القائد الأعلى ، وهو يعود خلف مكتبه :

ـ حتى لو كان فريقك يسعى لخيانة وطنه .

استدار إليه (أكرم) بحركة حادة ، وهو يقول فى حدة :

ـ خيانة الوطن أم خيانة النظام .

عقد القائد الأعلى شفتيه ، وهو يقول :

ـ بالنسبة لى لا فارق .

شد (أكرم) قامته ، قائلاً :

ـ بل هناك فارق ضخم ، وهذا أوّل ما تعلمته من (نور) ؛ فالوطن ثابت ، والنظم متغيرة ، وهناك فارق كبير ، بين التضحية من أجل وطن ، نشأنا فى كنفه ، وشربنا من نيله ، وتنفسنا هواءه ، ونبت طعامنا فى ترابه ، وبين التضحية من أجل نظام ، قد يكون فاسدًا ، أو سلطويًا ، يمكن أن تؤدى تجاوزاته إلى تحطيم الوطن .

ضرب القائد الأعلى سطح مكتبه بقبضته ، هاتفًا :

ـ فلسفة سخيفة ، لا ينبغى أن يؤمن بها أى رجل أمن ، المفترض فيه أن يطيع الأوامر دون مناقشة .

شد (أكرم) قامته أكثر ، وهو يقول فى صرامة :

ـ إذن ، فأنا لا أصلح رجل أمن ؛ لأننى لا أستطيع طاعة الأوامر دون مناقشة ، وخاصة لو كانت تطالبنى بخيانة فريقى .

بدا القائد الأعلى شديد الصرامة ، وهو يقول :

ـ إذن فأنت ترفض .

قال (أكرم) فى حزم شديد :

ـ وبشدة .

صمت القائد الأعلى لحظات ، وهو يتطلّع إليه فى صمت ، ثم لم يلبث أن قال فى صرامة :

ـ هل تعلم أننى أستطيع إجباركم ، على البوح بسر لغتكم السخيفة هذه ؟!

هزَّ (أكرم) كتفيه ، قائلاً :

ـ يمكنك أن تحاول .

أحنقت العبارة القائد الأعلى ، فضم شفتيه ، وهو يتطلَّع إلى (أكرم) فى غل شديد ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ نعم .. يمكننى أن أحاول .

ثم مرَّر يده على جزء من سطح مكتبه ، فانبعثت منه صورة هولوجرامية مجسمة ، لرأس الرائد (هيثم) فغمغم (أكرم) فى عصبية :

ـ لن يمكننى اعتياد هذا أبدًا .

رمقه القائد الأعلى بنظرة نارية ، ثم قال للرائد (هيثم) فى صرامة :

ـ أما زلت تحتفظ بالسيدة (مشيرة) ؟!

أجابه (هيثم) :

ـ فى انتظار أوامرك .

تراجع القائد الأعلى فى مقعده ، وتطلَّع فى شماتة إلى (أكرم) ، الذى بدا عليه مزيج من التوتر والقلق ، وقال :

ـ أوامرى أن تحتفظ بها لست ساعات أخرى ، وبعدها إن لم أبلغك بإطلاق سراحها .

صمت لحظة ، ثم أضاف فى قسوة :

ـ انسف رأسها .

احتقن وجه (أكرم) ، وهو يقول فى غضب :

ـ يا للحقارة .

أشار إليه القائد الأعلى ، فانطلق من السقف ذلك الشعاع الأرجوانى ، ليصعقه مرة أخرى ، ويلقيه أرضًا ، وجسده ينتفض فى قوة وألم ، فى حين بدا القائد الأعلى هادئًا ، وكأن شيئًا لم يحدث ، وهو يكمل للرائد (هيثم) :

ـ وانسف رأسها أيضًا ، لو أبلغتك فى أية لحظة ، أن زوجها يخوننا .

وتراجع فى مقعده ، وهو ينهى الاتصال مع (هيثم) ، ثم يلتفت إلى (أكرم) ، الذى يواصل جسده انتفاضاته ، قائلاً :

ـ أترى .. هأنذا قد حاولت .

وابتسم فى ظفر ..

وشماتة ..

وغضب ..

* * *

« إذن فهو لا يذكر !! »

نطقت (سلوى) العبارة بلغة الفريق ، فى مقر اجتماعاتهم الجديد ، فأشار إليها (نور) وقال باللغة نفسها ، التى قرَّروا عدم استخدام غيرها ، داخل المقر ، الذى سيحوى حتمًا عدة وسائل للتنصت والمراقبة :

ـ أو قولى : إنه لا يعرفها .

تساءلت (نشوى) :

ـ وكيف هذا ؟!

أجابها (نور) فى اهتمام :

ـ لقد تصوَّرنا ، عندما وجدنا (طارق) فى هذا الزمن ، أنه (طارق) نفسه الذى عرفناه .

تساءلت (نشوى) فى حذر :

ـ أليس هو ؟!

أشار بسبَّابته ، مجيبًا :

ـ هو نفسه ، بشحمه ولحمه ، ولكن فى زمنه ، الذى عاد منه إلينا .

اتسعت عينا (سلوى) ، وهى تقول :

ـ أتعنى أنه لا يذكرنا ؟!

أجابها فى حزم :

ـ بالنسبة إليه ، لم يلتق بنا سوى فى هذا الزمن ، ولكنه يعرف كل شىء عنا ، لأننا بالنسبة إليه ، وإلى هذا الزمن ، أسطورة أمنية يتداولونها ، بالإضافة إلى أنه ..

صمت لحظات ، يدرس الموقف ، ثم أدرك أنه ليس من الحكمة أن يكشف الحقيقة الآن ، فتابع :

ـ مبهور بنا كثيرًا .

قال (رمزى) :

ـ لقد أدركت هذا ، عندما قال : إن كل معلوماته عنا مستقاة

من قراءات فحسب ، ولقد تفرَّست ملامحه ، وأدركت أنه لا يكذب ، أو يفتعل هذا .

ران عليهم الصمت لحظات ، ثم غمغمت (سلوى) :

ـ رباه !..

لم أتوقع هذا بالفعل !!

وقالت (نشوى) فى بطء :

ـ ربما يعنى هذا أنهم لم يتوصلوا إلى سر السفر عبر الزمن بعد .

قال (رمزى) :

ـ أعتقد هذا .

قال (رمزى) فى اهتمام :

ـ ولكن هذا يعنى أن الأمور ستتطوَّر هنا ، وأنهم بعد سنوات قليلة ، سيرسلون (طارق) إلينا(*) ، وسيحاولون إنقاذ زمننا أيضًا(**) مما يعنى أنهم ليسوا بالسوء الذى نتصوَّره يا (نور) .

(*) راجع قصة (فارس الزمن) ... المغامرة رقم (127) .

(**) راجع قصة (قراصنة الزمن) ... المغامرة رقم (140) .

صمت (نور) لحظات ، يدرس السؤال ، قبل أن يقول :

ـ التغيرات الزمنية أمر مدهش ، وعسير الفهم للغاية يا (رمزى) ، فنحن لا ننكر محاولة إنقاذ زمننا ، ولكننا عرفنا عنها من بقايا اختزنها عقل (أكرم) وحده ، مع تجربته العنيفة ، بسبب هذا(*) ، وما كنا سنعرف شيئًا عنها قط ، لو لم يحدث هذا ، فعندما يحدث تغيير ما ، فى نقطة من نقاط الزمن ، يتغير المسار كله بعدها ، فلا يصبح هناك وجود للامتداد الأصلى ، الذى كان قبل حدوثها ، وأى شخص يحيا فى الامتداد الجديد ، لا يمكنه أن يعرف قط ما كان سيصبح عليه ، لو استمر الامتداد الأصلى ؛ لأنه ببساطة ، لم يحيا قط ، فى الامتداد الذى هو فيه .

بدا الشرح مربكًا للغاية ، حتى إن أفراد الفريق اعتصروا أذهانهم ، محاولين استيعابه ، قبل أن تقول (نشوى) :

ـ هل تعنى أنه لو قُدِّر لنا العودة بالزمن إلى الوراء ، وتفادينا ما حدث لنا هناك ، فى ذلك الكهف العجيب(**) ، لما أتينا إلى هنا ، ولما فارقنا عصرنا .

أشار بسبَّابته ، قائلاً :

ـ ولَمَا أدركنا أن هذا قد حدث .

(*) راجع قصة (بلا جسد) ... المغامرة رقم (143) .

(**) راجع قصة (المفقودون) ... المغامرة رقم (153) .

قال (رمزى) فى اهتمام :

ـ ربما كانت هذه وسيلتنا ، للعودة إلى الزمن الذى ألفناه يا (نور) .

هزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ كلا مع الأسف .. فعندما كنا نسافر عبر الزمن فى الماضى ، كنا ننتقل إلى أزمنة لا تخصنا ، ولذلك كانت عودتنا هى عودة إلى زمننا ، الذى يمكن أن تستقر فيه خلايانا ، وتحيا فى أمان ، أما لو عدنا إلى زمننا الآن ، فستواجهنا عقبتان رئيستان ، أوَّلاهما استحالة تواجدنا بجسدين فى زمن واحد ، وثانتيهما أننا ، حتى لو نجحنا فى منع الكارثة ، سينتهى بنا الأمر إلى زمن ، يستحيل أن تستقر فيه خلايانا .

ثم تنهَّد ، مضيفًا :

ـ لا بد وأن تعتادوا الأمر يا رفاق .. لقد انتهت علاقتنا بالزمن الذى أتينا منه إلى الأبد ؛ فنحن ننتمى إلى هذا الزمن الآن ، وأفضل ما يمكن أن نفعله ، هو أن نحاول الاستقرار فيه ، والتكيُّف معه .

تساءلت (سلوى) :

ـ ولماذا نضع خطتنا إذن ؟!

عقد كفيه خلف ظهره ، وهو يجيب :

ـ لنعلم ما الذى يخفونه عنا .

غمغمت (سلوى) :

ـ أكرم افترض أن ...

بترت عبارتها قبل أن تكملها ، وتساءلت فى قلق :

ـ ألم يعد (أكرم) من لقاء القائد الأعلى بعد ؟!

سؤالها جعل الجميع يطرحون على أنفسهم سؤالاً واحدًا ..

ماذا يفعل (أكرم) هناك ، فى حجرة القائد الأعلى ؟!..

ماذا ؟!..

* * *

مع كل الآلام ، التى يشعر بها فى جسده ، والمرارة التى تملأ قلبه ، وقف (أكرم) أمام القائد الأعلى ، يقول فى حنق :

ـ ليس من الشرف أن تفعل هذا .

أجابه فى صرامة :

ـ مهمتى هى حماية الأمن القومى لـ (مصر) ، وفى سبيل هذا ، أنا مستعد لفعل أى شىء .. وكل شىء .

قال (أكرم) فى حدة :

ـ فريقنا لا يمكن أن يهددَ الأمن القومى هنا .. مهمتنا الأولى هى الحفاظ عليه بأرواحنا .

قال فى غضب :

ـ مهمتكم نحددها نحن .

قال (أكرم) فى غضب أكبر :

ـ حدّدوها بشرف .

نظر إليه القائد الأعلى فى غضب ، ثم تراجع فى مقعده فى بطء شديد ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، قائلاً :

ـ مناقشة عقيمة .. ليس من المفترض حتى أن يسمح لعضو فريق مثلك ، بمقابلة القائد الأعلى شخصيًا :

قال (أكرم) فى صرامة :

ـ أنت استدعيتنى .

قال ، وهو يضرب سطح مكتبه بقبضته فى عنف :

ـ وأنتظر منك طاعة أوامرى .

قال فى مرارة غاضبة :

ـ بأن أخون فريقى .

قال صارمًا :

ـ بأن تُخلص لوطنك .

لوَّح (أكرم) بيده ، هاتفًا :

ـ وطنى يتعامل كمنظمة إجرامية ، ويخيرنى بين خيانة رفاقى ، أو مقتل زوجتى .

أشار القائد الأعلى بيده ، قائلاً :

ـ أمن الوطن يحتم هذا .

قال فى حدة :

ـ لقد حافظنا طيلة عمرنا على أمن الوطن ، وأمن الكوكب كله فى بعض الأحيان ، ولم نلجأ مرة واحدة إلى هذه الوسائل الحقيرة .

ضمَّ القائد الأعلى شفتيه محنقًا ، من وصف أعماله بالحقارة ، وقال فى صرامة شديدة ، صنعها حنقه هذا :

ـ حقيرة أو غير حقيرة .. إنه خيارك .

وعضَّ (أكرم) شفتيه فى قهر ...
لا يمكنه أن يخون فريقه ..

ولا يمكنه أن يتخلى عن (مشيرة) ..

(مشيرة) ، التى تخلى عنها ، على الرغم منه ، لما يزيد عن ثلاثين عامًا ..

والتى ضاع شبابها حزنًا عليه ..

كان يتمنى أن يجدها ..

أن يضمها إلى صدره ..

وأن يعوّضها بحبه وحنانه عما فقدته ..

حتى آخر لحظة فى عمره ..

نعم هذا هو الحل ..

عمره ..

وفى بطء ، تطلّع إلى القائد الأعلى مباشرة ، قائلاً :

ـ عندى حل آخر .

مال القائد الأعلى نحوه ، يسأله فى اهتمام :

ـ وما هو ؟!

اقترب من مكتبه ، ومال نحوه ، وكأنه يهم بأن يهمس فى أذنه ، فمال القائد الأعلى بدوره نحوه ، وسمعه يهمس بالفعل :

ـ حياتى .

وقبل أن يفهم ما يعنيه ، انقض عليه (أكرم) ..

وبمنتهى العنف ..

لقد قرَّر أن يفتدى زوجته وفريقه ..

بحياته .

* * *

8- نصف آلى ..

عقد الدكتور (راشد) كفيه خلف ظهره ، وهو يقف أمام الكمبيوتر الهولوجرامى ، يراجع نتائج الأبحاث المعقدة ، التى أجريت على تلك النسخة شبه الآلية ، المصنوعة من مزيج من مادة (الزوريوم) والجينات البشرية ، الخاصة بعضو الفريق السابق (محمود) ..

كانت تلك النسخة تجلس صامتة ، على طرف منضدة التجارب ، جامدة تمامًا ، وكأنها تمثال من الشمع ، دون أية انفعالات أو تأثيرات ، حتى إن أحد العلماء غمغم :

- أتساءل أحيانًا ، إذا ما كان حيًّا ؟!..

أجابه الدكتور (راشد) ، دون أن يلتفت إليه :

- بعض خلايا تكوينه حية ، وبقايا جسده من (الزوريوم) ؛ لذا فلا أحد يستطيع إجابة مثل هذا السؤال بدقة .

غمغم العالم :

- منذ جاء إلى هنا ، وهو أشبه بالتمثال .. إنه حتى لم يأكل أو يشرب ، أو يبدو عليه أدنى احتياج لهذا .

التقط الدكتور (راشد) نفسًا عميقًا ، وقال :

- طاقة (الزوريوم) ما زالت تغنيه ، حتى هذه اللحظة ، وستواصل هذا لعام أو عامين على الأقل ، وخلالهما سيبدأ فى التكيف ، وسيبدأ فى تناول الطعام ، والعيش كأى شخص عادى ، حتى إنه سيكون من الصعب عليك أن تميزه ، وسط مجموعة من البشر .

هزَّ العالم رأسه ، وقال :

- فى وضعه الحالى ، يصعب علىَّ استيعاب هذا .

قال الدكتور (راشد) :

- الزمن سيحسم الأمور .

ثم التفت إلى نسخة (محمود) ، وأضاف :

- ولكن ما يهمنا ونسعى إليه الآن ، هو ما اختزنه من معلومات وذكريات ، عن نهر الزمن .

سأله العالم فى اهتمام :

- هل تتوقعون أن يفيدنا هذا ...

أعنى علميًّا ؟!

أجابه فى ثقة :

- بالتأكيد .. الزمن لم يكن منذ نصف قرن ، سوى مادة تصلح لروايات الخيال العلمى وأفلامه ، ولكن السنوات الماضية ، ومنذ

اخترع الروسى (شيرنوبروف) أوّل آلة زمن ، فى تسعينات القرن العشرين(*)، تزايدت معلوماتنا كثيرًا عن الزمن ، والسفر عبر الزمن .

غمغم العالم :

ـ ولكننا لم نقم بتجربة عملية بعد .

أشار إلى نسخة (محمود) ، مجيبًا :

ـ هذا قد يقودنا إليها .

بدت علامات الفهم والاستيعاب على وجه العالم ، وتابع الدكتور (راشد) :

ـ المعلومات التى سنستقيها منه ، عن نهر الزمن ، ستقفز بطومنا فى هذا المضمار ، ألف عام من التجارب النظرية على الأقل ، وقد نفاجئ الكل ، بعد عام أو عامين فحسب ، بأوّل رحلة رسمية عبر الزمن .

التقط العالم نفسًا عميقًا ، وغمغم :

ـ من يدرى ؟!

نعم ..

من يدرى ؟!..

* * *

(*) حقيقة : العالم (Chernoprove) .

ابتسم الذئب ابتسامة هادئة رصينة ، وهو يجلس حول المائدة المستديرة ، فى مقر قيادة المقاومة ، وتطلّع إلى المحيطين به ، قبل أن يقول :

ـ لن يتمكنوا من كشف أمره ، مهما بلغت دقة وحداثة أجهزتهم التكنولوجية الحديثة ، ولن يخبرهم إلا ما لا يكشف أمرنا فحسب .

وفرقع سبّابته وإبهامه بصوت مسموع ، قبل أن يضيف :

ـ حتى تحين اللحظة المناسبة .

زمجر الدب ، مغمغمًا :

ـ ومتى تحين ؟!

تراجع الذئب فى مقعده ، وقال :

ـ قريبًا .

تبادل الكل نظرة صامتة ، لا تشف عن الرضا ، قبل أن يقول الليث فى ضيق :

ـ لدينا اعتراض أيها الذئب .

سأله الذئب فى اهتمام :

ـ وما هو ؟!

أجابه فى توتر :

ـ المفترض أننا قادة فرق المقاومة ، وعلى الرغم من هذا ، فكثيرًا ما تخفى عنا خططك ، ونواياك المستقبلية ، وكأنك الزعيم الأوحد ، لكل فصائل المقاومة .

قال الذئب فى هدوء :

ـ والمفترض أيضًا أننى زعيم زعماء الفصائل .

قال التمساح فى غضب :

ـ وهذا ما نعترض عليه أيضًا .. لا ينبغى أن يكون هناك زعيم للزعماء .. بل مجلس للزعماء .. مجلس نتساوى فيه جميعًا ، فى الحقوق والواجبات ، دون أن يعلو أحدنا عن الآخر .

صمت الذئب لحظات ، بدا عليه خلالها التفكير العميق ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ أليس من المفترض أن يكون للمجلس رئيس ؟!

قال الفهد فى صرامة :

ـ بالانتخاب الحر .

التفت الذئب إليه فى هدوء ، ثم إلى الدب ، الذى غمغم بصوته الغليظ :

ـ أنا أنتخبك بلا تردُّد .

منحه الذئب ابتسامة باهتة سريعة ، ثم شبَّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يغرق فى التفكير لحظات ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ لا بأس .. إنه مطلب عادل .

تبادل الليث والفهد والتمساح نظرة متألقة ، قبل أن يسأله الليث فى حذر :

ـ إذن فأنت توافق على الانتخابات .

أجابه فى هدوء :

ـ بالطبع .

ثم رفع سبَّابته ، مستدركًا فى حزم :

ـ على أن تتم بين خمستنا فقط .

أجابه التمساح فى حماس :

ـ يمكننا أن نجريها فورًا .

قال الذئب ، وهو يتفرَّس وجوههم جميعًا :

ـ ليس بهذه السرعة .. الأمر يحتاج من كل منا إلى مهلة للتفكير واتخاذ القرار .

وصمت لحظة ، ليرى تأثير كلماته على وجوههم ، قبل أن يضيف :

ـ لو لم تكونوا قد اتخذتم قراركم بالفعل .

تبادل الثلاثة نظرة صامتة ، ثم غمغم الفهد :

ـ الأمر يمكنه أن ينتظر .

ثم التمعت عيناه ، وهو يضيف فى حزم :

ـ ليوم واحد .

ابتسم الذئب ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ فليكن .. سنجرى الانتخابات غدًا ، فى نفس الموعد . تبادلوا بعدها القليل من الكلمات ، قبل أن ينصرف الثلاثة ، ويبقى الدب وحده مع الذئب ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هل ستسمح بإجراء هذه الانتخابات بالفعل ؟!

أجابه الذئب ، فى بطء وهدوء :

ـ إنه إجراء ديمقراطى .

لوَّح الدب بذراعه الضخمة كلها ، وهو يقول :

ـ ألم تر النتائج فى عيونهم ؟!.. لقد تآمروا لعزلك ، وهذا ما سيفعلونه غدًا حتمًا .

بدت له ابتسامة الذئب غامضة ، وهو يقول :

ـ لن يفعلوه .. اطمئن .

عقد الدب حاجبيه ، وهو يتطلَّع إليه ، قبل أن يقول فى انفعال :

ـ ماذا تعنى بالضبط ؟!

صمت الذئب بضع لحظات ، وهو يتطلَّع إليه ، قبل أن ينهض من مقعده ، قائلاً :

ـ هل تعلم كيف انتصر صلاح الدين(*) ، وكيف تحرَّر (العراق) من الاحتلال الأمريكى(**) ؟!

لم يفهم الدب ما يعنيه بسؤاله بالضبط ، فغمغم فى حذر :

ـ كيف ؟!

أشار بسبَّابته ، قائلاً :

ـ بالقيادة الموحَّدة .. (صلاح الدين) نجح فى توحيد الصف العربى أوَّلاً ، ثم جمع الجيوش العربية كلها تحت قيادته ، وبها استطاع التصدِّى للحملات الصليبية ، واستعادة (القدس) وتحريرها .. وفى (العراق) ظل الاحتلال مسيطرًا ، حتى توقفت الميليشيات والفصائل المتصارعة عن مقاتلة بعضها البعض ، واتحد الكل تحت قيادة واحدة ، فتحوَّلوا إلى قوة ضاربة ، نجحت فى التصدى للاحتلال الأمريكى ، وتكبيده خسائر هائلة ، أجبرته على الرحيل .

(*) صلاح الدين الأيوبى : (1138 - 1193م) : هو (يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان الأيوبى) ، وهو مؤسس الدولة الأيوبية ، فى (مصر) و(الشام) ، وأطراف (العراق) و(تركيا) ، أصبح سلطانًا لـ (مصر) ، وهزم الصليبيين فى (حطين) ، عام 1187م .

(**) احتلت الولايات المتحدة الأمريكية (العراق) عام 2003م ، عقب انهيار برجى التجارة العالميين ، فى سبتمبر 2001م ، بحجة واهية كاذبة .

خشى الدب أن يكون ما فهمه صحيحًا ، فتساءل فى حذر أكثر :

ـ ما الذى تسعى إليه بالضبط ؟!

التفت إليه فى بطء ، قائلاً :

ـ الاتحـاد .

لم يفهم الدب ، فتراجع بحركة عجيبة ، جعلت الذئب يكمل :

ـ لقد بذلت جهدًا خرافيًا ، خلال السنوات الماضية ، حتى صنعت حجرة العمليات ، وزودتها بالطاقة الدائمة المطلوبة ، وجمعت زعماء المقاومة كلهم تحت مجلس واحد ، وبعد أن استقرت الأمور ، وحانت فرصة مثاليـة لأول مرة ، هاهم أولاء يطمعون فيما أفنيت فيه عمرى ، ويرغبون فى عزلى من القيادة .

زمجر الدب ، قائلاً :

ـ نحن خمسة فحسب ، ولو أمكننا اكتساب صوت واحد من ثلاثتهم ، فسوف ...

قاطعه فى هدوء حازم :

ـ لقد حزموا أمرهم بالفعل .

قال فى توتر :

ـ ماذا سنفعل إذن ؟!

صمت الذئب لحظات مفكرًا ، قبل أن يقول ، وعيناه تتطلعان إلى شىء :

ـ فى ثلاثينات القرن العشرين ، واجه وريث الأب الروحى ، لعصابات (المافيا) مشكلة مماثلة(*) .

سأله الدب فى لهفة :

ـ وكيف أمكنه أن يحلّها ؟!

صمت لحظة ، قبل أن يجيبه :

ـ فى حزم .

ولم يفهم الدب الجواب ، ولكنه أدرك أن الذئب قد اتخذ قرارًا حاسمًا ..

صـارمًا ..

وخطيرًا ..

للغـاية ..

* * *

عندما انقض (أكرم) على القائد الأعلى ، كان يتصوَّر أنه سيباغته ، ويباغت نظم الأمن الإليكترونية الرقمية ، التى لم يستطع استيعابها ..

(*) حقيقـة .

وكان يدرك جيدًا ، أن عقوبة الاعتداء على القائد الأعلى ، مهما كانت الأسباب ، هى النفى ، أو السجن مدى الحياة ، بعد إلغاء عقوبة الإعدام رسميًا ..

ويدرك أن وسائل الأمن الرقمية ، قد تطلق عليه نوعًا من الأشعة القاتلة ، لو ظفر به ..

كان يدرك كل هذا ..

ولكنه فعلها ..

لم يكن أمامه خيار ، مع المعضلة التى وجد نفسه فيها ..

إما أن يخون ..

أو يتخلى ..

وهو لا يستطيع خيانة فريقه ..

أو التخلى عن زوجته ..

عن حب حياته ..

* * *

ولكنه مستعد ، فى سبيل حياة الاثنين ، أن يضحى بحياته نفسها ، دون أدنى تردُّد أو حذر ..

وفى سبيل الفريق و (مشيرة) ، فعلها ..

ولكنه لم يبلغ هدفه ..

أجهزة الكمبيوتر شديدة التطوّر ، فى هذا العصر ، كانت أسرع منه بكثير ..

فعندما اقترب من مكتب القائد الأعلى ، رصدت حركته ، وحدَّدت انفعالاته ، ورصدت التغيرات الحرارية فى جسده بدقة مذهلة ..

وقبل حتى أن يبدأ وثبته ، بدأت هى عملها ..

ولقد انقضّ هو ، ووثب ليقبض على عنق القائد الأعلى ، ولكنه فوجئ بشبكة لزجة ، أشبه بشباك العنكبوت ، تلتف على جسده فجأة ، وتلتصق به فى قوة ، ثم تجذبه إلى الخلف فى عنف ، حتى ارتطم بالجدار بمنتهى القوة ، والتصق به تمامًا ، على ارتفاع متر على الأقل من الأرض ..

وبينما يحاول مقاومة تلك الخيوط المتينة اللزجة عبثًا ، غمغم القائد الأعلى فى غضب ، من خلف مكتبه :

ـ أحمق !..

ثم نهض إليه ، وعقد حاجبيه فى غضب ، وهو يتابع :

ـ بدائى وهمجى .. تمامًا كما وصفتك كتب التاريخ .

زمجر (أكرم) ، فى غضب عصبى ، فتابع فى صرامة :

ـ كان يمكننى أن أقتلك ، جزاء ما أقدمت عليه ، ولكننى أدرك منذ البداية همجيتك واندفاعك .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ وربما لهذا وقع اختيارى عليك .

زمجر (أكرم) ، على نحو أشد غضبًا ، والخيوط اللزجة ، الملتصقة بفمه ، تمنعه من الكلام ، فقال القائد الأعلى ، فى صرامة شديدة :

ـ غضبك هذا لن يفيدك .. ستضيع مهلتك ، وأنت مقيد هنا ، والرائد (هثيم) لن يتردَّد لحظة واحدة ، فى نسف رأس زوجتك ، فور انتهاء المهلة ، التى حدَّدتها له .

كلماته هذه جعلت (أكرم) يتوقَّف عن المقاومة ، وعن الزمجرة أيضًا ، وهو يتطلَّع إلى القائد الأعلى فى غضب ، جعل هذا الأخير يبتسم فى ظفر ، قائلا :

ـ هذا أفضل كثيرًا .

قالها ، ولوَّح بيده فى الهواء ، فاختفت تلك الشبكة اللزجة فجأة دون مقدمات ، وسقط (أكرم) أرضًا ، فى حين ألقى عليه القائد الأعلى نظرة ظافرة ، ثم عاد إلى مكتبه فى هدوء ، وهو يقول :

ـ ينبغى أن تدرك أن أساليبك الهمجية لم تعد مجدية ، فى هذا العصر ، الذى تفوق فيه التكنولوجيا كل تصوراتك ، فمهما بلغت سرعتك ، لن يمكنك الإفلات من نظم الأمن ، التى تعمل بسرعة واحد على ألف من الثانية الواحدة ، وهى سرعة لا يمكن أن يبلغها أى كائن حى ، مهما بلغت سرعته .

وجلس خلف مكتبه ، وهو يبتسم فى ثقة ، مكملاً :

ـ باختصار ، أنت خاسر على كل المستويات .

ثم عاد حاجباه ينعقدان بمنتهى الصرامة ، وهو يكمل :

ـ وستدفع زوجتك الثمن .

نهض (أكرم) فى بطء وانكسار ، مغمغمًا :

ـ وماذا لو انتحرت ؟!

أجابه فى حزم :

ـ ستلحق هى بك ، بعد دقيقة واحدة ، وأعدك أن أنتقى أبشع وسيلة ممكنة لموتها ، بحيث تعانى عذابًا لا يوصف ، قبل أن تلقى مصرعها .

هتف (أكرم) فى مرارة :

ـ أنت وحش آدمى .

هزَّ كتفيه فى لا مبالاة ، قائلاً :

ـ لقد أخبرتك .. إنها مسألة أمن قومى .

لم يشعر (أكرم) ، فى حياته كلها ، بالقهر والعجز والإحباط ، مثلما شعر بهما فى تلك اللحظة المقيتة ..

ولأوَّل مرة فى حياته ، لم يجد لمعضلته حلاً ..

أى حل ..

لا بد وأن يختار ..

الفريق ..

أو مشيرة ..

استغرق تفكيره المقهور لحظات ، قبل أن يغمغم ، بكل مرارة الدنيا :

ـ ماذا تريد منى بالضبط ؟!

وتألقت عينا القائد الأعلى فى ظفر ..

تألقتا بمنتهى الشدة ..

والثقة ..

* * *

بمنتهى اللهفة ، استقبل أعضاء الفريق (أكرم) ، فى مقرهم الجديد ، وهتف به (نور) فى قلق :

ـ لماذا تأخرت ؟!

تحاشى (أكرم) النظر إليه ، وهو يغمغم :

ـ يتحدثون كثيرًا فى هذا العصر .

حاول (رمزى) أن يتفرس ملامحه ، ولكنه أبعدها عنه أيضًا ، وجلس فى ركن المقر ، وهو يضيف فى عصبية :

ـ لقد أرهقونى للغاية .

تطلَّع إليه الجميع فى صمت ، قبل أن تتجه إليه (سلوى) ، وتضع يدها على كتفه ، قائلة فى إشفاق :

ـ يمكنك أن ..

انتفض جسده فى عنف للمستها ، فابتعدت عنه بحركة حادة ، قبل أن يقول فى عصبية شديدة :

ـ معذرة ، ولكننى ما زالت أشعر بالتوتر .

تبادلوا نظرة شديدة القلق ، ثم سأله (رمزى) فى حذر :

ـ لِمَ أرادك القائد الأعلى بالضبط ؟!

أجابه ، وهو يتحاشى النظر إليه :

ـ استجواب سخيف .

سأله (نور) :

ـ بشأن ماذا ؟!

أجابه ، وهو يتطلَّع إلى ركن خال :

ـ بشأن الطلب الذى تقدَّمت به ، للحصول على مسدس قديم .

سألته (نشوى) فى دهشة :

ـ وهل يستحق هذا استجوابًا طويلاً ؟!

غمغم :

ـ قوانين حمل السلاح شديدة التعقيد ، فى هذا العصر .

تطلَّع إليه الجميع بنظرة قلقة مرة أخرى ، ثم قال (رمزى) فى بطء :

ـ (أكرم) .. أنت صديق رائع ، وزميل شديد النشاط والبراعة .

شعر (أكرم) بمرارة شديدة ، مع تلك الكلمات ..

صديق رائع ؟!..

أهو حقًّا صديق رائع ؟!

هل يستحق حتى لقب الصديق ؟!..

هـل ؟!

وفى حزم مفاجئ ، أكمل (رمزى) :

ـ ولكنك لا تجيد الكذب .

عضَّ (أكرم) شفتيه فى مرارة مع العبارة ، ولكنه لـم يجرؤ حتى على الالتفـات إليهم ، وهو يلوذ بصمت ثقيل ، جعل (نور) يسـأله ، فى صوت أراده هادئًا ، ولكنه خرج ، على الرغم منه ، شديد القلق :

ـ ما سبب استدعائه لك ؟

وصمت لحظة ، ثم استدرك :

ـ السبب الحقيقى .

عضَّ (أكرم) شفتيه مرة أخرى ، وقال دون أن يلتفت إليهم :

ـ لقد أعادوها .

سألته (سلوى) :

ـ مـن ؟!

أجاب بكل مرارة الدنيا :

ـ (مشيرة) .

تصوَّر (نور) أنه قد فهم الأمر ، فسأله فى خفوت متعاطف .

ـ هل صدمتك هيئتها فى هذا العمر ؟!

أجابه بنفس المرارة :

ـ هذا لا يصنع عندى أدنى فارق .. لقد كـانت لهفتـى عليهـا ، أكثر مما كانت من قبل .. إننى أحبها .. ألا تفهم ما يعنيه هذا ؟!

سأله فى قلق شديد :

ـ لماذا تكذب إذن ؟!

صمت (أكرم) لحظات ، وهو يقاوم مرارته الشديدة ، قبل أن يلتفت إليهم ، وتتألَّق دموع الألم فى عينيه ، وهو يجيب :

ـ لقد خنتكم .

واتسعت عيون الجميع عن آخرها ..

فقد كانت الصدمة عنيفة ..

للغاية ..

* * *

« أخيـرًا .. »

نطقها العالم ، المسئول عن مشروع نسخة (محمود) ، فالتفت إليه الدكتور (راشد) ، متسائلاً فى لهفة :

ـ هل فعلناها ؟!

أشار العالم بيده ، مجيبًا :

ـ طاقته بدأت تستجيب .

أسرع الدكتور (راشد) إليه ، متسائلاً :

ـ هل يمكننا تسجيلها ، فى صورة مرئية ؟!

هزَّ العالم رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ الآن يمكننا رصدها وتسجيلها فحسب .

ثم التفت إليه ، مستطردًا :

ـ وهذه هى البداية .

التفت الدكتور (راشد) إلى نسخة (الزوريوم) ، المعدَّلة بجينات وراثية ، وأدهشه أن بدأت تحرك أصابعها فى بطء ، وجفناها يرتعشان ، وكأنها بشرى يستعيد وعيه ، بعد غيبوبة طويلة ، فغمغم فى انفعال :

ـ إنه يصحو .

ابتسم العالم ، متسائلاً :

ـ بل طاقته تتكيف ، مع جسدها الجديد .

تمتم الدكتور (راشد) :

ـ ترى هل ...

قبل أن يتم تساؤله ، قال العالم ، فى اهتمام شديد :

ـ التسجيل يتصاعد .

استدار إليه الدكتور (راشد) فى لهفة ، وشاهد الأرقام تتصاعد ، فى سرعة ، فسأله فى انفعال :

ـ هل نقترب من الصورة المرئية ؟!

كانت النسخة قد بدأت فى تحريك أطرافها ورأسها فى بطء ، عندما قال العالم فى اهتمام :

أعتقد هذا .. ربما نحصل على أصوات أوَّلاً .

مع آخر كلمات عبارته ، بدأ جهاز استقبال الطاقة يصدر بعض الأصوات العجيبة المتداخلة ، فتحرَّك العالم فى سرعة ، وهو يقول فى حماس :

ـ لو تواصل البث على هذا النحو ، سنحصل على صورة مرئية ، قبل ساعة واحدة .

تعلّقت عينـا الدكتور (راشد) بالشاشـة الكبيرة ، التى تنقل ما بثته إليها طاقة (محمود) ، والتى بدأت الأصوات التى تنبعث منها تتزايد ، وتتداخل ، والعالم يضغط عدة أزرار ، ويضيف عدة أرقام ، فى حين راحت النسخة تهزّ رأسها فى بطء ، كما لو أنها تتحرّر من شىء ما ..

ثم فجأة ، امتزجت الأصوات بصورة مشوّشة ..

صورة تظهر وتختفى فى سرعة ..

وفى حماس أكثر ، راح العالم يضيف الأرقام ، ويعدّل الموجات ، و ...

وفجأة ، بدأت الصورة تتضح ..

بدأت باهتة ..

ثم راحت تصفو ..

وتصفو ..

وتصفو ..

وبكل اهتمام الدنيا ، وقف الدكتور (راشد) والعالم ، يتطلعـان إلى الشاشة ، التى ظهر عليهـا فى البدايـة ضباب كثيف ، أخذ ينقشع فى بطء ..

ثم فجأة ، ظهرت صورة واضحة ..

صورة جعلتهما يرتدان معًا فى عنف ، والعالم يهتف ، فـى لهجـة أشبه بالصراخ :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

واتسعت عيونـهما معًا ، على نحو لم يحدث من قبل قط ..

فما رأياه أمامهما ، على الشاشة الكبيرة كان مذهلاً ، ويتجاوز كل ما توقعاه ..

وبكل المقاييس .

* * *

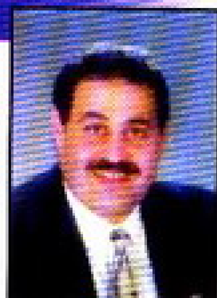
(انتهى الجزء الأوّل بحمد الله)

عالم جديد

- بعد عصرهم ، بأكثر من ثلاثة عقود ، استيقظ فريق نور ..
- استيقظ فى مستقبله .. وبلا أمل فى العودة ..
- وكان على الفريق أن يواجه عالمًا جديدًا ، يختلف عما عرفه ..
- عالم من التطوُّر الفائق ، والصراعات العنيفة ، والغموض اللامتناهى ..
- وكان عليهم أن يواجهوا كل هذا ، فى عالم غامض ومخيف .. (عالم جديد) .
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل مع (نور) وفريقه .. من أجل المستقبل .



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية



د. نبيل فاروق

ملف المستقبل
سلسلة روايات بوليسية للشباب من الخيال العلمى

156

الثمن فى مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



روايات مصرية للجيب

ملف المستقبل
سري جدًّا !!

157

د. نبيل فاروق

أطلال الماضى



ملف المستقبل ..

فى مكان ما من أرض (مصر) ، وفى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسرّية مطلقة ؛ من أجل حماية التقدُّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدّم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل .

د. نبيل فاروق

1 ـ اثنـــان ..

ارتفع عواء ذئب ، على نحو مخيف متصل ، وسط تلك الأطلال القديمة ، التى كانت يومًا واحدة من المدن العظيمة ، فى عالم ما بعد الاحتلال(*) ، وعلى الرغم من السكون والهدوء ، اللذين سادا المكان ، راح ظِلٌّ يتحرّك فى خفة ، متسترًا بالظلام والجدران المتهدّمة ، حتى بلغ منزلاً نصف متهدم ، امتدت إليه يد بشرية ؛ لتصنع له جدارًا وسقفًا من بقايا أبواب ونوافذ قديمة ؛ حتى يصلح ليكون سكنًا آدميًّا ، وطَرَق بابه المتهالك ثلاث طرقات فى سرعة ، ثم التصق بالباب فى قلق شديد ، وهو يتلفَّت حوله ، وعواء الذئب يتكرَّر مرة ثانية ، حتى سمع صوتًا من خلف الباب ، يتساءل فى حذر شديد :

ـ من بالباب ؟

همس الأوّل فى توتر :

ـ إنه أنا .

لم ينطق سواها ، ولكن الباب انفتح فى سرعة ، وهتف مَن خلفه فى انفعال :

ـ ادخل .. هيا .

(*) راجع قصة (الاحتلال) .. المغارة رقم (76) .

دلف الرجل إلى الداخل فى سرعة ، وأغلق الباب خلفه فى إحكام ، وهو يلهث على نحو ملحوظ ، من فرط التوتر والانفعال ، والجهد الذى بذله حتى يصل إلى المكان ، مستترًا بكل ما أتيح له ، عبر أطلال اكتظت بالضوارى ، التى تنتشر بينها ، مع مغيب الشمس ، وغياب مصادر الطاقة الآمنة ..

وفى صبر ، وعلى الرغم من فضوله الشديد ، بمعرفة سر هذه الزيارة الليلية المفاجئة ، ظَلَّ الآخر صامتًا ، حتى التقط الأوَّل أنفاسه ، التى هدأت نسبيًا ، فسأله :

ـ خيرًا ؟

تطلع إليه الأوَّل لحظة ، بعينين حملتا الكثير من التوتر ، قبل أن يقول فى انفعال شديد ، وبصوت أقرب إلى الهمس :

ـ لقد عادوا .

لم يفهم الثانى ما يعنيه هذا بالضبط ، فمال نحوه متسائلاً فى شىء من الحيرة والحذر :

ـ عادوا ؟!.. من تعنى ؟!

بُح صوت الأوَّل ، وهو يجيب فى انفعال أكثر :

ـ هم .. لقد عادوا .. هل يمكنك أن تتخيَّل هذا ؟!

حمل صوت الثانى كل عصبية ، وهو يهتف :

ـ أتخيل ماذا ؟!.. عمن تتحدث ؟!.. أفصح يا رجل .

ازدرد الأوَّل لعابه ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه الثائرة ، وقال فى صوت عصبى مبحوح :

ـ والدك وجدى .. لقد عاد .

تألَّقت عينا (طارق) الصغير ، وهو يهتف ذاهلاً :

ـ المقدم (نور) .. مستحيل !.. كل الوثائق الرسمية تؤكِّد أنه قد اختفى منذ ما يزيد عن الثلاثين عامًا .. اختفى هو وأبواك ، وكل أعضاء الفريق .

هزَّ (محمود) الصغير رأسه فى عصبية ، وقال :

ـ لا تعارض بين هذا وذاك .. ألا تذكر ما روته لنا عمتى (مشيرة) فى طفولتنا عن سفرهم عبر الزمن[*] .. ربما ما حدث هو رحلة عبروا بها الزمن ، من عصرهم إلى عصرنا هذا ، ثم عجزوا عن العودة لسبب ما .

هتف (طارق) فى توتر :

ـ حكايات .. مجرد حكايات تنسج جزءًا من الأسطورة ، التى رددها كل الأطفال فى مثل عمرنا ، مع اختفاء الفريق ..

(*) راجع قصة (عبر العصور) .. المغامرة رقم (54).

قال (محمود) فى حِدَّة :

ـ عمتى (مشيرة) لا تكذب أبدًا .

صاح به (طارق) فى توتر :

ـ ولكنها عاشقة فقدت حب عمرها ، ومثلها قد تنسج ألف رواية ورواية ؛ لتضفى صفة أسطورية على زوجها الراحل .

قال (محمود) الصغير فى عناد :

ـ وماذا عن الحكايات التى روتها لنا ، عن بطولات الفريق ، قبل أن ينضم له عمى (أكرم) ؟!.. ألا تذكر حكايتها عن ذلك الآلى القنبلة(*)، وصراع الفريق مع الآلى الآخر ، والذى انضم إليه فيما بعد ، وأصبح جزءًا منه(**) .. وحكايتها عن كوكب الأساطير(***) ، و(أرغوران)(****) ، وتلك الحرباء القاتلة الرهيبة(*****) ؟!.. أنسيت كل هذا ؟!..

تردَّد (طارق) الصغير طويلاً هذه المرة ، قبل أن يغمغم حذرًا :

ـ ولكن هذا يتجاوز كل قواعد العقل والمنطق .

(*) راجع قصة (القنبلة الغامضة) .. المغامرة رقم (5) .
(**) راجع قصة (المقاتل الأخير) .. المغامرة رقم (48) .
(***) راجع قصة (الأسطورة) .. المغامرة رقم (51) .
(****) راجع قصة (معركة الكواكب) .. المغامرة رقم (58) .
(*****) راجع قصة (الحرباء) .. المغامرة رقم (101) .

لوَّح (محمود) الصغير بيده ، قائلاً :

ـ وماذا من مغامراتهم كان يتفق مع هذه القواعد ؟!

شعر (طارق) الصغير بعاصفة عاتية تموج فى رأسه ، حتى إن ساقيه عجزتا عن حمله ، فجلس على مقعد قديم ، تم إصلاحه خمس مرات على الأقل ، وهو يقول ، فى حيرة شديدة ، ممتزجة بارتباك واضح :

ـ ولكن هذا يعنى أن المقدم (نور) قد عاد متهلكًا ، وعودته لن ...

قاطعه (محمود) بنفس الانفعال :

ـ لم يعد وحده .

اتسعت عينا (طارق) الصغير ، وهو يحدق فيه بشىء من الارتياع ، حمل كل خوفه اللا مبرَّر ، من سماع ما سيأتى ، فمال (محمود) الصغير نحوه ، وقال مستطردًا فى انفعال أكثر :

ـ الفريق كله عاد ، وبنفس العمر الذى اختفى به .

بلغ اتساع عينى (طارق) الصغير ذروته ، وعلى الرغم من توقعه للجواب ، انتفض جسده كله فى عنف ، وانطلقت من حلقه شهقة ، جعلته يلهث فى قوة ، وكأنما ظلَّ يعدو لمئات الكيلومترات ، قبل أن يردِّد وسط لهاثه :

ـ عادوا ؟!.. وبنفس أعمارهم ؟!.. أبى وأمى ، وشقيقتى ، وعمى (رمزى) ، وعمى (أكرم) .. عادوا ؟!.. يا إلهى !.. يا إلهى !

ثم هبَّ من مقعده ، وأمسك كتفى (محمود) الصغير فى قوة ، وهو يهتف :

ـ مِن أين استقيت معلوماتك هذه ؟!.. أأنت واثق منها ؟! أأنت واثق ؟!.. أجب !

قال (محمود) الصغير فى ارتباك :

ـ امنحنى الوقت يا خالى ، وسأجيب كل أسئلتك .

انتبه (طارق) الصغير فى هذه اللحظة ، إلى أنه يرجه بقوة شديدة ، فأفلت كتفيه ، وقال فى توتر شديد :

ـ اعذرنى يا (محمود) .. اعذرنى .. الخبر كان يفوق قدرتى على التصديق والاستيعاب ، ولولا أنك ابن شقيقتى ، لما صدقت حرفًا واحدًا مما تقول !

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى عصبية :

ـ والواقع أننى ما زلت عاجزًا عن التصديق والاستيعاب .

عاد إلى صمته لحظة أخرى ، ثم رفع عينيه إليه فى حِدَّة ، مستطردًا :

ـ وما زلت أجهل كيف عرفت .

التقط (محمود) الصغير نفسًا عميقًا ، ربما كمحاولة للسيطرة على أعصابه ، قبل أن يقول ، فى انفعال هامس :

ـ لقد أخبرنى .

قال (طارق) الصغير فى عصبية :

ـ لقد سئمت هذه الألغاز ، وأعصابى لم تعد تحتملها .. أخبِرنى من أخبَرك دون مماطلة .

أجابه (محمود) الصغير فى سرعة :

ـ الذئب .

اتسعت عينا (طارق) الصغير مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ الذئب ؟!.. زعيم زعماء الـ ...

قاطعه (محمود) الصغير فى انفعال :

ـ المقاومة .. نعم .. لقد بحث عنا ، ولما عجز عن بلوغ مكمنك ، أرسل فى طلبى ، وأخبرنى بالأمر ، الذى أذهلنى كما أذهلك ، ولكنه قدم لى الدليل .

سأله (طارق) الصغير فى لهفة :

ـ أى دليل ؟!

مال نحوه ، وأجاب فى همس :

ـ تسجيل .. تسجيل هولوجرافى للقائه مع شقيقى ، والحديث الذى دار بينهما .

تساءل (طارق) الصغير فى حذر :

ـ شقيقك (طارق) ؟

أومأ (محمود) الصغير برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ هو نفسه .

قال (طارق) الصغير فى عصبية :

ـ ولكن شقيقك ، مع احترامى لصلة الدم التى تربطكما ، يعمل مع الأعداء ، وفى نظام أمنهم بالتحديد ، فكيف يمكنك أن تثق فى مثله ؟!

انعقد حاجبا (محمود) الصغير فى ضيق ، وقال :

ـ لا تنس أيها الخال أن الدماء التى تجرى فى عروق شقيقى ، هى نفسها التى تجرى فى عروقى .. دماء (رمزى) .. أعظم خبير نفسى عرفته (مصر) ، و(نشوى) التى صممت نصف برامج الدفاع الرقمية القديمة ، ابنة الأسطورة (نور) ، والرائعة (سلوى) .. هل تتصورً أن مثله يمكن أن يخون وطنه .

صمت (طارق) الصغير لحظات ، ثم قال فى توتر :

ـ ربما لا يرى الأمر من هذه الزاوية .. ربما أقنعوه كما أقنعوا غيره ، أنه إنما يفعل هذا من أجل (مصر) .

كان هذا الافتراض أيضًا منطقيًا ..

فرجال الأمن ، فى كل زمان ومكان ، كانوا يتصورون دومًا أنهم يعملون من أجل أوطانهم ..

من أجل الحق ..

والعدالة ..

والمستقبل ..

حتى عندما كانت تسيطر على البلاد نظم ديكتاتورية متجبرة ، كان رجال الأمن ينفذون سياستها دون مناقشة ..

كانت هناك دومًا وسيلة لإقناعهم بتنفيذ الأوامر ، مهما بلغ تعنتها ، وجبروتها ، أو تعارضها مع العدالة ، وميثاق حقوق الإنسان ..

فنظم الأمن ، مهما كانت ماهيتها ، هى أجهزة تنفيذية ..

أجهزة مهمتها تنفيذ القوانين والأحكام النهائية ، دون التدخُل فى إصدار القوانين ، أو مناقشة الأحكام القضائية ..

ولأنها أجهزة عسكرية ، فهى تطيع الأوامر دون مناقشة .. أية أوامر ..

ولكن هذا لا يمنع من أن نصف الثورات وكل الانقلابات فى تاريخ العالم ، قامت بها جهات أمنية عسكرية ، ورجال أمن ، تجاوزوا القواعد ، واختاروا الحريات ..

من منطلق هذه الفكرة الأخيرة ، قال (محمود) الصغير فى حزم :

ـ هل تظن أن مثله يمكن أن ينخدع بهذا ؟!

صمت (طارق) الصغير طويلاً ؛ ليدير الأمر فى رأسه ، ثم قال فى خفوت متوتر :

ـ من يدرى ؟!

شعر (محمود) الصغير بصعوبة المحاورة فى هذا الشأن ، فقال :

ـ بغَضِّ النظر عن كل هذا .. لقد طلب منى الذئب إبلاغك رسالةً أخرى ، أكثر أهمية وخطورة ..

اعتدل (طارق) الصغير فى انتباه متوتر ، وهو يسأله :

ـ وما هى ؟!

مال عليه (محمود) الصغير بشدة ، وهمس فى أذنه بالرسالة ..

واتسعت عينا (طارق) الصغير ..

اتسعتا عن آخرهما ..

فما أخبره به (محمود) الصغير كان مفاجئًا ..

إلى أقصى حد ..

* * *

بدا الدُّب شديد العصبية ، وهو يتحرك جيئة وذهابًا بجسده الضخم ، داخل مقر اجتماعات قادة فصائل المقاومة ، حتى قال الذئب فى هدوء عجيب :

ـ هل ستواصل هذا طوال الليل ؟!

توقَّف الدُّب بحركة مفاجئة ، حتى كاد يسقط على وجهه ، لولا أن استند إلى الجدار للحفاظ على توازنه ، واستدار إلى الذئب ، قائلاً فى عصبية :

ـ ما تنوى فعله فظيع للغاية أيها الزعيم ، ولم يحدث مثله ، بل ولا يمكن أن يحدث مثله ، فى ظروف كهذه .

أجابه الذئب فى هدوء شديد ، ودون ذرة واحدة من الانفعال :

ـ أخبرتك أنه قد حدث من قبل ، فى ثلاثينات القرن العشرين ، عندما تآمر زعماء عائلات (المافيا) ؛ للتخلُّص من الأب الروحى الشاب ، الذى ورث والده ، زعيم العائلات كلها . أيامها واجه الشاب الجديد معضلة خطيرة ، فالكل يتآمر ضده ، وقوته لن توازى قوتهم مجتمعين ؛ لذا فقد اتخذ أخطر قرار فى حياته .

قال الدُّب فى عصبية :

ـ القضاء عليهم جميعًا ؟!

هزَّ الذئب كتفيه فى هدوء ، وقال :

ـ ادرس الموقف ، ولن تجد أمامه من سبيل سوى هذا .. إما حياته ، أو حياتهم جميعًا .

ثم نظر فى عينيه مباشرة ، مضيفًا فى حزم :

ـ أى قرار ستتخذ ، لو كنت فى موضعه ؟!

ترددّ الدُب طويلاً ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ ما فيه الصالح العام .

قال الذئب ، فى حزم كبير :

ـ وأين يكمن الصالح العام ؟!.. فى وجودى أم وجودهم ؟!

اتسعت عينا الدُب فى ارتياع ، وجلس على أقرب مقعد إليه ، وحملت ملامحه بؤسًا عجيبًا ، وحيرة لا حدود لها ، فنهض الذئب يواجهه ، قائلاً فى حزم وصرامة شديدين :

ـ الترددُ أمر غير مقبول .. إما أنك معى أو معهم .. احسم أمرك فورًا .

أجابه الدُب على الفور :

ـ معك بالطبع .

ثم عاد إلى بؤسه دون حيرته ، وهو يقول مستطردًا :

ـ ولكن القضاء عليهم ...

لم يكمل عبارته ، فعاد الذئب إلى مقعده ، وقال فى حسم :

ـ البديل الوحيد هو قضاؤهم علىَّ ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى خبث :

ـ وعليك .

اتسعت عينا الدُب ، وانتفض جسده الضخم ، وهو يقول فى ارتياع :

ـ علىَّ ؟

قال الذئب ، بنفس الهدوء الخبيث :

ـ ومن سواك ؟!.. إنهم يعلمون مقدار ولائك لى ، ومن المستحيل أن يتركوك على قيد الحياة ، بعد القضاء علىَّ .

على الرغم من ضخامة الدُب ، إلا أنه شعر وكأنه سيفقد توازنه فى هذه اللحظة ، فاستند بيده على الجدار ، وجلس على أقرب مقعد إليه ، وبدا ذاهلاً بائسًا هلعًا ، وهو يردِّد :

ـ أنـا ؟!

قال الذئب ، وقد بدأت عيناه تلتمعان :

ـ ليس هناك من حل آخر .. إما هم .. أو نحن .

ذكاؤه فى جمعهما معًا ، أصاب هدفه فى الصميم ، فقد اتسعت عينا الدُب فى ارتياع ، وبدا عليه المزيد من البؤس والذعر ، فأخفى الذئب ابتسامته خلف وجه جامد ، إلا أنها أطلّت مع التماعة عينيه ، اللتين تألقتا ببريق ظافر ، وهو يتطلع إلى الدُب ، الذى بقى على حاله لدقيقة كاملة ، قبل أن يرفع عينيه إليه ، متسائلا :

ـ ومتى تريد القضاء عليهم ؟!

أجابه الذئب فى سرعة وحزم :

ـ مع الفجـر .

ضم الذئب قبضته ، وضرب بها صدره ، فى موضع القلب ، بمنتهى القوة ، دلالة على ولائه وطاعته ..

قبضته التى أصبحت أشبه بقبضة الموت ..

عند الفجر ..

* * *

فى توتر شديد ، عقد القائد الأعلى للمخابرات التكنورقمية حاجبيه ، وهو يحاول متابعة حديث (أكرم) مع باقى أعضاء الفريق ، فى حديقة المبنى ، على شاشة راصده الهولوجرامية ، قبل أن يغمغم فى سخط :

ـ ما زالوا يستخدمون تلك اللغة الخاصة !

انعقد حاجبا الرائد (هيثم) فى توتر ، وغمغم فى شىء من الحذر :

ـ لقد قبِل (أكرم) التعاون ، فلماذا لم تجبره على البوح بسرِّها ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لقد قضى هنا وقتًا طويلاً بالفعل ، ولم أشأ إثارة شكوكهم أكثر ..

وصَمَت لحظة ، حاول خلالها متابعة وفهم ما يدور ، على الشاشة الهولوجرامية ، قبل أن يضيف بمنتهى الصرامة :

ـ ولكنه سيبوح حتمًا بكل ما لديه .. من أجل زوجته .

رفع الرائد (هيثم) عينيه إلى تلك الشاشة الهولوجرامية المعلَّقة ، دون أن يُعلِّق بحرف واحد ، وعقله يسبح فى ذكريات قريبة ..

ذكريات تبدأ من تلك اللحظة ، التى استعاد فيها المقدم (نور) وعيه ، بعد صراعه الرهيب مع شعب (جروندا) تحت الأرض[*] ، ليجد نفسه وقد قفز مع فريقه عبر الزمن ، إلى ما يزيد عن ثلاثين عامًا ، دون أمل فى العودة[**] .

أدنى أمل ..

وهناك ، فى ذلك العالم الجديد ، وبعد أن استعاد الفريق كله وعيه ، شعر الجميع أنهم لا ينتمون إلى ذلك الزمن .. مطلقًا ..

كل شىء كان يختلف عن عالمهم تمام الاختلاف ..

(مصر) انهارت ..

انقسمت ..

عادت عدة قرون فى سلم الحضارة ..

وهناك ، خلف أسوار عالية ، بقيت المخابرات العلمية ، التى تحولت إلى المخابرات التكنورقمية ، ويقودها من كانوا يومًا رفاق (نور) ..

(*) راجع قصة (الكهف) .. المغامرة رقم (155) .

(**) راجع قصة (عالم جديد) .. المغامرة رقم (156) .

والصراع يدور بين الجانبين ..

أولئك خلف الأسوار ، ومن داخلها ..

والغموض يحيط بكل شىء ..

ومع الألغاز التى تثير حيرتهم ، كان من الطبيعى أن ينشط الفريق ، وأن ينطلق بحثًا عن الحلول ..

كل الحلول ..

ولكن الأحداث كانت تتوالى بسرعة خرافية ..

علماء ذلك العصر ، تحت قيادة الدكتور (راشد) رئيس مركز الأبحاث الجديد ، أمكنهم استعادة طاقة (محمود) ، عضو الفريق الضائع ، واحتواؤها داخل غلاف من (الزوريوم) الحيوى العجيب ..

الرائد (هيثم) ، بتعليمات من القائد الأعلى ، الذى ينتحل شخصية الرائد (أيمن) ، ويخفى شخصيته الغامضة ، حاول اغتيال الرائد (طارق) ، حفيد (نور) ، ورجل أمن ذلك العصر الجديد ..

المقاومة بدأت مرحلتها الأخيرة ، الهجوم على الأمن ، الذى يحكم (مصر) المستقبل ..

و(مشيرة) ، رئيسة تحرير أنباء الفيديو السابقة ، وزوجة (أكرم) ، التى بكت على غيابه لأكثر من ثلاثين عامًا ، وجدت

نفسها رهينة ، فى قبضة القائد الأعلى الغامض ؛ لإجبار (أكرم) على أسوأ ما يمكن دفعه إليه ..

خيانة فريقه ..

وفى نفس اللحظة ، التى واجه فيها الفريق بهذا ، كان طاقم العلماء يستعيد كل ما حوته طاقة (محمود) ، من ذاكرته ، حول نهر الزمن ، الذى ضاع فيه سنوات وسنوات (*) .. وعندما نجحوا فى هذا ـ نسبيًا ـ كان ما رأوه مذهلاً ، ويتجاوز كل توقعاتهم .. وبكل المقاييس (**) ..

لم يسترجع عقل الرائد (هيثم) كل هذا ؛ لأنه ـ ببساطة ـ كان يجهل معظمه ، إلا ما يتعلق به ..

وأيضًا لأن القائد الأعلى قاطعه ، قبل أن يسترسل فى ذكرياته ، وهو يقول فى غضب :

ـ أتعشم ألا يكون قد باح لهم بما حدث هنا .

تمتم (هيثم) فى توتر :

ـ لست أظنه يجازف بفقد زوجته .. لقد رأيت كم يعشقها ، على الرغم من فارق الـ ....!!

(*) راجع قصة (الزمن يساوى صفر) .. المغامرة رقم (100) .

(**) لمزيد من التفاصيل راجع الجزء الأول (عالم جديد) .. المغامرة رقم (156) .

لم يتم عبارته ، فأكملها القائد الأعلى فى صرامة :

ـ العمر ؟!.. يا لك من سخيف !.. ألم تشاهد كيف التقيا ؟!.. كيف احتواها بين ذراعيه بكل الحب واللهفة ، وأمطر وجهها بقبلاته ؟!.. إنه لا يحبها فحسب يا هذا .. بل يعشقها ..

وصمت لحظات ، قبل أن يضيف فى تفكير عميق :

ـ وهذه نقطة ضعفه الكبيرة ، التى ينبغى أن نحسن استغلالها .

ثم التفت إلى (هيثم) ، بعينين تتألقان على نحو مخيف ، وهو يضيف :

ـ إلى أقصى حدٍّ ممكن .

وعلى الرغم منه ، شعر (هيثم) بانتفاضة عجيبة تسرى فى جسده ، وبخوف مبهم يعربد فى كيانه ، ويجرى فى عروقه مجرى الدم ..

وَهمَّ بقول شىء ما ..

شىء لم يتجاوز شفتيه ..

أو حتى تفكيره ..

فقبل أن ينبس ببنت شفة ، ارتفع أزيز جهاز الاتصال ، على مكتب القائد الأعلى ، الذى مرَّر يده على جزء من مكتبه ، فظهرت عليه صورة الدكتور (راشد) ، وهو يقول فى توتر شديد :

ـ سيِّدى .. لقد بدأنا فى رصد صورة مرئية لذكريات ذلك العضو القديم نصف الحى للفريق .

سأله القائد الأعلى ، فى اهتمام بالغ :

ـ وهل أسفر هذا عن شىء ؟!

صمت الدكتور (راشد) لحظات ، وغمغم فى توتر وتردُّد :

ـ بالتأكيد ..

سأله فى اهتمام أكثر :

ـ وما هو ؟!

تردَّد الدكتور (راشد) طويلاً هذه المرة ، قبل أن يقول :

ـ إنه أمر يصعب .. بل يستحيل وصفه .. ولابد أن تراه بنفسك .

اختفت صورته من على الشاشة ، وبدأ عليها بث تلك المشاهد ، التى تم تسجيلها ، من ذكريات (محمود) ..

وانتفض جسد القائد الأعلى بمنتهى العنف ، وكاد يثب من مقعده ، من فرط الذهول والذعر ..

فتلك المشاهد بدت مستحيلة !..

تمامًا .

* * *

2 ـ عند الفجر ..

كانت الصدمة عنيفة للغاية ، على جميع أعضاء الفريق ، عندما اعترف (أكرم) بأنهم قد أجبروه على خيانتهم ، مقابل حياة زوجته ، التى لم يحب فى حياته سواها ، ولم يعشق يومًا إلا إياها ..

ولدقيقتين على الأقل ، ران على الجميع صمت رهيب ، قطعته (سلوى) ، وهى تقول فى خفوت ، بلغة الفريق الخاصة :

ـ كيف تبدو الآن ؟!

لم تر فى حياتها (أكرم) بهذه الرومانسية الهائمة ، وهو يقول :

ـ رائعة .

مرة أخرى ، ران الصمت على الجميع ، وتبادلوا نظرة شديدة القلق ..

من الواضح أن عشقه لزوجته لم يخفت بمقدار ذرة واحدة ..

وأنه مستعد لفعل أى شىء فى الوجود من أجلها ..

أى شىء ..

بلا استثناء ..

السؤال هو : هل يمكن أن يبلغ هذا حد الخيانة ؟!..

خيانة فريقه ..

ووطنه ..

هل ؟!

دار السؤال فى أذهان الجميع ، إلا أن أحدًا لم يصرِّح به قط ، على الرغم من أن (رمزى) راح يتفرس ملامح (نور) فى اهتمام ، قبل أن يقول هذا الأخير فى صرامة ، مستخدمًا اللغة نفسها :

ـ فليكن .. سنعتبر هذه مهمتنا رقم واحد الآن .. البحث عن زوجة (أكرم) وإنقاذها .. ومنذ هذه اللحظة ، لن يذكر أحدنا اسمها قط ؛ لأنه حتى لو حاروا فى فهم لغتنا ، يمكنهم أن يستنتجوا ما نتحدث فيه ، لو ذكرنا اسمًا واحدًا ..

تساءلت (نشوى) فى حذر :

ـ هل نستخدم أسماءنا الكودية ؟!

أجابها فى حزم :

ـ بل سماتنا .

تبادل الجميع نظرة صامتة أخرى ، ثم قال (أكرم) ، فى توتر شديد :

ـ ولكن أساليبهم متطوِّرة للغاية ، لا يمكنك حتى فهمها ، أو استنتاج وجودهم ، وربما ...

قاطعه (نور) فى هدوء حازم :

ـ (أكرم) .

التفت إليه (أكرم) بحركة عصبية متوترة ، ولكن (نور) اتجه نحوه ، وتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً :

ـ صديقى .. مهما كان الأمر ، فثقتى بك مطلقة ، لا تشوبها أدنى شائبة ؛ لأننى أعرف من أنت ، ومدى صلابة معدنك .. بادلنى الثقة .

تلك الكلمات البسيطة أطلقت قشعريرة انفعالية عجيبة فى كيان الجميع ، فى حين راح (أكرم) ينظر فى عينى (نور) لحظات ، فى صمت تام ، قبل أن يقول فى خفوت حاسم :

ـ ثقتى بك بلا حدود يا (نور) .

ابتسم (نور) فى هدوء ، وهو يقول :

ـ على بركة اللَّه .

وكان هذا إيذانًا ببدء المهمة الجديدة ..

مهمة إنقاذ (مشيرة) ..

بأى ثمن ..

* * *

على الرغم من أنها ليست المرة الأولى ، التى يدخل فيها الدكتور (راشد) حجرة القائد الأعلى ، إلا أنه شعر بتوتر شديد ، وهو يلف إليها هذه المرة ؛ ليستقبله القائد الأعلى فى توتر أشد ، وهو يهتف به :

ـ أى شىء هذا ، الذى نقلته إلى شاشتى ؟!

أجابه بصوت خافت مختنق ، من فرط الانفعال :

ـ ما سجلته أجهزتنا .

هبَّ القائد الأعلى من خلف مكتبه بحركة حادة ، وهو يلوِّح بيده ، هاتفًا :

ـ مستحيل !

تراجع الدكتور (راشد) بحركة عصبية ، وهو يقول :

ـ ولماذا مستحيل ؟!

صاح به القائد الأعلى فى حِدَّة :

ـ لأنه مستحيل !

كان الجواب بلا أى معنى أو منطق ، فانعقد حاجبا الدكتور (راشد) فى عصبية شديدة ، جعلت القائد الأعلى ينتبه ، ويشيح بوجهه ، قائلاً :

ـ كل قواعد العقل والمنطق تتنافى وهذا .

قال الدكتور (راشد) فى حذر ، وهو ينتقى كل حرف من كلماته :

ـ عندما يتعلق الأمر بنهر الزمن ، تنهار كل الحواجز الزمنية والمكانية ، ويصبح الزمن كله عبارة عن خط واحد متصل ودائرى ، ولا فارق فيه بين الماضى والحاضر والمستقبل .

هتف القائد الأعلى فى حِدَّة :

ـ مستحيل !.. لا يمكنك إقناعى بهذا أبدًا .

هزَّ الدكتور (راشد) كتفيه ، دون أن يجيب ، فعاد القائد الأعلى إلى ما خلف مكتبه ، وهو يقول فى عصبية زائدة :

ـ ماذا يمنع أن تكون هذه المشاهد مدسوسة ؟!

قال الدكتور (راشد) فى ضيق :

ـ ومن دسَّها ؟!

لوَّح القائد الأعلى بيده فى حِدَّة ، هاتفًا :

ـ ومن أدرانى ؟!

التقط الدكتور (راشد) نفسًا عميقًا ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه الثائرة ، قبل أن يقول :

ـ إننا لا نتعامل مع كائن حى مفكِّر ، وإنما مع نسخة نصف حية ، من ذلك (الزوريوم) الحيوى ، الذى ما زلنا نعلم أقل القليل عنه ، وفى حالته الراهنة ، فذهنه أشبه بذهن وليد حديث ، لا يدرك حتى ما حوله ، فكيف يعمل عقله بالحنكة اللازمة لدس مشهد كهذا ؟!

أشار إليه القائد الأعلى بسبَّابته فى حِدَّة ، هاتفًا :

ـ أنت قُلتها .. ما زلتم لا تعلمون عنه إلا أقل القليل ، فمن أدراكم أنه ليس مادة حيوية ، ومفكرة أيضًا ؟!

اتسعت عينا الدكتور (راشد) ، وهو يتراجع بحركة حادة كالمصعوق ..

نعم .. من أدراهم ؟!

منذ ظهر (الزوريوم) إلى الوجود ، وهو يفاجئهم كل يوم بسمة جديدة ..

سمة مدهشة ..

للغاية ..

فهو فى بعض سماته مجرَّد معدن ..

معدن سائل ..

تمامًا مثل الزئبق ..

وفى سمات أخرى ، هو سائل حيوى مدهش ..

سائل يتشابه مع السائل الأمنيوسى ، الذى يحيط بالجنين ، فى رحم الأم ، ويمده بالغذاء والهواء ..

ثم إن له قدرة تجسدية مثيرة ..

تلك القدرة ، التى جعلته يعيد تكوين نسخة مماثلة لعضو الفريق الضائع (محمود) ..

النسخة التى استقوا منها ذلك المشهد الرهيب ..

والسؤال الآن هو : هل استقوه منها .. أم من (الزوريوم) ؟!..

« الفكرة منطقية .. أليس كذلك ؟!.. »

ألقى القائد الأعلى السؤال ، فى صرامة عصبية ، فانتزع الدكتور (راشد) من أفكاره ، وجعله يحدِّق فيه بنظرة أقرب إلى الارتياع ، قبل أن يجيب فى اقتضاب شديد التوتر :

- بلى .

ضرب القائد الأعلى سطح مكتبه بقبضته فى قوة ، هاتفًا بصوت ارتجف ، من فرط الانفعال :

- أرأيت ؟

كان من الواضح أن ذلك المشهد الذى رآه ، والذى تم تسجيله ، من ذكريات (محمود) فى نهر الزمن ، قد أثار توتره وخوفه إلى أقصى حد ..

وأنه يحاول إيجاد سبب لرفضه ..

بأية وسيلة ..

وأى منطق ..

ولقد أدرك الدكتور (راشد) هذا ..

أدركه وفهمه ..

ولكن الأمور بدت له أيضًا مثيرة للشك ..

وتحتاج إلى حسم ..

وأيضًا بأية وسيلة ..

أيًا كانت ..

* * *

على الرغم من كل ما شرحه (نور) ، ومن ثقة (أكرم) التامة به ، لم يستطع منع ذلك التوتر الشديد ، الذى سرى فى كيانه كله ، وهو يحاول توقع ما سيحدث ..

إنه ، ولأوّل مرة فى حياته ، يشعر بحيرة تامة ، ليس لها من مخرج ..

حيرة بين رفاقه ..

وحبيبته ..

حيرة أربكت مشاعره ، وعكّرت ذهنه ، وجعلته ، وربما لأوّل مرة أيضًا ، غير قادر على حسم الأمور فى أعماقه ..

ذلك القائد الأعلى يطالبه بكشف مفردات لغة الفريق السرية ..

تلك اللغة ، التى يستحيل أن يفهمها سواهم ..

حتى برامج تحليل الشفرة المتطورة ، عجزت عن كشف مفرداتها ..

والسبيل الوحيد هو أن يشرحها أحد من يعرفونها ..

ولقد وقع اختيار القائد الأعلى عليه ..

فقط لأنه أكثر من يعانى من نقطة ضعف كبيرة ، وسط أعضاء الفريق ..

(مشيرة) ..

زوجته وحبيبته ومعشوقته (مشيرة) ..

لقد عانت المسكينة الكثير بسببه ..

عانت غيابًا زاد عن ثلاثين عامًا ، هى زهرة عمرها كله ..

وعلى الرغم من كثرة خلافاتهما ، فى الآونة الأخيرة ، قبيل غيابه مباشرة ، إلا أنها ظلت مخلصة ، قائمة على حبه ، حتى عاد إليها ..

ولم يعد من حقه أن يورثها المزيد من العذاب ..

لم يعد من حقه أبدًا ..

وسيسعى لإنقاذها ..

مهما كان الثمن ..

مهما كان ..

توقّفت أفكاره عند هذه النقطة ، وشعر بكيانه كله يرتجف ، مع ما صحبها من أفكار ..

هل سيخون إذن ؟!..

هل سيضحى بفريقه من أجلها ؟!..

هل ؟!..

القائد الأعلى أخبره أنه حتى لو ضحى بحياته ، فسيقتل (مشيرة) بعده ..

وبأبشع وسيلة ممكنة ..

لم يترك له سبيلاً إذن ..

إما أن يضحى بفريقه ..

أو بزوجته ..

ليس أمامه من سبيل ، سوى ما اقترحه (نور) ..

الهجوم ..

أيًا كانت نتائجه ..

أيًا كانت ..

* * *

بدأت الشمس رحلة صعودها إلى السماء ، معلنة ذلك بمزيج لونى مدهش ، اصطبغ به الشفق ، من خلف الأطلال ، التى اكتست كلها بظلال كثيفة تحجب الرؤية ، مما ساعد الدُب على التحرُك فى خفة ، على الرغم من ضخامته ، متسللاً إلى حيث يقيم التمساح ، وعندما بلغ وكره ، لاحظ الحارسين ، اللذين يقفان لحراسة الوكر ، فمط شفتيه ، مغمغمًا فى زمجرة :

ـ يا للسخافة !

أخرج من جيبه خنجرًا طويلاً ، له نصل مائل مشرشر ، على هيئة مخيفة ، وزمجر مرة أخرى زمجرة خافتة ، قبل أن يدور حول المكان ، بنفس الخفة التى تتعارض مع ضخامته ؛ ليلتف حول الحارسين ، وعندما أدرك أنه قد باغتهما ، انقض عليهما فى قوة فاجأت الرجلين ، فاستدارا إليه بسرعة بسلاحيهما ، إلا أنه لطم أحدهما لطمة عنيفة ، ألقت به أرضًا ، وأطاحت بسلاحه ، فى حين قبض على عنق الثانى ، ورفع يده بالخنجر ؛ ليذبحه فى سرعة ، دون أن يطرف له جفن ، ثم أفلته فى لا مبالاة ، قبل أن ينقض على الثانى ، الذى حاول التقاط سلاحه ، ولكنه فوجئ بالدُب يجثم على صدره ، على نحو كاد يُزهق روحه ، وهو يزمجر قائلاً :

ـ محاولة فاشلة .

اتسعت عينا الحارس ، وأراد أن يطلق صيحة تحذير عالية ، إلا أن الدُب كتم أنفاسه فى قوة ، ورفع خنجره ، وهو يضيف :

ـ على عكس هذه .

وبحركة سريعة ، نبح الحارس الثانى ، وظلَّ يكتم أنفاسه فى قوة ، غير مبال بالدماء الغزيرة ، التى انطلقت من عنقه ، وتناثرت على ثيابه ، حتى همدت حركة الحارس تمامًا ، فنهض من فوقه فى هدوء عجيب ، لا يتناسب مع ما ارتكبه من بشاعة ...

وفى بساطة من اعتاد هذا ، مسح خنجره فى ثيابه ، ودسه فى حزامه ، ثم أخرج مسدسًا ليزريًا قديمًا ، تأكد من شحنه الكامل بالطاقة ، قبل أن يقف أمام باب وكر التمساح ، قائلاً فى صرامة :

ـ الأوَّل .

وبكل قوته ، ضرب الباب بقدمه ، واندفع إلى الداخل ، و ...

« والأخير .. »

انطلقت الكلمة من بين شفتى الليث ، فى نفس اللحظة التى سقطت فيها شبكة معدنية على الدُب ، فأحاطت به لحظة ، وأجبره ثقلها على السقوط أرضًا ..

وفى لحظة واحدة ، امتدت أطراف الشبكة ، لتلصقه بالأرضية المعدنية فى قوة ، وعلى نحو جعله عاجزًا عن تحريك أنملة ، وإن ظل قادرًا على رؤية ما حوله ..

ومَن حوله ..

وتفجَّر فى أعماقه مزيج مدهش من الخوف والذهول والحيرة ..

فأمامه مباشرة ، كان يقف الليث ..

والفهد ..

والتمساح ..

ورجالهم ..

كان من الواضح أنهم ينتظرونه ..

ويعلمون بأمره ..

وأعدوا له فخًا ..

محكمًا ..

فخًا ضحوا فيه بحارسين ؛ ليضمنوا سقوطه ..

ولكن كيف ؟!..

كيف علموا ؟!..

كيف ؟!..

« تتساءل كيف .. أليس كذلك ؟!.. »

نطقها الليث فى سخرية شامتة ، على نحو بدا معه وكأنه يقرأ أفكاره ، فزمجر الدُب ، عاجزًا عن الحركة ، وقال التمساح فى عصبية :

ـ لماذا لا ننهى الأمر فورًا ؟!

تجاهله الليث تمامًا ، وهو يقول ، بنفس السخرية الشامتة :

ـ التكنولوجيا ... سيِّدك يعتبر نفسه المُدرك الوحيد لها ، والعالِمَ بكل أسرارها ، ولكن العالَمَ ما زال يحيا يا رجل .. يعيش على نحو يختلف عما نراه هنا ، وفى ذلك العالَمِ فى الخارج ، يدرك الجميع هذه التكنولوجيا ، ويتعامل معها ليل نهار .

زمجر الدُّب فى عصبية ، عاجزًا عن الحركة والمقاومة ، وقال الفهد فى ضيق :

ـ لست أجد داعيًا لهذه المقدمة الطويلة .

وأضاف التمساح بعصبية :

ـ لماذا لا نقضى عليه مباشرة ؟!

مرة أخرى تجاهلهما الليث تمامًا ، وتابع مواجهًا الدُّب مباشرة :

ـ وبمساعدة قليلة من الخارج ، زرعنا أجهزة تنصت دقيقة للغاية ، فى وكر الزعماء ، وبواسطتها سمعنا كل حديثك مع سيِّدك ، وعلمنا أنك ستبدأ فى التخلص منا ، مع أوَّل ضوء فجر .. وأنك ستبدأ هنا .. بالتمساح .

قال الدُّب فى غضب :

ـ ستدفعون الثمن .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حِدَّة :

ـ ثم إننى زعيم مثلكم ، والذئب شريكى ، وليس سيِّدى .

جذب الليث مقعدًا ، وجلس إلى جواره ، قائلاً :

ـ أهذا ما تظنه ؟!

زمجر الدُّب ، وهو يهتف فى صعوبة ، مع شدة التصاقه بالأرض :

ـ كلنا زعماء .

قال الليث فى صرامة :

ـ لماذا أرسلك إذن ؛ للقيام بمهامه القذرة ؟!.. لماذا لم يأت هو بنفسه ليقتلنا ؟!.. هل ألقيت على نفسك هذا السؤال ، ولو لحظة واحدة ؟!

لم يجب الدُّب هذه المرة ، ولم يحاول حتى أن يطلق زمجرته المعتادة ، وكأنما أصاب حديث الليث شيئًا فى نفسه ..

ومن المؤكد أن الليث قد شعر بهذا ، وهو يستطرد ، فى لهجة أقل صرامة ..

ـ ولأنك زعيم ، لم يكن ينبغى أن تفعل هذا عنه أبدًا .

قال الفهد فى صرامة ، محاولاً إنهاء هذه المحادثة ، التى بدت له ، وحتى للتمساح ، عديمة الجدوى :

ـ هل سنواصل هذا إلى الأبد ؟!

استدار إليه الليث فى حركة حادة ، صائحًا فى غضب صارم :

ـ اصمت .

ارتدَّ الفهد بحركة عنيفة ، وكأنما أصابته الصيحة بلطمة مباغتة ، واتسعت عيناه فى استنكار مندهش ، قبل أن يقول فى غضب :

ـ أنت قلتها .. كلنا زعماء ، وهذا لا يعطيك الحق فى أن ...

قاطعه الليث بصيحة أشد غضبًا وصرامة :

ـ اصمت .

ارتدَّ الفهد مرة أخرى مصدومًا ، وندت منه حركة توحى بأنه سينقض على الليث ، ولكن التمساح أمسك ذراعه فى قوة ، وأشار إلى رجاله بالهدوء ، وهو يهمس له ، فى لهجة لم تخل من عصبيته المعتادة :

ـ لديه خطة ما .

ثم التفت إلى الليث ، مكملاً فى عصبية أكثر :

ـ حتمًا !

لم يسمع الليث همسهما ، وهو يلتفت إلى الدُب مرة ثانية ، قائلاً :

ـ لو أنك زعيم حقًا ، فتصرَّف كما يتصرَّف الزعماء .

قال الدُب فى حِدَّة مختنقة :

ـ يُعِدُّون الفخاخ ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ بل يعملون للصالح العام ، ويَهَبُون أنفسهم من أجل أوطانهم .

كان الدُب يشعر باختناق شديد ، تحت ثقل الشبكة المعدنية ، ولكنه قال فى عصبية :

ـ هذا ما يفعله الذئب .

هزَّ الليث رأسه نفيًا فى بطء ، قبل أن يقول :

ـ بل ما يريد أن يعتقد الناس أنه يفعله .

ثم مال نحوه ، مضيفًا بلهجة خاصة :

ـ وما يريدهم أن يصدقوه .

رفع الدُب عينيه إليه فى صعوبة ، فتراجع الليث معتدلاً ، وأشار بيده ، قائلاً ، فى شىء من الخبث :

ـ بِمَ تصوَّرت أن الذئب سيكافئك ، بعد أن تتخلَّص من كل الزعماء ؟!

زمجر الدُب مرة أخرى ، قائلاً :

ـ لست أنتظر مكافأة .

تابع الليث ، وكأنه لم يسمعه :

ـ بالقتـــل .

وعلى الرغم من ثقل الشبكة المعدنية ، والتصاق الدُب بـالأرض ، انتفض جسده من الداخل ، ولـم ينبس ببنت شفة ، وإن أطلَّ توتـر شديد من ملامحه الغليظة ، مما جعل الليث يتابع ، بخبثه المعهود :

ـ وهذا أمر طبيعى ؛ فبعد مصرعنـا جميعًا ، ستصبح الوحيد المطلع على سرِّه ، والوحيد القادر على تدمير مصداقيته ، وأنـت تعلم طبعًا لمــاذا .

ودون أن يجيب الدُب ، أطلَّت مـن عينيـه نظـرة متسـائلة ، فاستطرد الليث فى هدوء عجيب ، لا يتناسب مع الموقف :

ـ فمن يقتل زعماء المقاومة يرتكب أكبر خطيئة ، فى الدستور غير المعلن للفصائل ، ولن يغفر له أحد هذا أبدًا ، لو انكشف الأمر .

ثم عاد يميل نحو الدُّب ، مردفًا بلهجته الخاصة :

ـ ومن سواك يملك هذا ؟!

فَقَدَ الفهد أعصابه عند هذه النقطة ، فانتزع مسدسه الليزرى ، وصوَّبه نحو الدُّب ، هاتفًا :

ـ سأنهى هذه السخافة فورًا .

أشار إليه الليث إشارة صارمة ، وعاد التمساح يمسك ذراعه ، قائلاً فى عصبية حاول كتمانها :

ـ امنحه فرصته .

تراجع الفهد محنقًا ، فى حين عاد الليث يتحدَّث مع الدُب ، قائلاً :

ـ كما ترى .. رفيقـاى عصبيـان نـافذا الصبر ، ومـن الناحيـة العملية البحتة ، لا يصلحان للزعامة .

زمجر الفهد فى غضب :

ـ أى قول سخيف هذا ؟!

وقال التمساح فى عصبية :

ـ ماذا يعنى هذا ؟!

ولكن الليث أكمل ، وكأنه لم يسمعهما :

ـ لذا ، قرَّرت التخلص منهما .

صُعِقَ الفهد والتمساح لقوله هذا ، وهتف الأخير فى عصبية بالغة :

ـ أى قول ..

اختنقت عبارتـه فـى حلقـه ، عندمـا التفت إليـه الرجـال كلهـم بأسلحتهم ، فى آن واحد ، على نحو لم يتوقَّعه أو يتخيَّله ..

رجال الليث ..

ورجال الفهد ..

وحتى رجاله ..

جميعهم صوَّبوا إليه وإلى الفهد أسلحتهم ، ومن عيونهم تطلُّ نظرة صارمة متحفزة ..

وفى هدوء شديد ، قال الليث مخاطبًا الدُّب ، دون حتى أن يلتفت إلى الفهد والتمساح :

ـ أرأيت .. الزعيم الحق هو من يعمل لصالح الوطن ، بِغَضِّ النظر عن الأمور الشخصية أو العواطف .. إنهما بالفعل لا يصلحان للزعامة ، وصالح الوطن يحتّم إزاحتهما عن الطريق .

غمغم الدُّب ، وقد بدأ يلهث فى صعوبة :

ـ هل ستعتقلهما ؟!

هزَّ الليث كتفيه ، وقال :

ـ هذا ما جال بخاطرى فى البداية ، ولكننى وجدت أن هذا قد يستفز الفصائل التى تعمل تحت قيادتهما ، ويفرق وحِدَّة الشمل ، مع محاولات إنقاذهما وتخليصهما ، وإعادتهما إلى الزعامة ، ولكن لو أنهما ماتا بطلين ، فى هجوم مباغت للدوريات المدنية ، فهذا سيجعل منهما رمزًا ، وسيخلق عصبية الانتقام لهما ، وفى غمرة هذا ، لن يمانع أحد من توحيد الفصائل تحت زعامة واحدة ..

وتألقت عيناه ، وهو يضيف :

ـ زعامتى .

لم يحاول الدُّب التعليق ، وإن بدأ عقله يستوعب اللعبة كلها .. لعبة الزعامة ..

لا أحد يعمل من أجل الوطن ..

لا أحد على الإطلاق ..

الكل يعمل من أجل نفسه ..

من أجل السلطة ..

والقــوة ..

والزعامة ..

والنفـوذ ..

حتى هو ، ينبغى أن يعمل من أجل هذا ..

من أجل نفسه ..

فقـط ..

وفى ذعر واضح ، هتف التمساح :

ـ هل ستقضى علينا ؟!

وأضاف الفهد فى حِدَّة :

ـ وبيد رجالنا .

التفت إليهما الليث ، قائلاً :

ـ بيد رجال المقاومة .. لا تنسيا هذا .

ثم نهض ، وعقد يديه خلف ظهره ، مستطردًا :

ـ المهم أنكما ستموتان بطلين .

هتف الفهد فى غضب :

ـ أيها الـ ....

قبل أن يتم هتافه الغاضب الساخط ، اندفع نحوه أحد رجاله ، وهوى على مؤخرة رأسه بكعب مسدسه الليزرى ، فزاغت عيناه لحظة ، قبل أن يهوى فاقدًا الوعى ، فى حين انقض رجلان آخران على التمساح ، وقيداه فى إحكام ، وهو يصرخ :

ـ لا أيها الليث .. لا تقتلنى .. يمكننى أن أكون خير عون لك .. أرجوك ..

قلَب الليث شفتيه فى امتعاض ، وهو يقول :

ـ الزعماء الحق لا يتوسلون .

صرخ التمساح ، وكأنه لم يسمعه :

ـ أرجـوك .

لم يكد ينطقها ، حتى كمم أحد الرجال فمه ، بشريط لاصق قوى ، وأشار الليث إلى الرجال ، فحملوه بعيدًا ، وهو يقاوم فى استماتة ، وما إن اختفى مع الفهد الفاقد الوعى من المكان ، حتى التفت الليث مرة أخرى إلى الذُب ، وقال مع التماعة عينيه :

ـ أرأيت ؟!

ثم أخرج من جيبه مسدسًا ليزريًا ، صوبه إلى الذُب ، الذى شعر بقشعريرة باردة تسرى فى جسده ، قبل حتى أن يقول الليث فى صرامة شديدة القسوة :

ـ والآن من تختار .. الليث أم الذئب ؟!.. فكِّر جيدًا ؛ لأنه أمامك فرصة واحدة للإجابة .. واحدة فقط .

وكان هذا يعنى أن الأمور قد انقلبت تمامًا ، فى العالم الجديد .. انقلبت ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

3 ـ خيـــانة ..

ارتفع ذلك الصوت الأنثوى الآلى ، يقول فى حجرة القائد الأعلى :

ـ السيد (أكرم) يطلب الإذن بالدخول .

التمعت عينا القائد الأعلى ، عندما سمع هذا النداء ، واعتدل فى مقعده ، وهو يضغط زرًا خفيًا فى ياقة سترته الرسمية ، قائلاً :

ـ فليدخل بعد دقيقة واحدة .

تموَّج وجهه لحظة ، قبل أن يتحوَّل فى بطء إلى هيئة الرائد (أيمن) ، قبل أن يتموَّج الجدار أمامه وكأنه يذوب ، ثم ظهر خلفه (أكرم) ، الذى دلف إلى المكان فى توتر ملحوظ ، جعل القائد الأعلى يقول فى ثقة ، دون أن تفقد عيناه التماعتهما :

ـ ما زلتَ عاجزًا عن استيعاب هذا .. أليس كذلك ؟!

لوَّح (أكرم) بيده ، قائلاً فى عصبية :

ـ الاستيعاب مسألة اعتياد ، أما التكيف ، فهو أمر نفسى .

مطَّ القائد الأعلى شفتيه ، وهو يقول :

ـ ربمـــا .

ثم كسا وجهه الزائف بصرامة شديدة ، وهو يستطرد :

ـ هل اتخذت قرارك ؟!

اعتدل (أكرم) ، وألقى نظرة متوترة على الجدار الذى عاد يتكوَّن خلفه ، ثم رفع عينيه بحركة غريزية إلى السقف ، وكأنما يستعيد آلام وسائل الدفاع الرقمية ، قبل أن يجيب فى شىء من العصبية :

ـ بالتأكيد .

مرَّر القائد الأعلى سبَّابته خُفْية ، على جزء من إطار مكتبه ، فبدأت أجهزة الفحص الطيفية عملها على الفور ، وراحت ترصد كل التغيرات الحرارية والنفسية لـ (أكرم) ، والقائد يسأله :

ـ هل ستتعاون معنا ؟!

زفر (أكرم) فى مرارة ، مجيبًا :

ـ لم تترك لى سوى هذا .

انتبه القائد الأعلى بشدة إلى أجهزة الفحص ، التى أكَّدت كلها أن (أكرم) صادق فى تصريحه هذا ..

صادق تمامًا ..

ولكن هذا لا يكفى ..

فالإجابة نفسها لم تكن صريحة مباشرة ..

كانت إجابة مطاطة ، كما يصفها خبراء الفحص ..

إجابة قد تعنى أنه لم يترك له سوى التعاون ..

أو سوى المقاومة ..

لذا ، فقد انعقد حاجبا القائد الأعلى ، وهو يقول فى صرامة شديدة :

ـ أريد إجاباتك كلها بنعم أو لا .. فقط .

أومأ (أكرم) برأسه إيجابًا فى توتر ، فاعتدل القائد الأعلى ، قائلاً :

ـ هل ستنفذ كل ما نأمرك به ؟!

أجابه (أكرم) فى بطء :

ـ نعـم .

أكدت كل أجهزة الفحص أنه صادق فى قوله ، مما جعل القائد الأعلى يسترخى قليلاً فى مقعده ، وهو يسأل :

ـ وستخبرنا مفردات لغتكم الخاصة ؟

بدا (أكرم) بائسًا ، وهو يجيب :

ـ نعـم .

مرة أخرى ، أكدت كل الأجهزة أن إجابته صادقة تمامًا ..

لقد اتخذ قراره أخيرًا ..

قرار خيانة فريقه ..

من أجل زوجته ..

وهذا يعنى أن الضربة كانت صائبة تمامًا ..

استخدام (مشيرة) ورقة ضغط آتى ثماره ..

إلى أقصى حد ..

« لقد اتخذتَ قرارًا حكيمًا يا سيِّد (أكرم) .. »

نطقها القائد الأعلى فى ثقة ، ولكن (أكرم) هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يقول فى مرارة :

ـ بل هو قرار حقير .

صدمت العبارة القائد الأعلى ، فاعتدل بحركة حادة ، قبل حتى أن يستطرد (أكرم) :

ـ ولكننى مضطر .

وعلى الرغم من غضب القائد الأعلى للجواب ، فقد بدا له الموقف كله منطقيًا للغاية .. صحيح أن (أكرم) سيتعاون ، وينفذ كل أوامرهم ..

ولكن هذا حتمًا لا يرضيه ..

أبدًا ..

إنه يفعله ، كما قال بنفسه ، مضطرًا ..

يفعله من أجل (مشيرة) ..

زوجته ..

وحبيبته ..

وحب عمره كله ..

لقد شاهد القائد الأعلى بنفسه كيف التقيا ..

كيف اندفع (أكرم) نحوها ، بكل الحب واللهفة ، وكيف احتواها بين ذراعيه ، بقلب ألف ألف عاشق ..

ومثله لن يتخلى عن مثلها أبدًا ..

مهما كانت الأسباب ..

ومهما كانت التضحيات ..

وفى ثقة أكثر ، تراجع القائد الأعلى فى مقعده ، وأشار إلى (أكرم) ، قائلاً :

ـ ستلتقى بخبراء الشفرة بعد نصف ساعة من الآن ، وستتعاون معهم فى حل مفردات لغتكم الخاصة .

غمغم (أكرم) :

ـ يمكننى أن أترجم لكم كل ما سجلتموه .

أجابه فى صرامة شديدة :

ـ ستطلعهم على كل ما يسألونك عنه .

خفض (أكرم) عينيه ، قائلاً فى مرارة :

ـ سأفعل .

أكدت كل الأجهزة ، هذه المرة أيضًا ، أنه صادق تمامًا ، وحتى عندما اكتسب صوته صرامة حازمة مفاجئة ، وهو يضيف :

ـ بشرط واحد .

انعقد حاجبا القائد الأعلى ، وهو يقول فى حِدَّة :

ـ أى شرط ؟!

أجابه (أكرم) بنفس اللهجة :

ـ (مشيرة) .

أجابه القائد الأعلى فى حِدَّة أكثر :

ـ لن نطلق سراحها قبل أن تخبرنا ما نريد .

قال (أكرم) فى صرامة :

ـ أعلم أن حذركم سيمنعكم من أن تفعلوا .

شعر القائد الأعلى بالدهشة ، وهو يسأله :

ـ ماذا عنها إذن ؟!

أجابه (أكرم) بنفس الصرامة :

ـ أريد أن أطمئن إلى أنها بخير .

أجابه القائد الأعلى فى حزم :

ـ إنها كذلك .

قال (أكرم) ، فى صرامة أكثر :

ـ أريد أن أطمئن بنفسى .

انعقد حاجبا القائد الأعلى مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ ما الذى تفكر فيه بالضبط ؟!

أجابه (أكرم) ، فى سرعة ولهفة :

ـ أراها .. أريد أن أراها .

تطلَّع إليه القائد الأعلى فى شك حذر ، ثم أدار عينيه إلى أجهزة الفحص ..

النتائج كلها إيجابية تمامًا ..

إنه صادق ، منذ وطئت قدماه المكان ..

لم يكذب مرة واحدة ..

على الإطلاق ..

ولكنه ما زال يشعر بالشك والحذر ..

ما زال غير واثق من أن هذا فقط ما ينشده (أكرم) ..

ولكن ماذا عن نتائج الفحص ؟!

شملته الحيرة لحظات طوال ، قبل أن يقول فى صرامة متوترة :

ـ مطلب مرفوض .

شدّ (أكرم) قامته ، وقال فى حزم صارم :

ـ ومطلبكم أيضًا .

هتف به فى غضب :

ـ هل تجرؤ ؟!

أجابه (أكرم) بمنتهى الصرامة :

ـ هذا مقابل ذاك .. إما أن أرى (مشيرة) ، وأتأكَّد من أنها بخير ، أو يُلغى الاتفاق تمامًا .

ضرب القائد الأعلى سطح مكتبه بقبضته ، صائحًا فى غضب :

ـ لا يمكنك أن تملى علينا شروطًا .

أجابه بمنتهى الصرامة :

ـ وكذلك أنتم .

هذه الإجابة الأخيرة جمَّدت الموقف كله ، وجعلت كليهما يحدِّق فى وجه الآخر متحديًا ، قبل أن يميل القائد الأعلى نحوه ، قائلاً :

ـ هل تدرك عواقب أسلوبك هذا ؟!

أومأ (أكرم) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ إنكم تطلبون منى التضحية برفاقى ، وبكل ما أومن به ، فى سبيل أمن وسلامة زوجتى ، ولا بد وأن أتيقن أوّلاً من أنها بخير ، وما زالت على قيد الحياة على الأقل .

مرة أخرى بدا الأمر منطقيًا للغاية ، بالنسبة للقائد الأعلى ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقه ظلَّ يشعر بالشك ..

شك بلا حدود أو أبعاد واضحة ..

على الإطلاق ..

* * *

« لحظة يا دكتور (راشد) .. »

هتف (نور) بالعبارة ، فتوقف الدكتور (راشد) فى توتر ، وسط الممر الذى يقود إلى قاعة البحث ، التى يحتفظون فيها بنسخة (محمود) الحيوية ، والتفت إليه ، محاولاً إخفاء عصبيته ، وهو يقول :

ـ ماذا تريد أيها المقدم ؟!

اقترب منه (نور) فى هدوء ، وهو يقول :

ـ لقب لا يصلح قط فى هذا العصر يا دكتور (راشد) .. فالمفترض ، لو أننى ظللت أعمل هنا ، منذ زمنى وحتى الآن ، أن أحصل على رتبة لواء على الأقل ، أما لو لم أكن أعمل هنا ، فلا ينبغى أن أحمل أى لقب على الإطلاق .

شعر الدكتور (راشد) بتوتر أكثر ، مع هذا الحديث ، فقال وقد عجز هذه المرة عن إخفاء عصبيته :

ـ لم تخبرنى ماذا تريد ؟

أجابه (نور) فى سرعة وحزم :

ـ (محمود) ..

ازدادت عصبية الدكتور (راشد) ، وهو يسأله :

ـ ماذا عنه ؟!

قال (نور) ، فى شىء من الصرامة :

ـ أريد أن أراه .

هتف الدكتور (راشد) فى سرعة ، توحى بأن الفكرة قد جالت برأسه ألف مرة :

ـ مستحيل !

سأله (نور) بنفس الصرامة :

ولماذا مستحيل ؟!.. المفترض أنه عضو أساسى فى فريقى العلمى ، ومن حقى كقائد للفريق أن ...

قاطعه الدكتور (راشد) فى عصبية شديدة :

ـ لا .. ليس هذا من حقك .

تطلع (نور) إلى عينيه مباشرة ، لحظات ، قبل أن يسأله فى بطء صارم :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

بدت عصبية الدكتور (راشد) متزايدة ، وهو يقول :

ـ لا شأن للأمر بما أعتقده أو ما لا أعتقده .. إنها القواعد .. لقد اختفيت أنت وفريقك لأكثر من ثلاثين عامًا ، مما ينهى صفتكم

الرسمية هنا تمامًا ، ثم إن (محمود) نفسه قد انتهت صلته بالفريق رسميًا ، منذ ضاع جسده فى نهر الزمن ، أضف إلى هذا أن من لدينا ليس (محمود) نفسه الذى تعرفونه ، بل هو نسخة مشابهة حيوية له ، أشبه بسيبورج ، أو شخص نصف آلى .

قال (نور) صارمًا :

ـ ولكنها تحوى كل طاقته .

ثم مال نحو الدكتور (راشد) ، مضيفًا :

ـ تلك الطاقة ، التى عاشت طويلاً فى نهر الزمن ، بكل فراغه ، وعالمه ، و ...

صمت لحظة ، قبل أن يكمل ، هامسًا فى أذن الدكتور (راشد) مباشرة :

ـ وأسراره .

انتفض الدكتور (راشد) فى عنف ، وعلى نحو واضح تمامًا ، واتسعت عيناه عن آخرهما فى ارتياع ، عندما همس (نور) بالكلمة الأخيرة ، وحدَّق فى وجه (نور) ، على نحو جعل هذا الأخير يعتدل ، قائلاً :

ـ من الواضح أننى قد أصبت كبد الحقيقة هذه المرة .

بدا الدكتور (راشد) شديد العصبية هذه المرة ، وهو يقول :

ـ أى حقيقة ؟!

أجابه (نور) ، فى سرعة وصرامة :

ـ حقيقة أنكم تحتفظون بنسخة وطاقة (محمود) ، حتى يمكنكم أن تستخلصوا منها كل أسرار نهر الزمن .. أسرار الزمن ، بماضيه ، وحاضره ، و ...

صمت لحظة ، ثم أضاف فى صرامة وحزم شديدين :

ـ ومستقبله .

ومرة أخرى ، انتفض جسد الدكتور (راشد) ..

انتفض على نحو أكثر عنفًا ..

بكثير ..

وفى هذه المرة ، عندما اتسعت عيناه ، لم تحملا ارتياعًا فحسب .

بل رعبًا ..

رعبًا هائلاً ..

وبلا حدود ..

رعبًا لا يعنى أن (نور) قد أصاب حقيقة فحسب ..

بل وأن تلك الحقيقة مرعبة ..

مخيفة ..

رهيبة ..

وإلى أقصى حد ..

قرأ (نـور) هذا كلـه فـى انفعال الدكتـور (راشـد) ، فـانعقد حاجباه فى شدة ، وأمسك ذراع الرجل فى قوة ، قائلاً :

ـ ماذا استخلصتم من محمود ؟!

ارتجف جسد الدكتور (راشد) بين أصابعه ، ورفع عينيه إلـى نقطة ما لحظة واحدة ، قبل أن يعود بعينين مرتاعتين إلى (نـور) ، هاتفاً :

ـ اتركنى .

كررَّ (نور) سؤاله فى صرامة شديدة ، وأصابعه تنغرز أكثر فى ذراع الدكتور (راشد) :

ـ ماذا استخلصتم ؟!

صاح الدكتور (راشد) فى رعب :

ـ سأستدعى طاقم الأمن .

صاح فيه (نور) ، فى صرامة قاسية :

ـ افعـل .

ضغط الدكتور (راشد) بسبابة مرتجفة ، أحد أزرار سترته ، فى عصبية بالغة ، فظهر على الفور طاقم أمنى ، مكوَّن من ثلاثة أفراد ، يسرعون نحوهما ، وهتف بهم الدكتور (راشد) :

ـ إنه يتعامل معى بالقوة .

أفلت (نور) ذراع الرجل ، فى نفس اللحظة التى وصل فيها طاقم الأمن الثلاثى ، وقال فى صرامة ، عندما أحاطوا به بأسلحتهم :

ـ سنلتقى مرة أخرى .

امتقع وجـه الدكتـور (راشـد) ، وازدرد لعابـه فـى عصبيـة ملحوظة ، ثم ابتعد فى خطوات سريعة مضطربة عبر الممر ، فى حين التفت (نـور) إلـى رجـال الأمـن الثلاثـة ، ودار بعينيـه فـى وجوههم فـى صرامـة ، جعلتهم يخفضـون أسـلحتهم ، وأحدهـم يغمغم فى خفوت آسف :

ـ معذرة أيها المقدم (نور) ، ولكن ...

قاطعه (نور) بنفس الصرامة :

ـ لا عليك .

ابتعد الثلاثة عنه فى احترام ، ورفع هو عينيه لحظة ، إلى الساعة الهولوجرامية فى الممر ، ثم ابتعد عائداً إلى حيث حجرات الفريق ، والرجال الثلاثة يتابعونه بأعينهم فى صمت ..

وفى الممر ، الذى يضم حجرات الفريق ، التقى به (رمزى) ، متسائلاً :

ـ هل رأيت (محمود) ؟!

أجابه (نور) فى هدوء شديد ، لا يتفق أبداً مع الموقف :

ـ كلاً .. ولكننى حصلت على ما أبتغيه .

وابتسم (رمزى) ..

والتمعت عيناه ..

بشـدة ..

« ما الذى يعنيه هذا ؟!.. »

قالها القائد الأعلى فى توتر شديد ، وهو يتابع ذلك المشهد على الشاشة ، فتردَّد الرائد (هيثم) لحظات ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ لقد حصل على معلومة ما .

التفت إليه القائد الأعلى ، متسائلاً فى نفس التوتر :

ـ أى معلومة ؟!

هزَّ (هيثم) كتفيه ، قائلاً :

ـ أننا قد استخلصنا شيئًا مهمًا ، من طاقة (محمود) هذا .

وصمت لحظة ، قبل أن يسأل فى حذر :

ـ هل فعلنا حقًا ؟!

أجابه فى حِدَّة :

ـ لا شأن لك بهذا .

تراجع (هيثم) فى خوف ، قائلاً :

ـ معذرة يا سيِّدى ، لقد تصورْت ...

قاطعه فى حِدَّة أكثر :

ـ اصمت .

ثم نهض من خلف مكتبه ، وبدا شديد التوتر ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، ويتحرك فى حجرته ، قائلاً ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ العجيب أنهما نطقا هذا باللغة العربية العاديـة ، وليس بلغة الفريق الخاصة ، وكأنهم لا يبالون بأن نسمعه .

ثم توقَّف فجأة ، وشرد بصره ، وهو يكمل :

ـ أو أنهم أرادونا أن نسمعه .

لم يجرؤ (هيثم) علي التعليق بحـرف واحـد ، فـى حين بقى القائد الأعلى صامتًا ساكنا ، لما يقرب من دقيقتين كاملتين ..

كان من الواضح أنه يفكر ..

ويحسب ..

ويستنتج ..

ويحاول التوصُّل إلى حقيقة ما يحدث ..

وإلى ما يفعله الفريق ..

بأية وسيلة ..

وأدق وسيلة ..

وأسرع وسيلة ..

« إنهم يدبرون شيئًا ما .. »

التفت إلى (هيثم) ، وهو ينطقها فى توتر ، فتساءل هـذا الأخير فى حذر :

ـ الفريق ؟!

لوّح القائد الأعلى بذراعه فى عصبية ، قائلاً :

ـ ومن غيره .

ثم عاد إلى مكتبه ، وتوتره يتزايد ، وجلس خلفه ، مضيفًا :

ـ الأمر واضح للغاية .. لقد أعدوا واتفقوا على خطة .. خطـة متقنة معقّدة ، كتلك التى روتها عنهم كتب التاريخ .

تساءل (هيثم) ، فى حذر واضح :

ـ خطة لمـاذا ؟!

بدا القائد الأعلى شديد الصرامة والعصبية ، وهو يجيب :

ـ لمحاربتنا .

ارتدّ (هيثم) بحركـة حـادة ، فور سماعه هذا ، ممـا يوحى بأنه لم يتوقعه أبدًا ، ولقد بدا هذا واضحًا ، فى هتافه التلقائى :

ـ محاربتنا ؟!

انعقد حاجبا القائد الأعلى ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ ألا يبدو لك هذا واضحًا ؟!

هزّ (هيثم) كتفيه ، دون أن يجيب ، فتابع القائد الأعلى ، وكأنما لم يكن ينتظر منه جوابًا :

ـ إنهم لا يُبدون أى تعاون ، منذ استعاد الفريق كلـه وعيـه ، ومنذ أدركوا أننا نحيطهم برقابة صارمة ... لقد كانوا أكـثر ذكـاءً مما كنا نتوقّع .

صمت بضع لحظات ، وهو يفكّر فى عمق ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ ولكننا لن نسمح لهم بهذا قط .

ضرب سطح مكتبه براحته ، قبل أن ينهض ، قـائلاً فـى حزم صارم :

ـ استدع كل أعضاء الفريق ؛ لاستجوابهم جميعًا ، عبر أدق وسائلنا الخاصة .

سأله (هيثم) فى قلق :

ـ بأى تهمة ؟!

شدَّ القائد الأعلى قامته فى صرامة ، وهو يجيب :

ـ التآمر على نظام الحكم .

وعلى الرغم منه ، انتفض جسد (هيثم) ، عند سماعه الاتهام ..

فعقوبة تهمة كهذه هى الإعدام ..

الإعدام بلا أمل فى العفو ..

على الإطلاق .

* * *

4 ـ المؤامـــرة ..

التمعت عينا الذئب على نحو عجيب ، وهـو يستقبل الدُّب فى مقر زعماء الفصائل ، قائلاً :

ـ هل أنهيت مهمتك ؟!

أجابه الدُّب فى توتر :

ـ تقريبًا .

تفرَّس الذئب ملامحه لحظات ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ ماذا يعنى هذا الجواب ؟!.. إما أنك قد أنهيتها أو لا .

قال الدُّب ، فى توتر أكثر :

ـ لقد أنهيتها .

ثم استدرك فى عصبية :

ـ ولكن ...

لم يتم عبارته ، فسأله الذئب فى صرامة :

ـ ولكن مـاذا ؟!

تطلَّع الدُب إلى عينيه مباشرة ، دون أن يُحير جوابًا ، ولكن صوتًا آخر ارتفع ، من مدخل المقر ، قائلاً فى صرامة :

ـ ولكننا كنا فى انتظاره .

رفع الذئب عينيه بحركة حادة ، إلى الليث ، الذى نطق العبارة ، والذى دلف إلى المكان مع رجاله ، ورجال التمساح والفهد ، ووقف الجميع خلفه فى صفين ، والذئب يقول فى غضب :

ـ ماذا يحدث بالضبط ؟!

تجاهل الليث سؤاله الغاضب تمامًا ، وهو يقول للدب :

ـ أشكرك على إيقاف عمل أجهزة الأمن والإنذار فى المقر أيها الدُب ... هذا دليل حسْن تعاونك وإدراكك .

خفض الدُب عينيه فى صمت ، فى حين انعقد حاجبا الذئب ، وهو يرمقه بنظرة غاضبة ، قائلاً فى شىء من الشراسة :

ـ أنت ؟!

أجابه الليث فى شماتة :

ـ أمر طبيعى أيها الذئب .. فى هذه المرحلة ، كلٌّ عليه أن يسعى إلى صالحه بالدرجة الأولى .

قال الذئب فى غضب :

ـ مهما كان الثمن ؟!

هزَّ الليث كتفيه ، وتألَّقت عيناه ، وهو يقول بنفس الشماتة :

ـ لا يوجد ثمن يفوق الحياة نفسها ، والدُب كان حكيمًا ، وابتاع حياته بحياتك .

قال الذئب :

ـ وماذا عن الوطن ؟!

عاد الليث يهزُّ كتفيه ، قائلاً :

ـ فاقد الشىء لا يعطيه ، وإن لم نشعر نحن بالأمان والاستقرار ، فكيف نمنحهما الوطن .

قال الذئب فى صرامة :

ـ إنك لم تفعل هذا من أجل الوطن ، ولكن من أجل زعامة كل الفصائل .

التمعت عينا الليث فى طمع ، وهو يقول بابتسامة بغيضة :

ـ حتى هذا من أجل الوطن .

شدَّ الذئب قامته ، قائلاً فى حزم عجيب :

ـ أنت على حق .. كل شىء مباح .. من أجل الوطن .

لم يكد ينتهى من عبارته ، حتى انبعثت من السقف فجأة ، حزمة من خيوط أشعة أرجوانية رفيعة ، تفرّقت فى سرعة خرافية ؛ ليصيب كل خيط منها واحدًا من الرجال ، الذين يقفون خلف الليث ..

وفى لحظة واحدة ، ودون حتى أن تصدر عنهم آهة ألم ، سقط الجميع صرعى ..

ومن رءوسهم ، سالت خيوط قانية من الدم ، اتسعت لها عينا الليث ، قبل أن يلتفت مرة أخرى فى حِدَّة إلى الذئب ، فى نفس اللحظة التى نهض فيها الدُّب ، وعلى وجهه ابتسامة ظافرة كبيرة ، تحمل الكثير من السخرية والشماتة ..

وبكل ذهول وتوتر الدنيا ، غمغم الليث :

ـ مستحيل !

عقد الذئب كفيه خلف ظهره فى اعتداد ، وهو يقول :

ـ ولماذا مستحيل ؟!.. الأن أجهزة التنصت ، التى زرعتموها هنا ، بمساعدة من لا ينشدون مصالحنا ، لم تنقل لكم ما ترام الآن .. لم تكشف لعبتنا المعقَّدة ، الدُّب وأنا .

زمجر الدُّب ، قائلاً :

ـ ليست لعبة .

ابتسم الذئب ، وربَّت على كتفه ، ثم تقدم نحو الليث فى بطء وهدوء قائلاً :

ـ بالطبع ، فهى خطة دقيقة .. خطة أبرع وأعقد من أن تستوعبها عقولكم المحدودة ، فأجهزة التنصُّت قد تنقل إليكم الأحاديث التى تدور هنا ، كما تنقلها إلى من وراءكم ، ولكنها عاجزة عن نقل ما تتداوله كتابة ، خاصة وأنكم لم تتوقعوا أن أكشف وجود هذه الأجهزة الدقيقة .

ولوَّح بكفه فى ثقة ، مضيفًا :

ـ ولكن هكذا التكنولوجيا .. تتاح للجميع مثل العلم .. بلا استثناء .. ثم إن لكل تكنولوجيا أخرى مضادة ، فى لعبة لا تبلغ نهايتها قط ، مهما طال الزمن .

قال الليث مرتجفًا :

ـ ولكن الدُّب !!.. لقد سقط بين أيدينا ، وكان من الممكن أن ...

قاطعه الذئب ساخرًا :

ـ تقتله ؟!.. كلاً .. لم يكن من الممكن أن تفعل ، وهذا ما أكده برنامج كمبيوتر خاص ، لدراسة الطبائع البشرية .. لقد غذيته بكل

ما يخص شخصيتك وأسلوبك ، فاستنتج أنك لن تكتفى بالتخلُّص منى فحسب ، وإنما ستسعى للزعامة المطلقة ، ولن تجد سبيلاً إلى هذا إلا بالتعاون مع الذئب ، والتخلص من الفهد والتمساح فى نفس الوقت .

كان قد بلغ الليث فى هذه المرحلة ، فمال نحوه ، وهو يضيف :

ـ لهذا لم تكن لتقتل الذئب أبدًا .

تراجع الليث فى توتر ، فارتطم بجثث رجاله ، واختلّ توازنه ؛ ليسقط فوقها على نحو مثير للشفقة ، فزمجر الذئب ، وقال بلهجة ظافرة :

ـ الذئب أخبرنى بكل هذا كتابة ، قبل أن آتى إليكم .. أخبرنى أنكم ستكونون فى انتظارى ، وأنه سيكون فخًا ، ولكننى قبلت المهمة ؛ لأننى أثق فيه وأحترمه بلا حدود ، وعندما وجدتكم تمامًا كما توقَّع ، تضاعفت ثقتى فيه أكثر ، وخاصة عندما فعلت أنت ما توقَّعه منك تمامًا ، وتخلَّصت من الفهد والتمساح .

اتسعت عينا الليث عن آخرهما ، وهو يغمغم ذاهلاً :

ـ توقعت كل هذا ؟!

هزَّ الذئب كتفيه فى ثقة ، وقال :

ـ وأكثر منه .

ثم مال نحوه مرة أخرى ، مستطردًا :

ـ هذه أهم سمة لزعيم الزعماء .. أن يتوقع ما هو آتٍ ، وأن يجيد فهم ودراسة خصومه ، ويعرف متى وأين وكيف يوجِّه إليهم ضرباته .

وابتسم ابتسامة متشفية ، مضيفًا :

ـ فالزعامة ليست سهلة ، ومسئولياتها بلا حدود .

اتسعت عينا الليث مرة أخرى ، ثم غمغم :

ـ الرحمة .

اعتدل الذئب ، وقد تألَّقت عيناه ببريق ظفر شديد ، وهو يقول :

ـ تنشد الرحمة ، بعد أن أتيت للقضاء علىَّ .. عجبًا !

قال الليث مستعطفًا :

ـ يمكننى أن أكون خير عون لك .

مطَّ الذئب شفتيه ، وهو يقول :

ـ أشك .

ثم أدار له ظهره ، مستطردًا :

ـ ثم إن كل من ينتمى إلىَّ لا يتوسل من أجل حياته قط .

بلغ مقعده ، وجلس عليه ، مضيفًا :

ـ أراهنك أن الدُّب لم يتوسَّل من أجل حياته ، عندمـا وقع فـى قبضتكم .

زمجر الدُّب ، قائلاً :

ـ لم أفعل .

ارتجف صوت الليث ، وتلاشى كل غروره وزهوه ، وهو يهتف :

ـ الرحمة أيها الذئب .. الرحمة .

تألَّقت عينا الذئب مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. لن ألوِّث يدى بدمك .

لهث الليث من فرط الانفعال ، وهو يقول :

ـ سأكون لك خادمًا مطيعًا ، وأنفذ كل مطالبك وأوامرك ، و ...

قاطعه فى صرامة :

ـ لن تفعل .

هتف الليث :

ـ أقسم أن ..

كررَّ الذئب ، فى صرامة أكثر :

ـ حتمًا لن تفعل .

ثم التفت إلى الدُّب ، مضيفًا فى هدوء وحشى :

ـ أخبره لمـاذا ؟!

استلَّ الدُّب خنجره المخيف ، والتمعت عينـاه ببريق دمـوى ، جعل الليث يصرخ :

ـ لا .. لا .. الرحمة .

ولكن الدُّب أطلق زمجرته المخيفة ، وهو يتجه نحوه ..

وانطلقت صرخات الليث مرة أخرى ..

وانطلقت ..

وانطلقت ..

وانطلقت ..

ثم ساد بعدها صمت تام ..

صمت وحشى ..

دموى ..

قاتل ..

* * *

« أين نحن بالضبط ؟!.. »

ألقى (أكرم) سؤاله فى توتر شديد ، وهو يسير مع (هيثم) فى ممر طويل ، مُضاء من خلال سقف فسفورى هادئ ، مما أضفى عليه مهابة عجيبة ، فأجابه (هيثم) فى صرامة :

ـ أردت رؤية زوجتك والاطمئنان عليها ، أليس كذلك ؟!

قال (أكرم) فى غضب :

ـ وهل تحتفظون بها فى هذه المقبرة ؟!

قال (هيثم) بنفس الصرامة :

ـ إنه الطريق الوحيد الذى يقود إليها فحسب ، وفى نهايته ستجد أنها تقيم فى مقر فاخر ، يحوى كل وسائل الراحة والترفيه .

تساءل (أكرم) ، وهو يتلفت حوله :

ـ طريق بلا حارس واحد .

قال (هيثم) :

ـ ومن يحتاج إلى حراس ؟

لم يفهم (أكرم) عبارته فى البداية ، ولكن (هيثم) استطرد فى سرعة :

ـ الممر وحده أقوى من ألف حارس ، مدججين بأحدث وأقوى الأسلحة ، فهو مزوَّد بوسائل خاصة خفية ، تفحص البصمة الجينية لمن يعبره ، ولو أنها ليست مسجلة لديه ، ضمن من يسمح لهم بعبوره دائمًا أو مؤقتًا ، فالممر كله يتحوَّل إلى أتون من اللهب ، حيث تبلغ الحرارة داخله خمسة آلاف درجة مئوية ، وحتى لو احتمى الداخل بحلة حرارية ، يمكنها احتمال هذه الحرارة الفائقة ، وهو ما لم يُبتكر بعد ، فملايين من خيوط الليزر الرفيعة المتقاطعة ، ستجعل من الممر شبكة موت رهيبة ، يستحيل أن تفلت منها بعوضة ، ولو أنه حتى استطاع تجاوز كل هذا ، فستسرى فى الأرضية والجدران شحنة كهربية ، مقدارها نصف مليون وات ، كافية لقتل قطيع من الأفيال .

قال (أكرم) فى عصبية ، وهو يواصل السير خلفه :

ـ وماذا لو تجاوز كل هذا ؟!

أجابه (هيثم) ، دون أن يلتفت إليه :

ـ لن يصل أبدًا إلى هدفه ، لأن مقر الاحتجاز سينسف كله ، بشحنة متفجرة هائلة ، تطيح به وبالممر كله فى لحظة واحدة .

انعقد حاجبا (أكرم) فى شدة ، وهو يقول :

ـ إلى هذا الحد ؟

توقَّف (هيثم) أمام باب من مادة أشبه بالمخمل ، وهو يقول :

ـ لا أحد يمكنه هزيمتنا قط .

ثم التفت إلى (أكرم) لأوَّل مرة منذ دلفوا إلى ذلك الممر تحت الأرضى ، وهو يضيف فى صرامة شديدة ، متطلعًا إلى عينيه مباشرة :

ـ لا تنس هذا أبدًا .

رمقه (أكرم) بنظرة متحدية ، ولكن (هيثم) تجاهلها تمامًا ، وهو يستدير ثانية إلى ذلك الباب المخملى ، ثم يفرد راحته فوقه ، فتموَّج جزء من الباب ، قبل أن يختفى الباب كله ، وتظهر خلفه صالة واسعة ، بالغة الأناقة ، جيِّدة الإضاءة والتهوية ، فاخرة الأثاث ، تجلس فيها (مشيرة) ، التى لم تكد ترى (أكرم) ، وهو يحدِّق فيها فى لهفة وهيام ، من خلف (هيثم) ، حتى هتفت باسمه ، فى حب جارف ، واندفعت نحوه بكل لهفة الدنيا ..

وفى هدوء ، انزاح (هيثم) جانبًا ، وتركهما يندفعان نحو بعضهما البعض ، حيث احتواها (أكرم) بين ذراعيه بكل الحب والحنان واللهفة ، وهو يهمس :

ـ حبيبتى .. كم افتقدتك !!

تطلَّعت إلى وجهه فى حب ، قائلة بصوت مرتجف ، من فرط السعادة :

ـ كنت أحلم بوجهك كل ليلة ، منذ أكثر من ثلاثين عامًا .

وأطل حب الكون كله من عينيها ، وهى تتفرس ملامحه ، متابعة :

ـ وطالما تمنيت أن أراك كما رأيتك آخر مرة .

غمغم محتضنًا إياها :

ـ وهأنذا .

دفنت وجهها فى صدره ، وانهمرت دموعها عليه ، وهى تقول :

ـ سامحنى يا حبيبى .. سامحنى .

أبعدها قليلاً ، حتى يمكنه التطلَّع إلى وجهها فى دهشة ، هاتفًا :

ـ أسامحك ؟!

قالت من وسط دموعها :

ـ كثيرًا ما تشاجرت معك ، وأسأت إليك ، و ...

وضع أصابعه على شفتيها ، ليوقف حديثها ، وهو يقول :

ـ كفى .

ثم راح يبلِّل شفتيه بدموعها ، وكأنه يمحوها بهما عن وجهها ، وهو يقول فى حب وحنان ودفء :

- إياك يا حبيبتى .. إياك أن تشعرى ، ولو لحظة واحدة بالذنب أو الأسف .. لقد أحببتك دومًا .. أحببتك بكل جوارحى ، وكل ذرة من كيانى ، والحب يعنى أن أراكِ دائمًا فى أجمل وأكمل صورة ، وأن أغفر لكِ كل شىء وأى شىء ، دون أن أتوقف عنده لحظة واحدة .

سألته فى خفوت :

- هل تعنى أنك ...

قاطعها بابتسامة حنون :

- أحببتكِ منذ عرفتكِ ، وما زلتُ أحبكِ ، وسأظلُ أحبكِ ، حتى آخر لحظة فى عمرنا .

عادت تدفن وجهها فى صدره ، وكأنها تخفيه عنه ، وهى تقول :

- حتى وأنا ...

قاطعها مرة أخرى :

- أجمل امرأة فى الوجود .

وأبعد وجهها عن صدره ، ومنحها ابتسامة أكبر ، مضيفًا :

- هكذا ستراكِ عيناى ، حتى تُغلقا إلى الأبد .

ارتجفت شفتاها ، وراودتها رغبة قوية فى أن تـ ....

« هنا ينسدل الستار .. »

قالها (هيثم) فى صرامة ؛ ليقطع حبل ودهما ، فالتفت إليه (أكرم) فى غضب ، ولكنه أضاف بنفس اللهجة :

- أردت رؤية زوجتك والاطمئنان عليها ، وها هى ذى ، فى أفضل حال .. والآن هيا .

قفز الرعب إلى عينى (مشيرة) ، وتشبثت بذراع (أكرم) ، هاتفة :

- هل ستنصرف ؟!

حاول جاهدًا أن يمنحها ابتسامة مطمئنة ، وهو يقول :

- مؤقتًا .

قال (هيثم) من خلفه بصرامة شديدة :

- هيا .

استدار إليه (أكرم) فى حركة حادة ، قائلاً :

- وماذا لو حطمت أسنانك بلكمة قوية الآن ، وبقينا حتى تستعيد وعيك ؟!

أجابه (هيثم) بنفس الصرامة :

- يمكنك أن تفعلها ، ولكنكما لن تبقيا هنا بعدها لحظة واحدة ؛

ففور أن تلكمنى ، ستبدأ أجهزة الدفاع الرقمية عملها فورًا ، وستقضى عليكما فى أقل من ثانية .

اتسعت عينا (مشيرة) فى رعب أكثر ، فربَّت عليها (أكرم) فى حنان ، قائلاً فى رفق :

ـ اطمئنى .. لن ألكمه .

ثم مال على أذنها ، هامسًا :

ـ الآن .

تطلَّعت إليه فى ارتياع ، محاولة فهم ما يعنيه ، ولكنه ربَّت عليها مرة أخرى ، ومنحها ابتسامة ، ثم التفت إلى (هيثم) ، قائلاً فى صرامة :

ـ هيا .

وفى مكتبه ، وعبر شاشات رصده الهولوجرامية ، شاهد القائد الأعلى وسمع كل ما حدث ..

حتى ما همس به (أكرم) فى أذنى (مشيرة) ..

وتصاعد الشك فى أعماقه ..

تصاعد ألف مرة ..

* * *

فى صمت وسكون ، جلس (نور) فى حديقة مقر المخابرات التكنورقمية ، يتطلَّع إلى تلك الأسوار العالية ، وعقله يدير عشرات الأمور فى رأسه ...

مَا زال ذلك السؤال يشغل كيانه كله ...

ماذا يحدث هناك ؟!..

ماذا يدور فى (مصر) ، بعد أكثر من ثلاثين عامًا من عصره ؟!

(نشوى) تؤكد أن العالم كله ما زال يواصل تطوّره فى الخارج ..

هذا ما أكدته لها شبكة المعلومات الفائقة ، التى نجحت فى اقتحامها أخيرًا ..

ولكنهم يحجبون عنها أية معلومات تتعلق بـ (مصر) ..

بوسيلة ما ، لم تتوصل إليها بعد ، لا يمكنها النفاذ إلى تلك المعلومات ..

ولا يمكنها معرفة ماذا حدث فى الوطن ..

فى (مصر) ..

ولأنه يعرف ابنته وخبراتها ومهاراتها جيدًا ، فليس لديه أدنى شك فى أن هذا فعل عمدى مقصود ..

إنهم يمنعون عنها تلك المعلومات بسبب ما ..

ولهدف ما ..

وهو ، بطبيعته ، يشعر بالقلق ، تجاه كل ما هو محاط بأسوار ..

وأسرار ..

وألغـاز ..

فماداموا يخفون الأمر ، فهو يحوى ما يخشون أن يعرفه مـع فريقه ..

السؤال هو : لماذا ؟!..

لمـاذا ؟!..

لمـاذا ؟!..

« وجدت وسيلة .. »

نطقتهـا (نشوى) بلغـة الفريق الخاصـة ، وهـى تصل إلـى المكان ، بصحبة (سلوى) و(رمزى) ، فالتفت إليهم (نـور) ، متسائلاً بلا انفعال :

ـ حقًّا ؟!

جلست إلى جواره فى هدوء ، حتى لا توحى انفعالاتهم بفحوى أحاديثهم ، وهى تجيب :

ـ لم أختـرق حائط النيران ، الذى وضعـوه ليحول بينى وبين أية معلومات عن (مصر) بعد ، ولكننى عرفت كيف أفعل .

سألتها (سلوى) ، وهى تقف أمامهما :

ـ ولماذا لم تفعلى ؟!

أجابتها (نشوى) فى تحفظ :

ـ فترة السماح لم تكف لهذا .

مرة أخرى ، شعر (نور) بذلك القلق الغريزى ..

إنهم لا يسمحون لأعضاء الفريق بولوج شبكة المعلومات الفائقة ، إلا لفترات محدودة للغاية ..

وتحت رقابة رقمية مشدَّدة حتمًا ..

وما زال السؤال هو : لمـاذا ؟!..

كل ما يدور حوله يوحى بالشك ..

والحذر ..

والعدوانية ..

وهذا بدوره يطرح على ذهنه ألف سؤال جديد ..

وألف ألف مبرِّر للمقاومة ..

أوقـف هذه الأسئلة فـى ذهنـه بسـرعة ، ورفـع عينيـه إلـى (سلوى) ، متسائلاً فى هدوء ، لم يخلُ من لمحة حزم :

ـ ماذا عنك ؟!

أجابته (سلوى) ، فى سرعة واقتضاب :

ـ كل شىء على ما يرام .

أدار عينيه إلى (رمزى) ، فاكتفى هذا الأخير بابتسامة ..

ابتسامة تحمل الكثير ..

والكثير ..

والكثير ..

و ...

« معذرة أيها السادة .. »

نطقها رئيس طاقم أمن المكان ، فى صرامة واضحة ، جعلت الكل يلتفت إليه فى قلق ، فيما عدا (نور) ، الذى سأله فى حزم :

ـ ماذا هناك ؟!

أجابه رئيس الأمن بنفس الصرامة :

ـ لقد تم استدعاؤكم جميعًا للاستجواب .

تراجعت (سلوى) بحركة حادة ، وشهقت (نشوى) مستنكرة ، وانعقد حاجبا (رمزى) فى توتر ، فى حين نهض (نور) يواجه رئيس الأمن ، فى لهجة حادة :

ـ استجواب بشأن ماذا ؟!

فَقَدَ الرجل صرامته المفتعلة ، فور التقاء عينيه بعينى (نور) ، وارتبك وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ ليس لدى أى علم بالأسباب .. لقد تلقيت الأمر بهذا فحسب .

سأله (نور) فى قوة :

ـ الأمر باستجوابنا .

هزَّ الرجل رأسه فى توتر ، وهو يجيب :

ـ لست أملك حق أو وسائل الاستجواب يا سيِّدى ، ولكن الأوامر تقتضى نقلكم جميعًا إلى قسم الاستجواب فورًا .

سأله (رمزى) فى حذر :

ـ وماذا عن زميلنا (أكرم) ؟!

أجابه الرجل بنفس التوتر :

ـ أظنه قد وصل إلى هناك الآن .

والتقى حاجبا (رمزى) مرة أخرى ..

وتبادل مع الجميع نظرة صامتة ..

نظرة ربما تعنى أن خططهم كلها أصبحت فى خطر ..

أو تعنى أنهم قد خسروا بالفعل هذه الجولة ..

خسروها تمامًا .

* * *

5 ـ أســــرار..

لم يشعر (طارق) ، ابن (نور) و(سلوى) ، وابن شقيقته (محمود) ، بمثل هذا التوتر ، الذى شعرا به فى تلك الصباح ، وهما يقفان أمام الذئب ، الذى استقبلهما فى متجره المتواضع ، بين أطلال (القاهرة) الجديدة ، وهو يقول فى لهجة قوية ، تليق بزعيم عظيم :

ـ مرحبًا يا نسل الأسطورة .. كيف تعيشان فى العالم الجديد ؟!

لم يُحر (طارق) الصغير جوابًا ، وهو يتطلّع إليه فى شىء من الحذر ، فى حين قال (محمود) الصغير ، دون أن يفقد توتره :

ـ كما يعيش ويحيا الآخرون .

ابتسم الذئب ، قائلاً :

ـ تستحقان ما هو أفضل .

تبادل الاثنان نظرة قلقة حائرة ، فتابع الذئب فى ثقة وقوة :

ـ أنتما الوحيدان من نسل أسطورتنا (نور) .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف ، بلهجة ذات مغزى خاص :

ـ فى هذا العصر .

مرة أخرى تبادل الاثنان نظرة قلقة ، ثم قال (طارق) الصغير ، فى توتر ملحوظ :

ـ أبلغنى ابن شقيقتى أنهم قد ...

صمت متوترًا ، قبل أن يضيف فى عصبية :

ـ عادوا .

ابتسم الذئب ، مجيبًا :

ـ هذا صحيح .

وعلى الرغم من أن الجواب لم يكن مفاجئًا ، فقد ارتجف جسد (طارق) الصغير ، وحدّق فى وجه الذئب ، الذى لوّح بيده ، مكملاً :

ـ ولكنهم يحتجزونهم .

سأله (محمود) الصغير فى حذر :

ـ من ؟!

أشار الذئب بيده إشارة مبهمة مجيبًا :

ـ هم .

بدا خوف متوتر على وجهى الرجلين ، ثم قال (طارق) الصغير :

ـ إنك لم تستدعنا هنا لهذا السبب حتمًا .

أومأ الذئب برأسه إيجابًا ، قائلاً :

ـ هذا صحيح .

ثم بدأ يتحرك فى المكان الصغير ، متابعًا :

- الواقع أن الأمور هنا تتدهور بسرعة ، يومًا بعد آخر ، والذين يسيطرون على مقاليد الأمور لا يرغبون فى إيقاف أو منع هذا التدهور ، وكلُّ ما يفعلونه هو إرسال دوريات مدنية لتفقُّد سير الأمور ، والتأكد من أن أحدًا لا يقاوم ما يفعلونه .

قال (محمود) الصغير فى حذر شديد :

- ولكن تلك الدوريات لا تحاول أبدًا إيذاء أحد .. فصائل المقاومة هى التى تهاجمها دومًا .

رمقه الذئب بنظرة صارمة ، قبل أن يقول :

- وهم يهاجمون رجال المقاومة أيضًا .

قال (طارق) الصغير ، الذى يتميَّز بجرأة أكبر :

- لا أحد يعلم من بدأ الهجوم أولاً ، ولكن تتردَّد أقاويل أن تلك الدوريات تحاول العمل على استقرار الأوضاع واستتباب الأمن ، حتى يمكن لحركة الإعمار أن تبدأ .

عقد الذئب كفيه خلف ظهره ، وقال فى صرامة شديدة :

- وهل صدقتما هذه الأقاويل ؟!

هزَّ (طارق) الصغير كتفيه ، قائلاً :

- لقد حاولوا أكثر من مرة إصلاح وتشغيل محطات الطاقة ، ولكن الفصائل كانت تنسفها دومًا .

قال الذئب فى حِدَّة :

- هذا ما حاولوا إيهامكم به .

بدا مزيج من الشك والقلق على وجهي الإثنين ، فاستعاد الذئب لهجته الهادئة القوية ، وهو يتابع :

- هكذا الدعايات المتطوِّرة ، التى كانت أحد أسباب الانهيار ، والتى سعوا من خلالها دومًا ، إلى تدمير الثقة ، بين الشعب والمقاومة ..

بدا الشك على وجهيهما ، فأضاف في حزم :

- حتى محطات الطاقة ، كانوا يتظاهرون بإصلاحها ، ثم يدبرون هجومًا صوريًا ، للإيحاء بأن فصائل المقاومة ترفض فكرة عودة الطاقة والحضارة ، مما يثير حفيظة الشعب نحوها ، ويحوِّله إلى عدو للمقاومة ، ومتعاطف معهم .

غمغم (طارق) الصغير :

- المفترض أنهم منا .

انتفض جسد الذئب فى قوة ، وهو يقول في صرامة :

- لا .. ليسوا منا .

ارتفعت حواجبهما فى دهشة ، وأراد (محمود) الصغير أن يسأله عما يعنيه هذا ، إلا أنه اعتدل ، وعاد يعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يقول بمنتهى الصرامة :

- ولكنها ليست قضيتنا الآن .

سأله (طارق) الصغير فى حذر :

ـ ما قضيتنا إذن ؟!

أجابه ، وهو يتطلَّع إلى عينيه مباشرة :

ـ أن تحيَيا فى وضع أفضل من الآخرين .

أطل شك حذِر من عيونهما ، فى حين كان (محمود) الصغير يقول :

ـ ولكن هذا قد يستفز الآخرين ، و ...

قاطعه الذئب فى صرامة :

ـ لن يفعل .

مرة أخرى ، أطلَّ ذلك الشك الحذر من عيونهما ، فأضاف الذئب فى سرعة :

ـ فلن تكونا مجرد مواطنين عاديين .

وتألقت عيناه ، وهو يضيف :

ـ ستكونا زعيمين .

فى هذه المرة ، اتسعت عيونهما عن آخرها ..

فالمفاجأة كانت قوية ..

للغاية ..

* * *

شعرت (نشوى) بتوتر شديد ، وهى تجلس على ذلك المقعد الحيوى ، فى منتصف قاعة الاستجواب ، وعشرات من خيوط الأشعة الدقيقة تجوس عبر وجهها ، فى حين تراصت أمامها عدة شاشات هولوجرامية هائلة ، تحمل كل منها وجه أحد المستجوِبين ، وقد تم تكبيره عدة مرات ، ليبدو مخيفًا ، بالنسبة لمن يجلس فى منتصف القاعة ..

أما المقعد نفسه ، فقد كان أشبه بجهاز كشف كذب ضخم(*) ، يرصد أى تغير ، مهما بلغت دقته ، فى معدلات تنفسها ، أو نبضها ، أو استجاباتها العصبية ، أو حتى إفراز العرق من مسام جسدها ..

باختصار ، لم تكن هناك فرصة واحدة للكذب ..

بأية وسيلة ..

وبكل توترها ، تساءلت (نشوى) :

ـ لماذا هذا الاستجواب ؟!

أتاها صوت أحد المستجوِبين ، متضخمًا عدة مرات ؛ ليكتسب مهابة خاصة :

(*) جهاز كشف الكذب : (البوليجرام) : اخترعه جون أ. لارسن عام 1921م ، وهو عبارة عن جهاز متعدَّد ، لقياس .التغيرات فى النبض ومعدَّل التنفس ، وإفراز العرق ، والتى تحدث عندما يلجأ الشخص للكذب ، وتبلغ نسبة دقته 80٪ ، فى معظم الأحوال ، وعلى الرغم من استخدامه منذ عام 1924م ، فلم تأخذ به المحاكم رسميًا حتى الآن .

- أنتِ هنا لإجابة الأسئلة ، وليس لإلقائها .

انعقد حاجباها فى ضيق ، ولاذت بالصمت مرغمة ، حتى قال مستجوِب آخر ، بنفس ذلك الصوت المتضخم :

- هل تدبرين أمرًا ما مع فريقك ؟!

لم يدهشها السؤال ، ولكنها أجابت فى حزم :

- نعم .

كان من الواضح أن إجابتها المفاجئة قد أدهشت المستجوِبين ، كما بدا واضحًا على وجوههم ، وفى فترة الصمت التى سادت المكان ، قبل أن يقول أحدهم :

- وما طبيعة هذا الأمر ؟!

لم تتردد لحظة واحدة ، وهى تجيب :

- ليس هذا من شأنكم .

مرة أخرى صدمتهم إجابتها ، ودفعتهم إلى صمت استغرق ما يقرب من نصف دقيقة ، قبل أن يقول آخر فى صرامة :

- كل ما يحدث هنا ، هو من شأننا .

أجابته فى إصرار :

- بل ليس من شأنكم .

ثم استدركت فى حزم :

- طبقًا لآخر ما أذكره من قواعد .

أجابها صوت جهورى آخر :

- القواعد تغيرت منذ غيابكم .

قالت فى سرعة ، وبنفس الحزم :

- إلى الأفضل أم إلى الأسوأ ؟!

قال أحدهم صارمًا :

- إلى ما فيه مصلحة الأمة .

قالت فى حِدَّة :

- وهل تكمن مصلحتها فى نظام ديكتاتورى رجعى ؟!

هذه المرة صدمهم موقفها بشدة ، وبدت وجوههم المكبَّرة مذعورة ، قبل أن تختفى من الشاشات فجأة ، فقالت هى ساخرة :

- أخوف هو أم حياء ؟!

هتف صوت جهورى غاضب :

- قلنا : إنه ليس من حقك إلقاء الأسئلة .. أنت تتجاوزين حدودك هنا .

أرادت أن تعقد ساعديها أمام صدرها فى عناد ، إلا أن الأوامر التى تلقتها كانت تمنعها من رفع ساعديها عن مسندى المقعد ، فقالت فى حسم :

ـ لقد أجبت أسئلتكم .

« ليس بعد .. »

خيل إليها هذه المرة أن العبارة قد دوَّت فى رأسها مباشرة ..

بل فى أعمق أعماقها ..

فى كيانها نفسه ..

وكان هذا يبدو متعمدًا ؛ لزلزلة كيانها ، وتحطيم تلك الثقة ، التى تتعامل معهم بها ..

ويبدو أن هذا قد أفلح ..

لقد دار رأسها بالفعل ..

دار حتى كادت تفقد الوعى ..

وبينما تجاهد للسيطرة على توازنها ، ألقوا عليها السؤال التالى :

ـ ما طبيعة ما تتآمرون بشأنه ؟!

وجدت نفسها تجيب ، دون أن تدرى :

ـ (محمود) .

سألوها :

ـ ماذا عنه ؟!

قالت ، ورأسها يدور فى عنف :

ـ أردنا معرفة ما تفعلون به .

سألها ذلك الصوت المدوى فى رأسها ، والذى يزلزل كيانها فى كل مرة :

ـ فقط ؟!

حاولت أن تتماسك ، وهى تجيب :

ـ إنه يستحق .

لم تدر أية أسئلة ألقوها عليها بعد هذا ..

ولا كيف أجابت ..

فكل شىء من حولها ، وحتى من داخلها ، كان يدور ..

ويدور ..

ويدور ..

بلا نهاية ..

* * *

« يستجوبونهم ؟! »

ردَّد الرائد (طارق) العبارة فى توتر ، وهو يتحدَّث مع أحد زملائه ، قبل أن يقول ، فى شىء من الحِدَّة :

ـ وكيف يجرءون ؟!.. إنك تتحدث عن أعظم فريق مخابرات علمية عرفته (مصر) ، فى تاريخها كله .. كيف يمكن أن يشعروا بلمحة شك واحدة ، تستدعى استجوابهم ؟!

شعر زميله بقلق شديد ، جعله يتلفَّت حولـه ، ويبحث ببصره عن أية أجهزة مراقبة محتملة حولهما ، وهو يقول :

ـ حذار يا صديقى .. أنت تتجاوز حدود رتبتك .

قال (طارق) بنفس الحِدَّة :

ـ أى رتبة ؟!.. إننى موقوف عن العمل رسميًا ، ويعتبرنى القانون شخصًا مدنيًا ، لحين عودتى إلى العمل .

قال زميله فى عصبية :

ـ والقانون نفسه يمنعنى من مناقشة مثل هذه الأمور ، مع المدنيين .. معذرة .

قالها ، وانصرف مسرعًا ، وهو يعاود التلفُّت حوله فى قلـق ، تاركًا (طارق) خلفه محتقن الوجه ، ممتلئًا بالغضب ، يغمغم :

ـ يستجوبونهم ؟!.. يا للسخافة !

لم يستطع أبدًا استيعاب هذا الأمر ، وراح الغضب فى أعماقه يتصاعد ويتصاعد ، حتى كاد ينفجر ، وعقله يشتعل على نحو عنيف ..

الذئب كان على حق فيما أخبره به ..

هناك أمور مريبة عديدة فى القيادة ..

أمور تستحق أن يعيد التفكير فى انتماءاته ..

ألف مـرةٍ ..

وتطرح فى ذهنه أيضًا عشرات الأسئلة ..

هل يعمل النظام من أجل الوطن فعلاً ؟!..

هل يفكِّر حتى فى هذه المصلحة ؟!..

استعاد لمحات من حديثه مع الذئب ، وتذكر منطق وعبارات هذا الأخير ، الذى بذر فى نفسه بذور الشك فى كل شىء تقريبًا ..

فى قيادته ..

وأهدافهـا ..

وانتماءتها ..

والأهم والأخطر ، أنه شكك فى هويتها أيضًا ..

« إنهم ليسوا منـا .. »

العبارة مـا زالت تُدَوِّى فـى رأسـه ، ويرتـج لهـا كيانـه ، كلمـا جالت فى ذهنه ..

ماذا كان يعنى عندما قالها ؟!..

إلى ماذا يشير ؟!..

تعاظمت الاحتمالات فى ذهنه ، فهزَّ رأسه فى قوة ، وكأنما يطردها عنه ، وهو يقول فى حزم :

ـ ليس الآن .. فيما بعد .

ثم استدار ، وراح يقطع الممر بخطوات سريعة واسعة ، نحو قسم خاص للغاية من المكان ..

قسم قد لا يسمح له بدخوله أبدًا ..

قسم الاستجوابات ..

وفى رأسه دارت فكرة عجيبة ..

فكرة تجعله يستحق عن جدارة أن يكون من نسل أسطورة الزمن الجميل أسطورة (نور) ..

* * *

« أى فكرة هذه ؟!.. »

ألقى الدكتور (راشد) السؤال ، فى اهتمام بالغ ، على مسامع أحد العلماء ، فى الفريق المسئول عن استخلاص ذاكرة طاقة (محمود) ، خلال رحلتها الطويلة ، فى نهر الزمن ، فأجابه على الفور :

ـ ما استخلصناه ، وسجلته أجهزتنا بالفعل ، قد لا يكون لمحة مستقبلية حتمية ، بل مجرد فكرة .

انعقد حاجبا الدكتور (راشد) ، وهو يقول فى توتر :

ـ ما زال سؤالى بلا جواب .

ازدرد العالم لعابه ، قائلاً :

ـ الدراسات الأولية أكدت أن تلك النسخة من الزوربيوم الحيوى ، والممتزجة بجينات (محمود) الأصلية ، تبث أنواعًا مختلفة من الطاقة ، ولأننا لا ندرى طبيعة أى نوع منها بدقة ، فمن المحتمل جدًّا أن ما التقطته أجهزتنا ليس لمحة مستقبلية ، كما تصوَّرنا فى البداية ، وإنما هى فكرة ، راودت طاقته ، فى نهر الزمن ، عندما بدا له وكأن أفراد فريقه كلهم فى خطر .

بدا الشك على وجه الدكتور (راشد) ، وهو يقول :

ـ ولكن وفقًا لما قاله المقدَّم (نور) ، أخبره (محمود) بموعد استعادة أفراد الفريق وعيهم بالضبط ، مما يؤكد قدرته على رؤية المستقبل ، فى نهر الزمن .

قال العالم فى سرعة :

ـ وكان يحذِّرهم أحيانًا أيضًا ، مما يعنى أنه يدرك احتمال تغيير المستقبل ، حتى لو رآه فى نهر الزمن ، وهذا سيولِّد فى ذهنه حتمًا فكرة ، عما يمكن حدوثه ، لتفادى ما رآه .

وعلى الرغم من عقلية الدكتور (راشد) العلمية ، فقد بدت له هذه النظرية مربكة إلى حدٍّ ما ، مما جعله يلوِّح بيده ، قائلاً :

ـ لا يمكنك الجزم بهذا .

قال العالم فى سرعة :

- ولا بخلافه .

صمت الدكتور (راشد) لحظات مفكرًا ، قبل أن يتساءل فى خفوت ، شفَّ عن ميله إلى هذا الرأى :

- وكيف يمكننا إثبات هذا ؟!

أجابه العالم بنفس السرعة ، وكأنما أعدَّ كل أجوبته مسبقًا :

- لا توجد أية وسيلة مباشرة .

تراجع الدكتور (راشد) فى توتر ، هاتفًا :

- ماذا ؟!

رفع العالم سبَّابته ، مضيفًا بنفس السرعة :

- إلا لو استخلصنا المزيد .

سأله ، وقد حجب التوتر تفكيره مؤقتًا :

- المزيد من ماذا ؟!

لوَّح العالم بذراعيه فى حماس ، مجيبًا :

- المزيد من الطاقة ، والأفكار ، والذكريات .. كلما سجلنا أكثر ، عرفنا أكثر وتكوَّنت لدينا قاعدة معلومات أكبر وأكبر ، عن نهر الزمن وأسراره ، وفى الوقت نفسه يقوم خبراؤنا ، عبر أجهزة الكمبيوتر الفائقة ، بمحاولة فصل وتصنيف أنواع الطاقة المختلفة ، التى ترصدها أجهزتنا ، فى تلك النسخة من الزوريوم الحيوى ، والتى ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدِّق فى شىء ما ، خلف الدكتور (راشد) ، الذى التفت بحركة غريزية ، و ...

« أين أنا ؟!.. »

صدمته العبارة ، وهو يحدِّق فى نسخة (محمود) ، التى وقفت خلفه تمامًا ، تتطلَّع إليه فى حيرة عجيبة ..

حيرة بشرية ..

أو نصف بشرية ..

تقريبًا ..

* * *

« استيقظ ؟!.. »

هتف القائد الأعلى بالكلمة ، فى دهشة مستنكرة ، وهو يحدِّق فى وجه الدكتور (راشد) ، قبل أن يهب من خلف مكتبه ، مستطردًا فى حِدَّة :

- لا يمكنك حتى أن تطلق على ما حدث هذا المصطلح .. إنه ليس بشريًّا يا رجل .. بل مجرد نسخة .. نسخة من (الزوريوم) الحيوى ، الذى لم تنكشف كل أسراره بعد .

قال الدكتور (راشد) فى عصبية ، لم تفارقه بعد ، منذ واجه ذلك الموقف :

ـ نسخة تحوى خلايا حية حقيقية ، تمت مضاعفتها ، باستخدام عينة جينية بيولوجية من خلايا وجينات (محمود) الأصلية ، وهى تحوى كل طاقته الفعلية ، وكل ذكرياته ، سواء إبان عمله ضمن فريق (نور) ، أو ضياعه فى نهر الزمن .. ولا تنس أنه لم يمت فعليًا ، مما يعنى أنه شخص حى ، فى جسد نصف حى .

لوَّح القائد الأعلى بذراعيه فى حِدَّة ، هاتفًا :

ـ قول غير علمي على الإطلاق .. أى كائن فى الوجود ، إما أن يكون حيًا أو ميتًا .

قال الدكتور (راشد) فى انفعال :

ـ هذا وفقًا للعلوم المسجلة ، حتى لحظتنا هذه ، ولكن تذكَّر أننا ، ومهما بلغ تقدمنا ، لم نؤت من العلم إلا قليلاً ، والروح من أمر ربى (سبحانه وتعالى) ، ولن نعلم ما هيتها قط ، حتى نهاية الوجود ، ولو أن (الزوريوم) يحوى العديد من الألغاز والأسرار ، فمن المؤكد أن الروح تحمل أضعاف أضعاف كل ما يمكن حتى أن نتخيله ، مهما بلغت عقولنا .

عقد القائد الأعلى كفيه خلف ظهره ، قائلاً فى صرامة عصبية :

ـ اختصر ما تريد قوله .

تنحنح الدكتور (راشد) ، قبل أن يقول فى توتر :

ـ باختصار .. لقد استعاد (محمود) ذاكرته البشرية .

انعقد حاجبا القائد الأعلى دون تعليق ، وإن تطلع إلى الدكتور

(راشد) لحظات فى صرامة ، قبل أن يجلس خلف مكتبه ، قائلاً :

ـ ذاكرته البشرية وحدها ؟!

لم يفهم الدكتور (راشد) السؤال فى البداية ، فمال نحوه متسائلاً :

ـ أتشير إلى ذاكرة خاصة بـ (الزوريوم) ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ بل أقصد ذاكرة نهر الزمن .

اعتدل الدكتور (راشد) ، مجيبًا :

ـ إنها جزء من ذاكرته البشرية .

قال القائد الأعلى فى صرامة عصبية :

ـ إذن ، فبإمكانه أن يفسر لنا هذا .

قالها ، وهو يضغط جزءًا خفيًا من إطار مكتبه ، فبدأت شاشة هولوجرامية عملها على الفور ، لتبث ذلك المشهد ، الذى سجلته الأجهزة ، من ذاكرة (محمود) ..

وعلى الرغم من مشاهدته عشرات المرات ، لم يستطع الدكتور (راشد) أن يمنع تلك الارتجافة القاسية ، التى سرت فى جسده فى عنف ..

فذلك المشهد كان بالفعل رهيبًا مخيفًا ، محبطًا ، مفزعًا .. وإلى أقصى حدٍّ ممكن .

* * *

6 ـ ذاكرة بشرية..

تفجّرت دهشة عارمة ، فى كيان كبير مستجوبى المخابرات التكنورقمية ، عندما فوجئ بـ (طارق) أمامه ، داخل حجرته الرئيسية ، وانتفض جسده ، من فرط الغضب والمفاجأة ، وهو يصيح به :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟!

شد (طارق) قامته ، وهو يقول فى حزم :

ـ أنا رجل أمن سابق ، وعلى الرغم من أنهم قد جردونى من شارتى الإليكترونية ، ومسدسى التردُّدى ، إلا أنهم تركوا لى شفرة الانتقال ، التى تبيح لى ، باعتبارى من الوحدَة الخاصة ، دخول كل الأماكن ، فيما عدا منطقة القائد الأعلى .

انتفض جسد الرجل مرة أخرى ، وهو يقول فى غضب :

ـ ما زلت لا تملك حق التواجد هنا .

أجابه (طارق) فى صرامة شديدة :

ـ وأنتم لا تملكون حق استجواب فريق أسطورى ، نفخر كلنا به وبتاريخه ، وكأنهم حفنة من المجرمين .

اندفع كبير المستجوبين نحو مكتبه ، وهو يقول :

ـ سأطلب طاقم الأمن .

قالها ، وهو يضغط جزءًا من سطح المكتب فى غضب ، ولكن (طارق) عقد ساعديه أمام صدره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ نسيت أن أخبرك أننى قد قمت بتعطيل كافة أجهزة الإنذار والأمن والمراقبة ، حتى يتاح لنا الوقت الكافى ، لحديث وُدّى طويل .

تراجع كبير المستجوبين فى ذعر ، وهو يقول :

ـ ماذا تريد منى ؟!

اقترب منه (طارق) فى بطء ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لقد أخبرتك .. مجرد حديث وُدّى طويل .

اختنق صوت الرجل ، وهو يقول :

ـ هذا أسلوب همجى غير متحضر .

اقترب منه (طارق) أكثر ، قائلاً :

ـ حقًا ؟!

امتقع وجه الرجل فى شدة ، عندما أصبح (طـارق) قيـد خطوة واحدة منـه ، والتصق بـالجدار فى رعب ، وهو يقـول مكررًا ، فى صوت مبحوح ، من شدة الرعب :

ـ ماذا تريد ؟!

أجابه (طارق) فى صرامة :

ـ إجابة واضحة .

ـ أجابه الرجل بصوت مختنق :

ـ عـلام ؟!

بدا صوت (طارق) أكثر صرامة ، وهو يقول :

ـ ما الذى أسفرت عنه استجوابات الفريق .

عجز الرجل عن النطق لحظات ، قبـل أن يتمتم بصوت شديد الاختناق :

ـ لا شىء .

بدا من الواضح أن الجواب قد جاء مفاجئًا لـ (طارق) بشدة ، فقد ارتدّ بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ لا شىء ؟!..

أجابه الرجل فى توتر شديد :

ـ نعم .. لا شىء .. لقد استجوبناهم جميعًا ، واعـترفوا بـأنهم كانوا يتآمرون لرؤية زميلهم (محمود) ، الذى استعاده علماؤنـا داخل نسخة من (الزوريوم) الحيوى ولا شىء غير هذا .

وازدرد لعابه فى صعوبة ، من شدة توتره ، قبل أن يضيف :

ـ ولما لم يكن هذا تآمرًا ضد نظام الحكم ، فلم تكن هناك تهمة يمكن توجيهها إليهم .

انعقد حاجبا (طارق) ، محاولاً استيعاب كـل مـا سمعه ، قبل أن يتساءل :

ـ وماذا عن (أكرم) ؟!

كان ينوى سؤاله عما إذا كان (أكرم) قد أثار بعض المتـاعب عند استجوابه ، إلا أنه فوجئ به يجيب فى سرعة ، قبل حتى أن يكتمل السؤال :

ـ (أكرم) لم يحضر الاستجواب .

أدهشته العبارة فى شدة ، حتى إنه رددّها :

ـ لم يحضر الاستجواب ؟!.. لمـاذا ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وهو يجيب فى توتر :

ـ القائد الأعلى استثناه منه .

وانعقد حاجبا (طارق) فى شدة أكثر ..

لمـاذا (أكرم) بالذات ؟!..

لمـاذا ؟!..

وكان من الطبيعى أن يثير هذا فى نفسه الشك ..

عاصفة من الشك ..

* * *

« كل شىء مرَّ بسلام .. »

نطق (نور) العبارة فى هدوء ، وهو يقف مع فريقـه فى حديقـة المكان ، على مقربة من الأسوار العاليـة ، وقد صنعوا من أنفسـهم دائرة ، بحيث لا يتركون فرصة واحدة لمراقبة ومتابعة مـا يقولـون ، على الرغم من استخدامهم لغة الفريق الخاصة ، فغمغمت (نشوى) :

ـ بقى أن نحدِّد ساعة الصفر .

أومأت (سلوى) برأسها موافقة ، وقالت :

ـ وأعدك بأن نفاجئهم .

بقى (أكرم) صامتًا ، فى حين شرد بصر (رمزى) ، وهو يقول :

ـ الدكتور (حجازى) .

لم يكد ينطق اسم كبير الأطباء الشرعيين السابق فى زمنهم ، حتـى انتفض الجميع معًا ، ثم حدَّقوا فى بعضهم البعض ، قبل أن تهتف (نشوى) :

ـ رباه !.. لقد نجحنا .

(أكرم) هو الوحيد الذى انعقد حاجباه فى توتر ، فى حين بدا الآخرون فرحون ، و(رمزى) يقول :

ـ كانت فكرة عبقرية حقًّا يا (نور) .

ابتسم (نور) فى رصانة ، قائلاً :

ـ لم تكن لتنجح بدونـك ، بعد فضل اللـه (سبحانه وتعالى) يا صديقى .

غمغمت (سلوى) مبتهجة :

ـ بالتأكيد .. فكرة أن يقوم (رمزى) بتنويمنـا جميعًا مغنطيسيًّا ، بحيث ننسى تمامًا خطتنا الأصلية ، خلال أية مرحلة استجوابية ، عبقريـة بحق ، فمـن المستحيل والحـال هكذا ، أن يكشفوا أننـا نخفى شيئًا .

تساءلت (نشوى) :

ـ ولكن هذا لم يشملك يا (رمزى) .. لقد نوَّمتنا كلنـا ، ولكـن مـاذا عنك ؟!.. وكيف فعلتها ؟!

أجابها مبتسمًا :

ـ منذ عدة سنوات ، قمت بتنويم نفسى مغنطيسيًا ، باستخدام برنامج رقمى خاص للتنويم الذاتى ، وغرست فى عقلى كلمة معقدة ، ما إن أنطقها ، حتى أدخل مرة أخرى فى حالة النوم المغنطيسى ، فمن خضع له مرة ، يمكن إخضاعه ثانية بمؤثر بسيط(*).

سألته مبهورة :

ـ وماذا عن التعليمات ، التى غرستها فى عقولنا كلنا ؟!

ابتسم ، قائلاً :

ـ عندما نومت (نور) مغنطيسيًا ، دفعته إلى ترديد التعليمات نفسها على مسامعى ، عندما أدخل فى حالة التنويم الذاتى .

تطلعت إليه لحظات فى انبهار ، قبل أن تربت على صدره فى حب ، قائلة :

ـ رباه !.. كم أحبك .

ضمها إليه فى حنان ، فى نفس اللحظة التى قال فيها (أكرم) فى توتر :

ـ لقد عرفت أين يخفون (مشيرة) ، ولكن الوصول إليها مستحيل !

(*) حقيقة .

التفت إليه (نور) ، قائلاً فى حزم :

ـ لا يوجد مستحيل !

أجابه (أكرم) فى عصبية :

ـ إلا هذا .. لقد وضعوا وسائل تأمين رهيبة ، فى الممر الذى يقود إليها ، حتى لو نجحنا فى اجتيازها ، فسيتم تدمير المكان كله ، حتى لا يظفر بها أحد .

تبادل الكل نظرة قلق حقيقية ، قبل أن تقول (نشوى) فى حزم ، بدا شديد الشبه بحزم والدها :

ـ فليكن .. أخبرنا بكل ما عرفته ، واترك لنا الباقى .

غمغم فى عصبية أكثر :

ـ هل تعتقدون أنه من الممكن أن ...

لم يكمل عبارته ، ولكن (سلوى) قالت فى خفوت حاسم :

ـ سنبذل قصارى جهدنا .

تمتم بصوت مرتجف ، من فرط الانفعال :

ـ ولكن ، هل سيكفى هذا ؟!..

نعم .. هذا هو السؤال بالفعل ..

هل سيكفى هذا ؟!..

هـل ؟!..

* * *

« ماذا يقولون بالضبط ؟!.. »

ألقى القائد الأعلى السؤال فى عصبيـة بالغة ، وهو يتابع شاشة الرصد ، التى نقلت إليه مشهد اجتماع الفريـق دون أصواتهم ، فهزَّ الرائد (هيثم) رأسه ، قائلاً فى خفوت حذر :

ـ لقد انتقوا منطقة من المناطق القليلة ، التى لا تحوى وسائل تنصت ، ولست أدرى كيف قادتهم المصادفة إلى ...

قاطعه هاتفًا فى غضب مستنكر :

ـ مصادفة ؟!..

ثم نهض من خلف مكتبه بحركة حادة ، مضيفًا :

ـ لقد انتقوا المكان عمدًا .

سأله (هيثم) فى حيرة :

ـ وكيف ؟!.. لا أحد سوانا ، حتى طاقم الأمـن نفسـه ، يعرف أين مواضع رقميات التنصُّت !

كان السؤال منطقيًا للغاية ، مما ضاعف من غضب القـائد الأعلى وعصبيته ، وهو يقول فى حِدَّة :

ـ لقد وجدوا وسيلة ما حتمًا .

ثم لوَّح بذراعه كلها ، هاتفًا :

ـ إنهم يتآمرون علينا .

قلب (هيثم) كفيه بمنتهى الحيرة ، قائلاً :

ـ مستحيل !.. تقرير المستجوبين أكَّد أنهم لا يتآمرون على النظام ... فقط يخطِّطون لرؤية زميلهم ، الذى نحتجزه هنا .

قال القائد الأعلى فى حِدَّة :

ـ إنه مجرد نسخة .

زفر (هيثم) فى توتر ، مصححًا :

ـ كانوا يخطَّطون لرؤية النسخة .

أجابه فى حِدَّة أكثر :

ـ لست أصدق هذا .

صمت (هيثم) لحظات ، بحثًا عن الكلمات المناسـبة ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ ولكن وسائل الاستجواب لدينا شديدة الدقة ، ومن المستحيل أن ...

قاطعه فى عصبية :

ـ لا تقل مستحيل !

وضرب سطح مكتبه براحته ، مضيفًا :

ـ ذلك الفريق لا يعرف المستحيل !

لم يره (هيثم) قط بهذه العصبية ، لذا فقد تراجع خطوة بحركة غريزية ، وقال فى توتر شديد :

ـ بالتأكيد يا سيدى .. بالتأكيد .

رمقه القائد الأعلى بنظرة نارية ، فانكمش مستدركًا :

ـ تاريخهم يقول هذا .

ظلّ يرمقه بتلك النظرة لحظات ، حتى إنه شعر بالدم يجف فى عروقه ، قبل أن يقول القائد الأعلى فى صرامة :

ـ لن أنتظر حتى يباغتونا بما لا نتوقعه ... سأصدر أمرًا مباشرًا بـ ...

« الدكتور (راشد) يجرى اتصالاً مباشرًا .. »

ارتفع ذلك الصوت الأنثوى الآلى فى المكان فجأة ، فبتر القائد الأعلى عبارته ، والتفت إلى مكتبه معقود الحاجبين فى توتر ، قبل أن يعود إليه ، ليتم الاتصال ، ويقول فى صرامة ، ولّدها الانفعال :

ـ ماذا هناك ؟!

أدهش أسلوبه هذا الدكتور (راشد) ، ولكنه لم يتوقّف عنده كثيرًا ، وهو يقول :

ـ سيدى .. هناك ما ينبغى أن تراه بنفسك .

سأله فى عصبية :

ـ ولماذا أنا شخصيًّا ؟!

أجابه فى توتر ملحوظ :

ـ لأنه يحتاج إلى توجيه مباشر ، من أعلى سلطة هنا .

بدا القائد الأعلى أكثر عصبية ، وهو يسأله :

ـ بشأن ماذا ؟!

صمت الدكتور (راشد) لحظة ، ربما ازدرد خلالها لعابه ، قبل أن يقول فى توتر ، حمل كل انفعالاته :

ـ بشأن ذاكرة (محمود) ... ذاكرته البشرية .

وانعقدت الكلمات فى حلق القائد الأعلى ..

لقد أعاده الجواب فى عنف إلى ذلك المشهد ..

المشهد الرهيب ..

من نهر الزمن ..

* * *

زمجر الدُب زمجرة غاضبة خافتة ، حملت كل توتره وعدم رضاه ، مما جعل الذئب يلتفت إليه ، متسائلاً فى صرامة :

ـ ماذا هناك ؟!

أجابه الدُب ، بعد زمجرة أخرى :

ـ الرجلان الجديدان .

سأله فى صرامة أكثر :

ـ ماذا عنهما ؟!

لم يستطع إخفاء غضبه أكثر من هذا ، وهو يهتف :

ـ أصبحا زعيمين .. قفزا فوق كل فصائل المقاومة ، دون أن يكون لهما أى تاريخ معنا .

لم يجب الذئب على الفور ، فتابع الدُب فى حِدَّة :

ـ إنهما مجرَّد مدنيين .

أجابه الذئب فى صرامة شديدة :

ـ وماذا نحن ؟!

انعقد حاجبا الدُب ، وقلب شفتيه فى امتعاض ، دون أن يجيب ، فتابع الذئب بنفس الصرامة :

ـ كلنا منذ البداية مجرَّد مدنيين يا رجل .. فصائل المقاومة كلها من المدنيين .. ربما أجدنا تنظيم أنفسنا ، وصنعنا منا زعماء وجنرالات وقادة ، ولكننا فى النهاية مدنيون .. لا تنس هذا قط .

أجابه بزمجرة خافتة :

ـ ولكننا جميعًا حاربنا طويلاً ، أما هما ..

لم يكمل عبارته ، وكأنما رأى أنها أوضح من أن تكتمل ، فقال الذئب ، بعد لحظة طويلة من الصمت ، وهو يدور حوله :

ـ هل رأيت كيف استقبلت الفصائل خبر القضاء على الليث والفهد والتمساح ؟!

غمغم الدُب :

ـ نعم .. ولكن ...

قاطعه الذئب وهو يتابع ، متجاهلاً تعليقه غير المكتمل :

ـ لقد ثاروا فى البداية ، حتى عندما أكدنا لهم أن الليث هو المسئول ، وهو الذى تخلص من الفهد والتمساح ، وكاد يتخلص منا ، لولا أن كشفنا مؤامرته فى اللحظة الأخيرة .. وكان من الممكن أن تتواصل ثورتهم وتشتعل أكثر ، وربما تنتهى بالقضاء علينا أيضًا ، لولا ظهور ابن (نور) وحفيده .

همهم الدُب همهمات غير مفهومة أو واضحة ، ولكنها تعبّر عن عصبيته ، فأكمل الذئب فى حزم ، وهو يواصل دورانه حوله :

ـ ظهورهما ، وإعلاننا أنهما الزعيمين الجديدين للفصائل ، أخمد الثورة فى مهدها ، ليس لتاريخهما ، ولكن لتاريخ الأسطورة ، التى ينتميان إليها .

وتوقّف عن الدوران دفعة واحدة ، ليقول وقد التمعت عيناه :

ـ (نور) .

غمغم الدُب ، فى صوت أشبه بالزمجرة :

ـ هذا ما حدث بالفعل ، ولكن ...

مرة أخرى قاطعه الذئب ، قائلاً فى صرامة :

ـ ربما لم يحاربا .. ولن يحاربا ، أو يصلحا لذلك ، ولكن وجودهما كان حاسمًا ، فى هذه المواجهة .

قال الدُب فى حنق :

ـ وماذا لو واجهنا هجومًا من النظام ، فى أية لحظة ؟!

ابتسم الذئب ، والتمعت عيناه ، وهو يقول :

ـ عندئذ سيكون وجودهما ملهمًا لكافة الفصائل ؛ فهما من نسل (نور) ، الذى واجه وفريقه احتلالاً من عالم آخر ، وانتصر ، وأعاد إلى الأرض حريتها .. هذا وحده سيبث الحماس فى الجميع ، وسيرغبون فى إعادة المجد القديم ، والانتصار على العدو الحالى .

عاد الدُب يزمجر ، قائلاً :

ـ ربما يحدث هذا ، ولكن النهاية ستكون فى غير صالحنا ، فى كل الأحوال ، فلو انهزمنا ، سيصبحان أسطورة ، أما لو انتصرنا ، فسيصبحان الزعيمين الأقوى ، فى (مصر) كلها .

التمعت عينا الذئب فى خبث ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. سواء انتصرنا أو انهزمنا ، لن يسطع نجمهما بعدها أبدًا .. فى هذه الحياة على الأقل .

وهنا ، انعقد حاجبا الدُب فى شدة ، وهو يتطلّع إليه مليًا ..

ولأوّل مرة ، شعر نحوه بالخوف ..

خوف شديد ..

وبلا حدود ..

* * *

بدا القائد الأعلى صارمًا أكثر مما ينبغى ، وهو يتطلع إلى (محمود) فى صمت ، قبل أن يلتفت إلى الدكتور (راشد) ، قائلاً فى صرامة :

ـ ماذا حدث بشأن ذاكرته البشرية ؟!

لم يجب الدكتور (راشد) ، وإنما أشار إلى (محمود) ، الذى قال فى شىء من التوتر :

ـ لقد استعدتها بالكامل .

اتسعت عينا القائد الأعلى ، وهو يحدّق فيه بدهشة ، قبل أن يقول :

ـ ماذا أصابه ؟!

مرة أخرى لم يجب الدكتور (راشد) ، ولكن (محمود) أجاب فى عصبية :

ـ ماذا دها الجميع ؟!.. أشعر أننى على خير ما يرام ؟!

هتف القائد الأعلى ، فى دهشة أكثر :

ـ إنه يتصرّف كبشرى .

صاح (محمود) فى غضب شديد :

ـ إننى بشرى .

أجابه القائد الأعلى فى حِدَّة :

ـ لست ..

قاطعه الدكتور (راشد) فى سرعة متوترة :

ـ سيدى ..

التفت إليه القائد الأعلى فى حِدَّة ، فاستطرد بنفس اللهجة :

ـ من الضرورى جدًا أن نتحدَّث ، قبل أى شىء ..

قال القائد الأعلى بنفس الحِدَّة :

ـ لا بد وأن أخبره ..

قاطعه مرة أخرى :

ـ قبْلها يا سيدى .. قبْلها .

انتفض جسد (محمود) ، وهو يقول فى حِدَّة :

ـ ما الذى ينبغى أن يخبرنى به ؟!

ربّت الدكتور (راشد) على كتفه ، فى حنان أبوى عجيب ، أدهش القائد الأعلى فى شدة ، وأثار استنكاره ، وهو يقول :

ـ لا داعى لكل هذا التوتر يا ولدى .. إننا نشفق عليك فحسب .

تضاعفت حِدَّة (محمود) وعصبيته ، وهو يقول :

ـ لمـاذا ؟!.. وما الذى ينبغى أن يخبرنى به ؟!

أجابه الدكتور (راشد) ، بنفس الحنان :

ـ سأخبرك أنـا .

ثم أمسك كتفيه ، وتطلّع فى عينيه مباشرة ، قائلاً :

ـ أتعشّم ألاّ يصدمـك هذا ، ولكنك كنت فى غيبوبـة طويلـة ، لسنوات عديدة .

اتسعت عينا (محمود) عن آخرهما ، وهو يقول فى ارتياع :

ـ سنوات عديدة ؟!

ثم تساءل مرتجفًا :

ـ كم عددها ؟!

أجابه الدكتور (راشد) :

ـ لا يهم كم عددها يا ولدى .. المهم أنك قد استعدت وعيك للتو ، ولا ينبغى أن تجهد نفسك أكثر مما ينبغى ، فى الوقت الحالى علـى الأقل .

حارت عينا (محمود) كثيرًا ، وهو ينقل بصره ، فى شىء مـن الارتياع ، بين الدكتور (راشد) والقائد الأعلى ، الذى بدا عصبيًا متوترًا ، على نحو لم يفهم ، ولكن الدكتور (راشـد) التفت إلـى القائد الأعلى ، قائلاً :

ـ ينبغى أن نتحدث فى هذا الشأن يا سيِّدى .

انصرفا إلـى حجرة مجاورة ، تـاركين (محمـود) فـى حالـة مزرية ، من الحيرة والارتباك ، ومـا إن جمعهمـا المكان ، حتـى قال القائد الأعلى فى توتر شديد :

ـ ماذا حدث ؟! إنه يتصرّف كبشرى !

أجابه الدكتور (راشد) ، محاولاً تهدئته :

ـ بالضبط ، ولكن ..

قبل أن يتم عبارته ، قاطعه القائد الأعلى ، هاتفًا :

ـ إنه مجرد نسخة .

أجابه الدكتور (راشد) ، وقد انتقل إليه التوتر :

ـ بالتأكيد ، وكل التحاليل تثبت أن نسبة المادة الحيويـة لديه لا تتجـاوز سـبعة وعشرين فى المائة ، لكن طـاقتـه بشرية مائـة فى المـائة ، هـذا مـا أعاد إليـه ذاكرتـه البشرية دفعـة واحدة ، وهو الآن يشعر أنه كائن بشرى طبيعى ، ويتصرّف أيضًا علـى هذا النحو .

سأله القائد الأعلى :

ـ ألم يعلم الحقيقة بعد ؟!

أجابه فى حسم :

ـ لا ينبغى أن يعلمها الآن ، وإلا أصابه هذا بصدمة عنيفة .

انعقد حاجبا القائد الأعلى ، وهو يسأله فى اهتمام شديد :

ـ وماذا عن ذاكرته ؟!

أجابه الدكتور (راشد) فى سرعة :

ـ لقد استعادها كما رأيت ، و ...

قاطعه فى صرامة :

ـ استعادها كاملة ؟!

حدَّق الدكتور (راشد) فيه ، متسائلاً فى حذر :

ـ ماذا تعنى يا سيِّدى ؟!

أجابه بنفس الصرامة :

ـ أعنى هل استعاد ذاكرته ، فى نهر الزمن أيضًا ؟!

تراجع الدكتور (راشد) بحركة حادة ، مردِّدًا :

ـ نهر الزمن ؟!

بدا القائد الأعلى أكثر صرامة وقسوة ، وهو يقول :

ـ نعم .. نهر الزمن .. أليس هذا ما استعدناه من أجله ؟!

تردَّد الدكتور (راشد) ، وهو يقول :

ـ بلى .. ولكن من الواضح أنه لم يستعد ذكريات نهر الزمن .

هتف القائد الأعلى فى غضب مستنكر :

ـ لم يستعدها ؟!

أجابه الدكتور (راشد) فى سرعة :

ـ هذا واضح للغاية يا سيِّدى ؛ فلو استعاد ذكرة نهر الزمن ، لأدرك حقيقة ما أصابه ، ولكنه حائر بشدة ، على نحو يؤكِّد أنه لا يدرك هذا .

سأله القائد الأعلى :

ـ وهل يمكنه استعادتها مستقبلاً ؟!

تردَّد الدكتور (راشد) لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ يمكننا أن نحاول .

عقد كفيه خلف ظهره ، وهو يقول بمنتهى الصرامة :

ـ ابذلوا كل ما يمكنكم فى المحاولة إذن .

وانعقد حاجباه بشدة ، وهو يضيف :

ـ لا بد وأن نعلم من أين أتت ذاكرته بذلك المشهد الرهيب ، وإلا ...

صمت لحظة ، ثم أكمل فى صرامة :

ـ فلسنا بحاجة إلى نسخة شبه بشرية .

امتقع وجه الدكتور (راشد) ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى يا سيّدى ؟!

أجابه بمنتهى الصرامة والقسوة والشدة :

ـ أعنى أنه إما أن نحصل منـه على كل ما نريد من أجوبـة ، أو نتخلص منه ... تمامًا .

وامتقع وجه الدكتور (راشد) أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

7 ـ زمـن آخـر ..

وسط ظلام الليل ، ووسط أطلال العاصمـة العاصمـة القديمـة ، راح (محمود) الصغير يتحرّك فى خفة ، حتى بلغ منزل (طارق) الصغير ، فدقَّ بابه فى توتر ، وانتظر حتى سمع صوته ، فهمس ، وهو يتلفّت حوله :

ـ افتح يا خالى .

فتح (طارق) الصغير بابه ، وهو يسأله فى دهشة :

ـ ما الذى أتى بك فـى هذا الوقت يـا (محمـود) ؟!.. ولمـاذا التستر والتوتر ؟!..

أنت اليوم واحد من زعماء فصائل المقاومة !

جلس (محمود) الصغير على أقـرب مقعد إليـه ، وهو يقول فى توتر :

ـ ربما هذا ما أتى بى على هذا النحو .

غمغم (طارق) الصغير ، وهو يجلس إلى جواره :

ـ بلا حراسة !!

اعتدل (محمود) الصغير ، قائلاً :

ـ لم أكن أريد أن يعلم أحدِ أننى أتيت .

تضاعفت دهشة (طارق) الصغير ، وهو يسأله :

ـ ولماذا كل هذا ؟!

مال (محمود) الصغير نحوه ، قائلاً بكل توتر الدنيا :

ـ هل تشعر بالارتياح لما يحدث ؟!

حدَق فيه (طارق) الصغير لحظات ، قبل أن يجذب مقعدًا ، ويجلس إلى جواره ، قائلاً فى توتر مماثل :

ـ ما الذى يقلقك بالضبط ؟!

لوَّح (محمود) الصغير بيده ، قائلاً :

ـ كل شىء .. الوسيلة التى استدعانا بها الذئب ، والظروف التى استدعانا فيها ، والتوقيت نفسه .

سأله (طارق) الصغير فى حذر :

ـ وماذا عن التوقيت ؟!

أجابه ، وتوتره يتصاعد :

ـ لقد استدعانا ، قبل حتى أن يقوم الليث بمؤامرته المزعومة ، ولم يطلب منا سوى أن نكون زعيمين ، بدلاً من الفهد والتمساح .

اتسعت عينا (طارق) الصغير ، وهو يقول مغمغمًا :

ـ وهذا يعنى أنه ..

أكمل (محمود) الصغير فى انفعال ، دون أن ينتظر إكماله لعبارته :

ـ أنه كان يعلم ما سيحدث .

ثم عاد يميل نحوه ، مضيفًا :

ـ أو أنه مَن دبَّره .

اتسعت عينا (طارق) الصغير أكثر ، وحملتا الكثير من الارتياع ، وهو يغمغم :

ـ يا إلهى !.. يا إلهى !

أمسك (محمود) الصغير بيده ، قائلاً :

ـ لقد تورَّطنا يا خالى .

أجابه ، وهو يخلّص يده بحركة حادة :

ـ خاطبنى باسمى مجردًا .. أنت أكبر منى عمرًا بالفعل .

قال (محمود) الصغير فى عصبية :

ـ لست هذه هى المشكلة الآن .. المشكلة الحقيقية هى أن كل فصائل المقاومة مبهورة بظهورنا ، وبتولينا الزعامة ، ويتصورون أننا نملك نفس موهبة (نور) فى القيادة ، وأننا حتمًا سنقودهم إلى النصر

قال (طارق) الصغير فى تردُّد :

ـ ربما لو درسنا الأمر جيدًا ...

قاطعه فى صرامة :

ـ هذا ليس مجالنا .

تراجع (طارق) الصغير ، أشبه بالمصدوم ، وهو يقول :

ـ ولكننا لو انسحبنا الآن ، فسنصيبهم بصدمة عنيفة ، قد تدفعهم حتى لـ ... لـ ...

وانخفض صوته فى شدة ، مضيفًا فى توتر :

ـ للقضاء علينا .

أشار (محمود) الصغير بيده ، قائلاً :

ـ إلا إذا أتينا لهم بمن هو أفضل منا .

سأله فى حيرة متوترة :

ـ مثل من ؟!..

مال نحوه بشدة ، مجيبًا :

ـ والدى وجدك .. نور .. المقدَّم (نور الدين محمود) .

وانتفض جسد (طارق) الصغير ..

بمنتهى العنف ..

* * *

« يبدو أننا فى الجانب الخاطئ يا رفاق .. »

نطق (نور) العبارة فى حزم ، وهو يقف مع رفاقه فى شكل دائرى ، فى ركن آخر من أركان الحديقة ، فقالت (سلوى) فى حذر ، مستخدمة لغة الفريق الخاصة :

ـ لا داعى لأن نتسرَّع فى الجزم يا (نور) .

أجابها بنفس الحزم :

ـ لا يوجد أى تسرُّع فى الأمر .. أسلوبهم نفسه يجزم بهذا .. الأسرار التى يخفونها عنا ، على الرغم من ثقتهم فى نزاهتنا وقوة انتمائنا لهذا الوطن ، ومحاولة مراقبتنا خفية بأساليب مختلفة ، حتى إنه لولا عبقرية (نشوى) ، فى ولوج شبكة معلوماتهم ، دون أن ينتبهوا لهذا ، لما عرفنا مواقع أجهزة تنصتهم ، واخترنا بقاعًا تخلو منها ، ولما عرفنا كيف نبدل هذه البقاع فى كل مرة ، ولولا مهارة (سلوى) ، لما حددنا النقاط ، التى يعجزون فيها عن التقاط أصواتنا ، ومع موهبة (رمزى) ، تجاوزنا استجوابهم غير المبرَّر بنجاح ، ولولا شجاعة (أكرم) ...

قاطعه (أكرم) فى توتر شديد :

ـ لماذا تعقَّدت الأمور .

التفت إليه (نور) قائلاً :

ـ لماذا تقول هذا يا صديقى ؟!.. لقد أضفت إلينا معلومات غاية فى الأهمية .

خفض (أكرم) عينيه ، وهو يقول فى مرارة :

ـ بل قل مشكلات غاية فى الخطورة .

ربَّت (نور) على كتفه فى مودَّة ، قائلاً :

ـ وحتى لو افترضنا هذا ، فما العجيب والشاذ به ؟.. أنا وضعتكم فى مواقف مميتة أكثر من مرة ، وكذلك فعلت (سلوى) ، و(نشوى) ، و(رمزى) أيضًا .. إنها قاعدة الفريق الأولى يا صديقى .. الجميع للفرد ، والفرد للجميع ، كما جاءت فى رواية الفرسان الثلاثة ، للرائع (ألكسندر دوماس) (*) ، أضافت (سلوى) فى حزم :

ـ ثم إن (مشيرة) لا تخصك وحدك ، بل تخصنا جميعًا .. إنها صديقتنا كلنا كما تعرف ، ومن قبل حتى أن نلتقى بك .

حاول (أكرم) أن يتماسك ، إلا أن دمعة مريرة أفلتت من عينيه ، على الرغم من صوته الصارم ، وهو يقول :

ـ لو مسّ هؤلاء الأوغاد شعرة منها ، فسوف ...

قاطعه (نور) بمنتهى الحزم :

ـ لو فعلوها ، سيكونون قد وقَّعوا شهادة نهايتهم .

(*) ألكسندر دوماس (الأب) : (1802 ـ 1870م) ، روائى فرنسى وكاتب مسرحى ، معظم رواياته من مذكرات شخصيات حقيقية ، وضعها فى إطار أسطورى ، من أشهر مؤلفاته (الفرسان الثلاثة) (1844م) ، و(الكونت دى مونت كريستو) (1844 ـ 1845م) .

وبذلت (نشوى) جهدًا لتبتسم ، قائلة :

ـ ثم إننا لن نمنحهم الفرصة لهذا .

وابتسم (رمزى) ابتسامة واسعة ، مضيفًا :

ـ ربما حتى لن يدركوا الأمر ، إلا بعد فوات الأوان .

أدار (أكرم) عينيه فى وجوههم ، فى امتنان يمتزج بالقلق ، فربَّت (نور) على ظهره مرة أخرى ، وقال فى حزم :

ـ والآن ، دعونا ندرس خطتنا للمرة الأخيرة يا رفاق .

استمع إليه الجميع فى انتباه شديد ، وعيونهم تحدِّق فيه مبهورة ..

فعلى الرغم من أنهم كثيرًا ما نفذوا خطط (نور) فى عصرهم ، إلا أن خطته هذه المرة ، فى هذا العصر ، الذى يفوقهم بأكثر من ثلاثين عامًا ، كانت عبقرية ومبهرة ..

إلى حد مذهل ..

* * *

ضغط القائد الأعلى زرًّا خفيًّا ، فى مسند مقعده ، ليطفئ شاشة الرصد الهولوجرامية ، قبل أن يلتفت إلى (هيثم) ، قائلاً :

ـ إنهم يدبرون أمرًا ما .

غمغم (هيثم) فى توتّر :

ـ هذا يبدو واضحًا فى كل مرة

نهض من خلف مكتبه ، وقال فى تفكير عميق ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ السؤال هو : ماذا يدبرون ؟!

تردَّد (هيثم) كثيرًا ، وهو يقول فى خفوت ، أقرب إلى الهمس :

ـ (محمود) ؟

هزَّ القائد الأعلى رأسه فى بطء ، يشفّ عن عمق تفكيره ، وهو يقول :

ـ ليس هو .. هناك أمر ما .. أمر لم نتوصَّل إليه بعد .

سأله (هيثم) ، فى خفوت حذر :

ـ مثل مـاذا ؟!

أدار عينيه إليه فى بطء عجيب ، وتطلَّع إليه لحظات وكأنه لا يراه ، قبل أن يقول :

ـ هذا ما ينبغى أن نعرفه .

قالها ، وغرق فى صمت أشد عمقًا من تفكيره لفترة طويلة ، تجاوزت الدقيقتين ، لم ينطق خلالهما (هيثم) بحرف واحد ، حتى التفت إليه القائد الأعلى ، قائلاً :

ـ لا ينبغى أن ننتظر ، حتى ينفذوا ما يدبرونه .

سأله (هيثم) فى صوت مبحوح ، ينمّ عن انفعاله :

ـ وماذا سنفعل ؟!.. لقد استدعيناهم إلى الاستجواب ، ولم يسفر هذا عما يمكن أن يمنحنا سندًا قانونيًا ، و ...

قاطعه القائد الأعلى فى صرامة مفاجئة :

ـ اصمت .

أطبق (هيثم) شفتيه على الفور ، واتخذ وقفة عسكرية ثابتة ، فى حين عاد القائد الأعلى إلى صمته وسكونه لدقيقة أخرى ، قبل أن يقول فى صرامة شديدة :

ـ اتركنى وحدى .

لم يحاول (هيثم) حتى مناقشته ، وهو يتراجع نحو الجدار ، قائلاً بلهجة عسكرية صرفة :

ـ أوامرك يا سيدى .

تموَّج الجدار فور اقترابه منه ، واختفى لحظات ، ليسمح له بالمرور ، قبل أن يعود متموجًا إلى الظهور ، وتطلَّع القائد الأعلى إليه بنظرة صارمة ، حتى استقر مرة أخرى ، ثم عاد إلى مكتبه ، وبقى صامتًا خلفه بعض الوقت ، ونظراته شاردة جامدة ، قبل أن يمرِّر يده بحركة خاصة فوق سطح مكتبه ، فتوقَّفت بعدها كل أجهزة الأمن فى الحجرة عن العمل ، وعندئذ ، نهض من خلف مكتبه ، دون أن يغادر موقعه ، وقال فى آلية عجيبة :

ـ (روزكونار) .

لم يكن للكلمة أى معنى معروف ، فى أية لغة على وجه الأرض ، حديثة أو قديمة ، إلا أنه لم يكد ينطقها ، حتى حدث شىء عجيب فى حجرته ..

عجيب للغاية ..

لقد أطفئت الأنوار كلها دفعة واحدة ، فيما عدا مصباحًا أحمر ، ألقى ضوءه على وجه القائد الأعلى ، من زاوية غير مباشرة ، فأضفى عليه مظهرًا رهيبًا ، خاصة أن ملامحه بدأت فى التموّج على نحو عجيب ، وكأنها تتحوّل إلى هيئة أخرى مخالفة ..

هيئة عجيبة ..

غريبة ..

مخيفة ..

وغير بشرية ..

على الإطلاق ..

وفى الوقت ذاته ، بدأت كرة عجيبة من الطاقة تتكوّن فى منتصف الحجرة ..

بدأت أوّلاً كرة من النار ، تسبح فى فراغ الحجرة ، على ارتفاع متر ونصف المتر من سطح الأرض ..

ثم راحت تكبر ..

وتكبر ..

وتكبر ..

و ...

« كبير المستجوبين يطلب إذنًا عاجلاً بالمقابلة .. »

انبعث ذلك الصوت الأنثوى الآلى فجأة ، فاختفت تلك الكرة دفعة واحدة ، وأضيئت أنوار الحجرة مرة أخرى ، على جسده ينتفض فى قوة لبضع لحظات ، قبل أن يخفض ذراعه ، وقد استعاد وجهه الأصلى ، وهتف فى غضب شديد ، ربما أكثر مما ينبغى :

ـ ألم أقل ألف مرة : إنه غير مسموح لأحد بمقاطعتى ، عندما أوقف عمل نظم الأمن الرقمية ؟!

أتاه ذلك الصوت الأنثوى الآلى الهادئ يقول :

ـ الأوامر تحتم إعلان طلبات المقابلة العاجلة فورًا .

بدا أشد غضبًا ، وهو يلهث فى شدة ، على نحو انفعالى عجيب ، إلا أنه لاذ بالصمت ، حتى استعاد سيطرته على أعصابه الثائرة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ اسمحى له بالدخول .

لم تمضِ لحظات ، حتى كان كبير المستجوبين يقف أمامه ، فى حالة توتر ملحوظ ، وهو يقول :

ـ لدىَّ شكوى ، ترددت كثيرًا قبل أن أطرحها .

بذل القائد الأعلى جهدًا أكبر ، للسيطرة على مشاعره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ولماذا ترددت ؟!

أجابه الرجل فى توتر أكثر :

ـ لحساسية الأمر .

قالها ، ثم اندفع يروى له تفاصيل ما حدث من (طارق) معه ، واستمع إليه القائد الأعلى فى دهشة شديدة فى البداية ، لم تلبث أن تحولت إلى غضب أكثر شدة ، وهو ينتفض هاتفًا ، عندما انتهى الرجل من روايته :

ـ وكيف تتردد فى أمر بالغ الخطورة كهذا ؟!

هزَّ الرجل رأسه وكتفيه ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ لست أدرى .. ربما لأن ...

لم يكمل عبارته ، ربما لأنه لم يجد ما يكملها به ، فعاد يهز رأسه وكتفيه مرة أخرى ، فى يأس واضح ، فاحتقن وجه القائد الأعلى ، وهو يقول فى صرامة :

ـ انصرف .

بدا الرجل مصدومًا ، وهو يقول :

ـ أنصرف ؟!.. فقط ؟!

أجابه بمنتهى الصرامة :

ـ لقد طرحت شكواك ، وسنتولَّى نحن الأمر من هذه النقطة .

تردَّد الرجل ، وهو يقول :

ـ ولكننى أردت أن ...

صاح القائد الأعلى مقاطعًا :

ـ قلت : انصرف .

أسرع الرجل يغادر المكان فى توتر شديد ، متسائلاً لماذا غضب القائد الأعلى ، وثار إلى هذا الحد ؟!

أما القائد الأعلى نفسه ، فقد هتف عبر جهاز اتصال خاص :

ـ (هيثم) .. أريد الرائد (طارق) .

قال (هيثم) عبر جهاز الاتصال فى حيرة :

ـ هل أطلب استدعاءه ؟!

أجابه فى مزيج من الصرامة والغضب والثورة :

ـ كلاً .. أتحدَّث عن تصفية جسدية .. عاجلة .

ولم يُحِر (هيثم) جوابًا هذه المرة ..

فلقد صدمه القرار المفاجئ ..

بشـدة ..

* * *

فى حجرته ، على الرغم من وجود آلات المراقبـة والتنصُّت ، راح (نور) يُعِد بعض أدواته الخاصة فى هدوء عجيب مثير للدهشة والحيرة ..

أحضر غطاء وسادة ، وراح يدس فيه مجموعة غير مترابطة من الأشياء ، من داخل حجرته ..

جهاز توقيت ..

مسحوق تنظيف ..

فرشاة تنظيف مغنطيسية ..

قطعة من البساط المصنوع من نوع خاص من اللدائن ..

مصباحًا دقيقًا ..

قليلاً من سائل غسل الأيادى ..

عبوة هواء مضغوط ..

أشياء لا يمكنك قط أن تفهم الرابط المشترك بينها ، أو لماذا يحتاج إليها ، على الرغم من أنه كان يتعامل معها بمنتهى الدقة

والاهتمام والعناية ، ويرصها داخل غطاء الوسادة ، بعد أن يفحصها جيدًا ، حتى إن مراقبيه قد تساءلوا عن هدفه ..

ثم فجأة ، سمع طرقات على باب حجرته ..

طرقات مرتبة ، ولكنها متسرِّعة ، على نحو يوحى بأن صاحبها متعجِّل أو متوتر ، فنقل المراقبون الرؤية إلى خارج الحجرة ، ولكن آلاتهم هناك لم تنقل إليهم شيئًا .. أى شىء ..

فقط صمت وفراغ وشاشات هولوجرامية فارغة ..

ولذلك ، وعلى الرغم من دهشتهم البالغة ، عادوا بالمراقبة إلى داخل حجرة (نور) ، الذى تساءل فى حذر :

تكررَت الطرقات مرة أخرى ، فاقترب من الباب ، وفتحه فى بطء ؛ لينظرِ إلى القادم من فرجته ، ولكنه فوجئ بوجه يرتدى قناعًا سميكا ، دفع صاحبه الباب فى قوى ، وانقضَّ عليه فى عنف ..

وعلى الرغم من أن الانقضاضة المباغة قد أفقدته توازنه ، وألقته فوق الفراش ، إلا أن (نور) ارتدَّ فى سرعة ، واستعد لقتال مع خصمه ، ولكنه فوجئ به ينتزع من حزامه مسدسًا ترددياً قويًا ..

ويطلق أشعته القاتلة ..

مباشرة ..

* * *

8 ـ الشـــرارة ..

« أرأيت ؟!.. »

نطقها الدُب ، وهو يطلق زمجرة أخرى ، داخل مقر المقاومة الرئيسى ، فالتفت إليه الذئب فى هدوء ، قائلاً :

ـ رأيت مـاذا ؟!

أجابه الدُب فى عصبية :

ـ أجهزة التنصُت والمراقبة ، التى غرسناها فى منزلى الزعيمين الجديدين ، نقلت إلينا حديثهما هذا ، الذى يتآمران فيه علينا .

أدهشه أن الذئب ظل هادئًا واثقًا ، وهو يقول :

ـ لم يتآمرا علينا بالمعنى المعروف .. إنهما فقط يشعران بالشك والاضطراب ، ولديهما ربما ما يؤيِّد هذا ، ولكنهما لم يتخذا خطوة إيجابية بعد .

زمجر الدُب مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ وهل سننتظر حتى يتخذاها ؟!

صمت الذئب طويلاً ، وهو يتطلَّع إليه ، قبل أن يعتدل ، قائلاً فى صرامة :

ـ هل تشك فى قدرتى على القيادة وحسم الأمور ؟!

امتقع وجـه الدُب ، وبـدا أشبه بطفل مرتبك ، على الرغم من ضخامته ، وهو يقول :

ـ مطلقًا .

نهض من مكانه بحركة حادة ، وهو يقول فى صرامة أكثر :

ـ انتظر إذن ما ستسفر عنه الأمور .

تردَّد الدُب لحظات ، ثم قال فى خفوت متوتر :

ـ أليس من حقى معرفة ما يدور فى ذهنك ؟!

كان سيكتفى بهذا القول ، إلا أن ذهنه ـ ولسبب ما ـ استعاد بعض كلمات الليث فى هذه اللحظة ، فاستدرك فى عصبية :

ـ أنا زعيم ، ولست تابعًا .

رمقه الذئب بنظرة طويلة حادة ، وكأنما يقرأ ما يدور فى أعماقه ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ بالطبع .. أنت زعيم .

وعاد إلى مقعده فى بطء ، وكأنما يدرس كلماته التالية ، قبل أن يجلس عليه ، مضيفًا :

ـ وتقود أكبر فصائل المقاومة أيضًا ، بعد أن انضم إليك رجال الليث كلهم .

امتص أسلوبه هذا توتر الدُب ، الذى تلاشت عصبيته ، وانخفض صوته ، وهو يقول :

ـ أردت فقط أن أعرف .

تراجع الذئب فى مقعده ، قائلاً :

ـ راجع كل ما سجلته أجهزة تنصتنا إذن ، وسل نفسك ، إلى أين انتهى بهما الأمر ؟!

أجابه فى حذر :

ـ إلى ضرورة نقل القيادة إلى المقدم (نور) .

التمعت عينا الذئب ، وهو يقول :

ـ بالضبط .

تساءل الدُب فى حيرة :

ـ ولمـاذا يرضيك هذا ؟!

أجابه فى استمتاع عجيب :

ـ هل تعلم مـاذا يمكن أن يحدث ، لو أصبح المقدم (نور) بالفعل هو قائد المقاومة ؟!

ارتجف الدُب لمجرَّد الفكرة ، وهو يقول :

ـ ستعود الأيام الخوالى .

هتف الذئب :

ـ بالضبط .. سيتفجَّر الحماس فى نفوس الجميع ، كما لـم يتفجَّر من قبل ، وستشتعل الأمور على نحو مدهش ، بالإضافـة إلى أن (نور) وفريقه سيستخدمون عقولهم العلمية ، وأساليب تفكيرهم

وتخطيطهم ، التى مـا زالـت تبهر العـالم كلـه فى هذا الزمـن ، لمقاومة النظام والتصدّى له .

غمغم الدُب بأنفاس مبهورة :

ـ أتعتقد أن هذا يكفى ؟!

أجابه فى حزم :

ـ بكل تأكيد .

ثم أردف فى اهتمام شديد :

ـ لقد فعلوا ما هو أكثر فى زمنهم .

هزَّ الدُب رأسه الضخم ، قائلاً :

ـ ربما فى زمنهم ، عندما كانوا يملكون كلَّ مفاتيح العلم والقوة ، وعندما استندوا إلى مصداقية عصرهم ، ولكن وجودهم الآن أشبه بإحضار رجل من العصر الحجرى فجأة ، إلى القرن العشرين .

انعقد حاجبا الذئب فى ضيق ، أمام هذا المنطق ، وقال فى صرامة :

ـ التشبيه مبالغ فيه للغاية .

أشار الدُب برأسه ، قائلاً :

ـ ربما ، ولكنهم فى كل الأحوال خـارج عصرهم ، وسيواجهون قوة هائلة .. قوة دولة كاملة ، بكافة أجهزتها ونظم أمنها .

قال الذئب فى حزم :

ـ نحن أيضًا نقاوم تلك الدولة منذ سنوات .

هتف الدُب :

ـ ولم يؤد هذا إلى شىء .

ضرب الذئب سطح منضدته براحته ، صائحًا :

ـ حتى الآن .

لم يفهم الدُب ما تعنيه الكلمة ، ولكنه لاذ بالصمت ، ولم يحاول التعليق ، فى حين نهض الذئب من مكانه ، قائلاً فى صرامة ، شابها الكثير من الغضب :

ـ مقاومة أمثالهم ليست بالأمر الهين . إنها تستغرق سنوات وسنوات ، ولكنها تثمر دومًا فى النهاية .. انظر إلى كل الشعوب التى تحرَّرت بفضل المقاومة .

غمغم الدُب فى حذر :

ـ هناك شعوب حظت بمقاومة شرسة لعشرات السنين ، دون أن يسفر هذا عن لمحة واحدة من تحرُّر أو سيادة .

تضاعف غضب الذئب ، وهو يقول :

ـ وإلى أى نوع من الشعوب تظننا ننتمى ؟!

امتقع وجه الدُب دون أن يجيب ، فنهض الذئب مرة أخرى ، وأدار له ظهره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ بغض النظر عن هذه الترهات .. ينبغى الآن أن نتخذ الخطوات اللازمة ؛ لإشعال جذوة الحماس ، وإطلاق شرارة الثورة فى نفوس الجميع ، مستغلين عودة (نور) وفريقه .

سأله الدُب فى حيرة :

ـ وكيف يمكننا أن نفعل ؟!

شدَّ الذئب قامته ، وأجابه فى صرامة شديدة :

ـ سأخبرك أنا كيف .

وراح يخبره ..

بالتفصيل ..

* * *

فى حجرتها الخاصة ، على الرغم من تظاهرها باستعراض وتصفح شبكة المعلومات الفائقة ، كانت (نشوى) تضيف إلى صفحة معادلة صغيرة بسيطة ، لا تلفت الانتباه ، ثم تقوم بتخزين عنوان الصفحة ، وكأنه تحتفظ به ، للعودة إليها وقتما تريد ، وبالنسبة للمراقبين ، بدا هذا تصرفًا بسيطًا للغاية ، غير مثير للشك على الإطلاق ، وهذا ينطبق أيضًا على (سلوى) ، التى راحت تستمع إلى محطات الموسيقى ، عبر جهاز الاستماع فى حجرتها ، وهى تحرك وحداته الرقمية كل لحظة ، بحثًا عن

موسيقى جديدة ، مما أثار ملل المراقبين ، الذين أولوا اهتمامهم أكثر لـ (رمزى) ، الذى وقف فى حجرته أمام المرآة ، يطالع صورته فى جمود عجيب ، دون أن تبدر منه أية حركة ، كما لو أنه قد تحوّل إلى تمثال من الشمع ، اتخذ موقعه هذا ..

وكان من الطبيعى أن ينجذب اهتمامهم وانتباههم بشدة ، فأولوه إياهما طوال الوقت ، حتى حدث ما حدث فى حجرة (نور) ..

لقد اقتحم ذلك المقنّع المجهول حجرته ، وسحب مسدسه الترددى ، وصوّبه ..

وأطلق الترددات القاتلة ..

واختفت الصورة عن الشاشة دفعة واحدة ، فهتف أحد المراقبين :

ـ لقد أصاب آلات المراقبة .

هتف به آخر :

ـ أنذر الأمن فورًا .

وثب الأول نحو لوح زجاجى يتدلّى من سقف المكان ، بواسطة عمودين سميكين من الزجاج ، فلمس جزءًا منه بأصابعه ، تألّق بعدها ذلك الجزء بضوء أحمر ، لا يمكنك تحديد مصدره ، وانطلقت فى المكان ذبذبة حادة متصلة ..

نفس الذبذبة انطلقت فى حجرة (نور) ، عندما أطلق مقتحمها أشعة مسدسه على إطار النافذة ، ونحو مصدر الساعة الهولوجرامية المعلقة ، فهتف بـ (نور) ، وقد أحجم عن مهاجمته :

ـ من أنت ؟!

انتزع (طارق) القناع عن وجهه ، هاتفًا :

ـ إنه أنا يا جدى .

هتف (نور) فى دهشة :

ـ (طارق) ؟!.. لماذا هذا الأسلوب ؟!

أمسك (طارق) يده ، وجذبه نحو باب الحجرة ، هاتفًا :

ـ ليس هذا وقت إجابة الأسئلة ؛ فسيكتظ المكان برجال الأمن ، قبل أن أجيب سؤالاً واحدًا .

اندفع (نور) خلفه بإرادته ، وهو يقول :

ـ ولكن أجهزة المراقبة ستتابعنا ، وتعرف أين ذهبنا .

أجابه (طارق) ، وهما يعدوان معًا عبر الممر :

ـ لن تعرف .

كان سيكتفى بهذا القول ، لولا أن انتبه إلى أن عقلية جده لا يمكنها الاكتفاء بهذا ، فأضاف فى توتر :

ـ لقد أوقفت عملها كلها .

هتف (نور) فى انفعال :

ـ أوقفت عملها ؟!

أجابه (طارق) ، وهو ينعطف فى ممر جانبى :

ـ لن تظل معطلة طويلاً .. ستصلح نفسها آليًا ، خلال ثوان قليلة .

قال (نور) ، وهو يتبعه :

ـ إنها تكفى .

فتح (طارق) حجرة ، فى نهاية ذلك الممر الجانبى ، ودفع (نور) داخلها ، قبل أن يدخلها بعده ، ويغلق بابها خلفهما فى سرعة ، و(نور) يسأله :

ـ ألا توجد آلات مراقبة هنا ؟!

هزَّ (طارق) رأسه نفيًا ، وقال وهو يلهث على نحو عجيب :

ـ إنها غرفة تخزين ، لم يخطر ببال أحد مراقبتها .

تطلَّع إليه (نور) مشفقًا ، وهو يواصل لهاثه المنفعل ، وربَّت على كتفه فى حنانَ ، قائلاً :

ـ اهدأ أوَّلاً ، ثم ارو لى ، لماذا فعلت هذا ؟!

قال (طارق) ، من وسط لهاثه :

ـ كان لابد وأن أفعله .

سأله (نور) فى لهفة واهتمام :

ـ لمـاذا ؟!

تطلَّع (طارق) إليه لحظات فى صمت ، قبل أن يجيب :

ـ لقد قرَّروا تصفيتكم .

وانعقد حاجبا (نور) فى شدة ..

فالمفاجأة كانت قوية ..

إلى أقصى حد ..

* * *

انعقد حاجبا (أكرم) فى شدة ، مع انطلاق صفارة الإنذار ، فى مقر المخابرات التكنورقمية كله ، وتحرَّك بسرعة أكبر ، عبر الممر الطويل ، الذى يسير فيه ، و ...

« إلى أين ؟!.. »

أوقفته صيحة (هيثم) الهادرة ، فتوقَّف والتفت إليه ، قائلاً :

ـ كنت أبحث عنك .

اتجه (هيثم) نحوه بخطوات سريعة ، وهو يقول فى صرامة أكثر ، ويده على مقبض مسدسه الترددى :

ـ عد إلى حجرتك .. تحرك المدنيين محظور ، عندما تنطلق صفارات الإنذار .

قال (أكرم) فى غضب :

ـ لست مدنيًا .. أنا عضو فى فريق (نور) .

صاح فيه (هيثم) ، وهو يسحب مسدسه :

ـ عد إلى حجرتك .

رفع (أكرم) عينيه إلى تلك الساعة الهولوجرامية المعلَّقة ، فى سماء الممر ، والتى لم يشعر بالارتياح تجاهها قط ، ورصد الوقت الذى تحدِّده ..

لقد تبقت دقيقة وست ثوان ..

لا بد وأن يربح بعض الوقت ..

بأى ثمن ..

« ماذا يحدث هنا بالضبط ؟!.. »

ألقى (أكرم) السؤال فى هدوء ، وهو يتظاهر بتنفيذ الأمر ، ولكن (هيثم) أجابه فى خشونة ، وهو يلوِّح بمسدسه :

ـ ليس هذا من شأنك .

قال (أكرم) ، وهو يسير فى بطء شديد :

ـ فى زمنى ، كان إطلاق صفارات الإنذار ، فى مقر المخابرات العلمية ، يعنى حالة طوارئ قصوى .

دفعه (هيثم) فى ظهره ، وهو يقول فى حِدَّة :

ـ أسرع .

شعر (أكرم) بالغضب ، ولكنه تمالك نفسه ، وألقى نظرة أخرى على الساعة الهولوجرامية ..

الوقت يسير فى بطء شديد ..

واحد وخمسون ثانية تبقَّت ..

عليه أن يجد وسيلة لالتهامها ..

أية وسيلة ..

تلك الدفعة منحته مبررًا ، ليلتفت إلى (هيثم) ، قائلاً :

ـ ماذا تفعل ؟!.. المفترض أننى أتعاون معكم .

صاح فيه (هيثم) فى قسوة عصبية :

ـ قلت : أسرع .. ستطيع الأوامر ، وإلا ...

رفع فوهة مسدسه عند نهاية عبارته ، وصوَّبها نحو جبهة (أكرم) ، الذى هتف فى دهشة حقيقية :

- إلى هذا الحد ؟!

صرخ فيه (هيثم) ، وقد بلغ توتر أعصابه ذروته :

- إنها حالة طوارئ أيها الغبى .. عد إلى حجرتك وإلا ...

« غبى ؟!.. »

نطقها (أكرم) وصاح بها فى غضب شديد ، جعل (هيثم) يصرخ مكررًا :

- عُد .

كانت الساعة الهولوجرامية خلف (أكرم) ، ولم يكن يدرى إلى ماذا تشير بالضبط ، ولكن هذا لم يكن يعنيه ، فى تلك اللحظة ..

فبكل ما يملك من قوة وغضب ، ارتفعت يده اليسرى تضرب يد (هيثم) الممسكة بالمسدس ؛ ليبعد فوهته عن رأسه ، فى نفس اللحظة التى انقضت فيها قبضته اليمنى على فك (هيثم) بلكمة كالقنبلة ، باغتت هذا الأخير ، وألقته لثلاثة أمتار كاملة عبر الممر ، قبل أن يرتطم بأرضه فى عنف ..

وعندما حاول النهوض ، وهو يطلق صيحة غضب ، امتزجت بسباب بذىء ، وثب (أكرم) نحوه ، وضمّ قدميه معًا ، ليركله بهما فى وجهه مباشرة ، ركلة كانت من العنف ، حتى إن رأس (هيثم) ارتدّ إلى الخلف فى عنف ، ليرتطم بالأرضية قبل أن يفقد هذا الأخير وعيه ..

وفى حركة آلية غريزية ، وثب (أكرم) يلتقط مسدس (هيثم) الترددُى ، والتقط المراقبون هذا المشهد ، ولكن أدهشهم أنه قد تطلّع إلى المسدس لحظة واحدة ، ثم ألقاه بعيدًا بلا مبالاة ، قبل أن يعدو عبر الممر ، نحو الاتجاه الذى كان يتخذه من البداية ..

لقد ألقى المسدس الترددُى ؛ لأنه بطبيعته لم يكن يميل قط إلى تلك الأسلحة شديدة التطوّر ..

إنه يفتقد مسدسه التقليدى ..

يتفقده بشدة ..

تمامًا كما يفتقد عصره ..

وزمنه ..

وحياته السابقة ..

وعلى الرغم من معرفته أنه قد بدأ الخطة قبل موعدها المحدد بدقة ، والذى أكدُ (نور) على عدم تجاوزه ، وأن المراقبين الذين أشارت إليهم (نشوى) قد التقطوا ما حدث حتمًا ، وأطلقوا خلفه كل نظم أمنهم ، إلا أنه لم يتوقف ..

لقد أكمل عدْوه عبر الممر ، متجهًا نحو ذلك المدخل ، المحاط بنظم أمن رقمية دقيقة ، والذى يقود إلى حيث يحتفظون ويحتجزون قلبه ..

(مشيرة) ..

« هل أصيب بالجنون ؟!.. »

هتف بها القائد الأعلى فى دهشة مستنكرة ، عندما تلقَّى تقرير المراقبين العاجل ، وسأل كبيرهم فى حِدَّة :

ـ وأين كان طاقم الأمن ؟!

أجابه كبير المراقبين فى توتر شديد :

ـ الجميع تحركوا ، عقب إطلاق صفارات الإنذار ، وانشغلوا فى تأمين المكان ، والبحث عن المقدم (نور) ، والمجهول الذى أفسد نظم المراقبة ، و ...

صاح به القائد الأعلى ، فى غضب صارم :

ـ كفى .

وأنهى الاتصال بحركة حادة ، وتراجع فى مقعده ، وقد انعقد حاجباه فى شدة ..

الأمور تتطوَّر بأسرع مما توقَّع ..

الفريق بدأ تحرُكه دون إنذار ..

كل شىء يوحى بالخطر ..

كل الخطر ..

وباعتباره قائدًا ومسئولاً ، لا ينبغى أن يسمح باستمرار هذا أبدًا ..

لابد أن يتخذ قرارًا حاسمًا ..

حازمًا ..

نهائيًا ..

وبحركة حادة أخرى ، اعتدل يشغل جهاز الاتصال الخاص بفرق الأمن الداخلية ، وهو يقول بكل صرامة :

ـ الأفراد الذين ينتحلون هيئة المقدم (نور) وفريقه مخادعون ، ويشكلون خطرًا كبيرًا على النظام .. لابد من تصفيتهم جميعًا فورًا .

وتلقى أوامره كل رجل أمن ، فى مقر المخابرات التكنورقمية ..

كل رجل أمن ..

بلا استثناء ..

* * *

نهاية الجزء الثانى

أطلال الماضى

- الصراع فى المستقبل يتواصل ، فى عصر يفوق نور وفريقه كثيرًا ..
- الغموض يحيط بكل شىء فى ذلك العصر ، ولا أحد يعلم أو يعرف أين تكمن لمحات الحقيقة بالضبط ..
- كل شىء يحمل الخطر كل الخطر ، فى كل خطوة وكل لمحة ، ولكن المقاومة ، بكل غموضها أيضًا تكمن هناك ، وسط الأطلال .. أطلال الماضى ..
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل مع (نور) وفريقه .. من أجل المستقبل .



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

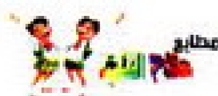


د. نبيل فاروق

ملف المستقبل
سلسلة روايات بوليسية للشباب من الخيال العلمى

157

ص
الثمن فى مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



روايات مصرية للجيب

ملف المستقبل
سرى جدًّا !!

158

د. نبيل فاروق

حرب الغد



ملف المستقبل ..

فى مكان ما من أرض (مصر) ، وفى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسرّيّة مطلقة ؛ من أجل حماية التقدُّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدّم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل ..

د. نبيل فاروق

1 ـ العـــودة ..

على الرغم من أن قرص الشمس لم يكن قد أكمل مسيرته تمامًا ، نحو خط الغروب ، إلا أن ظلاً ضخمًا راح يتحرّك فى سرعة ، عبر أطلال (القاهرة) الجديدة ، فى ذلك العصر المتقدّم ، وكأنه لم يعد يبالى بالدوريات المدنية ، التى تستعد لتفقد الأماكن ، فور غروب الشمس ..

وفى جرأة مدهشة ، لا يجرؤ عليها كبار رجال المقاومة أنفسهم ، عَبَرَ ذلك الضخم شارعًا رئيسيًّا قديمًا ، لا يخفيه شىء عن الأنظار ، واتجه مباشرة نحو بقايا بناية ضخمة ؛ ليختفى بينها تمامًا ، على الرغم من ضخامته ..

وبين أطلال البناية ، راح الضخم يعدو ..

ويعدو ..

ويعدو ..

حتى بلغ منطقة ذات سقف متهدّم ، توقّف عندها أمام جدار قديم ، وتلفّت حوله لأوّل مرة ، قبل أن يضغط أحد أحجار الجدار ، ثم يتراجع خطوة إلى الخلف ، وينتظر حتى دار الجدار حول محور خفى ؛ ليكشف من خلفه حجرة القيادة التكنولوجية لمقر الزعيم الأكبر ..

الذئب ..

وبسرعـة عَبَرَ الضخم ذلك الباب السـرى ، الـذى أُغلِقَ خلفـه فور عبوره ، ووقف فـى دائـرة كبيرة ، بـدا مـن الواضـح أنهـا موجودة خصيصًا ، حتى انبعث من فوقه شعاع بنفسجى هـادئ ، غمر جسده الضخم كله لحظات ، ثـم اختفـى تمامًا ، لينفتـح بـاب خفى آخر داخل الحجرة ، ويخرج منه الذئب ، عـاقدًا كفيـه خلـف ظهره ، وهو يقول ، فـى لهجـة صارمـة ليس لهـا مـا يبرِّرهـا ، سوى إحساسه القوى بزعامته للجميع :

ـ خيرًا أيها الدُّب .. ترى ما سر هذه الزيارة المفاجئـة ، دون اتفاق مسبق ؟

زمجر الدُّب فى غضب ، وهو يقول فى حدة :

ـ المفترض أن كلينا زعيم .

أجابه الذئب ، فى صرامة أكثر :

ـ هل سنناقش هذا الأمر فى كل مرة ؟!

مطَّ الدُّب شفتيه فى ضيق ، وأشـاح بوجهـه ، مغمغمًا فـى خفوت شديد :

ـ كـلاًّ .

اعتدل الذئب ، وشدَّ قامته أكثر ، وهو يقول :

ـ حَسَنٌ .. ماذا لديك ودفعك إلى المجازفة بالحضور إلى هنـا ، فى أسوأ وقت ؟!

استعاد الدُّب انفعاله وتوتره ، وهو يجيب فى سرعة :

ـ صفارات الإنذار الكبرى انطلقت هناك .

انعقد حاجبا الذئب ، وهو يتساءل ، فى توتر حذر :

ـ هنـاك ؟!

هتف الدُّب ، وقد تضاعف انفعاله :

ـ هناك ، فى ذلك الحصن .

ازداد انعقاد حـاجبى الذئـب ، وهـو يقـول ، وقـد انعكس عليـه انفعال الدُّب :

ـ الحصن ؟!.. مقر المخابرات التكنورقمية .

هتف الدُّب ، وهو يلوِّح بسبَّابته :

ـ بالضبط .

بلغ انعقاد حاجبى الذئب أقصاهما ، وهو يحدِّق لحظات فى وجـه الدُّب ، قبل أن يشيح بوجهه ، ويغمغم :

ـ صفارات الإنذار !..

راح يتحرك عشوائيًا فى المكان ، وهو يفكّر فى عمق شـديد ، ولاذ الدُب بالصمت التام كعادته ، فى مثل هذه الظروف ، ولم ينبس ببنت شفة ، وهو يتابع حركة الذئب ، حتـى توقّف هذا الأخير ، وغمغم ، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ عظيم .

تفجّرت دهشة عارمة فى وجه الـدُب ، وهو يردّد :

ـ عظيم ؟!

التفت إليه الذئب ، قائلاً :

ـ نعم ، عظيم .. انطلاق صفارات الإنذار هناك ، يعنى أن الأمـور قد تفجرت ، على نحو يصعب إخفاؤه .

ثم عاد يتحرك ، وهو يشير بسبّابته ، مكملاً :

ـ أنت تعرف هؤلاء الأوغاد جيدًا .. لا يرغبون فى نشر غسيلهم القذر أبدًا ، ومهما حدث داخل أسوارهم ، فهم يبقونه سرًا ، وإطلاقهـم صفارة إنذار كهذه ، يعنى أن الأمور قد بلغت مـا لا يمكن أن يخفوه .. أو على الأقل ، ما لا يحتمل أن يخفوه .

تساءل الدُب فى حيرة مندهشًا :

ـ وهل هذا فى صالحنا ؟!

أجابه الذئب فى سرعة :

ـ بالتأكيد .

ثم التفت إليه ، مردفًا :

ـ لو أن ..

نطقها ، ولاذ مرة ثانية بالصمت ..

فلم يكن يحلو له أن يكمل ..

كان فقط يتذكّر ..

والواقع أن ذاكرته لن تبلغ حتى عُشر ما حدث ..

ربما لأنه يجهله ..

فمنذ فقد (نور) وفريقه وعيهم ، فـى ذلـك الكهـف الرهيب ، وهم يصارعون عدوًا لم يروه أبدًا ، استعادوا وعيهم فجـأة ، فـى زمن يتجاوز زمنهم بثلاثين عامًا كاملة ..

ثلاثين عامًا فصلت بينهم وبين زمنهم ..

وعصرهم ..

وعلومهم ..

ومعارفهم ..

استيقظوا فى عصر يجهلون كل شىء عنه ..

عصر تحولّت فيه مخابراتهم العلمية إلى مخابرات تكنورقمية ، وصار فيه من كانوا صغارًا قادة ..

عصر خرجت فيه (مصر) من حـرب طاحنـة ، دمرت بنيتهـا الأساسية تمامًا ، وعادت بها إلى سنوات طويلة ، فى سلم الحضارة ..

وبقيت فئة واحدة ، تملك التكنولوجيا ..

تكنولوجيا الغد ..

تلك الفئة كانت تحكم العالم الجديد ..

والباقون يقاومونها ..

وكما يحدث دومًا ، دارت حرب خفيـة ومعلنـة بيـن القـادة والمقـاومة ..

وبقى (نور) وفريقه فى المنتصف ..

لم يدركوا ماذا يحدث حولهم بالضبط ، إلا عندمـا أرادوا رؤيـة تلك النسخة من (الزوريوم) الحيوى ، التى تحولّت إلـى شبيه ، يحوى كل طاقة (محمود) البشرية ..

ومع تصرفات ذلك القائد الأعلى الجديد ، الذى ينتحل شـخصية الرائد (أيمن) ، الذى لقى مصرعه قديمًـا ، أدركـوا أنهـم ليسوا فى الجانب الصحيح ..

وأن عليهم عبور الأسوار إلى هناك .

إلى الأطلال ..

إلى قلب (مصر) الحقيقى ..

إلى صفوف المقاومة ..

ولكن القـائد الأعلى الجديد نجح فى إيجـاد (مشيرة) ، واسـتغلها ليدفع (أكرم) إلى خيانة رفاقه وفريقه ..

وقرَّر الفريق كله أن ينقذ (مشيرة) ..

ووضع خطة محكمة لهذا ..

ولكـن انفعـال (أكـرم) دفعـه إلـى بـدء الخطـة ، قبـل موعدهـا بدقائق قليلة ..

من أجل المرأة التى أحبها طيلة عمره ..

من أجل (مشيرة) ..

وهنا أطلق القائد الأعلى الجديد صفارة الإنذار الكبرى ..

وأمر بتصفية الجميع ..

بتصفية فريق (نور) بأكمله ..

وفـورًا(*) ..

* * *

(*) لمزيد من التفاصيل راجع الجزأين ، الأوّل والثانى (عالم جديد) ، (وأطلال الماضى) المغامرتين رقمى (156) ، و(157)

لم تكد صفارة الإنذار الكبرى تنطلق ، حتى ضاعف (أكرم) من سرعته ، وهو ينطلق نحو الممر ، الـذى يقود إلى حيث يحتجـزون (مشيرة) ..

لم يكن يدرى ما الذى سيصيبه بالضبط ..

ولكن ما كان ليتراجع أبدًا ..

أبـدًا ..

كان يدرك أن ذلك الممر التكنولوجى الرهيب يمتلك القدرة على تحديد بصمته الجينية فور عبوره إياه ، بوسيلة لم تكن موجودة فى عصره ، ولو كشف أنه ليس من المخوَّل لهم عبوره ، فسـيتحوَّل إلى أتون من اللهب فورًا ، تبلغ حرارته خمسة آلاف درجة مئويـة ، وهناك شبكة خيوط الليزر القاتلة ، وتلك الشحنة الكهربية ، التـى تبلغ نصف مليون وات ..

كل هذا عليه أن يتجاوزه ، قبل أن يصل إلى (مشيرة) ..

وعندما يصل إليها ، يبدأ خوفه الحقيقى ..

فإن لم تنجح (نشوى) ، وتربح خطة (نور) ، وتتمكَّن (سلوى) من خداع الجميع ، فى عصر يفوق علومها بثلاثين عامًا أو يزيـد ، ستكون الكارثة ..

مقر (مشيرة) سينفجر ..

سينفجر وينسف كل شىء .

المكـان ..

والممر ..

وهـو ..

و(مشيرة) ..

عندما جال بخاطره اسم الأخيرة ، ارتجف جسده ..

عندها فقط ارتجف ..

لابد أن ينقذها ، أيًا كان الثمن ..

أيًا كان ..

فى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها يعدو ، نحو ذلك الممر القاتل ، أهمل (نور) كل ما يفعله ، وتجاهل حتى آلات المراقبة فى كل مكان ، بل استغل وجودها ؛ ليصرخ بكل قوته :

ـ الآن .

وفى لحظة واحدة ، استقبل فريقه كله ذلك الأمر ، عبر شبكة الاتصالات ، التى صنعتها (سلوى) من مشغل الموسـيقى ، دون أن ينتبه أحد ..

وفى لحظة واحدة أيضًا .. تحركوا ..

كان رجال الأمن ينتشرون فى المكان كله ، فى تحفز تـام ؛ للقضـاء على (نور) وفريقه ، أو اعتقالهم على أقل تقدير ، ولكن فجأة ، توقفت صفارات الإنـذار ، وانقطعت كافة الاتصالات ، بين رجـال الأمن والقيادة ..

وفى مقره ، هبّ القائد الأعلى من مقعده ، عندما انطفأت شاشته الهولوجرامية وتلاشت دفعة واحدة ، وصرخ فى غضب هادر :

ـ لا .. لا يمكنهم هذا .

اندفع بكل غضبه ، محاولاً تشـغيل الشاشـة الرقميـة الاحتياطيـة ، وتفعيل وسائل الأمن ..

ولكن هيهات ..

لم يستجب له أى شىء ..

أى شىء على الإطلاق ..

كل الأجهزة ، على الرغم من تكنولوجيتها العاليـة ، وتقنياتهـا المدهشة ، توقفت عن العمل ..

كل أجهزة الرصد ..

والمراقبة ..

والاتصالات ..

وصرخ القائد الأعلى فى ثورة :

ـ مستحيل !. مستحيل أن يمكنهم هذا .. إنها تكنولوجيا تفـوق عصرهم بثلث قرن كامل .

احتقن وجهه فى شدة ، وتلاشى عنه قناع (أيمـن) الزائـف ، وتلفت حولـه فـى عصبيـة شديدة ؛ بحثًـا عن أى شــىء يمكنـه استخدامه ..

إنها تلك الخبيرة حتمًا ..

(نشوى) ، خبيرة الكمبيوتر والبرمجة ..

وحدها يمكنها أن تفعل هذا ..

لقد أفسدت نظام الكمبيوتر كله ..

استغلت تلك الثغرة الهائلة فـى تكنولوجيـا الغد ، التـى صـارت تعتمد بنسبة مائة فى المائة على أجهزة الكمبيوتر ..

وأوقفتها ..

أوقفتها ، أو سيطرت عليها ، بوسيلة ما ..

لم يكد ذلك الخاطر الأخير يجول بذهنه ، حتى سرت فى جسده ارتجافة عنيفة !..

تُرى أهذا ممكن ؟!..

هل يمكن أن تنجح تلك المقاومة من الماضى ، فى السيطرة علـى كمبيوتر المستقبل ، الذى يفوق علومها بأكثر من ألف مرة ؟!..

هـــل ؟!..

احتقن وجهه أكثر ، واشتعل غضبه كما لم يشتعل من قبل ، واندفع نحو الجدار ؛ ليغادر حجرة القيادة ، و ...

وارتطم به فى عنف ..

الجدار لم يتموَّج ويتغيَّر ، كما كان يحدث من قبل ..

لقد ظل على حالته الصلبة ، التى لم يعتدها قط ، بعد أن انقطع اتصاله بالكمبيوتر المركزى ، الذى يدير كل شىء ..

وبكل غضبه ، صرخ القائد الأعلى ..

صرخ ..

وصرخ ..

وصرخ ..

داخل مقره المغلق ، كان لصرخته صدى عجيب ..

عجيب للغاية ..

صدى أشبه برنين معدنى حاد ، وليس بصوت بشرى تقليدى ..

وبكل هذا الغضب ، تطلَّع إلى الجدار ، قائلاً :

ـ أنتم لا تدركون من تواجهون ، يا فريق الماضى .

توقَّف فى مكانه ، وشدَّ قامته فى قوة ، وهو يرفع رأسه إلـى أعلى ، على نحو عجيب ..

وعلى الرغم من غياب التحكُّم التكنولوجى تمامًا ، راح جسـده يتألَّق بضوء أخضر باهت ..

وراح تألُّقه يتزايد ..

ويشتد ..

ويقوى ..

وفى ثوان معدودة ، صار القائد الأعلى أشبه بمصبـاح ضوئـى شديد التألُّق ، غمر المكان كله بضوء أخضر قوى ..

وفى بطء ، اتجه نحو الجدار ..

ولمسه بأطراف أصابعه ..

ومع لمسته ، تفاعل الجدار ، وكأنه قد استعاد كامل طاقته ، فتموَّج لحظات ، ثم ظهرت فيه تلك الفجوة ، التى عبرها القائد الأعلـى ، ثم عاد يقف ثابتًا ، ليخبو تألُّقه ..

ويضـعف ..

ويخفـت ..

ثم ينتهى ..

لحظتها فقط ، استعاد وجه (أيمن) ، وغمغم :

ـ الآن ستعرفون .

قالها فى منتهى العزم والحزم ، ثم اتجـه نحو الممر الطويـل ؛ ليقود رجال أمنه فى معركتهم ..

معركتهم ضد (نور) وفريقه ..

فريق المـاضى ..

والمســتقبل ..

* * *

لم يدر (أكرم) كل ما حدث ..

ولكنه اقتحم الممر الرهيب ..

لـم يكـن هنـاك حـرّاس فـى البدايـة ، ولكنـه عندمـا اقـترب مـن مدخله ، فوجئ برجلـي أمن مسلحين ، يندفعان مـن الجـانبين ؛ ليسدا عليه الطريق ..

وفى لحظة واحدة ، سدَّ كل منهما مسدسه التردُّدى نحوه ، و ...

ولكن يبدو أن حبه لزوجته (مشيرة) ، قد بث فى جسد (أكرم) قوة هائلة ، لم يعهدها هو نفسه فى نفسه ، منذ وعت عيناه الوجود ..

لقد رأى المسدسين مصوبين إليه ، فوثب ..

وثب وثبـة لم يثب مثلهـا فى حياته قط ، جعلته يعلو إلى قـرب السقف ، وهو يندفع نحو الرجلين ..

أطلق أحدهما مسدسه التردُّدى بالفعل ، ولكن تلك الموجة العنيفـة تجاوزت (أكرم) ، وارتطمت بالجدار ، فهدمت جزءًا منـه ، قبل أن ترتدَّ إلى الجدار المقابل ، وتعبر تحت قدمى (أكرم) مباشرة ، وهو يهبط نحو الآخر ، الذى لم يجد الوقت ليطلق مسدسه بعد ..

وحتى (أكرم) نفسه لم يمكنه وصف ما فعله فى تلك اللحظات ..

كل ما يذكره هو أنه أطلق قبضته ، وقدميه ، ودار ، ولكم ، وركل ، وقفز ، و ...

وفجأة ، وجد نفسه عند بداية الممـر ، والرجـلان ملقيـان أرضًا ، إلى يمينه ويساره ..

ولكنه لم يضيع لحظةً واحدة ، ليلقى حتى نظرة سريعة عليهما ..

كل ما كان يملأ ذهنه ، هو أن الطريق خال ..

وأن (مشيرة) تنتظره هناك ..

فى نهايته ..

وعليه أن يصل إليها ..

وينقذها ..

وبأى ثمن ..

تجاهل كل ما يعلمه ، وكل التحذيرات ، وكل النتائج المحتملة ، وانطلق يعدو عبر ممر الموت بكل قوته ..

كانت تلك الأضواء الباهتة مطفأة فى البداية ، إلا أنه لم يكد يقطع عدة أمتار ، ويبلغ منتصفه تقريبًا ، حتى أضيئت كلها دفعة واحدة ..

ثم تألّقت الجدران كلها ..

تألّقت بوهج أحمر مائل إلى الصفرة ، أشبه بوهج النيران ..

أو قل هو وهج نيران ..

نيران تستعد لتحويل الممر كله إلى أتون ..

أتون مشتعل ..

أتون لا يمكن بل يستحيل أن يحتمله بشر ..

على الإطلاق ..

* * *

2 ـ النيـــران ..

« لست أفهم !.. »

قالها الدُب فى عصبية شديدة ، جعلت الذئب يلتفت إليـه ، ويتطلّع إلى ملامحه لحظات فى صمت ، قبل أن يقـول فـى هدوء عجيب :

ـ لم تفهم ماذا ؟!

لوّح الدُب بذراعه كلها ، هاتفًا :

ـ لم أفهم أى شىء .. أنت تدير الأمور كلها وحدك ، وتلقى أوامرك للجميع ، بما فيهم أنا ، وكأنك الزعيم الأوحد لكل فصـائل المقاومة .. إنـك حتى لم تخبرنـا مـا الـذى تعتزمـه مـن كل هذا بالضبط !.. ألسنا زعماء مثلك .

عقد الذئب كفيه خلف ظهره ، وتطلّع إليـه لحظـات أخرى فـى صمت صارم ، قبل أن يقول :

ـ من تقصد بصيغة الجمع هذه ؟!

هتف الدُب فى عصبية :

ـ باقى الزعماء .. (طارق) ، و(محمود) ، و ... وأنا .

أجابه فى صرامة قاسية :

ـ أنت تعلم أنهما ليسا زعيمين بالمعنى المعروف .

زمجر الدُب ، قائلاً :

ـ ولكنك جعلتهما كذلك .

صاح به الذئب فى حدة :

ـ ولكنَّ كلينا يعلم أنهما ليسا زعيمين حقيقيين .

هتف الدُب ، فى حدةٍ مماثلة :

ـ وماذا عنى ؟!

اعتدل الذئب ، وهو يقول فى حذر :

ـ ماذا عنك ؟!

صاح فى غضب :

ـ أنت لا تعاملنى أبدًا كزعيم .

اعتدل الذئب ، وتطلَّع إليه بضعَ لحظات ، فى صمت تام ، قبـل أن يعقد كفيه خلف ظهره مرة أخرى ، مغمغمًا :

ـ لقد نجحوا فى فعلها إذن ؟!

جذبت العبارة انتباه الدُب ، وجعلته يسأل فى حيرة :

ـ نجحوا فى ماذا ؟!.. ومن تقصد ؟!

أجابه الذئب ، فى أسف واضح :

ـ الزعماء السابقين .. لقد نجحوا فى أن يوغروا صدرك ضـدى ، على الرغم من صداقتنا القديمة ، والثقة المتبادلة بيننا .

قال الدُب ، وجسده كله ينتفض انفعالاً :

ـ لا شأن للزعماء السابقين بهذا .

قال الذئب بنفس الأسف :

ـ هل تعتقد هذا حقًّا ؟!

ثم اتجه نحوه ، وهو يحرِّك كفيه على نحو مسرحى ، مكملاً :

ـ كنت أتصوَّر أن الثقة ، التى اعتدناها بيننـا ، ستصنع حـاجز نيران أمام كلماتهم .

ارتبك الدُب ، وهو يغمغم :

ـ كلماتهم لم ..

قاطعه الذئب ، وهو يواصل الاقتراب منه ، وكأنه لم يسمعه :

ـ ولكن يا للأسف .

هتف الدُب فى انفعال :

ـ ولكننى أثق بك بالفعل .

توقَّف الذئب ، وتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول فى لهجـة ، أودعها أقصى ما أمكن من حزن وأسى وتأثُّر :

ـ حقًا .

انتفض جسد الدُب ، وهو يهتف مخلصًا :

ـ أقسم لك أننى أثق بك ثقة عمياء .

أدرك الذئب أنه قـد ربح الجولة ، فابتسم فى أعماقه ظـافرًا ، وإن حافظ على هدوء وصرامة ملامحه الخارجية ، وهو يقول :

ـ اثبت .

هتف الدُب :

ـ كيف ؟!

مال الذئـب نحوه ، وثبَّت عينيـه على عينـى الـدُب مباشـرة ، وهو يقول ، فى لهجة شديدة العمق :

ـ بأن تنفذ ما طلبته منك منذ لحظات .

واكتسب صوته صرامة آمرة قاسية ، وهو يضيف :

ـ فورًا .

اعتدل الدُب بحركة شبه عسكرية ، وهو يهتف فى حماس :

ـ فورًا أيها الذئب .. فورًا .

قالها ، واندفع يغادر المكان ، وقد بـدأ الظلام ينتشر حوله ، فـى حين ظل الذئب جامدًا فى مكانه ، حتى اطمئن إلى أن كل شىء علـى مـا يرام ، قبل أن يلتفت إلـى خريطـة المقاومـة ، المعلَّقـة علـى الجدار ، وهو يغمغم :

ـ أعتقد أن الوقت قد حـان ؛ لإجـراء بعض التغييرات القياديـة الأساسية .

قالهـا ، والتقط قلمًا أحمر اللون ، صنع به دائرة كاملة ، حـول أحد الأسماء على الخريطة ..

اسم الدُب ..

* * *

ارتباك شديد ساد صفوف رجـال الأمن ، مع انقطـاع الاتصـالات ، وتوقُّف كل الأجهزة الإلكترونية دفعة واحدة ..

ودون أى مقدمات ..

كانت أوامرهم واضحة صريحة ، بالقضاء على أولئك المخـادعين ، الذين انتحلوا هيئة (نور) وفريقه ، كما أخبرهم قائدهم ..

ولكن حتى هذا يحتاج إلى الأجهزة ..

يحتاج إلى رؤية من يطاردون ، وتحديد موقعهم ..

ولسبب ما ، لم يعد هذا متاحًا ..

فجـأة ..

وبينما يسود ذلك الارتباك الشديد بين الصفوف ، التقى كل من (رمزى) و(سلوى) و(نشوى) فى المكان المتفق عليه ، وفقًا لخطة (نور) ، وهتف الأول بالأخيرة فى انبهار :

ـ كيف فَعَلْتِهَا ؟!

أجابته (نشوى) لاهثة ، من فرط الانفعال :

ـ لا يمكنك أن تتصورَّ مقدار ما يمكنك أن تفعله ، برقمى الصفر والواحد ، فى عالم الكمبيوتر(*) .

هتفت بها (سلوى) ، وثلاثتهم يتحركون نحو نقطة اللقاء الثانية :

ـ حقًّا كيف فَعَلْتِهَا ؟!.. علومهم هنا تبدو كالمعجزة بالنسبة لنا .

أجابتها (نشوى) فى حماس :

(*) تتكوّن لغة الكمبيوتر الأساسية من رقمى الواحد والصفر ، فى تتابع خـاص ، يصنع كل البرمجيات ، مهما اختلفت قوتها وأهميتها .

ـ الذكـاء الاصطناعى تطوَّر بشدة فى هذا الزمن ، ولكنه ، ومهمـا تطوَّر ، سيظل مجرَّد ذكـاء آلـة .. لا يمكنهـا التعلُّم من التجربـة والخطأ ، وتطوير نفسها فى كل مرة ، ولكنها ستظل أبدًا محرومة من تلك اللمحة ، التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى كل كائناته .

التقطت أنفاسها لحظة ، ثم أضافت فى حزم :

ـ المشـاعر .

سألها (رمزى) ، وهما يتجاوزان ممرًّا فرعيًّا :

ـ وبِمَ أفادَكِ هذا ؟!

حاولت أن تبتسم ، على الرغم من تعبها وانفعالها ، وهى تجيب :

ـ طرحت عليه لغزًا لولبيًّا .

انعقد حاجباه ، وهو يتساءل فى توتر :

ـ لغز ماذا ؟!

أجابته (سلوى) قائلة :

ـ اللغز اللولبى هو أحد تلك الألغاز ، التى لا يمكنك التوصلُ إلى حل منطقى لها أبدًا ؛ لأنه أيًّا كانت النتيجة ، ستضعك فى دائرة ، تعيدك إلى البداية .. وهكذا .

فَغَرَ فاه ، على نحو جعل (نشوى) تقول لاهثة :

ـ أخبرته أنه هناك رجل صدر ضده حكم بالإعدام ، وطلب منه الحاكم أن يختار بين وسيلتى إعدام ، وفقًا لمصداقيته ، فلو أنه صادق ، سيتم إعدامه شنقًا ، ولو أنه كاذب ، فسيتم إعدامه بالرصاص ، فأخبره الرجل أنه سيعدم رميًا بالرصاص ، فكيف ينبغى أن يتم إعدامه ؟!

توقَّف (رمزى) دفعة واحدة ، من فرط انبهاره ، وبدا لاهثًا أكثر منهما معًا ، وهو يقول :

ـ رباه !.. لو أعدموه رميًا بالرصاص بالفعل ، فسيعنى هذا أنه صادق ، ولكن كونه صادقًا يحتم إعدامه شنقًا ، وفى هذه الحالة يكون كاذبًا ، وينبغى إعدامه رميًا بالرصاص .

أشارت (نشوى) بسبَّابتها ، قائلة :

ـ بالضبط .. وهذا يعيدنا إلى البداية .. وهكذا .

توقَّف مبهورًا تمامًا ، قبل أن يهتف :

ـ أهذا ما أوقف نظام الكمبيوتر كله ؟!

هزَّت (نشوى) كتفها ، قائلة :

ـ لا بد أن يجد حلاً ، فهذه مهمته الرئيسية ، وعندما تعذَّر عليه تنفيذها ، راح يجند المزيد من برامجه لإيجاد الحل ، برنامجًا

تلو الآخر ، مما اضطره لإيقاف كل البرامج الأخرى ، وتجنيد ذاكرته كلها لحل اللغز .

صمت (رمزى) لحظات ، قبل أن يهتف بكل حماس وانبهار الدنيا :

ـ رباه !!.. كنت أعلم أننى متزوِّج من عبقرية ، ولكننى لم أتصوَّرها أبدًا بهذا المقدار .

قالت (سلوى) ، وهى تدفعها أمامهما فى توتر :

ـ تصوَّر ما يحلو لك ، ولكن ليس الآن ، لا بد أن نتحرك بأقصى سرعة ، حتى لا نتجاوز توقيت الخطة .

اندفعت معها (نشوى) ، واستعادت لهاثها ، هى تهتف :

ـ خاصة أن ذكاءه الاصطناعى سيدفع ذلك الكمبيوتر فى النهاية إلى إدراك استحالة الحل ، وسيعود لحظتها للعمل بكل قوته .

تساءلت (سلوى) فى توتر :

ـ ولكن ماذا عن (نور) و(أكرم) .. هل ...

انقطعت جملتها بشهقة مباغتة ، فى نفس اللحظة التى اتسعت فيها عينا (نشوى) عن آخرهما ، وهتف (رمزى) :

ـ يا إلهى !

فعند نهاية الممر ، برز ثلاثة من رجال الأمن الأشداء ، فى قمـة انفعالهم وتوترهم ، وهم يصوبون أسلحتهم الارتجاجية ، فى توتـر وتحفز شديدين نحو ثلاثتهم ، وأحدهم يهتف :

ـ عثرنا عليهم .

برز رابـع مـن خلفهـم يحمـل رتبـة أعلـى ، وهـو يقـول فـى صرامة :

ـ وماذا تنتظرون ؟!

وانطلقت الموجات الترددية تصيب الأجساد ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

لوهلة ، بدا كأن ذلك الأتون الرهيب سيشتعل فجأة ..

وأن الممر سيتحوّل إلى جحيم ..

جحيم حقيقى ..

ولكن المدهش أنه وعلى الرغـم مـن هذا لـم يتوقّف (أكـرم) عن العدو عبر الممر ..

لم يتوقف لحظة واحدة ..

كان يسعى لإنقاذ (مشيرة) ، بأى ثمن ..

حتى لو كان هذا الثمن هو حياته ..

حياته مقابل حياتها ..

إنه يقبل بهذه الصفقة ..

المهم أن تحيا هى ..

وتنجو ..

وتخرج من محبسها ..

فمنذ أن ربط حياته بحياتها ، وعقد قلبه بقلبها ، وهـو خـاضع لتلك الصفقة :

أن يحبها ويرعاها ويحميها ..

بحبـه ..

وكيانه ..

وعمره ..

وحياته كلها ..

وبكل قوته ، والجدران تزداد تألُّقًا أكثر وأكثر ، هتف :

ـ (مشيرة) .. أنا قادم إليك .

بلغ صوته مسامعها ، فارتجف عقلها ، وقلبها ، وكيانها كله ..

وبكل قوتها وحبها ، هتفت :

ـ لا .. لا يا (أكرم) .. لا تجازف .

ولكن الجدران كانت من حوله تتألَّق ..

وتتألَّق ..

وتتأجَّج ..

وتدريجيًّا ، راح الوهج يلفح جسده ، والحرارة مـن حولـه ترتفع وتشتد ، و ...

« إلى أين ؟!.. »

ارتفع الصوت الصارم القاسى من خلفه ، فتوقَّف بحركة مباغتة ، كـاد توازنه معها يختل ، والتفـت فى حدة إلى حيث يقف القـائد الأعلى عند مدخل الممر ، وهو يعقد كفيه أمـام صدره ، ويكمل فى صرامة قاسية غاضبة :

ـ هل تصوَّرت أنه من الممكن أن تحصل على مكافأة خيانة ؟!

انعقد حاجبا (أكرم) فى صرامة ، وضمَّ قبضته ، وهو يلـوِّح بها ، قائلاً :

ـ سأستعيد زوجتى ، حتى لو اضطررت لهـدم هذا الكيان كلـه على رءوسكم .

تقدَّم القائد الأعلى نحوه ، وهو يقول فى غضب شرس :

ـ لو انهدم هـذا الكيان ، فسينهدم على رأسك أنت وليس علـى رءوسنا نحن .

لاحظ (أكرم) أنه مع تقدّم القائد الأعلى ، عادت الجدران تخبو فـى بطء ، فتراجع فـى خطوات بطيئـة ، متجهًا بظهره نحـو مقـر (مشيرة) ، فى حين واصل القائد الأعلى تقدُّمه نحوه ، مواصلاً :

ـ كانت لديك وسيلة بسيطة لاستعادة زوجتك ، والفوز بكل شىء .

قال (أكرم) فى عصبية ، وهو يتراجع أكثر وأكثر :

ـ بأن أخون رفاقى .. أليس كذلك ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ بأن تخلص لوطنك .

مال (أكرم) برأسه إلى الأمام ، وهو يتراجع خطوة أخرى ، قائلاً :

ـ لوطنى أم لكم ؟!

هتف القائد الأعلى فى غضب :

ـ نحن وطنك .

لوَّح (أكرم) بسبَّابته فى وجهه ، هاتفًا :

ـ أنتم هنـا .

واكتسى صوته بصرامة شديدة ، وهو يكمل ، مخفضًا سبَّابته :

ـ أم هناك .. خلف الأسوار .

صمت القائد الأعلى تمامًا ، وتوقَّف فى مكانه ، على بعد خمسة أمتـار من (أكرم) ، وأطلّت من عينيه نظرة شديدة القساوة ، وهو يقول :

ـ إذن فقد عبرت بعقلك خلف الأسوار .

قال (أكرم) متحديًا :

ـ وسنعبرها جميعًا بأجسادنا ، على الرغم من كـل وسـائلكم .. رفاقى ، وأنا .. و(مشيرة) أيضًا .

حمل صوت القائد الأعلى صرامة غاضبة وحشية ، وهو يقول :

ـ تريد زوجتك ؟ ها هى ذى .

مع آخر كلماته ، انفتح باب مقر (مشيرة) فجـأة ، وبدت خلفـه هذه الأخيرة ذاهلة ، وهى تهتف فى ارتياح :

ـ (أكرم) ..

وبكل حبه ولهفته ، التفت إليها (أكرم) ، وفتح ذراعيه هاتفًا :

ـ حبيبتى .

اندفعت بكل حبها وخوفها ولهفتها ، وألقت نفسها بين ذراعـىْ زوجها ، الذى ضمها إليه فى حنان جارف ، هاتفًا :

ـ أخيـرًا .

سمع من خلفه مباشرة صوت القائد الأعلى ، يقول :

ـ ليس بعد .

استدار فى سرعة ، وتراجع بحركة حادة مع (مشيرة) ، عندمـا وجد القائد الأعلى على بعد خطوة واحدة منه ، يكمل فى صرامة :

ـ مازلتما وسط أتون اللهب .

مع نهاية العبارة ، أغلق باب مقر (مشيرة) خلفهمـا فى عنـف ، انتفض له جسد هذه الأخيرة ، فتعلَّقت بزوجهـا فى رعب ، فى حين قال هو متحديًا ، وهو ينظر إلى عينَى القائد الأعلى مباشرة :

ـ وأنت معنـا .

قال القائد الأعلى فى سخرية :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

انقض عليه (أكرم) ، هاتفًا :

ـ بل أثق به .

كان يحيط جسد القائد الأعلى بذراعيه ، عندما فوجئ بذلك الجسد يتلاشى بغتة ..

وفى جزء من الثانية ، ظهر مرة أخرى فى موضعه الأوَّل ، علـى بعد خمسة أمتار كاملة ..

وشهقت (مشيرة) مندهشة ومذعورة ، فى حين غمغم (أكرم) ، فى توتر شديد :

ـ ولكن كيف ؟!

أجابه القائد الأعلى ، فى شماتة وحشية :

ـ خدعة هولوجرامية بسيطة يا هذا .. ربما لم تكن أبدًا بهذا الإتقان فى عصرك ، ولكن تأثيرها ما زال قويًّا كما ترى .

غمغم (أكرم) :

ـ ولكن الصوت .. لقد ...

قاطعه فى صرامة :

ـ كل شىء يتطوَّر أيها الهمجى ، خلال ثلاثة عقود من الزمان .

قال (أكرم) فى مقت :

ـ لم أحب التقنية المتطوِّرة أبدًا .

رفع القائد الأعلى يده ، وهو يقول فى قسوة مخيفة :

ـ ولن تجد الوقت لتحبها .

مع قوله عادت تلك الجدران تتألَّق بذلك الوهج الرهيب ..

وهج النيران ..

وبينما تلاشت صورة القائد الأعلى الهولوجرامية ، راحت حرارة الممر ترتفع ..

وترتفع ..

وترتفع ..

ثم انبعثت النيران فجأة من جدرانه ..

وأطل الموت برأسه ساخرًا ..

من قلب الجحيم ..

* * *

« ماذا يحدث هنا بالضبط ؟! »

ألقى (محمود) السؤال فى عصبية شديدة ، وهو يتلفَّت حوله فى حدة ، فقال الدكتور (راشد) ، وهو يبذل قصارى جهده ؛ للسيطرة على أعصابه الثائرة :

ـ إنها حالة طوارئ .. ربما اشتعل حريق أو ...

قاطعه (محمود) فى حدة :

ـ هراء .

التفت إليه الدكتور (راشد) فى دهشة متوترة ، فتابع فى غضب :

ـ إننى أعرف جيدًا كيف تعمل هذه الأجهزة ، وكيف يبدأ تشغيل أجهزة الإطفاء الرقمية ، فور التقاطها أدنى انبعاث حرارى متموِّج .

ازدرد الدكتور (راشد) لعابه فى صعوبة ، وتمتم :

ـ الأمور تغيَّرت كثيرًا فى هذا العصر .

قال (محمود) بنفس الحـدة :

ـ إلى الأفضل أم إلى الأسوأ ؟!

صمت الدكتور (راشد) لحظات ، ثم قال فى عصبية :

ـ إلى ما يختلف .

تطلَّع إلى (محمود) لحظات فى توتر ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ إجاباتك غامضة .

هزَّ الدكتور (راشد) رأسه فى أسى ، قائلاً :

ـ لست أملك سواها .

أمسكه (محمود) من كتفيه ، وجذبه إليه فى حركة قوية آلمتـه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لمـاذا أنا هنا بالضبط ؟!

اتسعت عينا الدكتور (راشد) ، وهو يغمغم :

ـ يا إلهى !.. إنك تتعامل كما لو كنت ..

بتر عبارته دفعة واحدة ، فهزه (محمود) فى قـوة ، قائلاً فـى صرامة أشد :

ـ كما لو كنت ماذا ؟!

كانت ارتجاجة الرجل عنيفة ، حتى إنه هتف فى ذعر :

ـ رباه !.. إنك تقتلنى .

تفجَّرت العبارة كالقنبلة فى رأس (محمود) ..

لقد امتزجت بما انتبه إلىَّ ، فى هذه اللحظة فحسب ..

إنه بالفعل يرج الرج بقوة هائلة ..

قوة تفوق كل ما يذكره عن قدراته الفعلية ..

لقد كان دومًا أحد أضعف أفراد الفريق ، وأكثرهم نحولاً وضآلة ..

بل كان أضعفهم على الإطلاق ..

ولكنه الآن يشعر بقوة هائلة ، تسرى فى كيانه كله ..

قوة لا تعيها ذاكرته أبدًا ..

قوة جعلته يلفت الدكتـور (راشـد) ، ويحـدِّق فيـه لحظات فى دهشة ، قبل أن يلتفت إلى آلة معدنية ، ملقاة فوق مكتب قريب ، ثـم يلتقطها فى حذر ، جعل الدكتور (راشد) يتراجع فى ذعر ، هاتفًا :

ـ ماذا ستفعل بالله عليك ؟! ماذا ستفعل ؟!

تطلع إليه (محمود) فى حيرة شديدة ، ثم أمسك طرفى الآلـة المعدنية ، وهو يتمتم فى توتر :

ـ أختبـر الأمـر .

وفى قوة ، أمال طرفى الآلة المعدنية القوية ..

ثم اتسعت عيناه عن آخرهما ..

فعلى الرغم من قــوة الآلــة وصلابتهــا ، انثنـت بيـن يديـه فـى سهولة ، ودون أن يشعر ببذل الكثير من الجهد ..

الدكتور (راشد) أيضًا حدَّق فيما حدث فى ذهول ، وهو يردِّد :

ـ يا إلهى !.. مستحيل !..

رفـع (محمـود) عينيه إليـه فى ذعر ، وأفلت الآلة المعدنيــة ، فسقطت لترتطــم بـالأرض فـى دوى مسـموع ، اختلـط بصوتـه ، وهو يقـول :

ـ كما لو كنت ماذا يا رجل ؟!.. ماذا أصابنى ؟!.. من أنا بالضبط ؟!

فوجئ الاثنـان بصوت (نور) ، يقول فى حزم :

ـ أنت (محمود) .. صديقى وعضو فريقى .. ألا تذكر هذا ؟!

التفت الدكتور (راشد) إلى (نور) فى ذعـر ، فـى حين قـال (محمود) ، فى لهفة امتزجت بذعره وحيرته :

ـ (نــور) ؟!

هتف الدكتور (راشد) ، وهو يحاول منع (نور) من التقدُّم :

ـ لا .. ليس من المفترض أن تأتى إلى هنا .. الأوامر حاسـمة فى هذا الشأن .

أمسك (محمـود) كتف الدكتـور (راشـد) ، ودفعـه جـانبًا ، وهو يقول فى حـدة :

ـ ابتعد .

طار جسد الرجل ، الذى انتزعته الجذبة من مكانه ، وارتطم بعدد من أجهزة المعمل ، وسقط معها أرضًا فى عنف ، فى حين اندفـع (محمود) نحو (نور) ، هاتفًا فى مزيج من الفرحة والارتباك :

ـ أين نحن يا (نور) ؟!.. وماذا أصابنى ؟!

انفرجت شفتا (نور) ؛ ليقول شيئًا مـا ، ولكن صوت الرائـد (هيثم) سبقه ، وهو يقول من خلفه فى صرامة قاسية :

ـ بل قل ماذا سيصيبكما ؟!

رفع (محمود) عينيه إليه فى سرعة ، والتفت إليه (نــور) ، و ...

وأطلق (هيثم) سلاحه الترددُى ، فانطلقت موجاته نحوهما .. مباشرة .

* * *

3 ـ الصغيران ..

على الرغم من انتسابهما إلى (نور) ، بدا (محمود) و(طارق) الصغيران فى حالة من التوتر ، لا تتناسب مع منصب الزعامة ، الذى وضعهما فيه الذئب ، وهما يجلسان إلى هذا الأخير ، فى مقر الزعامة ، وهو يقول :

ـ ما أخبرتكما به يعنى واحدًا من أمرين ، إما أن يكون ذلك الاضطراب فى القلعة بسبب القائد (نور) وفريقه ، وإما أنه لا شأن لهما به ، وفى الحالتين ، ينبغى أن نتحرك سريعًا ، ونضرب ضربتنا .

تبادل الصغيران نظرة متوترة ، قبل أن يقول (محمود) الصغير فى حذر شديد :

ـ أى ضربة ؟!

مال الذئب نحوهما ، وهو يجيب ، وعيناه تتألقان على نحو عجيب :

ـ الضربة التى ننتظرها منذ زمن بعيد .. مهاجمة مركز القيادة .

انعقد حاجبا (محمود) الصغير فى شدة ، فى حين تراجع (طارق) الصغير كالمصعوق ، هاتفًا فى ذعر واستنكار :

ـ ولكن هذا مستحيل !

زمجر الدُّب من خلفهما ، وهو يقول :

ـ لا يوجد مستحيل .. هكذا يقول الذئب .

استدار إليه (محمود) الصغير ، قائلاً فى صرامة :

ـ بل هكذا قال (نابليون بونابرت)(*) .

انعقد حاجبا الدُّب ، وهو يقول فى عصبية :

ـ مـن ؟!

قال الذئب فى صرامة :

ـ لسنا هنا لمناقشة التاريخ .

عاد إليه (محمود) الصغير ببصره ، وهو يقول بنفس الصرامة :

ـ ولا لإفساده .

رمقه الذئب بنظرة طويلة ، لم ترق أبدًا لـ (طارق) الصغير ، الذى لا يشعر بالارتياح منذ البداية ، لوقوف الدُّب خلفهما ، بجسده الضخم المخيف ، دون أن يدريا ما يفعله ..

(*) نابليون بونابرت : (15 أغسطس 1769م ـ 5 مايو 1821م) : قائد عسكرى وإمبراطور فرنسى ، وُلِدَ فى جزيرة (كورسيكا) ، التى كانت (فرنسا) قد استولت عليها قبل مولده بخمسة عشر شهرًا ، قاد الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م ، ومات منفيًا فى جزيرة (سانت هيلانة) ..

ثم إنه ، ومنذ البداية ، لم يثق بالذئب أبـدًا ..

شىء ما فى أعماقه ، جعله لا يثق به ، ولا يطمئن إليه ..

شىء حتى هو لم يفهمه ..

شىء جعله يقول فى عصبية شديدة :

ـ لا تدخلونا فى أمور جانبية .

انعقد حاجبا (محمود) الصغير ، وزمجر الدُب فى غضـب ، فى حين صمت الذئب لحظة ، قبل أن يقول :

ـ صدقت .

ثم نـهض من مقعده ، وقال متابعًا فى حزم :

ـ ما لم أخبركمـا به من قبل ، هو أن لدينا عينًا داخل مقر قيـادة تلك المخابرات التكنورقمية .

غمغم (محمود) الصغير :

ـ لم تكن بحاجة لإخبارنا .. هذا يبدو واضحًا .

صمت الذئب لحظة ، وكأنما لم يرق له هذا ، ثم تـابع فـى حـزم ، متجاوزًا هذا التعليق :

ـ وبوسيلة سرية ، أخبرنى عيننا أن والدتك يـا (محمـود) قد أوقفت عمل كافة الأجهزة التكنولوجية هناك .

تمتم (محمود) مبهورًا :

ـ أمـى ؟!

وقال (طارق) فى لهفة :

ـ شقيقتى (نشوى) .

لم يبال الذئب بانفعالهما ، وهو يلتفت إليهما ، قائلاً :

ـ هـذا يعنى أنهـا فرصـة ذهبيـة ، قد لا يمكننا الحصول على مثلها أبدًا .

ومال نحوهما ، مضيفًا ، بعينين التمعتا كمصباحين صغيرين :

ـ فالمقر بلا حماية أمنية إلكترونية .

وتفرّس ملامحهما معًا ، قبل أن يضيف :

ـ على الإطلاق .

صمت الصغيران لحظات مبهورين ، قبل أن يغمغم (محمـود) فى توتر :

ـ وماذا تريد منا بالضبط ؟!

اعتدل الذئب فى حركة حادة ، وقال بلهجة آمرة :

ـ أن تأمرا رجالكما بالهجوم ، أو ...

صمت دفعة واحدة ، فسأله (طارق) الصغير فى حذر :

ـ أو ؟!

التمعت عينا الذئب أكثر ، وهو يقول :

ـ أو تفوّضانى فى قيادة جميع الفرق .

واستدرك فى سرعة :

ـ مؤقتًا .

نقل الدُب بصره بينهما من الخلف ، وهو يزمجر زمجرة تثير التوتر ، فى حين غمغم (محمود) ، فى شىء من العصبية :

ـ هذا يحتاج إلى ...

قَاطعه الذئب بمنتهى الشراسة :

ـ إلى لا شىء .. من المؤكد أن هذه الفرصة لن تتكرَّر ، ولن تظل متاحة طويلاً ... إما الآن أو أبدًا .. ما قولكما ؟

تبادل الصغيران نظرة صامتة ، ثم غمغم (طارق) :

ـ فى هذه الحالة ..

لم ينتظره الذئب ليكمل عبارته ، وإنما قال للدُب فى حزم آمر :

ـ ابـدأ الهجـوم ..

ولم يعترض أىٌّ منهما بحرف واحد ..

ومن الواضح أنه لم يكن باستطاعتهما هذا ..

* * *

أغمضت (نشـوى) عينيها فى قوة ، عندما تلقّى رجال الأمـن الثلاثة الأمر بقتل ثلاثتهم ..

هى ، وزوجها (رمزى) ، وأمها (سلوى) ..

وعنـدما انطلقت تلك الموجات الترددية القاتلة ، شعرت بجسـدها كله ينتفض فى عنف ..

وبالأرض تهتز تحت قدميها ..

ولكنَّ شيئًا آخر لم يحدث ..

فقط شعرت بالارتجاجات فى مكان ما حولها ، ثم سمعت صوت قتال عنيف ، وسمعت أمها تهتف :

ـ (طارق) .

فتحت (نشوى) عينيها عن اتساعهما ، وحدّقت ذاهلة مبهورة ، فيما يحدث أمامها ..

كـان اثنان من رجـال الأمن ملقيين أرضًا ، والآخران يشتبكان فى قتال عنيف مع (طـارق) ، الذى بدا كالأسد الكاسـر ، وهو يلكم

أحدهمـا لكمـة كالقنبلة أطـاحت به ثلاثة أمتار كاملة إلى الخلف ، ثـم يستدير إلى قائد المجموعـة ، الـذى هتـف بـه وهو يصوِّب إليـه مسدسه الارتدادى القاتل :

ـ (طارق) .. هذه خيانة .

تفادى (طارق) الموجة الترددية القاتلة ، وهو ينقض عليه فى قوة ، هاتفًا بكل صرامته وغضبه :

ـ وهؤلاء أهلى .

حاول قائد المجموعة أن يلكمه ، ولكن (طارق) وثـب متجـاوزًا اللكمة ، ودار حول نفسه دورة مدهشة ، قبل أن يركل الرجل فـى فكه ، ثم يكمل دورته ، ليلكمه فى معدته ، هاتفًا :

ـ وفى سبيلهم .

انطلقت قبضته الثانية تحسم القتال بلكمة ساحقة ، وهو يضيـف فى حزم :

ـ أدفع حياتى نفسها .

خفق قلب (نشوى) فى قوة ، خاصة عندما وثب (طـارق) ، متجاوزًا قائده ، قبل حتى أن يسقط هذا الأخير ، واندفع نحوهـا ، يهتف بكل اللهفة والجزع :

ـ أمـى .. أأنت بخير ؟

ارتجفت شفتا (نشوى) ، وسرت الارتجافة فى جسدها كلـه ، وملأت صوتها ، وهى تحدِّق فيه ، قائلة بصوت متهدِّج للغاية :

ـ أمك ؟!

انحنى على كفيها يقبلهما فى لهفة ، وهو يهتف :

حمدًا لله .. حمدًا للّه .

لم تتمالك (نشوى) نفسـها ، فاحتوته بين ذراعيهـا فى حنان جارف ، على الرغم من أنه يبدو فى مثل عمرها ، وتفجَّرت عيناهـا بدموع غزيرة ، فى حين وضع (رمزى) يده على كتف (طارق) ، وترك دموعه هو الآخر تنساب على وجنتيه ، وهو يقول :

ـ أى أب لَيفخر بإنجابه ابنًا مثلك .

ارتمى (طارق) بين ذراعى والده ، و(سـلوى) تقول وسط دموعها الغزيرة :

ـ يا لك من حفيد !

كان الموقف بالغ التأثير ، و(سلوى) تضمه إليهـا أيضًا ، ولكنْ (طارقًا) اعتدل ، قائلاً فى حزم ، جعله أشبه كثيرًا بِجَدِّى :

ـ سنتبادل عواطفنا فيما بعد .. أما الآن ، فأسرعوا .

هتفت (سلوى) :

ـ وماذا عن جَدِّك و(أكرم) ؟!

توقف (طارق) يسألها فى قلق :

ـ وأين ذهبا ؟!

أجابته (نشوى) :

ـ أبى ذهـب لتخليص (محمـود) ، أما (أكرم) ، فيسعى لإنقـاذ زوجته ، من ذلك السجن أسفل المبنى .

اتسعت عينا (طارق) ، وهو يهتف :

ـ هل ذهب إلى ممر الموت ؟!

قال (رمزى) فى توتر شديد :

ـ أهكذا يطلقون عليه ؟!

سحب (طارق) مسدسه الترددى ، وهو يهتف فى جزع شديد :

ـ يا إلهى !.. يا إلهى !

قالها ؛ لأنه يدرك جيدًا لمـاذا أطلقوا على ذلك المكـان الرهيب اسم ممر الموت ..

لقد أطلقوا عليه هذا الاسم ؛ لأنه لا أحد يمكن أن يذهب إليـه ، دون تصريح رسمى ، ويعود منه حيًا ..

لا أحد ..

أبـدًا ..

* * *

عندما صوَّب الرائد (هيثم) مسدسه الترددى نحـو (نـور) ، كان الغضب والمقت يملآن نفسه ، ويدفعانه إلى القتل فورًا ..

ودون ذرة واحدة من التردُّد ..

إنه حتى لم يبال بوجود (محمود) ، ولا بتلك الأوامر ، التى تحتـم الحفاظ عليه ، حتى يفصح عن كل ما لديه عن نهر الزمن ..

وعندما ضغط زناد مسدسه ، كانت فوهته مصوَّبة نحو (نور) تمامًا ، فى حين صرخ الدكتور (راشد) :

ـ لا ..

ولكن الموجة الترددية القاتلة انطلقت ..

نحو الهدف مباشرة ..

ووفقًا لكل قواعد الدنيا ، ولسرعة تلك الموجات الرهيبة ، كان من المستحيل أن ينجو (نور) من تلك الطلقة ..

من المستحيل تمامًا !!..

ولكن (محمود) تحرَّك فجأة ، على نحو عجيب ..

وبسرعة خرافية ..

سرعة غير آدمية .

على الإطلاق ..

وبتلك السرعة الرهيبة ، دفع (نور) جانبًا ، واستقبل الموجة القاتلة فى صدره ، وهو يهتف :

ـ لا .. ليس (نور) .

ارتطمت الموجة الترددية بصدره فى عنف ، واقتلعته من مكانه تمامًا ، ودفعته أمامها فى قوة ، حتى ارتطم بالجدار ..

واتسعت عينا الدكتور (راشد) عن آخرهما ، عندما شاهد تلك الفجوة ، التى صنعتها الموجة الترددية ، فى صدر (محمود) ..

أما (نور) ، فقد هتف :

ـ رباه !.. لا ..

واستدار (هيثم) ؛ ليطلق موجة أخرى نحو (نور) ، و ...

وفجأة ، اتسعت عيناه عن آخرهما ، فى ذهول مذعورًا ..

الواقع أن عيونهم جميعًا قد اتسعت ، بانفعالات مختلفة ..

ففى حزم وعلى الرغم من تلك الفجوة فى صدره ، والتى لم تنزف منها قطرة دم واحدة ، اعتدل (محمود) ..

اعتدل وانعقد حاجباه فى غضب شديد ، وهو يتطلّع إلى (هيثم) ، الذى خفض فوهة مسدسه ، وهو يهتف فى صوت مختنق :

ـ مستحيل !

ففى سرعة مدهشة ، راحت تلك الفجوة فى صدر (محمود) تمتلئ ، بذلك (الزوريوم) الحيوى اللامع ، الشبيه بالزئبق ، ثم لم تلبث أن اكتست بلون بشرته ، وكأنه لم يكن بها خدش واحد ..

وفى ذهول ، غمغم الدكتور (راشد) :

ـ رباه !.. إنه .. إنه ...

لم يقل أبدًا ما الذى كان يعنيه ، ولم ينبس (نور) ببنت شفة ، وهو يحدّق فيما حدث أمام عينيه ، فى حين تراجع (هيثم) خطوتين إلى الخلف ، ثم لم يلبث أن أطلق لساقيه العنان ، وراح يعدو مبتعدًا عبر الممر ، وكأنما يطارده ألف شيطان وشيطان ..

ولثوان قليلة ، ساد صمت رهيب ، داخل تلك الحجرة ..

صمت حمل كل الذهول ..

والارتباك ..

والخوف ..

صمت قطعه (محمود) ، وهو يسأل فى ذعر شديد :

ـ ماذا أصابنى يا (نور) ؟!.. ما الذى أصبحت عليه ؟!

ودون أن ينتظر جواب (نور) ، التفت إلى الدكتور (راشد) ، وقال فى شبه انهيار :

- قلت : إننى كنت أتصرَّف وكأننى شىء لم تُحدَّد ماهيتـه !!.. كنت أتصرَّف وكأننى ماذا يا رجل ؟!

ثم صرخ فى عصبيةً مضيفًا .

- مـاذا ؟!

أجابه الدكتور (راشد) فى سرعة :

- بشرى .. تتصرف وكأنك بشرى .

عضَّ (نور) شـفته السفلى فـى توتـر شـديد ، فـى حين ردَّد (محمود) ، فى ذهول وارتياع :

- هل .. هل تعنى أننى ...

لم يكمل سؤاله ، فقد قاطعه الدكتور (راشد) ، قائلاً فى توتـر بلغ ذروته :

- نعم ، يا ولدى للأسف .. لست بشريًا .

واتسعت عينا (محمود) عن آخرهما ..

فقد كانت الصدمة عنيفة ..

وربما أكثر مما ينبغى ..

أكثر بكثير ..

* * *

إنها النهاية لا ريب ..

الممر الرهيب يشتعل بنيران مستعرة ، وحرارة تتزايد فى سرعة ، حتى تبلغ خمسـة آلاف درجة مئوية ، إنهـا كافيـة ، ليس فقط لقتـل (أكرم) و(مشيرة) ، بل لإذابة الممر نفسه ، وتحويلـه إلى كتلـة هائلة من اللهب ..

أو من الجحيم ..

وبكل رعب الدنيا ، تعلَّقت (مشيرة) بزوجها ، هاتفة :

- يا إلهى !.. (أكرم) .

لم يدر (أكرم) ماذا يفعل ، فى مثل هذه الظروف ؟!

لم يدر كيف يمكن أن يقاوم ميتة بشعة كهذه !!

وكيف يمكن أن ينقذ (مشيرة) ؟!

كيف ؟!..

لقد وعدها ، يوم وضع دبلته فى وسطاها ، أنه سيحميها ويذود عنها بحياته ، لو استلزم الأمر ..

وهو لم يحنث بوعد فى حياته أبدًا ..

أبـدًا ..

وعلى الرغم من ثقته بعدم جدوى هـذا ، هتف بها (أكـرم) ، بمنتهى الحزم :

ـ لابد أن يظفر بى الموت أوَّلاً ، قبل أن يمس شعرة واحدة منكِ .

وفى حركة سريعة ، حملها بين ذراعيه ..

ثم انطلق يعدو عبر الممر ..

وبكل قوته ..

ومن فرط المفاجأة ، شهقت (مشيرة) ، وتعلَّقت بعنقـه بكل قوتها ، ثم أخفت وجهها فى صدره ، وهى تلهث فـى شـدة ، كمـا لو أنها هى التى تعدو ، وليس هو ..

ومن حولهما ، راحت الحرارة ترتفع فى سرعـة مخيفة ، وشـعر (أكرم) كأن جسده يشتعل ..

أو أنه كان يشتعل بالفعل ..

وهذا يعنـى أن الأمتـار القليلـة ، التـى تفصلهمـا عـن مخـرج الممر ، ستكون أشبه بآلاف الكيلومترات ..

وأنهما لن ينجحا فى عبورها أبدًا ..

على قيد الحياة ..

وعندما راوده هذا الشعور ، ضمَّ (مشيرة) إليه أكثر ، وحـاول أن يضاعف من سرعة عدوه ، ولكن هذا لم يكن ممكنًا أبدًا ..

لقد كان يعدو بأقصى سرعته بالفعل ..

ولكن النيران كانت تشتعل فى مخرج الممر بالفعل ..

وتسد الطريق إليه تمامًا ..

ولم يعد هناك أمل ..

أى أمـل ..

وبكل يأسه ومرارته ولوعته ، همس فى أذن (مشيرة) ، وهو يلهث فى عنف ، من فرط التعب ، والإجهاد ، والتوتر ، والمرارة الشديدة :

ـ آسف .

احتضنته (مشيرة) فى شدة ، وهى تقول باكية :

ـ عزائى أننا سنلقى مصرعنا معًا .

ضمها إليه فى حنان جارف ، واندفع معها نحو حاجز النـيران ، الذى يسد مخرج الممر ، وقد أيقن من أنها النهاية ..

نهايتهما معًا ..

بلا أدنى ريب ..

* * *

بإشارة حاسمة من الذئب ، راح رجال المقاومة يتخذون أماكنهم فى خفة وحذر ، حول مقر قيادة المخابرات التكنورقميـة ، الذى صار يحتل أكثر من ثلاثة أضـعاف مساحة المخابرات العلمية السابقة ، وأكثر من سبعة أضعاف مساحة المخابرات العامة القديمة ..

كانوا أكثر من ألفى رجل ، يخضعون نظريًّا لأربع زعامات مختلفـة ، ويأتمرون فعليًّا فى ذلك الوقت على الأقل بأوامر زعيم واحد ..

الـذئب ..

كان (محمود) الصغير يتوق لمعرفة ماذا يحدث هناك بالضـبط ، داخل تلك الأسوار العالية ، فى حين كان (طارق) الصغير يشـعر بتوتر شـديد ، مما يمكـن أن يواجههم هنـاك لو نجحوا فى عبـور تلك الأسوار بالفعل ..

أما الدُّب ، فقد ذكَّره الموقف كله بتلك الأفلام القديمـة ، التـى كـان يهوى مشاهدتها ، على شاشة الهولوفيزيون الكبير ، عندما كان طفلاً ، وقبل أن تشتعل تلك الحرب ، التى دمَّرت كل شىء ..

كان يذكره بحروب الفرسان ..

فرسان العصور الوسطى ..

تلك الحروب ، التى كان الصراع الرئيسى فيها يدور حول تجاوز الأسوار ..

أسوار عالية ضخمة ، كتلـك الأسـوار التـى يواجهونـها الآن ، والتى تحيط بمقر المخابرات التكنورقمية ..

حتى رجال المقاومة ، كانوا يحملون أسلحة بدائية قديمة ، جعلتهم ، فى زيِّهم المتهالك ، أشبه بالفعل بتلك العصور القديمة ..

الفـارق الوحيـد مـن وجهـة نظـر الـدُّب ، كــان فـى أن الأسـوار القديمة كانت مكونَــة من أحجـار ضخمـة ، أمـا تلـك الحديثـة ، فهـى مصنوعـة مـن لدائـن قـوية ، مقــاومة للنيــران والرصاصــات ، وحتى القنابل والصواريخ ..

ثم إنها مزوَّدة دومًا بوسائل دفاعية متطـوِّرة ، ووسـائل رصد شديدة الحداثة ، يمكنها رصد بعوضة ، لو أنها حامت حول الأسوار ، أو حاولت عبورها ..

والأسلحة التى يستخدمونها ؛ للدفاع عن تلك الأسوار ، رهيبة للغاية .. رهيبة وقاتلة ..

بل مدمِّرة ، وساحقة ..

إلى حد مخيف ..

للغـاية ..

وكل من حاول مجرَّد الاقتراب مـن هذه الأسـوار ، واجـه تلـك الأسلحة ..

وانسحق ..

أو احترق ..

أو تلاشى من الوجود تمامًا ..

« أأنت واثق من أنه ما من خطر ؟! »

ألقى سؤاله هامسًا ، فأجابه الذئب ، دون أن يلتفت إليه :

ـ تمام الثقة .

قالها الذئب ، وراقب الأسـوار بضع لحظـات ، قبـل أن ينهـض واقفًا ، ويهتف فجأة :

ـ هجـوم .

انتفض جسدا (محمود) و(طارق) الصغيرين ، مع تلك الصرخـة القوية ، التى انطلقت من حناجر ألفى رجل دفعة واحدة ، مختلطة بدوى الصواريخ القوية ، التى أطلقوها نحو قمة الأسوار ..

وبمنتهى العنف ، دوت الانفجارات ..

دوت معلنة بدء الحرب ..

حرب الغـد ..

* * *

4 ـ الحـــرب ..

فجأة ، وبعد أن أطبقت عليهما النيران مـن كل صـوب ، وكمـا يحدث تمامًا فى أفلام السينما وروايات الأساطير ، دوى انفجار ..

انفجار أطاح بجزء من ذلك الجدار المشتعل ، ونسفه نسفًا ..

وعبر الفجوة الناشئة ، وثب (طارق) ..

وثب فى بسالة مدهشة ، داخل ممر الموت ، وهو يهتف :

ـ أسرعا .. من هنـا .

لم يصدِّق (أكرم) عينيه ، ولكنه لم يسمح حتى للدهشة بإضاعة لحظة واحدة ، وهو يندفع بحمله نحو الفجوة ، هاتفًا بـ (طارق) :

ـ (طارق) لن يمكنك أن تتصور سعادتى برؤيتك ، فى هذه اللحظة بالذات .

دفعهما (طارق) عبر الفجوة ، وهو يكرِّر :

ـ أسرعـا .

هبطا عند الجانب الآخر للجدار ، وهتفت (مشيرة) :

ـ رباه .. أهو ملاكنا الحارس ؟

أجابها (أكرم) ، وهو يضعها أرضًا فى رفق ، ويلتفت لمعاونـة (طارق) ، على عبور الفجوة :

ـ إنه ابن (نشوى) .

هتفت مبهورة :

ـ (طارق) ابن (نشوى) ؟!

وثب (طارق) خـارج الفجـوة بمعاونـة (أكرم) ، وهذا الأخير يهتف :

ـ أمور عديدة هنا ، تحتاج إلى شرح مستفيض يا (مشيرة) .

ثم استدار يحملها مرة أخرى ، مردفًا :

ـ وسيكون لدينا الكثير من الوقت ؛ لأرويها لك .

هتف به (طارق) ، وهو يعدو عبر الممر ، الذى قادت إليه الفجوة :

ـ أسرعـا .

انطلق (أكرم) يعدو خلفه ، ومن خلفهم دوى صوت أشبه بانفجار مكتوم ، وانبعث من تلك الفجوة لفح عنيف ، كاد يشوى ظهورهم ، فهتفت (مشيرة) :

ـ ربـاه !

قال (أكرم) ، وهو يواصل عدوه ، لاهثًا فى عنف :

ـ فلنحمد الله سبحانه وتعالى ، على أننا لسنا فى منتصف هذا الجحيم .

غمغم (طارق) فى انفعال ، وهو يعدو إلى جواره ، ويسحب مسدسه الترددُى :

ـ ربما ينتظرنا ما هو أسوأ .

هتف به (أكرم) :

ـ وماذا يمكن أن يكون أسوأ ؟

توقَّف (طارق) دفعة واحدة ، ورفع مسدسه بحركة غريزية ، وهو يقول فى توتر شديد :

ـ هـذا .

شهقت (مشيرة) فى رعب ، وتوقَّف (أكرم) بدوره ، على نحو جعله يكاد يسقط مع (مشيرة) أرضًا ، وحدَّق كلاهما ذاهلاً فى صورة هولوجرامية هائلة ، لوجه القـائد الأعلى ، سدَّت أمامهم الممر ، وسمعوا صوته ، يقول فى غضب عارم :

ـ الخيانة فى قانوننا لا تُغتفر أبدًا .

هتف (أكرم) فى عصبية :

ـ الخيانة لمن ؟!

لم يحصل على جواب ، والصورة الهولوجرامية تتلاشى فى سرعة ، وتظهر بدلاً منها شبكة من خيوط الليزر الرفيعة القاتلة ، راحت تندفع نحوهم فى سرعة ، عبر الممر ..

وسقط الثلاثة بين شقى الرحى ..

الأتون المشتعل من خلفهم ..

وشبكة الليزر القاتلة من أمامهم ..

وما من مفر ..

على الإطلاق ..

* * *

« رجال المقاومة بدءوا هجومًا شاملاً .. »

اندفع أحد رجال الأمن داخل الممر الطويل ، الـذى يقود إلـى مقـر القائد الأعلى ، وهو يهتف بالعبارة ، مع انقطاع وسـائل الاتصـال الإلكترونية والرقمية ، ثم توقَّف حائرًا ، عندما لم يتلق جوابًا لهتافه ..

إنه داخل ممر القائد الأعلى ، ولكن ما من سبيل لبلوغ مكتبه ، فى غياب سكرتيرته الرقمية ، ووسائل التأمين الإلكترونية ..

وهجوم المقاومة قد بدأ بالفعل ..

ولابد من أوامر مباشرة للتصدى إليه ..

أوامر من القيادة ..

الغـائبة ..

« رباه !.. ماذا نفعل الآن ؟!.. »

هتف بالعبارة فى جزع شديد ، ولكنها لم تكد تتجاوز شفتيه ، حتى سمع صوت القائد الأعلى ، يقول من خلفه مباشرة :

ـ سنصد الهجوم بالطبع .

انتفض الرجل فى عنف ، واستدار بحركة حادة ، ثم ارتدّ فى عنف أكبر وأشد ، عندما فوجئ بالقائد الأعلى خلفه مباشرة ، يقول فى صرامة ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره :

ـ ماذا أصابك ؟!

امتقع وجه الرجل ، وهو يقول متلعثمًا :

ـ لا .. لا شىء يا سيِّدى .. فقط كنت أتساءل ..

قبل أن يواصل ، أكمل القائد عبارته فى صرامة ، وكأنه قد التقط العبارة عن لسانه :

ـ كيف سنقاوم الهجوم ، دون سيطرة رقمية .. أليس كذلك ؟!

أومأ الرجل برأسه مبهورًا ، وهو يغمغم :

ـ بلى .

تألَّقت عينا القائد الأعلى على نحو عجيب ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. لَدىَّ خُطَّةٌ .

قالها بثقـة ..

كل الثقـة ..

والحزم ..

والقسوة ..

بلا حدود ..

* * *

من المؤكَّد أنـه ، لـو قُدِّر لـ (أكرم) أن يحيا ، حتـى يكتـب مذكراته ، فسيصف أحداث تلك الساعات الرهيبة بأنها كانت أشبه بفيلم سينمائى ، من أفلام الحركة القديمـة ، المليئـة بالمصادفـات المثيرة ..

فللمرة الثانية ، فى أقل من ربع الساعة ، تدخَّـل القدر علـى نحو مفاجئ ، فى موقف شديد الصعوبة ..

ففى تلك اللحظات ، عندما اندفعت شبكة خيوط الليزر القاتلـة نحوهم ، وراحوا يتراجعون فى سرعة ، نحو أتون اللهب ، الـذى يلفح أجسادهم بالفعل ، هتف (أكرم) بكل عصبية :

ـ لابد من وجود مخرج ما .

قال (طارق) فى عصبية ، وهو يتراجع معـه ، وينقل بصره على نحو متصل ، بين شبكة خيوط الليزر ، وأتون اللهب :

ـ بالتأكيد ، لو أنك تستطيع المرور بين خيوط تلك الشبكة ، قبل أن تمزقك إربًا .

غمغم (أكرم) ، فى عصبيـة شديدة ، وهـو يضـم (مشيرة) إليه فى قوة :

ـ لابد أن أتحوَّل إلى بعوضة ، قبل أن أنجح فى هذا .

تطلَّع (طارق) بكل توتره ، إلى المسـافات الضيقـة ، بين خيوط شبكة الليزر ، وهو يغمغم :

ـ أتظنها تنجح ؟!

لم يجب (أكرم) ، وهو يحدِّق فى الخيوط الشبكية شبه المتلاصقة ، التى تواصل الاندفاع نحوهم ، وضمَّ (مشـيرة) إليـه أكثر ، وتعلَّقت هى بعنقه ، فى رعب ويأس ، وأغمضت عينيها فى قوة ، ودفنت وجهها فى صدره ، وشبكة خيوط الليزر تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

وعندما صارت قيد خطوتين منهم ، همس (أكرم) مكررًا فى مرارة :

ـ معذرة .. لم أستطع الوفاء بوعدى هذه المرة .

غمغمت (مشيرة) ، وهى تدفن وجهها فى صدره أكثر :

ـ أحبك .

اختلج قلبه لسماعها ، وضمها إليه بكل حنان وحب الدنيا ، و ...

وفجأة ، اختفت شبكة الليزر ..

وانفتح الطريق أمامهم تمامًا ..

وفى نهايته ، ظهر (نور) .

و(سلوى) ..

و(نشوى) ..

و(رمزى) ..

وكذلك (محمود) ..

وفى ذهول منبهر ، حدّق (أكرم) فى جمعهم ، فى حين هتف (طارق) :

ـ رباه !.. لقد فعلوها .

هتف (نور) فى هذه اللحظة :

ـ أسرعوا .. لن تتوقّف وسائل الأمن الاحتياطية هذه ، سوى لحظات .

اختلج قلب (أكرم) مرة أخرى ، وانطلق يعدو نحوهم ، حاملاً (مشيرة) ، التى راحت تهتف :

ـ لقد فعلوها .. لقد فعلوها ..

استقبلهم أعضاء الفريق فى فرحة ، وهتفت (نشوى) ، وهى تستقبلهم :

ـ من حسن الحظ أننى كشفت وجود شبكة الأمن الاحتياطية ، الخاصة بهذا المكان ، فى اللحظة المناسبة .

هتف (أكرم) :

هذا من حسن طالعنا .

كانت (مشيرة) تشعر بلهفة حقيقة لرؤيتهم ، لكن لأنهم لم يكبروا يومًا واحدًا ، فقد خشيت أن يروها فى هذا العمر ، فخفضت عينيها ، وهى تقول بصوت متهدّج :

ـ كم تسعدنى رؤيتكم مرة ثانية .. إننى أدين لكم بحياتى ، وحياة أحب الناس إلى قلبى .

ارتفع حاجبا (سلوى) فى تعاطف ، ومدّت سبّابتها ، ترفع ذقن (مشيرة) ، لتواجهها مباشرة ، وهى تقول فى حنان :

ـ رباه !.. لا بد أنه لديك وصفة سحرية ، للحفاظ على جمالك هذا !

كانت عبارة واضحة المجاملة ، إلا أنها صنعت مفعولها مع (مشيرة) ، التى رفعت عينيها إليها ، وابتسمت قائلة :

ـ كنتِ دومًا أجمل منى يا (سلوى) .

تلفّت (طارق) حوله فى توتر ، وهو يقول :

ـ كم أعشق هذه اللحظات العاطفية الرقيقة ، ولكننى أقترح أن نبتعد عن هنا بأقصى سرعة ، فوسائل الأمن قد تعود إلى العمل فى أية لحظة .

قال (نور) فى حزم :

ـ صدقت .

ثم التفت إلى (نشوى) ، متسائلاً :

ـ هل عثرت على الخريطة الإنشائية للمكان ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، قائلة :

ـ وأحفظها عن ظهر قلب .

تساءل (رمزى) فى قلق :

ـ وماذا عن نظم الأمن ؟!

أشار (طارق) إلى صدره ، قائلاً فى حزم :

ـ إنها مهمتى .

أمسك (نور) كتفيه ، وتطلّع إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول :

ـ (طارق) .. هل تدرك ما نفعله بالضبط ؟!

أجابه (طارق) فى حزم :

ـ لقد اخترت يا جَدى .

سألته (سلوى) فى قلق :

ـ اخترت القتال ؟!

التفت إليها ، مجيبًا فى حزم :

ـ اخترت عائلتى .

سالت دموع الفرحة من عينَىْ (نشوى) ، التى انهالت على أسوار مقر المخابرات التكنورقمية كالمطر ، لم يبد أن تلك الأسوار قد تأثرت ، وإنما كانت الصواريخ ترتطم بها ، ثم ترتد عنها ، كما لو أنها مصنوعة من المطاط ، لتنفجر على قيد أمتار منها ..

وعلى العكس من ذلك ، كانت صواريخ طاقم الحراسة تصيب أهدافها ، وسط رجال المقاومة ، وتنسف بعضهم فى عنف ، فى حين تجبر بعضهم الآخر على الاختباء ، ومحاولة الاحتماء بالصخور ، التى لا تلبث أن تُنسف بدورها ، لتقضى على من خلفها ..

وفى توتر بلا حدود ، هتف الدُب بالذئب :

ـ هجوم فاشل .. لابد أن تنسحب فورًا ، قبل أن يبيدونا عن آخرنا .

هتف به الذئب :

ـ تماسك يا رجل .. لم نبدأ هجومنا الحقيقى بعد .

صاح الدُب :

ـ ومتى سنفعل ؟!.. بعد أن يتم سحقنا جميعًا .

صاح الذئب فى صرامة :

ـ المفترض أن تولينى ثقتك .

صاح الدُب ، ليعلو بصوته فوق دوى الانفجارات :

ـ وماذا عن الرجال ، الذين يدفعون ثمن هذا ؟!.. لمن سيولون ثقتهم ؟!

هتف به الذئب :

ـ لما سيرونه .

لوَّح الدُب بذراعيه الضخمين ، هاتفًا :

ـ ومتى يرونه ؟!

ألقى الذئب نظرة على ساعته ، وتألَّقت عيناه ، وهو يجيب :

ـ الآن .

مع آخر كلمته ، صدر صوت غريب ، فوق رءوس الرجال ، فرفعوا أعينهم إلى أعلى ، ليروا كتلة من اللهب تطير عاليًا ، متجاوزة أسوار مقر قيادة المخابرات التكنورقمية ، قبل أن يدوى فى موضع سقوطها انفجار رهيب ..

انفجار أطاح بالعديد من رجال الحراسة والأمن ، فطاروا عاليًا ، قبل أن تهوى أجسادهم من فوق الأسوار ، ويسقطون جثثًا هامدة ، على الصخور المحيطة بالمقر ..

وقبل أن يهتف الدُب ذاهلاً ، طارت كتلة لهب ثانية ..

وثـالثـة ..

ورابعة ..

ومع الانفجارات المتتالية ، داخل الأسوار ، استعاد الرجال حماسهم ، وشملتهم فرحة جنونية ، راحوا بعدها يطلقون أسلحتهم نحو الأسوار ، على الرغم من أنها لم تتأثر بصواريخهم من قبل ..

حتّى (محمود) و(طارق) الصغيران ، راحا يطلقان النيران مع باقى الرجال ، وقد بدا لهما أن تلك الانفجارات تقرِّبهما أكثر وأكثر من ذويهما ..

وبكل حماسه ودهشته وانبهاره ، هتف الدُب :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابه الذئب فى ظفر ، وعيناه تتألقان على نحو عجيب :

ـ منجنيق[*] .. سلاح من العصور القديمة ، يتناسب مع حرب الأسوار هذه ، ولكننى قمت بتطويره ، فبدلاً مـن أن يقـذف الحجـارة ، استخدمت مادة كيماوية شديدة التفجير .

وابتسم وهو يلوّح بذراعيه ، مستطردًا :

ـ وها أنتذا ترى تأثيره .

هتف الدُب :

ـ تأثيـره مدهـش .

ثم استدرك فى قلق :

ـ ولكننا ما زلنا خارج الأسوار .

أجابه الذئب فى سرعة :

ـ مؤقتًا !

أطلّ التساؤل من عينى الدُب ، فاستطرد الذئب فى حزم :

ـ ألم تسأل نفسك لماذا يقاتل رجالكم فى غياب رجالى ؟!

(★) المنجنيق : اسم أعجمى معرّب ، لآلة قذف ، استخدمت فى حالات حروب الحصار ، من القرن الخامس قبل الميلاد ، وحتى القرن الخامس عشر الميلادى ، وكانت تستخدم لرمى السهام والحجارة ، وقدور الحشرات السامة .. ولقد بطل استخدامه ، مع اختراع البارود والمدافع .

غمغم الدُب فى حذر :

ـ المفترض أن أثق بك .

اتسعت ابتسامة الذئب ، وهو يقول :

ـ حسن فعلت ، فلقد استوحيت الخطة من غرامك بتلك الأفـلام القديمة .

غمغم الدُب بصوت مبحوح :

ـ أفلام فرسان العصور الوسطى ؟!

أشار الذئب بيده ، مجيبًا :

ـ بالضبط .

تتبّع الدُب يده ، فوقع بصره على رجال الذئب ، وهم يدفعون أمامهم سلالم عالية متحركة ، تفوق الأسوار ارتفاعًا ، ويتّجهون بها إلى مقر قيادة المخابرات التكنورقمية ..

وبكل انبهاره ، وفى صوت لاهث من شدة الانفعال ، هتف الدُب :

ـ هذا ما كانوا يفعلونـه أيامـها .

ربّت الذئب على كتفه المكتظ ، وهو يقول ، وقد تضاعف بريق عينيه كثيرًا :

ـ بالضبط يا صديقى .. بالضبط .. لقد قالها (أينشتين) قديمـا(*) ، ولم ينتبه إليه أحد .. قال : إنه لا يدرى كيف ستدور الحرب العالمية الثالثة ، ولكن من المؤكد أن الحـرب الرابعة ستعود بالزمن إلـى الوراء ، وتستخدم العصى والأحجار .

والتقط نفسًا عميقًا ، وهو يراقب رجاله ، الذين بدءوا فـى تسلُّق السلالم العالية ، للهجوم على الأسوار ، مستطردًا :

ـ أرأيت كم كان عبقريًّا ؟

فى نفس اللحظة ، التى نطق بها عبارته ، كان أحد رجال الأمـن يعدو نحو القائد الأعلى ، هاتفًا :

ـ سيِّدى .. القتال عنيف للغاية ، ورجالنا لم يتدرَّبوا على هـذا النوع من القتال الهمجى ، ولو لم يعد الكمبيوتر إلى العمل ، قد نخسـر كل شىء .

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى غضب وصرامة ، وهو يقول :

ـ سيعمل .

(*) (ألبرت أينشتين) : (1879 ـ 1955م) : عالم أمريكى فى الفيزياء النظريـة اشتهر بنظريته النسبية ، وُلِدَ فى (ألمانيا) ، ودرس فيها وفى (سويسرا) ، التـى تجنَّس بجنسيتها ، حصل على الدكتوراه من جامعة (زيورخ) عام 1905م ، وفـاز بجـائزة (نوبل) ، عام 1921م .

ثم شدَّ قامته ، وأضاف بمنتهى الصرامة :

ـ أريد رجلين .. سأواجه هذا الكمبيوتر بنفسى .

قال الرجل ، فى توتر شديد :

ـ ولكن العلماء يؤكدون .

صاح به فى غضب :

ـ أطع الأوامر فحسب .

ارتجف الرَّجل ، وهو يؤدى التحية العسكرية ، قائلاً :

ـ كما تأمر يا سيِّدى .. كما تأمر .

قالها ، واندفع لتنفيذ الأمر ، فى حين قال القـائد الأعلـى ، فـى غضب شديد :

ـ ربما كان ما يحدث من حسن حظكم ، يا فريـق (نـور) ، ولكن ذلك الكمبيوتر الـذى أفسدتموه سيعمل ، وسيستجيب لى ، ويُطيع أوامرى ، حتى لو اضطررت للإعلان عن هويتى الحقيقيـة .. لـن تربحوا هذه الجولة .. لن تربحوها أبدًا ..

قالها وعيناه تلتمعان ببريق وحشى ..

بريق رهيب مخيف ..

للغاية ..

* * *

«يا إلهى !.. كيف توصّلت إلى هذه الممرات ؟! »

هتفت (مشيرة) بالعبارة مبهورة ، وهى تسير مع الباقين عبر ممرات خافتة الإضـاءة ، أسفل مقر قيـادة المخابرات التكنورقميـة ، فأجابها (طارق) ، فى شىء من الزهو :

ـ أمى عبقرية فى التعامل مع الكمبيوتر .

التفتت إليه (نشوى) ، وضغطت يده فى حنان ، فأضاف (نور) :

ـ لقـد استخدمت لغة الكمبيوتر الأساسية ، وتـوغّلت فى النظـام ، وعرفت أين يمكن أن نسير ، دون أن يفاجئنا رجال الأمن .

غمغمت (سلوى) :

ـ لست أصدق أنهم يتركون ممرات كهذه بلا حراسة .

أجابتها (نشوى) :

ـ هنـاك وسائل إلكترونيـة عديدة تحميهـا ، وترصد أية حركـة داخلها ، كما ترصد الانبعاثات الحرارية أيضًا ، وتعمل أجهزتها الأمنيـة فور الرصد ، للقضاء على أى شخص ، يحاول التسلّل إليها .

هتفت (مشيرة) فى هلع :

ـ يا إلهى !

ولكن (أكرم) ضغط يدها فى حنان ، قائلاً :

ـ اطمئنى .. (نشوى) أبطلت مفعول نظم الأمن كلها .

وقبل أن تهدأ نفس (مشيرة) ، غمغمت (نشوى) :

ـ مؤقتًا للأسف ..

هتفت (مشيرة) فى ذعر :

ـ مـاذا ؟!

قال (رمزى) فى لهجة هادئة ، لا تتناسب مع الموقف :

ـ قبل أن تبدأ أجهزة الآمن عملها بثلاثين ثانية ، ستضاء كل تلـك المصابيح الحمراء على الجدار .

تطلّعت (مشيرة) فى خوف إلى تلك المصابيح ، وهى تغمغم :

ـ وهل ستكفينا تلك الثوانى الثلاثين ؟!

فى هذه المرة لم يجبها أحدهم بحرف واحد ..

حتى (أكرم) نفسه ..

ففى الواقع ، كان السؤال يدور فى رءوسهم جميعًا ..

لو أضيئت تلك المصابيح ، هل ستكفيهم تلـك الثوانـى الثلاثين لفعل أى شىء فى الوجود ؟!

هـل ؟!..

فى نفس اللحظة ، التى انطرح فيها السؤال على أذهانهم ، كـان القائد الأعلى يقف أمام الكمبيوتر المركزى ، يتطلَّع إليه فى صمت ، قبل أن يقول للرجلين المصاحبين له فى صرامة :

ـ انتظرانى فى الخارج .

أدى الرجلان التحية العسكرية ، واستدارا لينفذا الأمر ، ولكنـه استطرد بمنتهى الصرامة :

ـ هذا الأمر يشمل الجميع .

أسرع العلمـاء يتبعون الرجلين دون مناقشـة ، حتـى أصبـح الجميع خارج المكان ، وهنا شدَّ القائد الأعلى قامتـه ، وقـال فـى صرامة مخيفة :

ـ ستطيع أوامرى .

قالها ، ووضع راحتيه على جسم الكمبيوتر ، ثـم أغلق عينيـه فى قوة ..

ورويدًا رويدًا ، وعلى نحو مدهش ، راح جسده يتوهَّج ..

ويتألَّق ..

ويضىء ..

كان كأنه يحوى داخله طاقة هائلة ..

طاقة تكفى لإنارة مدينة كاملة ..

ولقد انتظر ، حتى صارت الحجرة كلها تموج بضوء ساطع ، ينبعث كله من جسده ، ثم التقط نفسًا عميقًا ، ودفع راحتيه ، وكأنه يدفع الكمبيوتر كله أمامه ..

وعلى نحو مذهل ، انسحبت تلك الطاقة كلها من جسده ، وانتقلت إلى الكمبيوتر ، الذى انتقل إليه الوهج كله لحظات ، قبل أن يخبو فى تدريج سريع ..

ثم عاد الكمبيوتر للعمل دفعة واحدة ..

ومع عودته للعمل ، على هذا النحو المباغت ، استعادت أسـوار المقر كل وسائلها الأمنية ..

وأُضيئت تلك المصـابيح الحمـراء ، داخل ذلك الممـر السفلى للمقر ..

أُضيئت كلها ..

بلا استثناء ..

* * *

5 ـ طـاقـة ..

شهقة قوية ، تلك التى انطلقت من حلق (نشوى) ، عندما أضيئت تلك المصابيح الحمراء دفعة واحدة ..

شهقة انخلع لها قلب (أكرم) ، فجذبها إليه ، وضمها فى قـوة ، وكأنما يحاول حمايتها من خطر ، لم يفصح عن نفسه بعد ..

أما الباقون ، فقد تجمَّدوا فى أماكنهم تمامًا ، وغمغمـت (سلوى) ، بكل ما يعتمل فى أعماقها من توتر وفزع :

ـ ثلاثون ثانية .

تطلَّع (رمزى) إلى مخرج الممرات ، الذى بدا على بعد ما يقرب من مائة متر ، وتمتم فى توتر شديد :

ـ لن تكفى حتمًا .

وتلفَّتت (نشوى) حولها فى عصبية ، بحثًا عن أية وسيلة ، يمكنها اللجوء إليها ، فى حين غمغم (نور) ، فى حزم لا يتفق مع الموقف :

ـ (محمود) .

التفت الجميع إليه فى دهشة ، فاعتدل ، وشدَّ قامته ، مضيفًا :

ـ سلاحنا السرى .

لم يفهم أحدهم معنـى مـا قالـه بـالضبط ، ولكن الثوانـى كـانت تمضى فى سرعة مخيفة للغاية ..

خمس وعشرون ثانية تبقَّت ..

أربع وعشرون ..

ثلاث وعشرون ..

وفجأة ، سمعوا جميعًـا خبطـات عنيفـة علـى ذلـك البـاب ، فـى نـهاية الممرات ..

وفى حركة غريزية ، التفت الجميع إلى الباب ..

وخفقت قلوبهم فى عنف ..

عنف يفوق تلك الخبطات ..

وفى عصبية ، غمغم (أكرم) :

ـ ترى هل ...

قبل حتى أن يتم سؤاله ، دوت ضربة قوية على الباب ..

ثم سقط دفعة واحدة ..

سقط ذلك الباب المعدنى السميك ، وارتطم بـالأرض فـى عنـف شديد ، ضاعف الممر من دويه ..

ثم ظهر ذلك الظل ..

ظل بشرى ، اختفت ملامحه ، خلف ظل الجدار ، قبل أن يتقدَّم إلى دائرة الضوء فى بطء ، وكأنما يسير مع إيقاع الثوانى ..

عشر ثوان تبقَّت ...

تسـع ..

ثمـان ..

ثم ظهر (محمود) ..

ظهر عند المخرج وهو يقول فى شىء من الارتباك :

ـ أتعشَّم أن أكون قد وصلت فى الوقت المناسب .

ألجم الذهول الجميع ، وهم يحدقون فيه ، ولكن (نور) هتف :

ـ ست ثوان تبقَّت يا (محمود) .

التفت (محمود) فى هدوء إلى تلك المصـابيح المضـاءة ، ودون أن يشرح له (نور) شيئًا ، بدا كـأنه قد استوعب الموقف كلـه ، فاتجه نحو جزء من الجدار ، وضمّ قبضته ، ثم هوى بها عليه ..

وأمام أعينهم الذاهلة ، تحطَّم ذلك الجزء من الجدار فى عنـف ، ودفع (محمود) يده عبره ، وجذب كابلاً سميكًا من الألياف الزجاجية ، وهو يشير بيده الأخرى إلى المخرج ، قائلاً :

ـ أسرعوا .

ألقوا ذهولهم وتساؤلاتهم خلف ظهرهم ، وانطلقوا يعدون عبر الأمتـار المائة المتبقية ، قبل المخرج ..

أما (محمود) ، فقد أمسك الكابل بقبضته فى قوة ، ثم راح جسده يرتجف على نحو عجيب ، ومع ارتجافته تراقصت أضواء المصابيح الحمراء فى البداية ..

ثم راحت تخفت ..

وتخفت ..

وتخفت ..

كانت قد تبقَّت ثانية واحدة ، لذا فقد انتفض جسد (نشـوى) ، وهى تعبر إلى جواره ، هاتفة فى أعماقها :

ـ ترى هل ..

مضت الثانية المتبقية ، و ...

لم يحدث شيئًا ..

فقط ازدادت ارتجافات جسد (محمود) قوة وعنفًا ، كما لو أن كل الإشارات قد عبرت جسده هو ، بدلاً من أن تسرى فى الأسلاك ..

وأخيرًا ، عبر الجميع المخرج إلى قاعة صغيرة آمنة ، والتفت (نور) إلى (محمود) ، هاتفًا :

ـ كلنا هنـا .

مع قوله ، أفلت (محمود) الكابل ، ثم وثب عبر المخرج ..

ومن خلفه ، دوت فرقعة هائلة ..

فرقعة غمرت بعدها خيوط الليزر القاتلة الممر كله ، على نحو جعل (مشيرة) تطلق شهقة أخرى ، هاتفة :

ـ ربـاه !.. هل كنـا ..

قاطعها (محمود) ، وهو يسأل بلهجته الخجول ، التى اعتادها منه الجميع فيما مضى :

ـ هل الجميع بخير ؟!

التقط (أكرم) نفسًا عميقًا ، وابتسم قائلاً :

ـ حمدًا لله .

ثم مد يده إلى (محمود) ، مستطردًا :

ـ (أكرم) .. المفترض أننى بديلك فى الفريق .

صافحه (محمود) فى حيرة ، وهو يسأله فى خجل :

ـ هل .. هل التقينا من قبل ؟!

قبل أن يجيبه (أكرم) ، هتفت (سلوى) :

ـ رباه !.. (محمود) .. لقد استعدت طبيعتك الـ ...

بترت عبارتها دفعة واحدة ، ولكنه أكملها لها فى مرارة :

ـ البشرية .. أليس كذلك ؟!

خفض الجميع عيونهم فى أسى ، فى حين غمغم (نور) فى حزم :

ـ إنه يعلم .

أما (مشيرة) ، فقد هتفت ذاهلة :

ـ أهو ليس بشريًا ؟

ثم استدركت ، فى حماس صحفية قديمة :

ـ كان ينبغى أن أدرك ، مع تلك القوة الهائلة التى استخدمها .

تساءلت (نشوى) فى فضول ولهفة :

ـ حقًا .. من أين اكتسبت هذه القوة يا (محمود) ؟!

أمسك (رمزى) كتفها ، وهو يقول :

ـ فيما بعد يا عزيزتى .. فيما بعد .

شدَّ (محمود) قامته ، وهو يقول فى حزم ، لم يعتده رفاقه منه :

ـ نعم ، فيما بعد ، فالآن ينبغى أن تسرعوا ، قبل أن يصبح الخروج من هنا مستحيلاً .

أسرع الجميع يتبعونه ، فى حين تساءلت (مشيرة) فى لهفـة ، لم تفارقها بعد ، على الرغم من كل هذه السنوات :

ـ ولكننى ما زالت أتساءل ، عن سر هذه القوة ..

« طاقة (الزوريوم) .. »

انبعثت العبارة من خلفهم ، فى صرامة شديدة ، فـالتفتوا كلهم فـى آن واحد نحو مصدرها ، ووقعت عيونهم المندهشة علـى القائد الأعلى ، الذى يقف معقود الساعدين ، بينهم وبين مخرج الممرات ، ومن عينيه تطل نظرة بالغة الغضب والشراسة ..

وبكل دهشتها وذعرها ، هتفت (سلوى) :

ـ رباه !.. من أين أتيت ؟!

ضم (أكرم) (مشيرة) إليه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ليس حقيقيًا .. إنها صورة هولوجرامية متطوّرة .

شدّ القائد الأعلى قامته ، ثم استدار إلى الجدار ، وهوى عليه بقبضته فحطّم جزءًا منه فى عنف ، قبـل أن يعود لعقد ساعديه أمام صدره ، قائلاً فى صرامة وحشية :

ـ هل تستطيع صورة هولوجرامية أن تفعل هذا ؟!

ران صمت رهيب على المكان بضع لحظـات ، قبل أن يسحب (طارق) مسدسه الترددى بحركة متوترة ، ويصوّبـه إلـى القـائد الأعلى ، قائلاً :

ـ لو حاولت أن تمس شعرة واحدة من أسرتى ، فـ ...

قاطعه القائد الأعلى ، وهو يدير عينيه إليه فى برود :

ـ فمـاذا ؟!

انعقد حاجبا (محمود) فـى شدة ، وهو يتطلّـع إليـه ، فـأدار القائد الأعلى عينيه إليه فى برود شرس ..

ولثانية أو ثانيتين ، تطلّع كلاهما إلـى عينـى الآخـر ، فـى تحدٍّ شديد ..

ثم كان (محمود) أوّل من تحرّك ..

مدّ يده فى هدوء ، وأمسك يد (طارق) ..

وانتفض هذا الأخير ..

انتفض واتسعت عيناه لحظات ، ثم سرت فـى جسده ارتجافـة قوية ، وهو يحدّق فى وجه (محمود) ، الذى قال فى صرامة :

ـ اذهبـوا .

ظلَّ (طارق) يحدّق فيه لحظات ، فى دهشة شديدة ، قبل أن ينتفض مرة أخرى ، وكأنما يفيق من حلم ، ويهتف بالآخرين :

ـ أسرعوا .. هيا ..

ولأوّل مرة فى حياته ، لم يفهم (نور) ما حدث ..

ولم يتدخَّل ..

فقط انطلق يعدو مع الآخرين ، وكلهم يلقون نظـرة قلقـة على (محمود) ، الذى كرَّر ، فى صرامة أكثر :

ـ اذهبـوا .

قال القائد الأعلى فى غضب وحشى :

ـ أعلم أنك قد هزمت كل رجل أمن التقيت به ، فى طريقك إلى هنا ، ولكن طاقة (الزوريوم) لن تصلح وحدها لمواجهتى .

اعتدل (محمود) ، وعقد ساعديه أمام صدره بدوره ، وهو يقول :

ـ سـنرى ..

بعدها توهَّج المكان كله ..

وبمنتهى الشـدة ..

* * *

فجأة ، وعندما بدا كأن المقـاومة ستفوز بنصر ساحق عادت كل أجهزة الأمن للعمل دفعة واحدة ..

وبعنـف ..

فجـأة ، أضيئت أنـوار الأسوار كلهـا ، وسـرت فيهـا موجـة كهرومغنطيسية شديدة العنف ، مع طرقعة قوية ، تكاد تصم الآذان ..

وبمنتهى العنف ، ارتدَت السلالم العالية ..

وهـوت ..

ومعها هوى عشرات من رجال الذئب ..

ومع فرقعة أخرى مكتومة ، تكوَّنت قبـة متألِّقة لامعة ، على قمة المبنى كله ..

ثم انطلقت المدافع الترددُّية الهائلة ..

وفى سرعة ، راحت تحصد رجال المقاومة ..

وتقتلهم ..

وتسحقهم سحقًا ..

حتى تلك الكتل المشتعلة ، التى تقذفها آلات المنجنيق ، كانت ترتطم بتلك القبة ، وترتد عنها فى عنف وتسقط وسط رجال المقاومة ..

وتنفجر ..

أما أولئك ، الذين نجحوا فى عبور الأسوار ، فقد سقط معظمهم ضحية أجهزة الأمن الذكية ، التى تطلق أشعتها نحو من لا يرتدون الشعار الرقمى الخاص بالمخابرات التكنورقمية ..

ومن نجا منهم وقع فى الأسر ..

ولم يكن أمامه سوى الاستسلام ..

« إنهـا مذبحة .. »

صرخ (محمود) بالعبارة ، وهو يصرخ برجاله مضيفًا :

ـ انسحاب .. انسحاب .

وكان الرجـال كأنهم ينتظرون هذا الأمر ، فقد انطلقوا يعدون فـارين بكل ما يمتلكون من قوة ، وتبعهم رجال (طارق) ، ورجال الدُّب ، ومن تبقى من رجال الذئب ، الذى احتقن وجهه فى شدة ، وهو يهتف :

ـ ليس هذا من حقه .

جذبه الدُّب ، هاتفًا :

ـ ليس هـذا وقت صراع الزعامة .. فلنسرع قبل أن يتم حصد الجميع .

تبعه الذئب ، وهو يهتف فى غضب :

ـ المسألة أكبر من مجرَّد صراع زعامـة .. ينبغى أن يكـون الانسحاب منظمًا كالهجوم ، وإلا فاقت خسائره القتال نفسه .

هتف به الدُّب ، وهو يعدو معه ، محاولين الاحتمـاء بالصخور وبقايا الأطلال :

ـ لا وقت لتنظيم أى شـىء .. لقد ربحـوا المعركـة ، وأفضل ما نفعله هو أن نفرَّ من هنا .

صرخ الذئب ، فى انفعال شديد :

ـ ليست معركةً ، إنها مجرَّد جولة .

جذبه الدُّب خلف أطلال مبنى قديم ، وتوقَّف هاتفًا :

ـ أى جولة ؟.. لقد خسرنا ما يقرب من ستين فى المائة من رجالنـا ، وكشفنا كل وسائلنا ، وخسرنا معها الروح المعنويـة للرجـال ، الذين أدركوا فارق القوة الحقيقى ، بينهم وبين من يحاربونهم .

هتف الذئب :

ـ كل هذا يمكن إصلاحه ، ولكن ...

قبل أن يتمَّ عبارتـه ، دوى انفجـار آخر عنـد قمــة المبنــى ، وانهارت كتل من الصخور على مقربة منهما ، فى حين غطتهمـا سحابة من الغبار ، جعلت الدُّب يَسْعُل فى شدة ، وهو يهتف :

ـ دعنا نناقش هذا فيما بعد .. المهـم الآن أن ننجو .. وأن نبتعد عن هنا .. وبأقصى سرعة .

فى هذه المرة لم يحاول الذئب مناقشته ، بل انطلق يعدو معـه ، وقد احتقن وجهه على نحو عجيب ..

فبالنسبة إليه ، لم يكن الأمر مجرَّد خسارة جولة ..

بل خسارة تاريخ ..

تاريخـه ..

* * *

« إلى أين نتجه بالضبط ؟!.. »

ألقت (مشيرة) السؤال ، وهى تلهث فى قوة ، مع انطلاقتهـا مع أفراد الفريق ، عبر ممرات مبنى قيـادة المخابرات التكنورقميـة ، فأجابها (طارق) فى حزم ، يحمل لمحة عجيبة من التوتر :

ـ إلى حيث مركبات الطوارئ .

غمغمت (سلوى) فى دهشة :

ـ مركبات الطوارئ .

وقالت (نشوى) ، فى دهشة أكبر :

ـ لا وجود لمثل هذا الشىء ، ضمن الخريطة الإلكترونية للمبنى .

أجابها (طارق) ، وتوتره يزداد وضوحًا ، على الرغم من لهجتـه الحازمة :

ـ كان داخل قفص نيران خاص .

قالت (نشوى) فى دهشة :

ـ داخل مـاذا ؟!

أجابها ، وهو يسرع الخطى :

ـ قفص النيران هو تطوير لما كنتم تعرفونه فى عصركم باسم حائط النيران فى الكمبيوتر ، والذى كان يستخدم لمنـع أى دخيل من ولوج البرنامج ، دون معرفة مراقبيه ..

سألته فى فضول :

ـ وكيف يعمل ؟!

قاطعها (أكرم) فى عصبية :

ـ أتظنينه وقتًا مناسبًا ؛ للاستزادة من المعرفة ؟!

قال (نور) فى اهتمام :

ـ السؤال هو : من أين أتت تلك المعرفة ؟!

غمغمت (مشيرة) :

ـ (طارق) رجل أمن ، وأظنها معلومة متاحة لكل رجـال الأمـن هنـا .

بدا توتر (طارق) واضحًا ، وهو يقول :

ـ لم أعلم بها إلا منذ دقائق قليلة .

سأله (نـور) فى حذر ، وهو يعلم الجواب مسبقًا :

ـ ومن أخبرك بها ؟

صمت (طارق) لحظات ، قبل أن يجيب فى عصبية :

ـ هـو .

تمتمت (مشيرة) فى دهشة :

ـ هو من ؟!

أجابها (رمزى) ، فى توتر مماثل :

ـ (محمود) بالطبع .

هتفت بكل فضولها :

ـ وكيف أخبرك بها ؟!

لم تتلق إجابة على سؤالهـا ، وإن بـدا كـأن الجميع قد أدركـوا كيف ، ولكن (نور) وحده غمغم :

ـ السؤال هو : من أين أتى (محمود) بالمعلومة ؟

عقدت (نشوى) حاجبيها ، وهى تقول فى توتر :

ـ نعم ، هذا هو السؤال .

توقَّف (طارق) فى هذه اللحظة ، ولهث وهو يقول :

ـ هنـــا .

تلفَّت الجميع حولهم فى حيرة ، قبل أن يتساءل (أكرم) :

ـ هنا أين ؟!

التفت (طارق) إلى الجدار ، وتطلَّع إليه لحظة فى صمت ، ثم مرَّر يده على جزء منه ، فتموَّج الجدار ، كما يحدث فـى مكتـب القـائد الأعلى ، ثم تلاشى جزء منه ، وظهرت خلفه قاعة صغيرة ، تحـوى ثلاث مركبات متطوِّرة ، أشبه بتلك الأطباق الطائرة ، التـى وضعتهـا روايات الخيال العلمى القديمة ..

وفى حزم ، قال (طارق) :

ـ أسرعوا .

عبر الجميع تلك الفجوة فى الجدار ، وما إن أصبحوا داخل القاعة ، حتى تموَّجت أطراف الفجوة ، ثم عـاد الجدار إلـى موضعـه مـرة أخرى ، فغمغم (أكرم) فى عصبية :

ـ لن يمكننى الاعتياد على هذا أبدًا .

التصقت به (مشيرة) فى حنان ، قائلة :

ـ هذه طبيعتك .

لم يبال أحد بحديثهما ، و(طارق) يشـير إلـى المركبـات الثـلاث ، قائلاً :

ـ سنستقل المركبـة الأولى والثـانية ، وسننطلق بهما عبر هـذا الممر ، الذى سيقودنا إلى خارج المكان .

سألته (نشوى) فى اهتمام :

ـ إلى أين بالضبط ؟!

بدا حائرًا ، وهو يهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ لست أدرى .

ران على القاعة صمت مهيب ، بعد أن نطق عبارته الأخيرة تلك ..

ليس يدرى !..

سيستقلون إذن مركبتين ، يرونـهما لأوَّل مرة ، لينطلقـوا بهمـا إلى جهة مجهولة ..

جهة قد يكون فيها نجاتهم ..

أو فناؤهم ..

لا أحد يدرى ..

ولا أحد يمكنه الجزم ..

ولا أحد يمكنه اتخاذ القرار ..

وفورًا ..

« حسنًا .. هيا بنا .. وعلى بركة اللَّه .. »

قالها (نور) فى حزم ، وهو يتجه إلى إحدى المركبتين ، فسـأله (رمزى) فى قلق متوتر :

ـ وماذا عن (محمود) ؟!

لم يتوقَّف (نور) ليسأله عما يعنيه ، فأضافت (سلوى) :

ـ ألن ننتظره ؟!

قال (طارق) فى عصبية ، وهو يتّجه نحو المركبة الثانية :

ـ كـلاً ..

توقَّف (أكرم) ، هاتفًا :

ـ لن نتخلَّى عنه ، بعد أن فعل ما فعله من أجلنا .

التفت إليه (نور) ، قائلاً فى صرامة :

ـ استقل و(مشيرة) تلك المركبـة مع (طـارق) ، وسأستقل أنا و(سلوى) و(نشوى) و(رمزى) المركبة الثانية .

هتف (أكرم) فى عناد :

ـ سأنتظر (محمودًا) .. لن أرحل دونه .

شد (نور) قامته ، وبدا شديد الصرامة والقسوة ، وهو يقول :

ـ هذا أمر .

بدا لحظة كأن (أكرم) سينفجر فى وجهـه ، فقد احتقن وجهـه هو فى شدة ، وانفرجت شفتاه لحظة ، وساد الجميع جو مـن التوتـر والقلق ، حتى (مشيرة) نفسها ، التى ضغطت ذراع (أكرم) بأصابع مرتجفة ، ولكن هذا الأخير لم يلبث أن غمغم فى توتر :

ـ فَلْيَكُنْ .

ثم جذب زوجته ، ودلف إلى المركبة الأولـى مـع (طـارق) ، فى حين استقل (نور) مع الباقين المركبة الثانية ، وهو يقول لابنته :

ـ حاولى استيعاب أسلوب قيادتها ، من خلال الكمبيوتر .

جلست (نشوى) أمام كمبيوتر المركبة ، فى حين اتخذ الآخـرون أماكنهم ، و(سلوى) تغمغم :

ـ ما زلت لم أفهم ، لماذا تركنا (محمود) خلفنا ؟

غمغم (نور) فى صرامة ، امتزجت بعصبية :

ـ على كلٍّ أن يؤدى واجبه .

همَّت (سلوى) بإلقاء سؤال آخر ، لولا أن قالت (نشـوى) ، فى دهشة عصبية :

ـ مستحيل !

التفت إليها الجميع ، و(رمزى) يسألها فى قلق :

ـ ماذا هناك ؟!

بدا وجهها ممتقعًا ، وهى تقول :

ـ هذا الكمبيوتر .

سألها (نور) :

ـ مـاذا عنه ؟!

أجابته فى صوت مرتجف :

ـ لا يشبه أى كمبيوتر عرفته من قبل .

قالت (سلوى) فى حذر قلق :

ـ كل شىء تطوَّر ، و ...

قاطعتها بصوت أكثر ارتجافًا :

ـ كلاً .. إنه ليس تطويرًا لأى كمبيوتر أعرفه .

تفجَّرت الدهشة فيهم جميعًا ..

ومن العيون ، أطلَّت نظرة عجيبة .

نظرة تجمع بين مشاعر شتى ..

بين الحيرة ..

والقـلـق ..

والتـوتر ..

والخوف ..

ولقد تضاعفت هذه المشاعر كلها ، عندمـا أضـافت هـى ، وقـد بلغ صوتها قمة ارتجافته :

ـ ولا لأى كمبيوتر ، على كوكب الأرض ..

واتسعت العيون عن آخرها ..

فالمعنى هنا كان مخيفًا ..

مخيفًا إلى أقصى حد ..

* * *

6 ـ من أيـن ؟!

لم يدر أحد أبدًا ماذا دار هناك ، فى تلك الممرات السفلية ، بين القائد الأعلى ، ونسخة (الزوريوم) الحيوى ، التى حوت كل طاقة وذكريات (محمود) ..

فقط سـجلت أجهزة أمـن القلعـة دفقـا هـائلاً مـن الطاقـة ، كـاد يحرق الأجهزة كلها ، قبل أن يتوقَّف ، ويخبو رويدًا رويدًا ..

ومع تلك الإشارة ، التى سجلتها أجهزة أمـن المبنـى ، اندفعت ثلاث فرق أمنية إلى الممـرات .. إلـى حيث انبعث تدفق الطاقـة الهائل .. كانوا يتوقعون أن يكون رجال المقاومة قد عثروا على فجوة ما ، قادتهم إلى الممرات السفلية ..

ولكن ما وجدوه هناك ، كان مدهشًا ومحيرًا ..

إلى أقصى حـد ..

لقد بلغوا المكان ، فعثروا على شخصين ، أحدهما يقف صارمًـا ممشوق القامة ، والثانى ملقى أرضًا ، أشبه بجثة هامدة ..

وبمنتهى الدهشة ، هتف قائد الفرق الثلاث :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه القائد الأعلى فى صرامة :

ـ كان لابد أن أتدخَّل بنفسى ؛ لضبط ميزان الأمور .

نقل الرجال أبصارهم فى توتر ، بينه وبين (محمود) ، المستلقى أرضًا في سكون تام وبلا أية إصابات ، ودارت فى رءوسهم آلاف الأسئلة ، التى لم يجرؤ أحدهم على البوح بحرف واحد منها ، حتى أضاف القائد الأعلى :

ـ أعيدوه إلى مركز الأبحاث ، وأخبروا الدكتور (راشد) ضرورة وضعه داخل قفص من الطاقة .

انحنى أحدهم يفحص (محمود) ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ لا نبض على الإطلاق .. لقد لقى مصرعه .

صاح فيه القائد الأعلى فى صرامة :

ـ أطع الأوامر دون مناقشة .

أسرع الرجال يحملون جسد (محمود) ؛ لتنفيذ الأمر ، فى حين تساءل قائدهم فى حذر :

ـ وماذا عن الآخرين ؟!.. هل ...

قاطعه القائد الأعلى بنفس الصرامة ، وإن تسللت إليها نبرة شرسة :

ـ سأتولى أمرهم بنفسى .

بدت الدهشة على وجه الرجل ، وهَمَّ بقول شىء ما ، إلا أنه تراجع فى سرعة ، واكتفى بتأدية التحية العسكرية ، قبل أن يهتف بجنوده :

ـ انصراف .

انصرف الجنود ، حاملين جسد (محمود) ، وتابعهم القائد الأعلى ببصره ، حتى اختفوا تمامًا ، ثم شدَّ قامته ، وانعقد حاجباه فى صرامة قاسية ، وهو يقول :

ـ ينبغى أن أتولَّى أمرهم بنفسى ، فمن الخطأ أن يرى آخرون ما سيحدث .. من الخطأ تمامًا .

قالها ، وسار فى حزم عبر الممرات ، فى طريقه إلى هناك ..

إلى حيث مركبات الطوارئ ..

غير الأرضية ..

* * *

« لقد انسحبوا جميعًا .. »

نطقها قائد فرق أمن المقر فى ظفر ، وهو يلتفت إلى (هيثم) ، مستطردًا :

ـ هذا يعنى أننا قد هزمناهم .

أضاف نائبه بابتسامة كبيرة :

ـ ليس هذا فحسب ، ولكنهم أدركوا الآن أنه لا قبل لهم بمواجهة مباشرة معنا .

هتف قائده فى حماس :

ـ بالضبط .. وفى المرة القادمة ...

قاطعه (هيثم) ، فى صرامة شديدة :

لن تكون هناك مرة قادمة .

التفت إليه الاثنان فى دهشة وحيرة ..

فعلى الرغم من أنه أقل من كليهما رتبـة ، إلا أن انتماءه إلى مكتب القائد الأعلى مباشرة ، جعله يمتلك سلطة خاصة ، تتجـاوز فارق الرتب الرسمية ..

لذا فاعتراضه لم يكن مجرَّد عبارة نطقها ..

وإنما كان أشبه بأمر ..

أمر صادر عن القائد الأعلى نفسه ..

لذا ، فقد سأله قائد فرق الأمن فى حذر :

ـ ماذا تعنى بالضبط ؟!

أجابه (هيثم) بنفس الصرامة :

ـ أعنى أن انسحابهم لا يعنى أن الحرب قد انتهت بيننا وبينهم .

تبادل القائد ونـائبه نظرة حائرة قلقـة ، دون أن ينبس أحدهمـا ببنت شفة ، فتابع هو ، وهو يتطلع إلى ما يتجاوز جدران المكان :

ـ هجومهم يمنحنا كمًّا من المعلومات ، لم نكن لنحصل عليـه ، فى الظروف الاعتيادية ، فبمراجعة ما سجلته أجهزة الرصد ، ونقلتـه إلى الكمبيوتر ، يمكننا معرفة عددهم ، وأساليبهم ، والزوايا التـى فروا إليها ، وهى تقود حتمًا إلى حيث يشعرون بالأمان .

وانعقد حاجباه ، وقسا صوته ، وهو يضيف :

ـ إلى أوكارهم .

بدت علامات الفهم على ملامح القائد ونائبه ، وهتـف هذا الأخير فى حماس :

ـ وهذا يقودنا مباشرة إليهم .

أضاف القائد فى حزم :

ـ ويمكننا أن نباغتهم بهجوم ليلى ، و ...

أكمل (هيثم) ، مقاطعًا إياه ، ولهجته تحمل كل شراسة الدنيا :

ـ ونقضى عليهم جميعًا .

ران علـى ثلاثتهـم صمـت عجيب ، دام لحظـات قصيرة ، بعـد جملة (هيثم) الأخيرة ، قبل أن يقول هذا الأخير فى صرامة :

ـ وماذا ننتظر ؟!

تبادل القائد ونائبه نظرة صامتة قلقة أخرى ، ثم قال الأوَّل فـى حذر شديد :

ـ الأوامر المباشرة .

بدا الغضب على وجـه (هيثم) ، ولكن النائب أضاف فـى سرعة متوترة :

ـ هجوم شامل كهذا ، يستلزم أمرًا مباشرًا .

وتردَّد لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ من القائد الأعلى نفسه .

صمت (هيثم) تمامًا ، وإن لم يستطع منع ذلـك الغضب ، من أن يعربد فى أعمق أعماقه ...

إنهما على حق ..

صحيح إنه أقـرب الرجـال إلى القائد ، ولكـن مـن يجرؤ علـى اتخاذ قرار كهذا ، وإصدار أمر مباشر به سواه ..

سوى القائد الأعلى ..

شخصيًا ..

ولكن السؤال هو : أين القائد الأعلى الآن ؟!..

أين ؟!..

* * *

« لست أدرى .. »

نطقها (طارق) فى توتر شديد ، وهو يحدِّق فـى شاشـة ذلك الكمبيوتر العجيب ، فى لوحة قيادة المركبة ..

كان أشبه بتلك الكرة البلّورية ، التـى كـان يستخدمها السحرة قديمًا ، والتى ادعوا أنهم يرون فيها المستقبل ..

أو ربما كانوا يملكون بالفعل لمحة ما ...

لمحة من ذلك المستقبل ..

أو من الماضى ..

الماضى السحيق جدًّا ..

جـدًّا ..

وداخل تلك الكرة البلّورية ، كانت تسبح رموز عجيبة ..

رموز لاتشبه أية رموز رياضية معروفة ..

أو أية حروف لأية لغة ..

رموز مجسَّمة ..

هولوجرامية ..

ومجهولة ..

مجهولة تمامًا ..

« كيف يدار هذا الشىء إذن ؟!.. »

ألقى (أكرم) السؤال فى عصبية، فهزّ (طارق) رأسه فى حيرة، وهو يجيب :

ـ ما من وسيلة أعرفها ، تصلح لهذا !!..

ثم أشار إلى تلك الكرة البلّورية ، مستطردًا :

ـ إننى حتى لا أفهم كيف أتعامل مع هذا الشىء .

مطّ (أكرم) شفتيه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أرأيت لماذا أمقت تلك التكنولوجيا ؟!.. لو أننا داخل طائرة تقليدية قديمة ، لعرفنا كيف نديرها على الأقل .

فى نفس اللحظة التى نطقها فيها ، كانت (نشوى) تبـدو أكثر حيرة ، وهى تقول :

ـ إنها حتى لا تتعامل بأسلوب الصفر والواحد .. هذا الشـىء ربما لا يكون جهاز كمبيوتر ، بالمعنى الذى نعرفه .

مدّ (نور) يده ، وفرد راحته فوق الكرة ، مغمغمًا :

ـ ربما كانت نظام قيادة حيويًا أو ...

ارتجفت (سلوى) بحركة غريزية ، عندما تحرّكت تلك الرموز

الهولوجرامية العجيبة فجأة ، وكأنها تتجه كلها نحو راحة (نور) ، الذى أبعد يده بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ ربــاه !

قال (رمزى) فى انفعال :

ـ يا إلهى !.. يبدو أنك كنت محقًّا يا (نور) .

بدت (نشوى) شديدة الاهتمام ، وهى تقول :

ـ قيادة حيوية ، تستجيب لحرارة الأجساد !!.. ولِمَ لا ؟!

وضعت راحتها كلها على سطح الكرة ، فتحرّكت كل تلك الرموز الهولوجرامية نحوها ، وراحت تسبح داخل الكرة ، كما لو أنها تحوم حول الحرارة الطبيعية ، المنبعثة من راحتها ..

وفى نعومة ، راحت تحرّك راحتها على الكرة ، والرموز تستجيب لحركتها ، فى انسيابية هادئة ، فغمغمت مبهورة :

ـ أشك فى أنهم حتى فى هذا الزمن توصلـوا لتكنولوجيـا مدهشة كهذه !

تمتم (نـور) :

ـ ولكنهم يجيدون التلاعب بالهولوجراميات على نحو كبير .

حركت رأسها نفيًا فى بطء ، وهى تقول :

ـ ليس إلى هذا الحد .

سألتها (سلوى) ، والموقف يزيد أعصابها توترًا :

ـ السؤال ليس عن روعة هذه التكنولوجيا .. السؤال الحقيقى هو : هل يمكنك استخدام هذه التكنولوجيا ، لقيادة هذه المركبة .

« كـلاً .. »

قالها (طارق) ، مجيبًا تساؤل (أكرم) ، الذى قال فى عصبية :

ـ هذا يعنى أن وصولنا إلى هنا لا معنى له .

التفت إليه (طارق) ، قائلاً :

ـ بل يبدو لى أنه يحمل معنى كبيرًا جدًا .

غمغمت (مشيرة) ، فى صوت مرتجف :

ـ مثل ماذا ؟!

بدا شاردًا متوترًا ، وهو يجيبها :

ـ عرفنا أن هذه المركبات ، لا تنتمى فى الأرجح إلى عالمنا .

وصمت لحظة ، ثم التفت إليها ، مضيفًا :

ـ ولا من أعدوها لهروبهم .

مع آخر حروف كلماته ، صدرت فى المكان فرقعة مكتومة ، تموَّج على إثرها ذلك الجزء من الجدران ، قبل أن يتلاشى تمامًا ، ويظهر خلفه آخر شخص يودون رؤيته فى مثل هذه الظروف ..

القائد الأعلى ..

شخصيًا ..

بكل صرامته ..

وغضبه ، و ...

شراسته ..

وعندما التفت إليـه الجميع فـى آن واحـد ، لاحظـوا أن عينيـه تتألقان ..

ليس مجازيًا ..

ولكن فعليًا ..

كانت عيناه تتألقان بالفعل ، كمصباحين صغيرين ..

قويين ..

ومميتين ..

وإلى حد مرعب ..

للغاية ..

* * *

بكل الغضب الذى يعتمل فى نفسه ، ضرب الذئب سطح مكتبـه ، داخل مقر قيادة قوات المقاومة ، وهو يقول فى حدة :

ـ خطأ .. ما فعلته كان أكبر خطأ يا حفيد (نـور) .. لا يمكنـك أن تصدر أمرًا بالانسحاب فى وجودى .

قال (محمود) الصغير فى توتر وعصبية :

ـ الرجال كانوا يسحقون بالعشرات ، تحت وطأة نيران العدو .

صرخ فيه الذئب :

ـ هذا لا يمنحك الحق .

صرخ فيه (محمود) :

ـ ومن منحك أنت الحق ؟!

امتقع وجـه (طارق) ، واحتقن وجـه الذئب فى غضب ، فى حين زمجر الدُب ، قائلاً فى شراسة :

ـ الذئب هو زعيم الزعماء .

غمغم (طارق) الصغير فى حذر :

ـ هذا ما أخبرونا به ، قبل أن ...

قاطعه (محمود) فى صرامة شديدة :

ـ نعم ، قبل .

ثم أدار عينيه إلى الذئب بنظرة متحدية ، مضيفًا :

ـ قبل أن تتغيَّر الظروف .

زمجر الدُب فى شراسة هذ المرة ، قائلاً :

ـ لم يتغيَّر شىء .

قال (محمود) فى تحد شديد :

ـ حقًّا ؟!.. إن لم تخنى ذاكرتى ، فقد كان هناك مجلس من خمسة زعماء ، لقى ثلاثة منهم مصرعهم ، وجئنا خالى وأنـا ، لنصبـح زعيمين جديدين .

قال الذئب فى شراسة :

ـ أنا وضعتكما فى هذا المنصب .

أكمل (محمود) الصغير ، وكأنه لم يسمعه :

ـ ولم يسألنا أحد عمن ننتخب ؛ ليصبح زعيم الزعماء .

احتقن وجه الذئب فى شدة ، ورسم الغضب أعمق خطوطـه على وجهه ، وهو يحدِّق فى وجه (محمود) الصغير مستنكرًا ، ولكن هذا الأخير لم يبال بنظراته ، وإنما مال نحوه كثيرًا ، وهو يضيف :

ـ وبالمناسبة .. الزعامة موقع ، وليست منصبًا .

حملت زمجرة الدُب كل غضبه وشراسته هذه المرة ، وهو ينتزع من

حزامه ذلك الخنجر ، المخيف الهيئة ، ولكن (محمود) بدا شديد الصلابة والصرامة ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، ويواجهه ، قائلاً :

ـ والآن ماذا ؟! هل سنصفى حساباتنا على طريقة قُطَّاع الطرق ؟!

التقت عيناه الصارمتان بعينَي الدُّب ، فى صمت دام لحظة ، قبل أن يعيد الدُّب خنجره إلى حزامه ، مغمغمًا فى عصبية :

ـ كلاً بالطبع .. نحن زعماء ، ولسنا قُطَّاع طرق .

غمغم (طارق) ، وقد أكسبته شجاعة (محمود) قوة وثقة :

ـ صدقت .

نقل الذئب بصره إليه فى حركة حادة ، وصمت لحظات ، قبل أن يقول فى هدوء عجيب ، ينذر بالخطر :

ـ إذن فأنت تنشد انتخابًا جديدًا .

قال (محمود) الصغير فى صلابة :

ـ هذا ما نحارب من أجله .

وفى هذه المرة ، وعلى الرغم من هدوئه الظاهرى ، حملت نظرة الذئب إليه كل مقت الدنيا ..

وكل الخطر ..

الخطر بلا حدود ..

* * *

لثوان ، تجمَّد الموقف كله تمامًا ، فى قاعة مركبات الطوارئ ..

القائد الأعلى وقف جامدًا عند مدخلها ، يرمى أفراد الفريق بنظرة نارية ، وهم يتطلَّعون إليه فى صمت ..

صمت رهيب ..

ثقيـل ..

مخيف ..

صمت قطعه القائد الأعلى ، وهو يقول فى صرامة وحشية :

ـ تصوَّرتم أن الفرار من هنا هيِّن ؟!

لم يدر أحدهم ما إذا كان ذلك الرنين ، الذى اتسم بـه صوتـه ، قد نشأ من فراغ القاعة ، أم من حنجرته نفسها ..

ولكنه بدا كرنين عجيب للغاية ..

رنين معدنى ..

وعلى الرغم من أن القائد الأعلى قد قطع حبل الصمت بقوله هذا ، فقد استمر الصمت لحظات ، واستمر تحديق أفراد الفريق فيه لثوان إضافية ، قبل أن يغادر (نور) المركبة ، ويقف فى مواجهته ، ويشدّ قامته ، قائلاً :

ـ من أنت ؟!.. وماذا يحدث هنا بالضبط ؟!

أجابه الرجل فى غضب صارم ، وقد تلاشى ذلك الرنين العجيب من صوته :

ـ أنا قائدك الأعلى ، الذى ينبغى أن تطيع أوامره دون مناقشـة ، كما تدرَّبت منذ البداية .

قال (نور) فى صرامة :

ـ عمليًا لست قائدى الأعلى الآن ، ما دمتم تقولون إننى لم أعد أنتمى إلى المخابرات الجديدة ، وهذا ينطبق بالتبعية على فريقى أيضًا .

غادر (أكرم) مركبته بدوره ، ووقف فى وجه القائد الأعلى ، إلى جوار (نور) ، وهو يقول فى صرامة ، امتزجت بعصبيته المعتادة :

ـ نعم ، هذا ينطبق علينا جميعًا .

وتبعه (طارق) ، ليقف إلى جوارهما ، وهو يضيف :

ـ وفى الوقت الحالى ، وبنـاءً على قراركم ، صـار هذا ينطبـق علىَّ أيضًا .

نقل القـائد الأعلى بصره بين ثلاثتهم فى بطء ، قبل أن يقول فى صرامة وحشية ، اتسمت بالثقة والسخرية :

ـ وهل تتصوَّرون أن ثلاثتكم قادرون على مواجهتى وحدكم ؟!

غادر الجميع المركبتين ، ووقفوا مع (نور) و(أكرم) و(طـارق) صفًا واحدًا ، فى مواجهة القائد الأعلى ، و(سلوى) تقول :

ـ ليس ثلاثتهم ، بل كلنا .

كان مشهدًا يستحق التسجيل بحق ..

الجميع يقفون صفًا واحدًا ، فى مواجهة القـائد الأعلى ، الـذى عقد ذراعيه أمام صدره ، قائلاً فى شراسة عجيبة :

ـ كلكم .

قال (رمزى) فى صرامة :

ـ نعم ، كلنا .

وأضافت (نشوى) فى شىء من الحدة :

ـ ثم إنك لست القائد الأعلى حتمًا .

انعقد حاجباه فى شدة ، عندما سمع قول (نشوى) هذا ، ورمقها بنظرة أشبه بنيران الجحيم ..

بل إن (أكرم) كاد يقسم بأنه قد لمح فى عينيه وهج نيران .. نيران حقيقية ..

وربما لمحها (نور) أيضًا ، فقد انعقد حاجباه فى شدة ، وهـو يتطلع إلى القائد الأعلى بنظرة عجيبـة ، فى حين قـال هـذا الأخير فى لهجة ، بدت للجميع شديدة الوحشية :

ـ لست القائد الأعلى ؟!.. أى قول أحمق هذا ؟!..

إننى الرائد (أيمن) ، كما عرفنى والدك قديمًا ، و ...

قاطعه (نور) فى صرامة :

ـ كلاً .. لست هو ..

أدار القائد الأعلى عينيه إليه فى حركة حـادة وحشـية ، ولكنـه أكمل بنفس اللهجة ، ونفس الصرامة :

ـ (أيمن) المسكين لقى مصرعه ، وتمزَّق إربًا ، فـى مغامرة سابقة فى زمننا[*] .

قال القائد الأعلى فى بطء :

ـ هذا صحيح .

نظر إليه الكل فى دهشة ، فتابع فى صرامة شديدة :

ـ (أيمن) الذى تعرفونه لقى مصرعه بالفعل ، وتمزَّق إربـًا كما تذكرون ، ولكن بقايا حمضه النووى صنعت من ترونه أمامكم الآن .

وشدَّ قامته ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، مستطردًا :

ـ النسخة الجينية المحسَّنة من الرائد (أيمن) .

كان من الممكن أن يحمل كلامه لمحة من الصدق ، ولكن (نور) قال فى نفس الصرامة :

(*) راجع قصة (سادة الكون) .. المغامرة رقم (134) .

ـ زمنيًّا ، يبدو هذا مستحيلاً ؛ فعنـدما غادرنا زمننـا ، لم يكن استنساخ الرائد (أيمن) قد بدأ بعد ، وحتى لو افترضنا أنه قد بـدأ فور غيابنا ، فالمفترض أن تكون نسخته فى الثلاثينات الآن ، وليس كما تبدو عليه أنت :

ابتسم القائد الأعلى ، فى شىء من الشراسة ، وهو يقول :

ـ التكنولوجيا تطوَّرت كثيرًا منـذ غيابكم يا (نـور) ، وما كـان يبدو مستحيلاً فى زمنكم ، صار أمرًا عاديًّا بسيطًا ، بعد غيـابكم بسنوات قليلة .

اندفعت (نشوى) ، قائلة فى حدة :

ـ وماذا عن أجهزة كمبيوتر المركبات ؟!

أدار القـائد الأعلى عينيه إليها فى حدة ، فأضافت فى عصبيـة ، وهى تبعد بصرها عن عينيه الناريتين :

ـ إنها ليست أرضية على الإطلاق .

قال فى حدة وصرامة وسرعة :

ـ ومن أدراك ؟!

قالت فى عصبية أكثر :

ـ إنها لا تخضع لأية ...

قاطعها فى شراسة :

ـ لأية تكنولوجيا تعرفينها ، أو عرفتها فى زمنك .. أليس كذلك ؟!

قال (طارق) فى حدة :

ـ ولا ما نعرفه فى زمننا نحن .

التفت إليه فى صرامة :

ـ وما يتاح للقادة ، لا يتاح لغيرهم .

غمغم (أكرم) فى ازدراء :

ـ مبدأ ديكتاتورى بغيض .

انعقد حاجبا القائد الأعلى ، وهو يقول له فى شراسة مستنكرة :

ـ ديكتاتورى ؟!

ثم شدَ قامته ، وأطلَ من عينيه لهب حقيقى ، وهو يضيف :

ـ ولكن لماذا أضيع الوقت فى محاولة إقناعكم ..

واكتسب صوته وحشية رهيبة ، مع إضافته :

ـ الأيسر هو ... إبادتكم .

قالها وجسده يتألَق ..

ويتألَق ..

ويتألَق ..

على نحو رهيب ..

7 ـ القـائد ..

فى حياته كلها لم يشاهد الدُب صديقه الذئب غاضبًا ثائرًا ، مثلما شاهده فى تلك اللحظة ، داخل مقر قيادة المقاومة ، بعد انصراف (محمود) و(طارق) الصغيرين ..

كان محتقن الوجه ، معقود الحاجبين ، زائغ البصر ، يدور فى أرجاء المكان فى عصبية ، كما لو كان ذئبًا حقيقيًا ، داخل قفص من أقفاص الأسر .. ولم يكن ينطق بحرف واحد ..

أو حتى يلتفت إليه ..

ولقد احترم هو صمته وتوتره ، فلاذ بالصمت بدوره طويلاً ، حتى لم يعد يحتمل ، فغمغم فى حذر :

ـ سيتراجع عن قوله هذا حتمًا .

توقَف الذئب دفعة واحدة ، والتفت إليه قائلاً فى عصبية :

ـ ليس مجرَد قول .. إنه موقف .

تصوَر الدُب أنه قد أخطأ التعبير فحسب ، فتمتم مرتبكًا :

ـ سيتراجع عن موقفه .

قال الذئب فى مقت :

ـ لا ، لن يفعل .

لم يجد الدُب ما يقوله ، فاكتفى بهز رأسه ، وواصل متابعة الذئب ببصره ، وهذا الأخير يواصل فى عصبية :

ـ لقد أخرجت هذين الخاملين من جحريهمـا ، وصنعت منهمـا زعيمين وهميين ، ولكنهما صدقا نفسهما ، وسـال لعابهمـا للقيـادة الحقيقية ، ويطمحان الآن ، وبعد أقل من يومين ، لقيادة النظام كلـه .. يا للحماقة !

غمغم الدُب فى حذر :

ـ الثعلب طلب إجراء انتخاب حر فحسب .

أطلق الذئب ضحكة ساخرة عصبية ، وهو يقول :

ـ الثعلب ؟!.. يا للسخافة !.. عندما وضعتهما فى منصبيهمـا ، أطلقت عليهما اسمى الثعلب والحرباء ، ولم أتصورّ لحظتها كم ستناسبهما التسميتين !

غمغم الدُب فى حذر أكثر :

ـ ولكن (طارق) ليس ...

قاطعه الذئب فى حدة :

ـ (طارق) حرباء حقيقية ... هل صدّقت مـا يتظـاهر بـه من الطيبة وهدوء النفس .. إنها مؤامرة .

تراجع الدُب فى دهشة ، قائلاً :

ـ مؤامرة ؟!

أجابه بنفس الحدة :

ـ نعم ، مؤامرة .. مؤامرة حقيرة اشتركا فيها معًا ؛ للسيطرة على قيادة المقاومة .

بدتِ دهشة مستنكرة على وجه الـدُب ، ولكن الذئب تـابع فى عصبية :

ـ إنها لعبة شهيرة فى عالم الأمن .. لعبـة اسمها (الطيب والشرس) ، يلعبها رجلا أمن دومًا ، أحدهما يبدو شديد الشراسـة ، بحيث يثير فزع المُستجوَب ، ثم يأتى الثانى فى صـورة الشـخص المتعاطف المشفق المتفهم ، بحيث توليه الضحية ثقتها ، وتتجـه إليه بكل لهفتها ، وتجد فيـه الأمان والخلاص ، فتفضى إليه بكـل ما لديها .. لعبة قديمة ، يلعبانها معنا باقتدار ..

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ وباحتـراف .

أراد الدُب أن يعترض ، وأن يخبر الذئب أنه من المسـتحيل أن يكون الأمر كذلك ؛ لأن (محمود) و(طارق) الصغيرين لم يختبرا

هذا النوع من الصراعات قط ، ولكن الذئب بـدا له شديد العصبيـة ، حتى إنه لم يشأ أن يتورَّط فى جدال ما معـه ، فى تلك اللحظـة ، فآثر الصمت تمامًا ، خاصـة وأن الذئب قد توقَّف لحظات مفكرًا ، ووجهه ما زال محتقنًا ، قبل أن يستدير إليه ، قائلاً :

ـ لا ينبغى أن يُقاوم هذا الانتخاب أبدًا .

قال الدُّب فى خفوت :

ـ ولكنك زعيم الزعمـاء ، وكل رجـال المقـاومة يعرفـونك ، ويثقون بك ، و ...

قاطعه الذئب فى حـدة :

ـ وهما من نسل الأسطورة .

وصمت لحظات ، عضَّ فيها شفته السفلى فـى غيـظ ، قبـل أن يكمل فى حدة :

ـ من نسل (نور الدين) .

عاد الدُّب يكرِّر فى توتر :

ـ ولكنك ...

قاطعه الذئب مرة أخرى فى حدة أكثر :

ـ ليس الآن .

ثم عاد يتحرَّك ، وهو يلوِّح بيده فى عصبية :

ـ هل تظنهما قد اختارا هذا التوقيت عشوائيًا ؟!.. هل تظنهما طالبا بإجراء الانتخاب عقب هزيمتنا ، عند أسوار مقر المخابرات اعتباطًا ؟!.. كلا يا صديقى .. كلا ..

واستدار إليـه فـى عصبيـة شديدة ، ولـوَّح بيده فـى وجهـه ، مستطردًا :

ـ لقد منينا بهزيمة ساحقة عند الأسوار ، راح ضحيتها مئات مـن رجال المقاومة ، وفشلت خطتى هناك فشلاً ذريعًا ، ثـم كـان أمـر الثعلب بالانسحاب ؛ لينقذ حيـاة مـن تبقى ، فمن تظنهم يختـارون للزعامة ، بعد موقف كهذا ، خاصة ولو كان المرشَّح الآخر هو حفيد الأسطورة ؟!

امتقع وجه الدُّب ، وهو يغمغم مذعورًا :

ـ رباه !.. أهذا ممكن ؟!..

أجابه الذئب فى حـدة :

ـ بالطبـــع .

وصمت لحظة ، قبل أن يقول ، فى لهجة ذات مغزى خاص :

ـ إلا إذا ..

لم يكمل عبارته ، ولكن الدُب رفع عينيه إليه فى ذعر ..

والتفت هو إليه ..

والتقت عيونهما ..

وشعر الدُب بذعر أكبر ..

فما تحمله عينا الذئب كان خطيرًا ..

ومخيفًا ..

ومفزعًا ..

للغـاية ..

* * *

« مـدهش !!.. »

غمغم الدكتور (راشد) بالعبارة فى حيرة ، وهو يحدِّق فـى جسد (محمود) ، المسجى داخل صندوق زجاجى كبير ، يتصل بعشرات الأسلاك ، وتتراص حـوله أقراص صغيرة ، ذات ألـوان مختلفـة ، تتصل كلها بكمبيوتر الأمن الرئيسى ..

لم يكن يبدو كشخص فاقد الوعى ، وإنما كان أشبه بتمثال ..

تمثـال مـن مـادة أشبه مـا يكون بالبشـر ، حتـى إن الدكتـور (راشد) راح يتأمَّله لحظات مشفقًا ، قبل أن يغمغم :

ـ الأوامر أن نحيطه بمجال من الطاقة ، يسلبه قدرته على الحركـة والتفكير ، لحين صدور أوامر أخرى .

بدت الدهشة على وجه العلماء ، وغمغم أحدهم فى توتر :

ـ ولكننا كنا نسعى منذ البداية لإنعاشه ، و ...

قاطعه الدكتور (راشد) ، فى توتر شديد :

ـ سننفذ الأوامر دون مناقشة .

رفع أحدهم سبَّابته ، قائلاً :

ـ السؤال هو : هل سيمكننا تنفيذها ؟!

التفت إليه الدكتور (راشد) فى قلق شديد ، متسائلاً :

ـ ماذا تعنى يا رجل ؟!

أجابه فى اهتمام قلق :

ـ أعنى أن كل ما تعرفه ، عن أقفاص الطاقة وقدرتها ، يرتبـط بتأثيرها على البشر فحسب ، ولكننا لا ندرى شيئًا عمـا يمكن أن تفعله بذلك (الزوريوم) الحيوى !

امتقع وجه الدكتور (راشد) ، وهو يحدِّق فيه بذعر حقيقى ..

نعم ، لا أحد يدرى ماذا يمكن أن يحدث ، لو تم إحاطـة نسخـة (الزوريوم) الحيوى بغلاف من الطاقة ..

إنهم حتـى لا يعرفون كافـة سمات ذلـك (الزوريوم) ، الـذى ما زال يفاجئهم كل يوم بجديد ..

إنه لم ينبس بعد ما باغته به (محمود) من قدرات مدهشـة ، لم يكن يملك عشرة فى المائة منها ، وربما أقل ، عندما كان بشريًّا ..

ذلك (الزوريوم) الحيوى منحه تلك الطاقة إذن ..

بل وربما كان يسيطر حتى على الجزء البشرى منه ..

ربمـا ..

من يدرى ؟!..

ومـن يـدرى أيضًـا مـاذا يمكـن أن يحـدث ، لـو أحـاطوا ذلـك (الزوريوم) الحيوى بالطاقة ؟!..

مـاذا ؟!..

« هذا احتمال مخيف .. »

قالها عالم آخر فى قلق شديد ، فتطلّع إليـه الدكتـور (راشـد) بنفس الذعر ، فى حين قال ثالث :

ـ لابد من دراسة الأمر ، قبل أن نستخدم قفص الطاقة .

تساءل رابع ، فى قلق شديد :

ـ ولكن ماذا لو استعاد هو وعيه ، قبل أن نحيطه به ؟!

قال الدكتور (راشد) فى عصبية :

ـ هذا مستحيل !..

ثم انخفض صوته ، وهو يحدّق فى (محمـود) فى عصبية ، مردفًا :

ـ إنه ليس بشريًّا .

صمت العلماء لحظة ، ثم تساءل أحدهم :

ـ ماذا تقترح إذن ؟!

بدا الدكتور (راشد) حائرًا بشدة ، وهو يقول :

ـ لست أدرى .

قال عالم آخر فى توتر :

ـ ولكنك تعلم عقوبة مخالفة أوامر القائد الأعلى .

بدا الدكتور (راشد) أكثر حيرة وتوترًا ، وهو يقول :

ـ ولـكن ..

لم يستطع إكمال عبارته ، ولكن أحد العلماء قال فى عصبية :

ـ بالنسبة لى ، سأنفذ الأوامر ، أيًّا كانت النتائج .

قال آخر فى سرعة ، وكأنما كان ينتظر مبادرة زميله :

ـ وأنـا أيضًا .

نقل الدكتور (راشد) بصره ، بينهم وبين جسد (محمود) ، المسجى داخل القفص الزجاجى ، مغمغمًا :

ـ لست أدرى ما ...

لم يكمل عبارته ، وهو يتطلّع إلى وجوههم ، فقال أحدهم فى عزم :

ـ سأعد قفص الطاقة .

وبدون تبـادل كلمـة واحـدة ، بدءوا عملهم ؛ لتنفيذ أوامر القائد الأعلى ..

ولم تمض دقائق ثلاث ، حتى كانت الأجهـزة معدّة للعمل ، وأحد العلماء يسأل :

ـ أوامرك يا دكتور (راشد) .

صمت الدكتور (راشد) لحظات ، ثم قال فى حزم :

ـ على بركة اللّه .

ضغط أحد العلماء مفتاح التشغيل ..

وانطلقت الطاقة الرهيبة تحيط بذلك القفص الزجاجى ..

وبقى السؤال ..

ترى كيف سيتفاعل معها ذلك الزوريوم الحيوى ؟!..

كيف ؟!..

* * *

على نحو مخيف ، ارتفعت حرارة تلك القاعة الصغيرة فى شـدة ، مع تألُّق جسد القائد الأعلى ..

ارتفعت فى سرعة ، حتى شعر الجميع وكأن أجسادهم ستحترق ..

فى غضب ، دفع (أكرم) زوجته خلفـه ، وكأنمـا يحـاول حمايتها من الحرارة الشديدة ، وهو يهتف فى القائد الأعلى :

ـ أيها الوغد .

ومع هتافه ، اندفع نحوه ..

وانقض عليه ..

ولكن المدهش أن القائد الأعلى لم يحرّك ساكنًا ..

لقد بقى فى مكانه قويًّا صلبًا متماسكًا ، يتطلّع إلى (أكرم) فى لا مبالاة ، وهذا الأخير ينقض عليه بمنتهى العنف ..

وشهقت (مشيرة) ، مع ذعرها على زوجها ، و ...

وتفجّرت الدهشة فى وجوه الجميع دفعة واحدة ..

ليس فى وجوههم فحسب ، بل وفى كياناتهم كلها ..

فأمام أعينهم جميعًا ، ارتطم (أكرم) بجسد القائد الأعلى بمنتهى العنف ، ثم ارتدّ عنه فى عنف أكبر ، وكأنه كرة من المطاط ، اصطدمت بجدار من الصلب ، حتى إن جسده قطع ما يقرب من ثلاثة أمتار ، قبل أن يسقط عند قدمى (مشيرة) ، التى هتفت وهى تهرع إليه :

- (أكرم) .. حبيبى .

شعر الجميع بتوتر شديد ، إزاء ما حدث ، ولكن (طارق) سحب ذلك المسدس ، الذى استولى عليه من رجال الأمن ، الذين اشتبك معهم من قبل ، وبلا ذرة واحدة من التردُّد ، أطلقه ..

نحو القائد الأعلى تمامًا ..

وفى عنف ، ارتطمت الموجات الترددية القوية بجسد القائد الأعلى ..

وكما حدث مع (أكرم) ، ارتدّت عنه بكل العنف ..

وأصابت الجميع ..

وكلهم شعروا وكأن موجة هائلة قد ضربت أجسادهم ، واقتلعتها من مكانها ، وألقت بها إلى الخلف ؛ ليرتطم بعضهم بالمركبتين ، ويرتطم البعض الآخر بالجدار ، ثم يسقطون جميعًا أرضًا ..

وبكل آلامها وذعرها ، هتفت (مشيرة) :

- كنت على حق يا (نشوى) .. إنه ليس بشريًّا .

وقال (أكرم) فى عصبية :

- أراهن أنه كائن فضائى آخر .

ولم يعلِّق (نور) بحرف واحد ، فى حين قلب القائد الأعلى شفتيه فى امتعاض ، وهو يقول :

- يا للسخافة !

ثم أشار إليهم بسبَّابته فى غضب ، مستطردًا :

- مثل كل البلهاء .. كلما واجهتم ما لا تفهمونه ، شخصتم بأبصاركم إلى الفضاء الخارجى ، ونسيتم أنكم تعيشون فى عالم هائل ، لم تسبروا كل أغواره بعد .

كانت الحرارة تزداد ارتفاعًا ، على نحو مخيف ، وجسد القائد الأعلى يتألَّق على نحو رهيب ، ولكن هذا لم يمنع (نور) من ملاحظة كل ما حوله ..

المركبات كانت صامدة فى موضعها ، وتلك الحرارة لا تنعكس حتى على جدرانها ..

والجميع من حوله يتألمون ..

وبشدة ..

زوجته ..

وابنته ..

وحفيده ..

و(أكـرم) ..

و(مشيرة) ..

وكان وجه (أكرم) محتقنًا بشدة ..

ولكنه جاف تمامًا ..

لم تكن عليه قطرة واحدة من العرق ..

ربما بفعل الحرارة الرهيبة ، و ...

« وهــم .. »

هتف (نور) بالكلمة فجأة ، فبدت للجميع بلا أى معنى ، مع آلامهم ، وشعور بالاحتراق فى أجسادهم ، ولكنهم فوجئوا به ينهض فجـأة ، ويقف فى ثبات ، فى مواجهة القائد الأعلى ، قائلاً بكل الصرامة :

ـ كل هذا مجرَّد وهم .

لم يعلِّق القـائد الأعلـى ، بحـرف واحـد ، ولكـن (نـور) تـابع بمنتهى الصرامة ، وهو يقف متحديًا ، فى ثبات مدهش :

ـ ما نشعر به ليس حرارة حقيقية .. إنه مجرَّد وهم .. قدرة مدهشة فائقة على إيهام أجسادنا بشعور ما .. عقولنا تمت السيطرة عليها

انفعاليًّا ، وأقنعت أجسادنا بأنها تحترق ، ولكن هذا غير صحيح .

مرة أخرى ، لم يعلِّق القـائد الأعلى بحرف واحد ، ولكن (نـور) استدار إلى رفاقه ، مستطردًا :

ـ كلنا نرى جسده يتألَّق ، ونشعر بالحرارة الرهيبة ، ولكن جدران القائمة لا تعكـس تلك الحـرارة ، كمـا ينبغـى أن تفعل ، وجـدران المركبات ، على الرغم من التماعها ، لا تعكس ذلك التألق فى جسده .

حدَّق فيه الجميع فى حيرة شديدة التوتر ، ونقلوا أبصارهم منـه إلى القائد الأعلى ، الذى ما زال جسده يتألَّق فى شدة ، ولكن (نور) تابع فى صرامة وحزم :

ـ انظروا إلىَّ .. إننى لا أعانى ما تعانونه .. فقط أدركت ما يحدث ، واقتنعت به ، فزالت تلك السيطرة عن عقلى ، وتحرر معها جسدى ، فلم أعد أشعر بشىء .

ثم عاد يلتفت إلى القائد الأعلى ، ويشير إليه بسبَّابته ، مضيفـًا فى صرامة وحزم أكثر شدة :

ـ لم أعد حتى أرى جسده لامعًا .

كان ما يقوله يتعارض تمامًا مع ما يرونه ويشعرون به ..

ولكنها كانت مسألة ثقة ..

ثقتهم فيه ..

وفى استنتاجه ..

وفيما يقوله ..

ثقة كان ينبغى أن تتجاوز حدود بصرهم ..

وشعورهم ..

وآلامهم ..

ولكن (نشوى) كانت أوَّل من منحه ثقته ..

كانت تثق فى والدها دومًا ثقة عمياء ..

ثقة جعلتها تحدِّق مـرة أخـرى فى القـائد الأعلى ، ثم تكتسى ملامحها بدهشة شديدة ، وهى تقول :

ـ رباه !.. هذا صحيح .

قالتها ، ونهضت تقف إلى جـوار (نـور) ، وتتعلَّق بذراعه ، وتبعها (طارق) ، وهو يحدِّق فى القائد الأعلى ، قائلاً :

ـ مستحيل !

وفى لحظة واحدة ، انجلت الحقيقة أمام عيون الجميع ..

فجأة وجدوا أنفسهم يحدقون فى القـائد الأعلـى ، الـذى يقف معقود الذراعين ..

ولكن من دون جسد متألق ..

أو حرارة شديدة تحيط بهم ..

أو حتى ذلك الوهج المطل من عينيه ..

فقط كان ينظر إليهم بتلك النظرة العجيبة ..

النظرة التى واجهها (رمزى) ، قائلاً :

ـ رباه !.. عيناه .

غمغم (نور) فى ارتياح ، وقد أدرك أنهم قد استوعبوا الأمر :

ـ نعم ، عيناه .

وهنا .. هنا فقط حلَّ القـائد الأعلى رباط ساعديه ، وقال فى لهجة قاسية :

ـ لعبة ذكية يا (نور) .. كان ينبغى أن ندرك أن تـاريخك لم يكن مجرَّد أسطورة .

سأله (نور) فى صرامة :

ـ من أنتم ؟!.. ومن قصدت بصفة الجميع فى حديثك ؟!

تجاهل القائد الأعلى سؤاليه ، وهو يدير عينيه فى وجوههم جميعًا ، قائلاً :

ـ تتصوَّرون إذن أنكم قد ربحتم اللعبـة ؛ لمجرَّد خروجكم من نطاق سيطرتى .

سألته (سلوى) ، ولم يفارقها توترها بعد :

ـ من أين امتلكت هذه القدرة ؟!

التفت إليها ، قائلاً بنفس اللهجة القاسية :

ـ أأنتم صم أم ماذا ؟!.. سبق وأن أخبرتكم أننى النسخة الجينية المعدَّلة من ذلك الأحمق ، الذى كنتم تعرفونه فى زمنكم .

قالت (نشوى) فى انفعال :

ـ وهل تتوقَّع أن نصدقك ؟!

أطلق ضحكة ساخرة وحشية عجيبة ..

ضحكة لها نفس ذلك الرنين العجيب ..

الرنين غير البشرى ..

أطلقها على نحو ارتجفت له أجساد معظمهم ، قبل أن يقول :

ـ ما زلتم عاجزين بالفعل عن استيعاب هذا العصر .

ثم تحرَّك فى بطء ، مستطردًا :

ـ الهندسة الجينية كانت لعبة تسعينات القرن العشرين ، وأعجوبة العقد الأوَّل من القرن الحادى والعشرين ، ولكن أحدًا لم يدرك قوتها الحقيقية ، إلا مع نهاية العقد الثالث من القرن .

تبادل أفراد الفريق نظرة صامتة قلقة ، باستثناء (نور) ، الذى عقد ساعديه أمام صدره ، وواصل النظر إلى القائد الأعلى فى تحدٍّ ، وذلك الأخير يواصل ، وكأنما يستمتع برواية ما لديه :

ـ فجأة كشف العلماء أنهم لا يستطيعون غرس ما يريدون من صفات فى أى كائن فحسب ، بل وتقويتها بلا حدود أيضًا .

والتمعت عيناه ، وهو يضيف :

ـ ولم يترددوا .

عقد (نور) حاجبيه ، وهو يتطلَّع إليه فى شك ، فى حين استطرد هو ، مع التماعة عينيه :

ـ فى البداية حاولت السلطات منع العبث بتلك التكنولوجيا الهائلة ، التى امتزجت بتكنولوجيا النمو الفائق ، لتجعل عملية الاستنساخ التلقائية أشبه بآلات النسخ القديمة .. تحصل على عينة دقيقة من أى كائن ، تحوى بصمته الجينية ، وتستخدم النواقل التليسكوبية الإليكترونية ؛ لتطوير وتحوير الضفيرة الجينية ، ثم تضع النتائج فى قلب بويضة بشرية ، وتستخدم تكنولوجيا النمو الفائق ، لتنتج كائنًا متطوِّرًا ، خلال ثلاثة أيام فحسب .

وتألَّقت عيناه أكثر وهو يتوقَّف ، ويلتفت مرة أخرى إليهم ، قائلاً :

ـ من الصعب عليكم استيعاب هذا بعلوم زمنكم .. أليس كذلك ؟!

شد (نور) قامته ، وهو يقول :

ـ ربما يمكننا استيعاب ما هو أعقد من هذا .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى صرامة :

ـ لو أنه يتفق مع ما يحيط به .

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى غضب ، وهو يرمقه بنظرة ناريـة ، ولكن (نور) تابع فى صرامة أكثر :

ـ أو يتفـق حتى مع آلات تلك المركبـات ، التى لا تشبه حتـى تكنولوجيا إدارة المخابرات التكنورقمية .

وضاقت عيناه من شدة صرامته ، وهو يضيف :

ـ وكلانا يعلم أن قاعدة الأمن الأولى هى أن يسبق بتكنولوجيته كل ما عداه ، بخطوتين على الأقل .

ابتسم القائد الأعلى فى سخرية ، قائلاً :

ـ كانت هذه هى القواعد فى زمنكم .

ثم مال نحوهم ، مضيفًا فى شراسة :

ـ أما فى هذا الزمن ، فتكنولوجيا القيادة وحدها تفوق ما عداهـا ، بخطوتين على الأقل .

تمتم (أكرم) ، فى دهشة مستنكرة :

ـ تكنولوجيا القيادة .

شدَّ القائد الأعلى قامته ، قائلاً فى صرامة :

ـ القادة لهم الحق الأوَّل فى النجاة ، إذا ما صار الخطر حتميًّا .

نطقها فى آلية عجيبة ، كما لو أنه يردِّد نصًّا محفوظًا ، فتطلَّع الجميع إليه فى دهشة حائرة حذرة ، فى حين تساءل (رمزى) فى توتر :

ـ ولكنك قائد واحد هنا ، وهناك ثلاث مركبات نجاة ؟

تمتم (طارق) ، وهو يعقد حاجبيه فى توتر :

ـ هذا صحيح .. لماذا ثلاثة ؟

وقال (أكرم) متحفزًا :

ـ سؤال منطقى .

وعاد (نور) يعقد ساعديه ، قائلاً :

ـ ويحتاج إلى جواب منطقى .

صمت القـائد الأعلى تمامًا ، وهو يدير عينيه فى وجوههم ، قبل أن يبتسم ابتسامة مخيفة ، قائلاً :

ـ بارعون بحـق .

أشار (نور) إلى رفاقه ، قائلاً فى حزم :

ـ ولم يعد الوهم البصرى الحسى قادرًا على خداعهم .

مع إشارة (نور) ، تحرك الجميع ..

فيما عدا (طارق) و(مشيرة) ..

تحرك أعضاء الفريق الأساسى ، يلتفون فى نصف دائرة ، وكأنهم ينفذون خطة متفق عليها ..

خطة حصار ..

وفى لحظة واحدة ، فهم (طارق) ، وفهمت (مشيرة) ما يفعلونه ، فتراجعت الثانية خطوتين ، فى حين تقدَّم الأوَّل عدة خطوات ؛ لينضم إلى الفريق فى حركته لحصار القائد الأعلى ..

أما القائد الأعلى نفسه ، فقد وقف هادئًا ، وكأنما لا يخشاهم مجتمعين ، وبدا شديد الهدوء والصرامة ، وهو يقول لـ (طارق) :

ـ إذن فقد حسمت اختيارك .

أجابه (طارق) فى صرامة مماثلة :

ـ لقد حسمته منذ اللحظة الأولى .

ثم أضاف ، فى لهجة ملؤها الحسم :

ـ إنهم عائلتى .

قال القائد الأعلى فى سخرية مستنكرة :

ـ عائلتك ؟!

ثم قسا صوته واشتعل رنينه ، وهو يضيف :

ـ فلتشاركهم مصيرهم إذن .

قالها وهو يحل ساعديه ، ويرفع راحتيه إلى سقف القاعة الصغيرة ، ثم يفرد راحتيه إلى أعلى ، مكملاً فى قسوة :

ـ وهو ليس وهمًا هذه المرة .

توقف الجميع دفعة واحدة بحركة غريزية ، ورفعوا رءوسهم إلى السقف ، وقلوبهم تخفق فى عنف ، مع سؤال اشتعل فى أعماقهم ..

أى خطر ينتظرهم هذه المرة ؟!

أى خطر ؟!

وفى بطء ، راح سقف القاعة يتموَّج ..

ويتموَّج ..

ثم بدا وكأن جزءًا منه قد تلاشى تمامًا ؛ ليظهر من خلفه ذلك المشهد الرهيب ..

مشهد أشبه بحمم بركان ، تسيل من أعلى إلى أسفل ..

وتساقطت قطرات من تلك الحمم ، على بعد خطوات قليلة منهم ، واقترن سقوطها بصوت أشبه بفحيح أفعى عملاقة ..

وتصاعد دخان قوى ، من موضع السقوط ..

« يا إلهى !.. إنها تذيب أرضية القاعة » ..

هتفت (مشيرة) بالعبارة فى رعب هائل ، فتألَّقت عينا القـائد الأعلى وهو يقول :

ـ تمامًا كما ستذيب أجسادكم .

وانطلقت من حلقه تلك الصرخة المخيفة ..

صرخة أشبه برنين ألف جرس ، من الزجاج البلّورى ..

وخفقت قلوبهم فى عنف أكبر ..

ثم دوت فرقعة قوية ..

فرقعة رهيبة ، تردَّد صداها فى كل ركن ، من مقر القيادة ..

فى كل ركن .. بلا استثناء ..

* * *

8 ـ فـــرار..

كالذئب الجريح ، راح زعيم المقاومة يتحرك فى عصبية ، داخـل مقر القيادة ، وهو يعبث فى الأجهزة الإلكترونية المتناثرة فيـه هنـا وهناك ، دون أى هدف واضح ، قبل أن يتوقَّف دفعة واحدة ، هاتفًا :

ـ لماذا تأخر الدُّب ؟!

كان ينتظر عودة الدُّب بفارغ الصبر ؛ ربما لأنـه يعلـم أن مصيره ومستقبله يعتمدان على عودته ..

وعلى ما سيحمله له من نتائج ..

ففى موقف كهذا ، كـان يدرك ، بطبيعتـه كذئب قديم ، أنه لا مفر من المواجهة المباشرة ..

إنـه مهدَّد بفقدان مكانته إلى الأبد ..

فقدان قيادته ..

وزعـامته ..

وسـطوته ..

وسلطاته ..

عاود حركته داخل المقر ، وقد انعقـد حاجبـاه فـى شـدة ، وقـد حدثت المواجهة فعليًا ..

المواجهة بينه وبين نفسه ..

لقد وجد نفسه ، دون أن يدرى ، يعترف بالحقيقة ..

حقيقة أنه لا يفعل كل ما يفعله من أجل مصر ..

ولا من أجل الحق والعدالة ..

أو من أجل الحرية ..

ولا حتى من أجل رجال المقاومة ..

إنه يفعل كل هذا من أجل مقعد السلطة ..

سطوة الزعامة ..

نفوذ القيادة ..

من أجل نفسه ..

هذا هو الواقع ، الذى لا بد وأن يعترف به ..

وفى أعماقه ، ما زال يصرّ على أنه أفضل من يصلح للقيادة ..

إنه يقاتل منذ بدأ هذا الأمر ..

منذ أن ...

توقّف فجأة ، وانعقد حاجباه فى شدة وحيرة ، وهو يشـعر بارتباك حقيقى ، لم يشعر بمثله من قبل قط ..

كيف لم ينتبه إلى هذا أبدًا ؟!

كيف لم ينتبه إلى أنه لا يذكر كيف بدأ كل هذا ؟!..

حاول أن يعتصر ذهنه ، ويعود بذاكرته إلى الوراء ؛ ليذكر متى تولى زعامة قيادات المقاومة ..

ولكنه لم يفلح أبدًا ..

كان يبلغ بذاكرته دومًا لحظة اختيار القادة الآخرين له ، وفوزه بزعامة الزعماء ..

أما لو حـاول أن يغوص إلى ما هو أبعد ، فكل شىء يتحولّ إلـى صفحة بيضاء ساطعة ..

صفحة لا تحوى أى شىء ..

أى شىء على الإطلاق ..

وهذا أمر عجيب ..

عجيب إلى أقصى حد ..

كل مخلوق ، مهمـا ضعفت ذاكرتـه ، لا بـد أن يتبقـى لديـه شىء ما ..

أى شىء ..

ولكن ذاكرته هو لا تحوى أى شىء ، عند نقطة بعينها ..

لا يذكر حتى طفولته ..

أو نشـأته ..

أو حتى بداية ذلك الموقف الرهيب ..

فقط لحظة اختياره ..

ثم لا شىء ..

وبمنتهى الدهشة والحيرة والارتباك ، وقف فى منتصف مقر القيادة يعتصر ذهنه ..

ويعتصره ..

ويعتصره ..

ولكن لا شىء على الإطلاق ..

لا شىء إلى حد مثير للحيرة ..

والشـــك ..

والقلـــق ..

بلا حدود ..

فى نفس اللحظة ، التى بلغت فيها انفعالاته ذروتها ، كـان الدُّب يتسلل بين الأطلال فى حذر ، محاولاً الوصول إلى مكان لم يذهب إليه من قبل ..

إلى منزل (محمود) الصغير ..

كان الذئب قد أسند إليه مهمة محدودة ، عليه أن يؤديها بنجـاح ، كما فعل أكثر من مرة قديمًا ..

مهمة إنقاذ مستقبل (مصر) ..

مهمة الحفاظ على وحدة الصف ..

ولمّ شمل المقاومة ..

هكذا أخبره الذئب ..

ولهذا اختاره ..

توقَّف الدُّب خلف أطلال قديمـة ، تطلّ علـى منـزل (محمـود) الصغير ، واختفى هناك فى حذر ، وهو يختلس النظر إلى المـنزل البسيط فى دهشة ..

كان منزلاً عاديًا ، أشبه بأى منزل فى المنطقة ..

بلا تجهيزات خاصة ..

أو حراسـة ..

أو وسائل تأمين ..

منزل لا يشبه قط منازل الزعماء ..

ولكن من يدريه ؟!

قد تكون هناك وسائل خفية لا يراها ..

منازل الزعماء يجب أن تكون حتمًا محاطة بنظم أمن خاصة ..

أو حراسة مشدَّدة ..

لأنهم زعماء ..

هذا ما اعتاده ..

وألفه ..

و ...

فجأة ، انتبه إلى أمر لم يكن فى حسبانه قط ، عندما بدأ مهمته ..

انتبه إلى أنه هناك آخرون ، يتحركون فى حذر بين الأطلال ..

ويحاصرون أيضًا نفس المنزل ..

منزل (محمود) الصغير ..

اختفى الدُب فى مكانه فى حذر شديد ؛ محـاولاً أن يتوارى عن الأنظار ؛ ليفهم ماذا حدث ؟!..

ومن هؤلاء ؟!..

من ؟!..

كانوا يتحركون فى حذر شديد التنظيم ، كما لو أنهم ...

توقَّف التساؤل فى ذهنه بغتـة ، واتسعت عيناه فى ارتياع ، عندما بدا له بعضهم واضحًا ، تحت لمحة من الضوء ..

إنهم الأعداء ..

رجال أمن المخابرات التكنورقمية ..

إنهم هنـا ..

يحاصرون منزل الثعلب ..

وقائدهم هناك ، يتخذ موقعه ، و ...

« هجـوم .. »

هتف بها قائد فرقة الأمن فى صرامة آمرة مباغتة ..

وانقض رجال الأمن كلهم دفعة واحدة ، على ذلك المنزل ..

منزل (محمود) الصغير ..

الثعلب ..

أحد زعماء المقاومة ..

ومع دوى تلك الموجات الترددُية العنيفة ، الـذى مـلأ المكـان ، وعلى الرغم من ضخامته ، انتفض جسد الدُب فى قـوة ..

لقد قرَّرت المخابرات التكنورقمية أن تواصل الحرب بلا هوادة ..

حـرب الغـد ..

الحاسمة ..

* * *

عندما دوت تلك الفرقعة العنيفة ، فى قاعة مركبات الطوارئ ، أطلقت (مشيرة) صرخة رعب قوية ، وتصوَّرت أن تلك الحمم ستنهال إثرها على رءوسهم جميعًا ، وتذيبهم كما أذابت الأرضية ..

أما (سلوى) و(نشوى) ، فقد أغلقتا عيونهما فى ذعر ، والتصقت كل منهما بزوجها ، تنشد عنده حماية مبهمة ، فى حين قفزت يد (أكرم) فى حركة غريزية نحو مسدسه ، فلما لم يجده هتف فى حدة :

- يا للسـخافة !

(نور) و(طارق) وحدهما ظلا مفتوحى الأعين ، والأخير يغمغم بكلمات عصبية ، لم يتبينها الأوَّل جيدًا ..

ولكن عيونهما لم تر شيئًا ..

فمع تلك الفرقعة العنيفة ، انقطعت الأضواء كلها دفعة واحدة ..

وساد صمت رهيب ، استغرق ثانية واحدة ، قبل أن يتـألَّق جسد القائد الأعلى ، وهو يقول فى توتر :

- هذا لا يمكن أن يحدث .

تألق جسده المحدود أضاء المكان بضوء خافت ، جعل (نور) ينتبه إلى أن تلك الفجوة فى السقف قد انتهت تمامًا ، ولم يعد لها وجود ، لا هى ولا تلك الحمم العجيبة فوقها ..

(طارق) أيضًا أدرك هذا ، فهتف :

- رباه !.. لقد نجونا مرة أخرى .

فتح الجميع عيونهم إثر عبارته ، وانتبهوا إلى ما حدث ، فهتفت (نشوى) :

- ولكن كيف ؟!

حمل صوت (رمزى) كل الانفعال ، وهو يجيب فى خفوت :

- (محمود) .

فى البداية ، تصوَّر الجميع أنه يستنتج ما حدث فحسب ، ولكن قبل حتى أن يستقر ذلك الاحتمال فى وجدانهم ، ظهر (محمود) ..

أتى من خلف القائد الأعلى ، الذى قال دون أن يلتفت إليه ، ونبراته تحمل غضبًا هائلاً :

- إذن فهو أنت ..

حاول (أكرم) أن يندفع نحوهما ، ولكن (نور) أشار إليه بالثبات ، ثم أشـار إلـى الجميع بـالعودة إلـى مركبتـى الطـوارئ ، فهمسـت (نشوى) فى توتر :

ـ ولكن تلك الكرات البلَورية ...

قاطعها (نور) فى حزم :

تلك المركبات منيعة حتمًا ، ما دامت تخص القادة ، وستحميكم مما يمكن أن يحدث على الأقل .

فى نفس اللحظة التى نطقها فيهـا ، كان القـائد الأعلى يستدير لمواجهة (محمود) ، وهذا الأخير يقول :

ـ شعرت بطاقتى .. أليس كذلك ؟!

قال القائد الأعلى فى صرامة :

ـ وماذا سواها يمكنه أن يفعل هذا بنظام طاقة ، مصمَّم بحيث لا يتوقَّف أبدًا .

قال (محمود) ، وهو يواجهه فى ثبات :

ـ أغبياؤك شحنوا جسدى بالطاقة ، فسحب كل طاقة المكـان ، على الرغم من أنوفهم ..

ثم شد قامته ، فبدا أكثر قوة مما اعتاده الجميع ، وهو يضيف :

ـ ومنحونى قوة هائلة ، لا قبل حتى لك بها .

اتخذ القائد الأعلى وقفة متحفزة ، وهو يقول متحديًا :

ـ هل تظن هذا ؟!

رمقه (محمود) بنظرة صارمة ، ثم التفت إلى (نـور) ، قـائلاً ، فى شىء من الحدة :

ـ ماذا تنتظرون ؟!.. اذهبوا ؟!

هتفت (سلوى) فى لوعة :

ـ وماذا عنك ؟!

أجاب فى حزم :

ـ سأمنحكم فرصة الفرار من هذا الجحيم .

ثم حمل صوته بعض التأثر ، وهو يضيف :

ـ أو لم أفعلها من قبل(*) ؟!

وتحولَّ تأثُّره إلى مرارة واضحة ، وهو يكمل :

ـ عندما كنت حيًا .

هتف (نور) فى حزم :

ـ وما زلت يا صديقى .

(*) راجع قصة (الزمن يساوى صفر) .. المغارة رقم (100) .

كان من الواضح أن (محمود) يقـاوم انفعالاً بشريًا جارفًا فـى أعماقه ، وهو يقول :

ـ اذهبوا إذن .. وبسرعة .

قال القائد الأعلى فى حدة غاضبة :

ـ هذه المركبات للقادة فقط ، وأجهزتها لن تعمل من أجلهم .

قال (محمود) فى صرامة ، وهو يمد يده اليمنى نحو المركبتين :

ـ ستعمل .

مع قوله ، انطلقت من يده موجة عجيبة من الطاقة ..

موجة شعر بها الجميع ..

وأشعلت محركات المركبتين دفعة واحدة ، والقائد الأعلى يقول فى غضب هادر :

ـ أو تنفجر .

اندفع الجميع إلى المركبتين ، على الرغم من قولـه ، وهتفت (نشوى) ، وهى تتخذ مقعدها ، وتحدّق فى تلك الكرة البلّورية ، التـى اتخذت الرمـوز الهولوجرامية العجيبـة داخلها شكلاً دائريًا ، يتحـرك على نحو منتظم :

ـ إنها تعمل .

هتف بها (نور) فى صرامة :

ـ انطلقى إذن .

وضعت يده على الكرة البلورية ، فتألّقت المركبة كلهـا ، وقـال القائد الأعلى فى صرامة ، والغضب يبلغ ذروته ، فى ملامحه وصوته :

ـ هذه المركبات لن تحملهم بعيدًا ، وأنت تعلم هذا .

قال (محمود) ، وجسده يتألّق على نحو مدهش :

ـ سنرى .

وتألّق جسد القائد الأعلى بدوره ، مع تألق المركبتين ، والسؤال ما زال يتفجّر فى قلب القاعة الصغيرة ..

هل ستعمل المركبات ؟!..

أم تنفجر ؟!..

هذا هو السؤال .

* * *

نـهاية الجـزء الثالث

حرب الغد

- مازالت الأمور غامضة فى المستقبل ، الذى انتقل إليه (نور) ورفاقه ..
- مازال التساؤل يسيطر على الجميع ، حول من يستحق أن يحارب الفريق إلى جواره .. القيادة ، أم المقاومة ؟!
- حتى (محمود) أو نسخته الجديدة ، مازالت تحيا فى حيرة ، ومازالت تتساءل عن هويتها ..
- وفى كل الأحوال يبقى السؤال .. من يربح الحرب .. (حرب الغد) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل مع (نور) وفريقه .. من أجل المستقبل .



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية



د. نبيل فاروق

ملف المستقبل
سلسلة روايات بوليسية للشباب من الخيال العلمى

158

الثمن فى مصر 400 مـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



مشروع القرن الثقافى
روايات مصرية للجيب
فى كل رواية متعة دائمة

ملف المستقبل
سرى جدًا !!

159

د. نبيل فاروق

نيران
المستقبل



ملف المستقبل ..

فى مكان ما من أرض (مصر) ، وفى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسرِّية مطلقة ؛ من أجل حماية التقدُّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدّم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل .

د. نبيل فاروق

1 - انفجار ..

ارتفع صوت خطوات سريعة ، لرجل يعدو بكل قوته ، عبر أحد الممرات الرئيسية ، لذلك الحصن المستقبلى ، الذى غرق أو كاد فى ظلام عجيب ، يكاد يتحوَّل إلى ظلام دامس ، لولا مصابيح خضراء صغيرة ذاتية الإضاءة ، تنتشر على سقفه وبطول جدرانه ..

وعلى الرغم من أنه أحد أهم الأشخاص فى المكان ، إلا أن أحد رجال طاقم الحراسة استوقفه فى صرامة ، وهو يشهر سلاحه فى وجهه ، هاتفًا فى حدة :

ــ إلى أين ؟!

انتفض جسد الدكتور (راشد) ، رئيس مركز الأبحاث ، فى المخابرات التكنورقمية المستقبلية ، وهو يتوقف على نحو مباغت ، كاد يفقده توازنه ، وهتف وهو يلهث فى عنف ، من فرط الانفعال ، وليس من التعب :

ــ القائد الأعلى .. لابد وأن ألتقى بالقائد الأعلى فورًا .

قالها وهو يحاول تجاوز الحارس ، إلا أن هذا الأخير استوقفه فى صرامة أكثر شراسة ، وهو يجيب :

ــ ليس الآن ؟!

هتف الدكتور (راشد) فى عصبية شديدة ، وهو يجاهد لتجاوزه :

ــ لا يمكننا إضاعة لحظة واحدة .

كان الحارس يعلم جيدًا هوية الرجــل الواقف أمامه ، إلا أن الأوامر الصارمة التى صدرت إليه فى هــذه الظروف التى لم يمر بمثلها قط ، جعلته يتعامل على نحو شديد الخشونة ، وهو يقول :

ــ مستحيل !

صرخ فيه الدكتور (راشد) :

ــ قلت لك : إن الأمر عاجل للغاية .

صده الحارس مرة ثانية ، وهو يهتف :

ــ الأوامر لا تقبل المساومة .

شدَّ الدكتور (راشد) قامته فى عصبية ، وهو يصيح فيه :

ــ حتى ولو كان الثمن هو مصير الحصن كله .. مصير عالم بأسره ؟!

تلك الكلمات الضخمة جعلت وجه الحارس يشحب ، على الرغم منه ، وهو يقول بصوت منفعل :

ــ ما زال الأمر مستحيلاً .

صرخ فيه الدكتور (راشد) ، وهــو يدفعه فى حدة ، على الرغم من أن هذا يتعارض تمامًا مع طبيعته :

ــ بعد كل ما أخبرتك به ؟

تراجع الحارس فى حدة ، وهو يصرخ :

ــ نعــم .

ثم تلاحقت أنفاسه ، وكأنما بذل جهدًا رهيبًا ، وهو يضيف فى عصبية :

ــ لأن القائد الأعلى ليس هنا .

بُهتَ الدكتور (راشد) للجواب ، وامتقع وجهه ، على نحو يوحى بمدى خطورة الأمر ، وهو يقول :

ــ ليس هنا ؟! مستحيل !

قلب الحارس كفيه دون تعليق ، وغمغم فى عصبية بالغة :

ــ هذه الأمور كلها كانت تبدو مستحيلة ، قبل عودة ذلك الفريق ، ولكن ..

لم يتم عبارته ...

ولم يكن بحاجة إلى إتمامها ..

فالدكتور (راشد) فهم ..

واستوعب ..

وارتجف ..

وفى عنف ، عادت به الذاكرة إلى الوراء ..

إلى فترة بعيدة ..

فترة كان فيها ما زال شابًّا يافعًا ..

تلك الفترة ، التى واجه فيها (نور) وفريقه كهفًا غامضًا ، قادهم إلى حضارة قديمة قِدَم الأزل ، تكمن فى أعماق الأرض ..

حضارة فاقت حضارتنا بآلاف السنين ..

ربما لأنها بدأت قبلها بآلاف السنين ..

أو لسبب آخر ..

سبب نجهله ..

المهم أن تلك المواجهة قد انتهت بكارثة رهيبة ..

كارثة تعرَّضت لها (مصر) كلها ..

وربما العالم أجمع ..

وباختفاء (نور) وفريقه أيضًا ..

اختفاء بدا ، لأكثر من ثلاثين عامًا ، أشبه بالموت ..

ثم فجأة ، استيقظوا ..

استيقظوا بعد غيبوبتهم فى ذلك الكهف(*) ، ليجدوا أنفسهم فى عالم آخر ..

عالم جديد ، يفوق عالمهم بأكثر من ثلاثين عامًا ..

عالم يجهلونه تمامًا ..

وبشدة ..

عالم التقوا فيه بـــ (طارق) ، حفيد (نور) وابن (مشيرة) و(رمزى) ، وبأمور يجهلونها تمامًا ..

وبغموض ..

قدر هائل من الغموض ..

غموض جعلهم يحـــارون فى تحديد هدفهم ، وإلى أية جهة ينتمون ..

(*) راجع قصة (المفقودون) ... المغامرة رقم (153) .

إلى عالم المخـــابرات التكنورقميـــة ، التى هى تطــوّر حديث لمخابراتهم العلمية ، إلى من خلف أسوارها ..

ولم يكن من السهل حسم هذا الأمر ..

ولا هذا القرار ..

أمور كثيرة كانت ترتبك فى رءوس الجميع ..

القائد الأعلى الجديد ليس واضحًا ..

وليس على الأرجح بشريًّا ..

وهناك المقاومة ..

وإعادة طاقة (محمود) فى جسد من (الزوريوم) الحيوى ..

واستعادة (مشيرة) ..

و ... و ... و ...

ولكل هذا ، اتخذ (نور) وفريقه قرارهم ..

قرَّروا السعى خلف الحقيقة ..

وخلف أسوار حصن المخابرات التكنورقمية ..

قرَّروا عبور الأسوار إلى حيث الحرية ..

والمقــاومة ..

وربما الحقيقة ..

ولكن ذلك لم يكن سهلاً أو هينًا ..

كـــان عليهم أن يكافحوا ، ويقاتلوا ، ويواجهــوا عالمًا يفوق زمنهم ، بأكثر من ثلاثة عقود ..

ولأنهم فريق علمى ، وعلى الرغم من احتجاز القائد الأعلى لـــ (مشيرة) زوجة (أكرم) ، فقد حاولوا ..

وقاتلوا ..

واقتربوا من النجاح ..

وفى نفس الوقـــت ، الذى كـــان فيه (محمود) الصغير ابن (نشوى) ، و(طارق) الصغير ابن (نور) ، يقاتلان مع المقاومة فى الخـــارج ، كان (محمود) الكبير ، بجسده المصنوع من (الزوريوم) الحيوى ، والطاقة الهائلة التى حصل عليها من جراء هذا ، يقاتل مع (طارق) حفيد (نور) و(سلوى) ، من أجل إنقاذ الجميع ..

وفى قـــاعة مركبـــات الطـــوارئ السرية ، كانت المواجهة الحاسمة ..

القائد ، الذى يتمتع أيضًا بطاقة هائلة ، وقدرات خرافية غير أرضية ، كان يواجه الجميع ، محاولاً منعهم من الفرار من ذلك الحصن المستقبلى الرهيب ..

و(محمود) يواجهه ..

و(نور) والآخرون ينطلقــون بمركبتين غير أرضيتين ، عبر ممر الفرار إلى الخارج ، وفى ذهنهم جميعًا عدة أسئلة مخيفة ..

هل سينجحون فى الفرار ؟!..

وهل ستحملهما المركبتان إلى النجاة ؟!..

أم إلى الموت(*) ؟!..

لم يكن الدكتور (راشــد) يعلم فى الواقع ، سوى خطوط عريضة لكل هذا فحسب ..

ولكنه كان يعلم أمرًا شديد الخطورة ..

يعلم أن الطاقة الهائلة ، التى اكتسبها جسد (محمود) ، من جراء تعريض مادة (الزوريوم) الحيوى للغلاف الكهرومغناطيسى ، قد منحته قوة هائلة ..

(*) لمزيد مــن التفاصــيل راجع الأجزاء الثلاثة الأولى ، (عالم جديد) ، (وأطلال الماضى) (حرب الغد) .. المغامرات أرقــام (156) ، و(157) (158) .

قوة قد تكفى لتغيير مجرى الأحداث كلها ..

أو لتدمير ذلك العالم الجديد ..

تدميره تمامًا ..

* * *

لهث الدُّب كما لم يلهث من قبل ، وهو يلقى جسده على مقعد صغير ، لا يتناسب قــط مع ضخامته ، داخــل مقــر زعماء المقاومة ، وحاول أن يقول شيئًا للذئب .. أى شىء ..

ولكن لهاثه كان أعنف من أن يستطع إخراج كلمة واحدة من حلقه ..

ولم يطق الذئب صبرًا ، وهو يصيح به :

ــ ماذا حدث ؟!.. ماذا أصابك ؟!

لوَّح الدُّب بيده ، ولهاثه العنيف ما زال يمنعه من النطق ، فهتف به الذئب يستحثه فى توتر :

ــ هل كشفوا أمرك ؟!

هزَّ الدُّب رأسه نفيًا فى قوة ، وجاهد للسيطرة على انفعاله ، ولكن هذا لم يؤد إلا إلى المزيد من اللهاث ، فصاح به الذئب فى عصبية :

ــ ماذا حدث بالله عليك ؟!

على الرغم منه ، واصل الذُّب لهاثه بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن غمغم فى انفعال :

ـ لقد ظفروا به .

العبارة اللاهثة جعلت الذئب يعقد حاجبيه ، ويسأله ، وقد انتقل إليه انفعاله :

ـ من هم ؟!

خرجت الكلمة مرتجفة ، من بين شفتى الذُّب ، وهو يجيب :

ـ رجال الحصن ؟!

تراجع الذئب بحركة حادة ، وهو يتساءل :

ـ ظفروا بمن ؟!

كان يدرك الجواب جيدًا ، ولكنه لم يستطع كتمان السؤال فى أعماقه ، والدُّب يجيب ، وقد بدأ لهاثه يهـدأ :

ـ الثعلب .. لقد ظفروا بالثعلب .

وازداد انعقاد حاجبى الذئب فى شدة ..

لمـاذا ؟!..

لماذا فعلها رجال المخابرات التكنورقمية ؟!..

لماذا خرجوا فى هجوم مباشر ، لأوّل مرة فى تاريخهم ؟!..

لقد اعتادوا دورياتهم المدنية فحسب ، ولم يهاجموا مباشرة قط !!

إنه ذلك الهجوم ، الذى شنه على حصنهم حتمًا ..

إنهم ينتقمون ..

ولكن هذا لا يجيب عن السؤال ، بل يطرح فى الواقع سؤالاً آخر ..

لمـاذا (محمود) ؟!..

لمـاذا ؟!..

لمـاذا ؟!..

لمـاذا ؟!..

ألأنهم رصدوا ما فعله هناك ، عند حصنهم ، وما أهّله لزعامة المقاومة فيما بعد ؟!..

أم لأنه فقط من نسل الأسطورة ؟!..

من نسل (نور الدين) ..

كان الاحتمالان قويين ، حتى إنه غمغم فى عصبية :

ـ هذا أمر خطير .

سيطر الدُّب على لهاثه أو كاد ، وهو يغمغم فى حيرة متوترة :

ـ ولكن ألم تكن ترغب فى التخلُّص منه ؟!

غمغم الذئب فى عصبية :

ــ الأمر يختلف .

سأله الدُب ، فى حيرة أكبر ، وتوتر أكثر :

ــ فيــم ؟!

لم يدر الذئب ما إذا كان ينبغى له أن يمنحه الجواب أم لا ..

بل وإذا كان هو نفسه يدرك الجواب أم لا ..

صحيح أنه كان يسعى للقضاء على (محمود) الصغير ؛ حتى لا ينافسه فى زعامة المقاومة ، ولكن أن يسعى إليه النظام ، الذى يحكمه العالم الجديد ، فهذا أمر آخر ..

أمر يقلقه ..

ويحيِّره ..

ويخيفه ..

أمر قد لا يعنى شيئًا ..

وقد يعنى كل شىء ..

كل شىء على الإطلاق ..

* * *

توتر هائل ، ذلك الذى سيطر على مشاعر الجميع ، والمركبتان القريبتان تنطلقان بهما فى سرعة هائلة ، عبر ممر واسع طويل ، مضاء على نحو لم يشاهدوه فى حياتهم قط ..

لم يكن مضاءً بالكامل ، وإنما كان يبدو مظلمًا دومًا ، فيما عدا الجزء الذى يمرون به ..

فقط الجزء الذى يمرون به ..

كانوا كأنهم بمركبتهم ، يضيئون النفق حيثما يمرون ، أو إنه يكتسب طاقته الضوئية من المركبتين ..

ولكــن أحدهــم لم ينشغل لحظــة ؛ بهذه الظاهرة الضوئية العجيبة ..

ربما لأن أذهانهم كلها قد انشغلت بما هو أهم ..

انشغلت بمصير (محمود) ..

ومصيرهم ..

لقد تركوا (محمود) زميلهم خلفهم ، يواجه شخصًا ، تؤكد كل لمحة أنه ليس أرضيًّا ..

أو ليس بشريًّا على الأقل !..

تركوه وهم ينطلقون نحو مصير مجهول ..

نحو ظلام ..

ظلام دامس ..

وعلى الرغم من أن رحلتهم ، عبر ذلك الممر العجيب ، لم تستغرق أكثر من دقيقة واحدة ، فقد بدت لهم أشبه بدهر كامل ..

دهر طرحت خلاله عقولهم وحصدت عشرات الأسئلة ..

أسئلة حول ما تركوه خلفهم ..

وما سيجدونه أمامهم ..

وفى عصبية ، انتزعها من طبيعته شديدة الانفعال ، هتف (أكرم) بوجه محتقن :

ـ تبًا لهذه التكنولوجيا .

لم يكد هتافه ينتهى ، بل ربما قبل حتى أن ينتهى ، شعر الجميع بذلك الممر يتموّج بغتة ..

ثم غمره الضوء ..

ضوء طبيعى ، أتى من مصدر ما ..

لم يكن ضوء الشمس ..

أو حتى القمر ..

ولكنه بدا طبيعيًا ، متجانسًا ، هادئًا ، و ...

وعبروا ذلك الممر ..

فى لحظة واحدة ، وجدوا أنفسهم خارجه ، تسبح بهم المركبتان ، فوق أطلال مخيفة ، تمتد على مدى البصر ..

أطلال ما كان يعرف قديمًا باسم (القاهرة) الجديدة ..

وعلى الرغم منهم ، وفيما عدا (طارق) ، شهق الجميع ..

كانت المـــرة الأولى ، منذ استيقظوا فى هذا الزمن ، يرون ما خلف الأسوار ..

يرون أطلال ما كان يومًا مدينتهم ..

ومستقرهم ..

وعاصمة وطنهم ..

وبالنسبة لهم ، كان المشهد رهيبًا ..

مؤســـفًا ..

ومحـــزنًا ..

« ماذا حدث ؟!.. »

نطقها (أكرم) فى عصبية شديدة ، قاطعًا حالة الصمت الذاهل ، فغمغم (طارق) ، وهو ما زال يحاول التحكُم فى المركبة ، من خلال ذلك الأسلوب الملاحى الحيوى :

ـ إنها الكارثة .

سأله فى عصبية أكثر :

ـ ماذا فعلت بكل شىء ؟!

صمت (طارق) لحظات ، ثم تمتم :

ـ لست أعرف سوى ما قرأته عنها ؛ فهى بالنسبة لى مجرَّد تاريخ .

حدَّق فيه (أكرم) لحظة ، قبل أن يلتفت إلى (مشيرة) بنظرة متسائلة ، ولكنها بدت أكثر حيرة منه ، وهى تغمغم فى توتر :

ـ لست أذكر شيئًا عنها .

وأطل ذعر حائر فى عينيها ، وهى تضيف :

ـ ولست أدرى لماذا ؟!..

بدت له إجابتهما عجيبـــة ، فهم بإلقـــاء سؤال آخر ، إلا أن ارتجاجة مفاجئة للمركبة ، جعلته يهتف :

ـ رباه ! ما هذا .

هتف (طارق) بدوره ، فى توتر شديد :

ـ مستحيل .

« إنها تعود إلى الحصن .. »

هذا ما هتفت به (نشوى) فى نفس اللحظة ، وهى تحاول عبثًا التحكُم فى نظام ملاحة المركبة الثانية ، فغمغم (رمزى) :

ـ يا إلهى !.. لماذا ؟!

ونادى على (سلوى) صوت شديد التوتر ، فى حين تساءل (نور) فى قلق شديد :

ـ ألا يمكنك منعها من هذا ؟

أجابته متوترة :

ـ كلاً .. يبدو أنه هناك من يتحكَّم بها من بعيد .

شهقت (سلوى) ، مغمغمة فى ذعر :

ـ القائد الأعلى .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وهو يقول :

ـ لا .. لن نعود إليه ، مهما كان الثمن .

اشترك مع ابنته ، فى محاولة السيطرة على ملاحة المركبة ، التى اتخذت مع قرينتها دورة واسعة ــ فى سـماء (القاهرة) الجديدة ، ثم انطلقت عائدة إلى الحصن ..

ومن بعيد ، من بين الأطلال ، أطلّت عشرات الرءوس ، تتابع ذلك المشهد العجيب ، الذى لم يروا له مثيلاً من قبل ..

مركبتان عجيبتان ، تدوران فى السماء ، متجهتان نحو الحصن ..

ثم فجأة ، دوى ذلك الانفجار ..

انفجار أضاء المنطقة كلها ، حاملاً رائحة مخيفة ..

رائحة الموت ..

* * *

2 ـ صـراع ..

سؤال .. ماذا يحدث عندما تتصادم طاقتان هائلتان ، وقوتان رهيبتان ، فى مساحة محدودة ؟!..

الجواب : كارثة ..

هذا ما حدث بالفعل هناك ..

فى قاعة مركبات الطـوارئ السرية ، فى قلب حصن قادة المخابرات المستقبلية ، التكنورقمية ..

فهناك ، وبعد انطلاق مركبتى أفراد الفريق مباشرة ، التمعت عينا القائد الأعلى على نحو مخيف ، وهو يقول لــ (محمود) :

ــ هل تتصوّر أن الأمر قد انتهى عند هذا ؟!..

حاول (محمود) شحن كل قوته داخله ، وهو يجيب فى حزم :

ــ الآن على الأقل .

استدار القائد الأعلى يواجهه ، فى شراسة رهيبة ، وهو يهتف :

ــ هـراء ..

وعقب قوله هذا ، ارتجّ الحصن كله ارتجاجة بالغة العنف ..

ارتجاجة ناشئة عن تصادم طاقتين رهيبتين ..

طاقة (الزوريوم) الحيوى ، مع كل ما يحمله من شحنة هائلة ..

وطاقة القائد الأعلى ..

المجهولة ..

وفى غرفة القيـادة ، ومع فقـدان الجميع لتوازنـهم ، تشبَّث (هيثم) بأحد الأجهزة فى قوة ، وهو يهتف :

ـ ماذا يحدث ؟!

نهض أحـد العلمـاء من سقطته ، وأشـار إلى شاشة رصد أمامه ، وهو يجيب فى توتر هائل :

ـ الجهاز سجَّل طاقة هائلة هنا .. فى هذه النقطة .

حدَّق (هيثم) فى تلك النقطة على الخريطة ، وهو يتساءل فى حيرة عصبية :

ـ وماذا يوجد عند هذه النقطة ؟!

تردَّد العالم لحظة ، قبل أن يجيب ، فى صوت خافت مضطرب :

ـ لا شىء .

التفت إليه (هيثم) بنظرة غاضبة ، فاستدرك فى سرعة :

ـ المفترض أنه لا شىء .

سأله فى حدة :

ـ أى قول أحمق هذا ؟!

أسرع العالم يضغط أحد الأزرار بسبابة مرتجفة ، وهو يقول :

ـ هذا ما تقوله الخارطة الرقمية للحصن .

مرة أخرى حدَّق (هيثم) فى الشاشة ، وكأنه يرى الخريطة الرقمية للحصن للمرة الأولى فى حياته ..

نعم .. فى النقطـة ، التى يفترض أن ذلك الارتجاج العنيف قد انبعث منها ، لايفترض أن يوجد شىء ..

أى شىء ..

ولأنه كان يتصور أنه أكثر من يعرف ما يدور فى الحصن ؛ لقربه الشديد من القائد الأعلى ، فقد أدهشه هذا وحيَّره .

وأغضبه أيضًا ..

ومع تلك المشاعر المتضاربة ، شدّ قامته ، وقال فى صرامة شديدة :

ــ فلنعلم ماذا هناك إذن .

قالها وقد اتخذ فى أعماقه قرارًا حساسًا وخطيرًا ..

خطيرًا للغاية ..

وفى نفس اللحظة ، التى اتخذ فيها هذا القرار ، كان (محمود) ينهض فى صعوبة ؛ ليواجــه القائد الأعلى ثانية ، فى حين كان هذا الأخير يبدو أكثر تماسكًا ، وهو يتجه نحوه ، قائلاً :

ــ تصوَّرت أن الطــاقة التى اكتسبتها ، داخل قفص الطاقة ، ستجعلك قادرًا على هزيمتى ... أليس كذلك ؟!

وقف (محمود) على قدميه ، وهو يقول فى حزم :

ــ من يدرى ؟!

رفع القائد الأعلى راحته نحوه ، وهو يهتف فى غضب :

ــ أنــا .

مع هتافه ، انطلقت من راحته موجة ارتجاجية عنيفة ، أصابت (محمود) فى صدره ، ودفعتــه إلى الخلف بقوة هائلة ، جعلته يرتطم بالجدار ، الــذى تموَّج فى عنف ، ليتجاوزه جسده ، ويرتطم بالجدار المواجه ، فى الممر الخارجى ..

وفى صدره ، تكوَّنت فجوة عجيبة ..

فجوة أشبه ببحيرة صغيرة من الزئبق ..

ولدهشته شخصيًا ، استعادت تلك الفجوة تماسكها فى سرعة ، وأعادت تكوين ذلك الجزء من جسده ..

بل وأمدته بطاقة مدهشة ، جعلته يهب واقفًا على قدميه ، ويتجه نحو الجدار ، الذى عاد يتكوَّن مرة أخرى ، فألصق راحتيه به ، وترك طاقته تصنع تلك التموّجات فيه مرة أخرى ، ليختفى جزء منه ، وتظهر ثانية تلك القاعة السرية ..

كان القائد الأعلى داخلها ، يمرِّر يده على الجدار ، على نحو عجيب ، ظهرت أثره كرات هولوجرامية سابحة ، تتموّج مع حركات يده ، وكأنها تؤدى دورًا ما ..

وفى هدوء ظافر ، وبعينين تلتمعان ، استدار إليه القائد الأعلى قائلاً فى ظفر :

ــ سيعودون .

انعقد حاجبا (محمود) ، وهو يقول :

ــ إلا إذا .

قالها ، واندفع بكل قوته وسرعته نحو تلك الكرات الهولوجرامية ، ووثب ، والقائد الأعلى يصرخ فى غضب :

ـ أيها المجنون !

ودوى الانفجار ..

على نحو رهيب ..

* * *

« ما هذا ؟!.. »

قفز الدُّب من مكانه فى ذعر ، مع دوى الانفجار ، الذى تردَّد فى عنف ، عبر الأطلال القديمة كلها ، وهو يهتف بالكلمة ، فهتف الذئب بدوره ، وهو يندفع نحو أحد جدران الوكر :

ـ شىء ما انفجر .

هتف به الدُّب فى فزع :

ـ السؤال هو : أى شىء ؟!

أزاح الذئب جزءًا من الجدار ، لتظهر خلفه شاشة رصد ، مرَّر يده على جزء منها ، وهو يقول :

ـ سـنعرف .

أضيئت الشاشة ؛ لتنقل صورة للحصن ، وقد انبعث مزيج من نار ودخان ، من جزء منه ، مما جعل الدُّب يهتف :

ـ إنه الحصن .. عجبًا !.. هذا لم يحدث قط من قبل .

انعقد حاجبا الذئب فى شدة ، وهو يقول :

ـ ماذا يحدث بالضبط ؟!.. قوات الحصن تخرج فى مهمة هجومية ، وصفارات الإنذار تنطلق هناك ، وانفجار لم نر مثله من قبل !!.. ترى ماذا يحدث ؟!

قال الدُّب فى انفعال :

ـ فلنتصل برجلنا هناك ؛ ليخبرنا بما يحدث .

ازداد انعقاد حاجبى الذئب ، وهو يقول :

ـ الأمر ليس بهذه البساطة .

هتف الدُّب :

ـ ولِمَ لا ؟!.. ما فائدته ، إن لم يخبرنا بما يحدث هناك .

قال الذئب فى حدة :

ـ إنه يخبرنا .

وصمت لحظة ، انخفض خلالها صوته ، وهو يضيف :

ـ وقتما يشاء .

بدا الجواب عجيبًا مبهمًا ، بالنسبة للدُّب ، فغمغم حائرًا مرتبكًا :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

ازداد الذئب عصبية ، وهو يقول :

ـ يعنى أن الأمر مرهون بإرادته .. يتصل بنا عندما يرغب ..

وصمت لحظة ، قبل أن يستطرد :

أو عندما يستطيع .

لم يزد الجواب الدُّب سوى حيرة ، جعلته يقلب كفيه ، قائلاً :

ـ ولكن .. ألا توجد وسيلة للاتصالات ؟!.. أية وسيلة ؟!

عضّ الذئب شفته السفلى فى حنق ، وهو يجيب ، وقد تضاعفت عصبيته ألف مرة :

ـ كلاً .

اتسعت عينا الدُّب فى دهشة مستنكرة ، فى حين استطرد الذئب ، وهو يشيح بوجهه عنه :

ـ إننى حتى لا أعرف من هو .

بلغ اتساع عينى الدُّب أقصاهما ، وهو يهتف ذاهلاً :

ـ لا تعرفه ؟!

التقط الذئب نفسًا عميقًا عجيبًا ، وقال وقد امتزجت عصبيته بمرارة شديدة ، وحيرة لم يعهدها فيه الدُّب أبدًا :

ـ لست أدرى حتى كيف علم أننى زعيم المقاومة ، ولا لماذا أجرى اتصاله بى ... ولا حتى لماذا يمدنى ويمدنا بكل معلومة جديدة داخل الحصن .

هتف الدُّب فى عصبية :

ـ ولكن ألا تخشى والحال هكذا ، أن يكون ...

قاطعه الذئب فى حدة :

ـ لا .. لست أخشى هذا .

عقد الدُّب حاجبيه الكثين فى شدة ، وهو يطبق شفتيه الغليظتين فى غضب ، فى حين تابع الذئب فى عصبية :

ـ لو أنه ينشد شرًا ، لما بقينا هنا ، حتى هذه اللحظة ؛ لأنه يعرف من نحن ، ويجد دومًا وسيلة للاتصال بنا فى أية لحظة ، وكان بإمكانه إرشاد رجال الحصن إلينا فى أية لحظة ، ولكنه أبدًا لم يفعل .

قال الدُب ، وجسده الضخم كله يرتج من الانفعال :

ــ ولا يوجد ما يمنعه من أن يفعل .

استدار إليه الذئب فى حدة :

ــ قلت : لن يفعل .

بدا الدُب غاضبًا متوترًا ، وهو يكبت مشاعره بالكاد ، قبل أن يقول فى عصبية ، عجز عن كتمانها :

ــ وماذا عن الآن ؟!.. أليست فرصة مناسبة ؛ ليخبرنا بما يحدث هناك ، أو ...

قبل أن يتم عبارته ، دوت فوق رءوسهم فرقعة قوية ..

فرقعة تؤكد أن الليلة لن تمضى ، دون أن تضيف مفاجآت جديدة ..

وعديدة ..

* * *

لم تكن هناك وسيلة واحدة ، لمنع تلك المركبتين ، من العودة إلى حصن المخابرات التكنورقمية ، التى تحكم هذا العالم الجديد ..

لقد حاول (طارق) ، وحاولت (نشوى) ..

حاولا ..

وحاولا ..

وحاولا ..

وباءت كل محاولاتهما بالفشل التام ..

وواصلت المركبتان انطلاقهما ، نحو الحصن ..

وفى يأس ، قلبت (نشوى) كفيها ، قائلة :

ــ لا فائدة .. لم تعد تلك الأجهزة الحيوية تستجيب مطلقًا ..

إنهم يعيدوننا إلى الحصن ، على الرغم منا .

هتفت (سلوى) مذعورة :

ــ يا إلهى !.. سيعيدوننا ، بعد كل هذا ؟!

أمسك (نور) يدها ، وهو يقول فى توتر :

ــ المفترض أنه لا أحد يعلم حتى بوجود تلك المركبات ، سوى القائد الأعلى ..

هتف (رمزى) فى توتر :

ــ أتعلم ما يعنيه هذا يا (نور) ؟!

امتقع وجه (نشوى) ، وهى تقول :

ـ يعنى أن (محمود) قد ... قد ...

قبل أن تتم عبارتها ، دوى الانفجار فجأة ..

وارتجت المركبتان مع دوى الانفجار ..

ثم حدث ما هو أسوأ ..

لقد فقدتا توازنهما ..

وسقطتا ..

وفى هلع ، صرخت (مشيرة) :

ـ رباه !.. إننا نهوى .

ضمها (أكرم) إليه بحركة آلية ، وكأنه يحاول حمايتها ، وهتف بـ (طارق) :

ـ افعل شيئًا .

« أفعل ماذا ؟!.. إنها لا تستجيب .. »

هتفت (نشوى) بالعبارة فى ذعر ، وهى عاجزة عن السيطرة على مركبتها ، التى تهوى نحو الأطلال فى سرعة ، فوثب (نور) يزيحها من مكانها ، وهو يقول فى حزم :

ـ دعينى أحاول .

لم يكن يدرى ما الذى يمكن أن يفعله مع أجهزة كهذه ، تفوق عصره ، وتفوق حتى الزمن الذى يحياه مرغمًا ، ولكنه يدرك أنه يستطيع أن يفعل شيئًا واحدًا لا شك فيه ..

شىء تدرَّب عليه ، وطوَّره مع مرور الزمن ...

يستطيع أن يتمالك أعصابه ، فى أحلك المواقف وأصعبها ..

حتى عندما يواجه الموت ..

الموت نفسه ..

ومع تمالكه لأعصابه ، وضع يده على تلك الكرة فى هدوء ، والتقط نفسًا عميقًا ، ثم أدارها فى نعومة ..

وعلى نحو مدهش ، استجابت له تلك الأشكال الهولوجرامية ، وتراصت كلها فى خط متجانس ، و ...

واستعادت المركبة توازنها ..

ولكنها لم تتوقَّف عن السقوط ..

وفى انفعال ، هتفت (سلوى) :

ـ هل سننجو ؟!

أجابها فى حزم :

ـ أتعشّم هذا .

هتف (رمزى) ، وهو يشير إلى المركبة الثانية ، التى ما زالت تهوى نحو الأطلال :

ـ وماذا عنهم ؟!

ولم ينطق (نور) بحرف واحد ..

فقط راقب فى توتر تلك المركبة الثانية ، وهى تهوى ..

وتهـــوى ..

وتهـــوى ..

وأطلق عقله السؤال نفسه ..

ماذا عنهم ؟!..

مـــاذا ؟!..

* * *

على رأس فريق من رجاله ، اندفع (هيثم) ، عبر شبكة الممرات السفلية للحصن ، نحو تلك البقعة ، التى صدر عنها ذلك الارتجاج العنيف ، الذى لم يشهد المكان مثله من قبل ..

لم يكن قد تلقى أمرًا بهذا من القائد الأعلى ..

ولم يكن يدرى حتى أين القائد الأعلى ..

ولكنه اتخذ قراره ..

ووضعه موضع التنفيذ ..

ثم إن هناك أمرًا آخر ، يدفعه إلى ما يقوم به ..

لغز تلك النقطة ، التى يفترض ألا يكون بها شىء ، وفقًا للخرائط الرقمية ، والتى بها حتمًا شىء ما ، أطلق ذلك الارتجاج العنيف ..

لغز استفز عقله وتفكيره ، ودفعه للبحث ، و ...

فجأة ، انبعثت من مكان فى الممرات دفعة هائلة من الطاقة ، أضاءت الممرات كلها ، وشعر معها هو ورجاله وكأن موجة ما قد ضربت وجوههم وأجسادهم فى عنف ، حتى إنهم توقّفوا ، وهتف أحدهم :

ـ ما هذا ؟!

لم يكن تساؤله قد اكتمل بعـــد عندما دوت فرقعة مكتومة ، واندفع إثرها جسد (محمود) خارج الجدار ، ليرتطم بالجدار المقابل للممر ، ثم نهض أمام العيون الذاهلة ، وبدا كأنه قد أذاب جزءًا من الجدار ، واندفع داخله ، ودوى صوت القائد الأعلى ، وهو يصرخ :

— أيها المجنون !

ثم دوى انفجار رهيب ..

انفجار نسف جزءًا من الجدار المقابل ، وصنع فجوة فى سور الحصن ، اشتعلت فيها النيران ..

انفجار أطـاح بـ (هيثم) ورجاله فى عنف ، وكاد يمزق آذانهم ، قبل أن ينهض هو ، هاتفًا فى ذعر :

— ماذا يحدث ؟!.. ماذا يحدث ؟!

كان المكان غارقًا فى دخان كثيف ، حاول (هيثم) أن يخترقه ، وهو يلوّح بمسدسه ، صائحًا فى رجاله :

— اتبعونى .

لم يسمع نصفهم ما قاله ، ولم يستطع النصف الآخر النهوض لتتبعه ، ولم يشعر هو حتمًا بهذا ، وهو يتجه نحو منطقة الانفجار ، و ...

وفجأة ، وجد القائد الأعلى أمامه ..

وانتفض جسده فى عنف ..

فلوهلة ، بدا له جسد القائد الأعلى متألقًا ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ..

ثم خُيِّل إليه أن عينيه قد خدعتاه ؛ فقد بدا له جسد القائد الأعلى عاديًا ، وهو يقول فى صرامة :

— ما الذى أتى بك إلى هنا ؟!

حاول (هيثم) أن يجيب فى صعوبة ، ولكن الكلمات انعقدت فى حلقه ، وهو يحدّق فى القائد الأعلى ، الذى كرر سؤاله بصرخة هادرة ، جعلت جسده ينتفض مرة أخرى ، وهو يهتف فى سرعة :

— خشيت أن ...

قاطعه القائد الأعلى بصرخة مستنكرة :

— خشيت ؟!

تراجع (هيثم) فى خوف ، مغمغمًا :

— أقصد أن .. أن ..

قاطعه مرة أخرى ، بصرخة حملت كل غضب الدنيا :

— اذهب .

وعلى الرغم من وجود رجاله ، انطلق (هيثم) يعدو مبتعدًا ، وتبعـه رجاله فى سرعـة ، كمـا لو أنهم كانوا يتمنون هذا ، وتابعهم القائد الأعلى ببصره فى غضب ، ثم استدار عائدًا إلى قاعة مركبات الطوارئ ..

وعاد جسده يتألق ..

كانت القاعة فى حالة يرثى لها ، على الرغم من أن المركبة الإضافية بقيت سليمة ، وكأنما لم يمسها الانفجار بسوء ..

أما (محمود) ، فكان ملقى أرضًا ، مفتوح العينين ، وكأنما لفظ أنفاسه الأخيرة ..

وفى بطء ، اتجه القائد الأعلى نحوه ، حتى وقف إلى جوار جسده تمامًا ، وقال فى صرامة :

ـ لن تدرك أبدًا ما الذى تسبَّبت فيه .

ثم استدار ينظر إلى الممر ، الذى فر منه (نور) ورفاقه ، قبل أن يضيف :

ـ ولكن هذا لن ينقذهم .

فرد مساعده أمام وجهه ، فبرز سوار معدنى ، يلتف حول

معصمه ، وتلتمع فيه عدة نقاط ، مس منها نقطتين فى سرعة ، فاستحال لونهما ، من الأصفر الفسفورى إلى الأحمر الدموى ..

ثم راحتا تتألقان بوميض منتظم ، يتسارع مع مرور الوقت ..

ومع تألقهما ، التمعت عينا القائد الأعلى ..

لقد أطلق موجة تفجيرية خاصة ..

موجة تكفى لنسف مركبتى (نور) ورفاقه ..

بمنتهى القوة .

* * *

3 - الرهينـــة ..

« لا يوجد سوى احتمال واحد .. »

نطقها (نور) فى حزم ، وهو يبذل جهدًا خرافيًا للسيطرة على انفعاله ، وعلى ثبات يده ، على تلك الكرة الملاحية ، فى محاولة لتوجيهها إلى حيث يشاء ..

كانت مركبة تواصل هبوطها ، ولكن على نحو منتظم ، بخلاف مركبة (طارق) ، التى راحت تهوى على نحو مخيف ..

وفى ارتياع ، هتفت (نشوى) :

ـ (طارق) .. ابنى .

وارتجف جسد (رمزى) ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، ولكن لسانه عجز عن النطق بحرف واحد ، فى حين تجمَّدت (سلوى) فى مكانها ، وهى تحدق فى مركبة حفيدها ، وهى تهوى ..

وتهوى ..

وتهوى ..

(نور) وحده ظل محتفظًا بتماسكه ، وهو يحرِّك راحته فوق تلك الكرة على نحو جعل المركبة تندفع بسرعة أكثر نحو الأرض ، فصرخت (سلوى) فى ذعر :

ـ ماذا تفعل يا (نور) ؟!

لم يحاول إجابتها ، وهو يوجِّه مركبته فى هبوطها نحو مركبة (طارق) ..

وأدركـــت (نشوى) ما يحاول فعله ، أو أنها تصوَّرت هذا ، وهى تغمغم :

ـ رباه !.. أمن الممكن أن ...

ولم تتم عبارتها ، وخفق قلبها فى عنف ، ما بعده عنف ، عندما مال (نور) بالمركبة على نحو حاد ، لينطلق بها مع انخفاضها ، نحو مركبة (طارق) ..

أو أسفلها ، على وجه الدقة ..

ومن بين الأطلال ، شاهد الجميع مشهدًا مذهلاً ..

ومبهرًا ..

إلى أقصى حـــد ..

لقد اتجه (نور) بمركبته إلى أسفل مركبة (طارق) ، ثم اعتدل فى وضع أفقى ..

وفى اللحظة المناسبة تمامًا ..

ومع تلك المناورة العبقرية الجريئة ، انزلقت مركبة (طارق) على مقدّمة مركبة (نور) ، ثم استقرت مع سقوطهما فوقها ..

وهنا واصل (نور) الهبوط ، ومركبته تحمل مركبة (طارق) فوقها ..

ومع سرعتهما ، لم يشعر الجميع بعنف ارتطام ، وإنما فقط بهزة قوية ، جعلت (أكرم) يهتف :

ـ رباه !..

التفت إلى (مشيرة) بعينين متألقتين ، مستطردًا :

ـ لقد فعلها !

ثم جرفه حماس قوى ، جعله يحتضنها فى قوة ، صارخًا :

ـ لقد فعلها (نور) ... فعلها .

كانت المركبتان تواصلان هبوطهما السريع ، وإحداهما تعلو الأخرى ، على نحو مذهل ، جعل جميع من يقطنون الأطلال يطلقون شهقات قوية ، من فرط الانفعال والانبهار ، فى حين حاول (نور)

أن يتخذ مسارًا بين الأطلال ، بحثًا عن منطقة خالية ، أو شبه خالية ، يمكنه الهبوط فيها ..

كان ذلك الضوء العجيب يغمره ، وهو يتجه نحو ما بدا له كحديقة قديمة ، لم يذكر وجودها فى ذلك الموقع من قبل ..

وفى سرعة ، واصلت المركبتان هبوطهما ، ولكن بزاوية آمنة نسبيًا ، والأرض تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

ثم حدث الارتطام ..

ارتطم بطن مركبة (نور) بالأرض ، وزاد ثقل مركبة (طارق) فوقها من عنف الارتطام ، وتناثر الغبار حول المركبتين فى عنف ، وهما تزحفان فوق أرض شبه رطبة ، فصرخت (سلوى) :

ـ فعلناها .. نجونا يا (نور) .. نجونا .

لم يحاول إجابتها هذه المرة أيضًا ، وهو يشحذ كل ذهنه للتركيز على محاولة إيقاف المركبة ، حتى هتفت (سلوى) :

ـ ارفع يدك عن الكرة يا أبى .. ارفعها .

لم يدر كيف ينتبه إلى هذا ، ولكنه رفع يده على الفور ، وما إن فعل حتى توقفت تلك الأشكال الهولوجرامية داخلها عن الحركة ..

وبدأت سرعة المركبتين تنخفض ..

وتنخفض ..

وتنخفض ..

ثم فجأة ، وقبل أن تتوقفا ، أضيء مصباح أزرق فوقهما ، وراح يتألق على نحو سريع ، فانعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وهو ينظر إليه ، فى حين غمغم (رمزى) فى توتر :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أما رجال المقاومة وباقى سكان الأطلال ، فقد أسرعوا نحو تلك الساحة الرطبة ، ووقفوا فى حذر عند حدودها ، يراقبون المركبتين ، و ...

وفجأة دوى الانفجار ..

ومرة أخرى شهق الجميع ..

فقد كان الانفجار مفاجئًا ..

وقويًا ..

بحق ..

* * *

انتفض جسد الذئب فى عنف ، مع دوى الانفجار ، ودوت فى رأسه مشاعر ومخاوف شتى ، امتزجت بذلك التوتر العجيب ، الذى يملأ كيانه على نحـو مدهش ، منذ حادثة الهجوم على الحصن ، فى حين صرخ الدُب مذعورًا :

ـ قتلوهم .

هتف به الذئب ، فى خشونة شديدة :

ـ لا تقـل هـذا .

التفت إليه الدُب فى توتر شديد ، وبدا من الواضح أن كلمات كثيرة تحتبس فى حلقه ، وأن أفكارًا أكثر تشتعل فى رأسه ، وإن ظل صامتًا ، مذعور العينين ، على نحـو أجبر الذئب على أن يستعيد حزم الزعامة ، وهو يشد قامته ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه الثائرة ، قائلاً بلهجة شديدة الصرامة ، ربما يحاول أن يخفى بها عصبيته :

ـ أرسل فريقًا إلى موقع الانفجار ، وليعد إلينا بكافة المعلومات عما حدث ، وفريقًا آخر إلى منزل الثعلب .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى صرامة أشد :

ـ أريد أن أعرف أية أمور تلك ، التى تشتعل الليلة .

ثم شرد بصره على نحو عجيب ، وهو يضيف :

ـ وماذا يدبر رجال الحصن ، بعد هجومنا الفاشل عليهم ؟! ماذا ؟!

« تدبير غبى .. »

هتف القائد الأعلى بالعبارة فى غضب هادر ، فى وجـــه (هيثم) ، الذى امتقع بشدة ، وهو يغمغم فى ارتباك شديد :

ـ ولكننى تصوَّرت ...

قاطعه القائد الأعلى ، بصرخة غاضبة مستنكرة ومستهجنة :

ـ تصوَّرت ؟!..

تراجع (هيثم) فى اضطراب شديد ، وامتقع وجهه أكثر ، فى حين تابع القائد الأعلى بنفس الغضب ، وقد اشتعلت عيناه :

ـ أمثالك لا يحـــق لهم أن يتصوَّروا ، أو أن يتخذوا القرارات وحدهم .. أمثالك عليهم فقط أن يطيعوا .. وينفذوا .. فقط الطاعة والتنفيذ .. فقط ..

غمغم (هيثم) فى توتر شديد ، محاولاً تبرير موقفه :

ـ ولكنهم جرءوا ، ولأوَّل مرة ، على مهاجمتنا يا سيِّدى ،

والمتغير الوحيد الذى حدث ، هو ضمهم لحفيد (نور) وابنه إلى زعماء المقاومة ،واعتقال الاثنين سوف ...

جاءت صرخة القائد الأعلى أشبه بالإعصار هذه المرة ، وهو يصرخ فى وجهه مباشرة :

ـ ألم تستوعب الموقف بعد .

فى هذه المرة ، لم يكن اشتعال عينيه مجازيًّا ..

لقد رأى (هيثم) ، فى وضوح ، ولمحة من اللهب تطلّ منهما .. وللحظـــة ..

لحظة واحدة ، بدت له خلالها عينا القائد الأعلى أشبه بآتونين ملتهبين رهيبين ..

ثم تلاشى هذا فى سرعة ..

ولكن (هيثم) أقسم فى أعماقه أنه ليس واهمًا ..

لقد رأى اللهب ..

رآه فى وضوح ..

وانتفض جسده كله فى ذعر ..

بل فى رعب ..

رعب شديد ، جعله يلزم الصمت تمامًا ، ويتراجع مذعورًا ، والقائد الأعلى يواصل ، فى غضب هادر :

ــ أنا وحدى هنا أفهم كيف تدار الأمور .. وحدى أعرف متى نهاجمهم ، ومتى نتركهم يهاجمون .. أنا وحدى أعرف لماذا وكيف ومتى نفعل هذا .. أما أنت وأمثالك ، فلستم سوى أداة تنفيذية .. قطع شطرنج ، على لوحة كبيرة ، أديرها أنا ..

ثم مال نحوه بشدة ، حتى إن (هيثم) التصق بالجدار ، فى حركة غريزية ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فى عينى القائد الأعلى ، الذى بدا له أشبه بوحش مخيف ، وهو يسأله ، فى صرامة غاضبة :

ــ هل سمعت فى عمرك كله ، عن قطعة شطرنج ، تمتلك إرادة الحركة ؟!..

هزّ رأسه نفيًا بسرعة ، وحاول لحظات أن ينطق شيئًا ما ، ولكن حلقه الجاف منعه من هذا ..

ولم يكن القائد الأعلى ينتظر منه ردًا فى الواقع ، فقد ظل يحدق فى عينيه مباشرة لحظة ، ثم أولاه ظهره بحركة مباغتة ، وعقد كفيه خلف ظهره ، قائلاً فى صرامة :

ــ وأين (محمود) الآن ؟!

بذل (هيثم) جهدًا خرافيًا ، حتى أمكن لكلماته أن تتجاوز حلقه الجاف ، وتعبر شفتيه المرتجفتين ، لتندفع :

ــ وفى الطريق إلى هنا .. الرجال عائدون به .

صمت القائد الأعلى لحظات ، وهو ما زال يوليه ظهره ، ثم قال فى حزم صارم :

ــ فليكن .

قالها ، واندفع عائدًا إلى حجرته ، وقبل أن يتموّج جدارها ، التفت إلى (هيثم) بحركة حادة ، ارتجف لها هذا الآخر ، وقال بلهجة آمرة قوية شرسة :

ــ أخبر الدكتور (راشد) أن ينفذ ما أمرته به فورًا .

أومأ (هيثم) برأسه إيجابًا ، وجسده كله يرتجف ، فتابع القائد الأعلى ، وهو يلمس الجدار ، الذى بدأ تموجاته على الفور :

ــ وفى المرة القادمة ، إذا ما عاودت هذه الحماقة ، لن يدور بيننا أبدًا حديث كهذا .

ثم التفت إليه بنظرة تشتعل على نحو رهيب ، وأضاف فى بطء مخيف :

ــ فالموتى لا يتحدثون .

وانتفض جسد (هيثم) مرة أخرى .

انتفض بقوة ..

بمنتهى القوة ..

* * *

لم ينبس (محمود) الصغير بحرف واحد ، منذ ألقى رجال الحصن القبض عليه ، وحتى لاح له الحصن نفسه ، على بعد كيلومترات قليلة ..

كان كل ما يشغله ، وهو يتجه إلى مصير يجهله ، هو سؤال واحد ..

ماذا عن (طارق) الصغير ؟!..

هل ألقوا القبض عليه أيضًا ؟!..

هــل ؟!..

ثم ماذا سيفعلون به ؟!..

ولماذا هو ؟!..

لمـــاذا ؟!..

على الرغم من تلك الأســئلة ، التى ملأت أعماقه كلها ، ظلَّ صامتًا متماسكًا على نحو عجيب ..

كان قد ورث من جــده (نــور) الصلابة والعزيمة ، والروح القيادية الحاسمة المتوهجة ..

ومن والده (رمزى) ، موهبته الشديدة فى سبر أغوار البشر ، والغوص حتى أعمق أعماق الطبيعة البشرية ..

ومن أمه (نشوى) ، ذلك الذكاء المقــد ...

باختصار ، كان أعظم امتداد لجده ..

لــ (نور) ..

بطل التحرير(*) ..

الأسطورة ..

وفى حزم ، يأبى عليه الخضوع لأعدائه ، شدّ (محمود) قامته ، على الرغم من كونه رهينة بين أيديهم ، ورفع رأسه فى اعتداد ، ...

« قــف .. »

قالها قائد المجموعة فجأة ، فتوقف الجميع دفعة واحدة ، وجذب أحدهم (محمود) الصغير فى عنف ؛ ليجبره على الوقوف ، فجذب (محمود) كتفه فى قوة ، قائلاً فى صرامة :

(*) راجع قصة (الاحتلال) ... المغامرة رقم (76) .

ـ إياك أن تفعلها .

نطقها بلهجة آمرة أدهشت الرجل ، فاندفع نحوه ، وهو يلوّح بقبضته ، هاتفًا فى غضب :

ـ أيها الـ ...

استعد (محمود) بوقفة غريزية متأهّبة ، ولكن قائد المجموعة قال فى صرامة شديدة :

ـ هـدوء .

خفض الرجل قبضته على الفور ، ولكن (محمود) احتفظ بوقفته المتأهبة لحظات ، أدهشه خلالها أن الجميع قد اتخذوا وقفة عسكرية صارمة ، فى حين بدا قائدهم وكأنه شارد ، يحدق فى الفراغ ، وكأنه ينصت إلى شىء ما ..

ثم انتبه فجأة إلى أنه ينصت بالفعل إلى شىء ما .

كان هناك جهازًا بالغ الدقة فى أذنه ، من الواضح أنه يستقبل من خلاله إشارة ما ..

أو أمرًا ما ، أولاه كل اهتمامه وتركيزه ، قبل أن يغمغم بكلمات خافتة ، لم يسمعها (محمود) الصغير ، ثم يعتدل ، قائلاً فى صرامة :

ـ سنتجه بالرهينة إلى الحصن مباشرة .

لم يفهم رجاله أو حتى (محمود) ما يعنيه هذا ..

إنهم يتجهون إلى الحصن مباشرة بالفعل منذ البداية ؟!..

فما الجديد ؟!..

ما الذى أتت به هذا المحادثة السرية القصيرة ؟!..

مــاذا ؟!

ولكن أحدًا لم ينتظر ليتساءل ، وإنما استعدوا كجنود لتنفيذ الأمر فورًا ، ولكن قائدهم أضاف فى حزم :

ـ فقط ستنتظرون هنا بضع دقائق ، وسأصطحب رجلين إلى الحصن ، لإجراء استعدادات خاصة ، أمر بها القائد الأعلى ، قبل وصول الأسير .

مرة أخرى لم يفهم أحد ..

ولم يعترض أحد ..

وفى حزم وسرعة ، انتقى قائد المجموعة رجلين ، واستقل معهما مركبة الدورية ، وأشار إلى الباقين ، قائلاً :

ـ لا يتحرك أحد ، حتى نعود .

أجابوه بتحية عسكرية قوية ، فانطلق مع الرجلين مبتعدًا ..

وسرى قلق شديد فى عقل وجسد (محمود) الصغير ..

لقد بدا له الأمر عجيبًا ، مما وضع أمامه احتمالاً مخيفًا ..

احتمال أنهم يرتبون لإجراء عنيف ..

إجراء جعلهم يقسمون الفريق إلى قسمين ..

قسم يعود إلى الحصن ..

وآخر يبقى معه ..

الأكثر منطقية ، كان أن يذهبوا به إلى الحصن ، ويبقى بعضهم ؛ لاصطياد من قد يتبعهم ..

فلماذا حدث العكس ؟!..

إلا إذا ..

أقلقه أكثر ، وانتزعه من أفكاره ، التفات الجنود إليه ، وكأنهم يتأهبون لفعل شىء ما ..

وتضاعف قلقه ، عندما استعدوا بأسلحتهم ..

وأيقن من أنه كان محقًا ..

لقد اتخذوا قرارًا بتصفيته ..

وهنـــا ..

وسط الأطلال القديمة ، المطلة على الحصن ..

شخص آخر فى موقفه ، كان سيرتجف رعبًا وهلعًا ..

أما هو ، فقد شدّ قامته ، واتخذ وقفة حازمة ، وفرد صدره فى اعتداد ، وكأنما يعلن لهم أنه حتى الموت لنَ يدفعه إلى الاستسلام ..

لقد قاتل كزعيم ..

وسيموت كزعيم ..

وفى صمت متحفِّز ، على نحو يوحى بأنهم أيضًا ينصتون إلى شىء ما ، تحفز الرجال بأسلحتهم الترددُية ، و ...

ودفعة واحدة ، ارتج المكان كله بتردُدات قوية ..

عنيفـــة ..

وقاتلة ..

* * *

على الرغم منه ، انتفض جسد الدكتور (راشد) انتفاضة مكتومة ، تمنى لو أن أحدًا من زملائه لم يلمحها فى توتره ، وهو يحدق فى جسد (محمود) الساكن أمامه ، وفى عينيه المفتوحتين ، على نحو يوحى بأنه قد فارق الحياة ، فى حين غمغم عالم آخر :

ــ قفص الطاقة مرة أخرى ؟!

أشار إليه الدكتور (راشد) فى توتر ، قائلاً :

ــ لا .. ليس مرة ثانية .

غمغم آخر :

ــ إنه يبدو لى صريعًا .

هزّ الدكتور (راشد) رأسه فى عصبية ، وهو ما زال يحدق فى جسد (محمود) ، قائلاً :

ــ لا تجعل المظاهر تخدعك .. ربما لا تجد لديه نبضًا أو تنفسًا ، أو أية علامات حيوية معروفة ، ولكن تذكروا جميعًا لأننا لا نتعامل مع جسد بشرى ..

تمتم العالم الأوّل فى توتر :

ــ إننا لا نعلم حتى مع ماذا نتعامل !

أجابه فى حدة :

ــ مع (الزوريوم) الحيوى .

هزّ أحد العلماء كتفيه ، قائلاً :

ــ وما معلوماتنا حتى عن ذلك (الزوريوم) الحيوى .. إننا نحاول دراسته وفهمه ، منذ أكثر من ربع القرن ، وما زال يدهشنا كل يوم !

كان الدكتور (راشد) يعلم تمامًا أنه على حق ، وعلى الرغم من هذا فقد قال مفتعلاً الصرامة :

ــ نحن علماء ، والمفترض ألا يدهشنا شىء .

أجابه أحدهم فى حذر :

ــ على العكس .. إننا علماء ؛ لأنه أمور كثيرة تدهشنا ، وتدفعنا إلى فهمها .

مرة أخرى ، كان ذلك الرجل أيضًا على حق ..

إنهم علماء ، لأن هناك الكثير مما يدهشهم ويحيرهم ..

وعلى عكس باقى البشر ، فهم لا يتوقفون قط عند الدهشة أو الحيرة ..

إنهما على العكس ، المحفزان الرئيسيان لعقولهم ..

فعندهما يبحثون ..

ويدرسون ..

ويختبرون ..

ويعلمون ..

ويبتكرون ..

ويخترعون ..

لهذا هم علماء ..

ولكن ذلك الراقد أمامه ، كان يمثل تحديًا ، لم يمر هو شخصيًا بمثله من قبل قط ..

إنه تحد لكل القوانين المعروفة علميًا ..

تحد لقانون الطبيعة ..

وقوانين الفيزياء ..

وعلم الأحياء ..

والجيولوجيا ..

تحد سافر ، ما زالوا يحاولون مواجهته ، وما زال ينجح فى إدهاشهم فى كل يوم ..

بل فى كل لحظة ..

دار ذلك الخاطر فى ذهنه ، فسارع بطرده ، وهو يقول بتلك الصرامة ، التى يحاول بها دومًا إخفاء توتره :

ــ هذه المرة سنستخدم كل الوسائل المعروفة لدينا ؛ لنعزله عن أية مصادر للطاقة .

غمغم أحدهم مترددًا :

ــ هل نضعه داخل خزانة من الرصاص مثلاً(*) ؟!

هزَّ آخر رأسه نفيًا فى شدة ، وقال :

ــ هذا كفيل بقتله خنقًا .

انعقد حاجبا الدكتور (راشد) ، وهو يقول فى عصبية :

ــ هذا لو أنه يتنفَّس مثلنا .

قَلَب أكبرهم سنًّا كفيه ، وهو يقول فى توتر :

(*) الرصاص : عنصر فلزى ثقيل ، يعتبر من أقدم المعادن ، التى استخدمها الإنسان ، لونه فضى خفيف إذا كان حديث القطع ، يصبح داكنًا بتعرّضه للهواء ، يستخدم فى الصناعات ، وهو عازل لمعظم أنواع الإشعاعات .

ـ كيف سنسيطر عليه إذن ، لو أننا نجهل ماهيته ؟!..

ماذا لو زدنا من قوته ، كما فعلنا فى المرة السابقة ؟!

لم يحر الدكتور (راشد) جوابًا هذه المرة ، وبقى يحدق فى جسد (محمود) ، الساكن كتمثال من الشمع ، و ...

وفجأة ، هتف أحدهم :

ـ يا إلهى !.. المؤشرات .. انظروا !

وفى حركة متناغمة مذعورة ، التفت الجميع التفاتة رجل واحد ، إلى حيث يشير ..

ثم اتسعت عيونهم كلها عن آخرها ، فى نفس اللحظة التى ارتجفت فيها أجسادهم فى شدة ..

فما يحدث ، وما هتف من أجله زميلهم ، وما أورثه ذلك الذعر ، الذى نطق به عبارته ، كان مذهلاً ..

مذهلاً بحق ..

وبكل المقاييس .

* * *

4 ـ العـودة ..

من المؤكد أن قاطنى تلك الأطلال القديمة ، التى كانت يومًا واحدة من أعظم مدن العالم ، قد عاشوا ليلة ، من أعجب ليالى حياتهم ، على الرغم من كل ما واجهوه من قبل ..

ليلة حلّقت فيها مركبتان عجيبتان ، لم يروا مثيلاً لهما قط ، فوق رءوسهم مباشرة ..

وكانتا تخرجان من ذلك الحصن ، الذى صار بالنسبة لهم رمزًا للقهر والطغيان والديكتاتورية ..

وكانتا تهويان ..

وعلى نحو مخيف ..

ثم فجأة ، قامت إحدى المركبتين بمناورة مدهشة ..

مناورة يمكن أن يقصّوها على أحفادهم فى انبهار ، حتى آخر لحظة من حياتهم ، التى قد تطول أو تقصر ، فى ظل تلك الظروف المأساوية ، التى يعيشون فيها ..

وعلى الرغم مما أثارته تلك المناورة فى نفوسهم من انبهار ، واصلت المركبتان هبوطهما ، حتى ارتطمتا بالأرض ، وقد زاد ثقلهما المشترك من عنف الهبوط ، ولكن كان من الواضح أن المركبتين

مصنوعتان من مادة أكثر قوة ، من المواد المعروفة فى عالمهم ، فمع عنف الارتطام ، وانزلاق المركبة العلوية إثره ، لتزحف لمسافة كبيرة ، لم تتحطما ..

بل ولم يمسهما خدش واحد ..

وبعدها ، دوى الانفجار ..

وتضاعف انبهار القاطنين ، ممتزجًا بفزعهم وذعرهم ..

والمدهش أن الفزع والذعر لم يكونا السبب الرئيسى لانبهارهم .

بل هو ما حدث قبله بلحظات ..

ففور سقوط المركبتين ، وارتطامهما بالأرض ، وانزلاق إحداهما ، انفتحت أبوابهما ، ووثب منها فريق كامل ..

(نور) ، و(سلوى) ، و(نشوى) ، و(رمزى) ، و(أكرم) ، و(طارق) ، و(مشيرة) ..

وثبوا من المركبتين فى آن واحد تقريبًا ، ثم انطلقوا مبتعدين عنهما ، و ...

ودوى الانفجار ..

دوى ليرج المنطقة كلها ، وليقذف (نور) وفريقه أمامه ، لمسافة عشرة أمتار كاملة ..

على الأقل ..

ومع ارتطامهم بالأرض ، جاءت ظاهرة أخرى أكثر عجبًا ، لتضاف إلى ذاكرة قاطنى الأطلال ، وتحفر نفسها فيها بقوة ..

لقد انفجرت المركبتان ، ودوى انفجارهما فى عنف ، ورج المنطقة كلها ..

ولكن لم تكن هناك أية شظايا ..

ولا حتى شظية واحدة ..

المركبتان انفجرتا ، ثم تلاشيتا تمامًا ، وكأنهما تبخرتا فى الهواء ، أو لم يكن لهما وجود من الأساس ..

وارتطم أفراد الفريق بالأرض ، وصرخت (مشيرة) ، من فرط الألم والذعر ، فوثب (أكرم) ، والدماء تنزف من جبهته ، واحتواها بين ذراعيه ، هاتفًا :

ـ أأنت بخير ؟!

التصقت به ، وغمغمت مع آلامها :

ـ ما دمت بين ذراعيك .

نهض (نور) فى اللحظة نفسها ، يتفقد زوجته ، التى كانت تتأوّه فى ألم ، وابنته ، التى كتمت آلامها بإرادة مدهشة ، وهى تغمغم ، دون أن تستطيع النهوض من الأرض :

ـ أبى .. أمى .. أأنتما بخير ؟!

نهض زوجها (رمزى) فى صعوبة ، ومد يده إليها ، يعاونها على النهوض ، وهو يقول :

ـ كلنا بخير .

امتدت إليها يد ابنها (طارق) فى اللحظة نفسها ، وهو يلهث فى انفعال ، مضيفًا :

ـ ما دمنا معًا .

راح الجميع ينظرون إلى بعضهم البعض ، وكأنهم لا يصدقون أنهم قد نجوا من كل هذا ، وتمتم (نور) :

ـ الجميع بخير ؟!

أجابته (سلوى) :

ـ حمدًا لله .

أما (أكرم) ، فقد قال فى توتر ، ويده تبحث فى حركة غريزية ، عن مسدس يفتقده كثيرًا :

ـ يبدو أنه لدينا لجنة استقبال يا رفاق .

التفت الكل فى توتر إلى حيث يشير ، ثم تضاعف توترهم بقفزة واحدة إلى ألف ألف ضعف ..

فهناك ، أمامهم وحولهم ، كان يقف حشد كبير ..

حشد من قاطنى الأطلال ، يطل عليهم بجيش جرار ، من عيون ذاهلة ، متسائلة ، ومبهورة ..

والواقع أن أفراد الفريق أنفسهم ، باستثناء (طارق) و(مشيرة) ، كانوا فى قمة دهشتهم ..

ربما لأنهم لم يتصوروا قط ذلك الفارق الرهيب ، الذى تفصل به أسوار الحصن من داخله عمن خارجه ..

لم يتصوروا قط أن يتحول عالمهم إلى هذا المشهد المخيف ، من الأطلال ، وقاطنيها ، الذين انحفر الإجهاد والقهر والعذاب على وجوههم ، ورسم أبشع آياته فى نظراتهم ..

ولثوان ، ساد صمت رهيب من الجانبين ، وكل جانب منهما يحدق فى الجانب الآخر مأخوذًا ومبهورًا ..

ثم غمغم أحد سكان الأطلال ، بكل ما يملأ نفسه من انفعال :

ـ إذن فقد كانت الشائعة صحيحة .

وأضافت امرأة عجوز ، وصوتها يكاد يرقص طربًا وانبهارًا :

ـ لقد عادوا .

وأضاف شيخ شبه متهالك :

ـ ما زال هناك أمل .

ومرة أخرى ، ارتجت المنطقة كلها ..

ارتجــت بهتاف واحــد ، أطلقته حناجر كل من تواجد فى تلك اللحظة ، من قاطنى الأطلال ..

هتاف يحمل اسم (نور) ..

الأســطورة ..

بطل التحرير ..

والأمــــل ..

وكان هذا إعلانًا جماهيريًّا ، بوصول (نور) وفريقه الفعلى إلى ذلك العالم الغامض المخيف ..

عالم الغد ..

الجديد ..

* * *

« الأمر لم ينته بعد .. »

نطقها القائد الأعلى بصوت عجيب ، ولا يشبه الأصوات المعروفة والمسجلة على الأرض ..

صوت أشبه بالفحيح ، ولكن له رنة عجيبة ..

ومخيفة ..

كان يقولها ، كما لو أنه يحدّث نفسه ، ولكن الواقع أنه كان هناك شىء عجيب يحدث فوق رأسه ، فى حجرته الخاصة ..

كانت هناك ما يشبه دوامة متموجة متواصلة ، تحتل جزءًا من السقف ، ومن منتصفها يسقط ضــوء عجيب ، يتبدل على نحو هادٍ ، بين الأخضر الباهت ، والأرجوانى ، ويعمره تمامًا ، وهو يواصل :

ـ ما زالت أجهزتنا قادرة على رصد كل ما يحدث هناك ، ولقد رصدت وصولهم إلى الأطلال ، واحتفاء قاطنيها بهم ..

وصمت لحظات ، وكأنه يستمع إلى شىء ما ، قبل أن يقول :

ـ لا .. لم يحن الوقت للتدخُّل بعد .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ فلندع اللعبة تكتمل .

راح الضوء يتموج على نحو أكثر سرعة ، فغمغم :

ـ مازلت أؤمن بأن هذا أفضل .

ثم شدّ قامته ، وبدا شديد الصرامة ، وهو يضيف :

ـ وسأتحمل بالطبع المسئولية الكاملة .

انبعث ذلك الصوت الأنثـوى الهـادئ من الجهاز الآلى داخل حجرته ، يقول :

ـ الرائد (هيثم) ، يطلب الإذن بالدخول .

تباطأت سرعة تموجات الضوء ، وهو يقول :

ـ امنحيه دقائق ثلاث ، ثم اسمحى له بالدخول .

قالها ، ثم أشار براحته إلى السقف ، فخفت ذلك الضوء ، وتوقفت تموجاته ، قبل أن يتلاشى تمامًا ..

ومع تلاشيه ، انتقلت التموجات إلى وجهه ، الذى راح يتبدّل على نحو عجيب ؛ ليستعيد هيئته البشرية ، قبل أن يجلس خلف مكتبه ، ويرسم على وجهه علامات الصرامة والقسوة ..

وينتظر ..

ثوان ، وانتقلت عدوى التموّج إلى الجدار ، قبل أن يدخل الرائد (هيثم) ، وهو يقدّم قدمًا ويؤخر أخرى ، ويقول فى حذر :

ـ الرائد (هيثم) يا سيدى .

سأله فى قسوة واضحة :

ـ ما أخبار ذلك الفريق ، الذى أرسلته لأسر حفيد (نور) .

ارتجف صوت (هيثم) ، على الرغم منه ، وهو يغمغم :

ـ المفترض أن يصل فى أية لحظة .

كان ينوى الاكتفاء بهذا ، ولكن تلك النظرة الصارمة ، التى أطلّت من عينى القائد الأعلى المخيفتين ، جعلته يستدرك فى سرعة :

ـ لقد أبلغونى أنهم نجحوا فى أسره ، و ...

قاطعه فى شراسة :

ـ ومـــاذا ؟!

استشعر (هيثم) ، من هذا الأسلوب الحاد ، أنه هناك ما غاب عن ذهنه ..

أو عن معلوماته ..

وهذا أكثر خطورة ..

وفى خفوت ، أجبرته عليه ارتجافته ، تمتم :

ـ المفترض أن ..

مرة أخرى ، قاطعه القائد الأعلى فى عنف ، وهو يضرب سطح مكتبه براحته ، ويقف بحركة حادة ، جعلت (هيثم) يتراجع بنفس الحدة ، وأجبرت الدماء على الفرار من وجهه ، والقائد الأعلى يتجه نحوه ، مستطردًا :

ــ لقد أمرت قائد فريقك بالعودة مع مساعديه ، وترك باقى الفريق مع حفيد (نور) هناك .. وسط الأطلال .

امتقع وجه (هيثم) أكثر ، واتسعت عيناه فى دهشة ، وانفرجت شفتاه ، على نحو أورثه مظهرًا أقرب إلى البلاهة ، عجز معه عن النطق بحرف واحد ، ولم يمنحه القائد الأعلى حتى فرصة لهذا ، وهو يميل نحوه ، على نحو جعله مضطرًا للتحديق فى عينيه مباشرة ، وهو يسأله ، فى صوت مخيف ، أشبه بفحيح أفعى عملاقة :

ــ هل تعلم لماذا ؟!

لم تبد له عينا القائد الأعلى أبدًا أشبه بجمرتين من نار ، كما بدتا فى هذه اللحظة ، حتى إن جسده كله ارتجف بشدة ، وانتقلت ارتجافته إلى حلقه ، فواصل عجزه عن النطق ، واكتفى بهز رأسه نفيًا ، فتراجع القائد الأعلى ، فى حركة شديدة الحدة ، قائلاً :

ــ لهذا لا ينبغى لك أن تتخذ أية قرارات ، دون الرجوع إلىَّ .

كـــان من العسير جـــدًا أن تخرج الكلمات من حلق (هيثم) الجاف ، ولكنه بذل جهدًا خرافيًا ، ليتمتم :

ــ إننى أعتذر .

صاح فيه القائد الأعلى :

ــ لا تعتذر أبـــدًا .

انتفض (هيثم) بشدة ، حتى خُيِّل إليه أنه سيفقد وعيه ، وهو يقول :

ــ ماذا علىَّ أن أفعل إذن ؟!

أدهشه هو نفسه أن يصيبه كل هذا الرعب ، وهو الذى يعتبر نفسه ، ويعتبره رفاقه ، من أشجع رجال الأمن فى المخابرات التكنورقمية كلها .. ولكن هذا يتلاشى تمامًا ، عندما تلتقى عيناه بعينى القائد الأعلى ..

عندما يشتعل بلهيبهما ..

ويحترق بحممهما ..

ولكن ، وعلى الرغم من دهشته ، عاد جسده ينتفض ، بأشد من ذى قبل ، عندما صرخ فيه القائد الأعلى ، فى شراسة رهيبة :

ــ تطيع الأوامر .

ثم تراجع ، وأولاه ظهره ، عائدًا إلى ما خلف مكتبه ، مضيفًا :

ــ ودون مناقشة .

حاول (هيثم) عبثًا ازدراد لعـــابه ، ولكن حلقه الشبيه بصحراء قاحلة منعه من هذا ، فغمغم بصوت متحشرج :

ــ وماذا عن الفريق ؟!

رمقه القائد الأعلى بنظرة صارمة أخرى ، فتابع فى صعوبة :

ــ ماذا سيصيبه ؟!

صمت القائد الأعلى لحظة ، قبل أن يجيب فى لهجة أقرب إلى الوحشية :

ــ سيواجهون الحياة الطبيعية .

وعاود صمته لحظة أخرى ، قبل أن يضيف :

ــ بكل تعقيداتها .

ومع خوفه وتوتره وحيرته ، لم يفهم (هيثم) شيئًا ...

أى شىء ..

* * *

بجهد بالغ ، كتم الذئب مشاعره الحقيقية فى أعماقه ، وهو يستقبل فريق (نور) ، هاتفًا فى تزلُّف :

ــ من يصدق أن هذا قد حدث ؟!

قالها ، فاتحًا ذراعيه عن آخرهما ؛ لضم (نور) ، ولكن هذا الأخير مد يده على امتدادها لمصافحته ، وهو يقول :

ــ الحياة علمتنا أن كل شىء يمكن حدوثه .

توقَّف الذئب لحظة ، وقد أدهشه وأغضبه ذلك الأسلوب الرسمى ، الذى تعامل به (نور) معه ، ثم لم يلبث أن مدَّ يده يصافحه ، وهو يحاول رسم ابتسامة على شفتيه ، قائلاً :

ــ معذرة .. نسيت تقديم نفسى إليكم أوَّلاً .

هتف الدُب فى حماس :

ــ إنه الذئب ، زعيم كل فصائل المقاومة .

بدت الدهشة على وجوههم ، فى حين انعقد حاجبا (نور) ، على نحو يوحى بأن هذا لم يرق له ، فى حين غمغم (أكرم) فى توتر مستنكر :

ــ ذئب ؟!

أسرع الذئب يقول ، وهو يلوّح بيده ، على نحو مسرحى .

ـ مجرَّد لقب ، أحمى خلفه سرية العمل .. لقب لازمنى لسنوات طوال ، حتى إننى نسيت اسمى الحقيقى .

رمقه (نور) بنظرة متفرّسة ، فى حين تساءل الدُّب فى لهفة :

ـ لقد قفزت عبر الزمن .. أليس كذلك ؟!

غمغم (رمزى) :

ـ يمكنك أن تصف ما حدث بهذا .

شمله حماس طفولى عجيب ، لا يتناسب مع ضخامته ، وهو يلوّح بذراعيه فى الهواء ، هاتفًا :

ـ الكل هنا يؤكد هذا ، وخاصة بعد أن رأوكم تصلون فى مركبتى زمن .. لقد فعلتموها من قبل .. أليس كذلك ؟!

تبادل الجميع نظرة صامتة ، قبل أن يلتفتوا إليه ، فى حين انعقد حاجبا الذئب فى توتر ، وهو يقول فى صرامة محتدَّة :

ـ اصـــمت .

احتقن وجه الدُّب ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أنا أيضًا زعيم من زعماء المقاومة .

غمغم (أكرم) ، فى لهجة بدت شبه ساخرة :

ـ حقـــًا ؟!

تزايدت عصبية الدُّب ، وهو يقول :

ـ هناك أربع فصائل للمقاومة ، والذئب زعيم إحداها ، وزعيم زعماء الفصائل أيضًا .

قال (نور) ، وهو يشدّ قامته فى حزم :

ـ أظننا سنحتاج إلى معرفة هذا بالتفصيل .

تابع الدُّب بنفس العصبية ، وكأنه لم يسمعه :

ـ ابنك وحفيدك أيضًا زعيمان .

خفق قلب (نشوى) فى قوة ، فى حين تساءلت (سلوى) فى انفعال :

ـ (محمود) و(طارق) الصغيران ؟!.. أين هما ؟!.. كيف أصبحا الآن .

حاول الدُّب أن يجيبها ، ولكن الذئب أمسك يده فى قوة ، ليجبره على الصمت ، وهو يقول :

ـ يؤسفنى أن لدى أخبارًا غير سارة بشأنهما .

شهقت (سلوى) فى ارتياع ، ووضعت (نشوى) كفيها على نصف وجهها السفلى ، وهى تردِّد :

ــ لا .. ليس هما .. لا .

وهتف (رمزى) :

ــ ماذا لديك يا رجل ؟! أفصح .

ولم ينبس (أكرم) ببنت شفة ، فى حين التصقت به (مشيرة) فى خوف ، مما يمكن أن تسمعه ، وشدَّ (طارق) قامته بحركة غريزية ، وكأنه يستعد لقتال مبهم ، فى حين انعقد حاجبا (نور) ، وهو يغمغم فى صعوبة :

ــ ماذا أصابهما ؟!

أشار الذئب بيده ، مجيبًا :

ــ دورية من الحصن هاجمت منزليهما .

هتف (طارق) فى دهشة :

ــ من الحصن ؟!.. هذا لم يحدث من قبل قط !!

وافقه الذئب بإيماءة من رأسه ، واصطنع تنهيدة مأساوية ، وهو يقول :

ــ لكل شىء بداية .

انعقد حاجبا (نور) فى صرامة ، وهو يقول :

ــ أو نهـــاية .

رمقه الذئب بنظرة صامتة متوترة ، ثم قال فى بطء :

ــ أظن أنه بعد عودتكم ، من الطبيعى أن تنتقل الزعامة إلى ...

قاطعه (نور) فى صرامة :

ــ كل شىء سيبقى على ما هو عليه .

انتفض (أكرم) فى عصبية ، وهو يقول :

ــ ماذا تقول يا (نور) ؟!

التفت إليه (نور) ، مجيبًا فى حزم :

ــ المقاومة ليست قضيتنا يا صديقى .. لدينا قضية أكبر ، تحتاج إلى كل جهدنا .

سألته (سلوى) فى حذر متوتر :

ــ قضية (طارق) و(محمود) الصغيرين ؟!..

التفت إليها ، مجيبًا :

ـ بل القضية الأكبر .

وشدَّ قامته فى اعتداد ، مضيفًا :

ـ قضية الحصن ، وما يحيط به من غموض .

بدت الدهشة على الدُّب ، وهو يقول :

ـ هل ستترك ابنك وحفيدك لمصيرهما ؟!

أجـابه (نور) ، وهو يبذل جهدًا خرافيًّا ؛ للسيطرة على أعصابه :

ـ قضية الحصن ، هى قضية هذا الزمن ، بكل ما فيه ، ومن فيه .

هتفت (نشوى) معترضة :

ـ ولكنهما ...

قاطعها بغتـة أزيز قـوى ، انطلق فى المكـان ، وسرى معه التوتر فى نفوس الجميع ، والذئب يهتف فى انزعاج :

ـ وخيـل .

استل الدُّب خنجره الكبير ، وانعقد حاجباه الكثَّان فى شدة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، واندفع نحو المدخل ، و ...

وفجأة ، انفتح باب المقر السرى لزعماء المقاومة ..

وتراجع الجميع بحركة حادة !..

ثم كانت (مشيرة) أوَّل من هتف :

ـ مستحيل !..

فما رأوه جميعًا أمامهم ، كان بكل معنى الكلمة ، مفاجأة ..

مفاجأة مثيرة ..

للغـاية ..

* * *

« لست أستطيع الفهم !!.. »

غمغم (هيثم) بالعبارة ، فى توتر شديد ، فرفع القائد الأعلى عينيه إليه فى صرامة ، قائلاً :

ـ ولن تستطيع !

تراجع (هيثم) ، وهو منزعج للغاية ؛ فلأوّل مرة ، بدا له القائد الأعلى مختلفًا تمامًا عما عرفه ، وكأنه تحوّل فجأة إلى شخص آخر ..

شخص مخيف ..

مخيف للغاية ..

وفى لحظة ، قفز إلى ذهنه تساؤل مرعب ، لم يلبث أن أخفاه فى جزء ما من أعماقه ، وهو يقول :

ــ بالفعل يا سيّدى .. فى الآونة الأخيرة ، لم يعد باستطاعتى فهم أى شىء .

صمت لحظة ، استرجع عقله خلالها أحداث اليوم كله ، قبل أن يكرّر فى خفوت :

ــ أى شىء .

نهض القائد الأعلى من خلف مكتبه بحركة حادة ، وهو يقول :

ــ لا أحد يطالبك بالفهم .

تراجــع (هيثــم) خطــوة أخرى ، وهو يتحاشى النظر إلى

وجه القائد الأعلى وعينيه ، وهذا الأخير يضيف ، فى صرامة شديدة :

ــ فقط بالطاعة .

غمغم (هيثم) ، وهو يشعر ، ولأوّل مرة أيضًا ، بمرارة عجيبة فى أعمق أعماقه :

ــ أنا رهن إشارتك .

شد القائد الأعلى قامته ، ودار حول مكتبه ، وهو يقول :

ــ اسحب كل القوات من الأطلال .

على الرغم منه ، اتسعت عينا (هيثم) ، وهتف :

ــ فى هذه الظروف .

انعقد حاجبا القائد الأعلى ، فى شراسة غاضبة مخيفة ، جعلت (هيثم) يتراجع عن سؤاله ، مغمغمًا فى توتّر :

ــ سمعًا وطاعة .

راح القائد الأعلى يدور فى المكان ، ويقول ، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ أريد أن تهدأ الأمور تمامًا الليلة ، ولثلاث ليالٍ تالية .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى قسوة :

ـ حتى أصدر أمرى بعكس هذا .

غمغم (هيثم) ، وهو عاجز تمامًا عن الفهم :

ـ كما تأمر يا سيدى .

عاد إلى صمته لحظة ، ولكن سؤالاً ملحًا سيطر على ذهنه ، ولم يستطع منعه من القفز إلى شفتيه ، وهو يغمغم :

ـ وماذا لو لم يلتزموا هم بهذا ؟!

تألقت عينا القائد الأعلى ، أو اشتعلتا على نحو عجيب ، وهو يقول :

ـ إنهم يحتاجون إلى هذا ، بأكثر ما نحتاج إليه .

غمغم (هيثم) فى تردُّد :

ـ وفقًا لاستراتيجيات القتال ، كان ينبغى أن نطرق الحديد ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، وكأنه يخشى من رد الفعل ، فعاد القائد الأعلى يجلس خلف مكتبه ، ويقول :

ـ أنا سأختار اللحظة المناسبة .

لم يكد ينطقها ، حتى صدر أزيز جهاز الاتصال ، وارتسمت صورة هولوجرامية لوجه الدكتور (راشد) ، وهو يقول فى انزعاج :

ـ سيِّدى .. لن تصدِّق ما يحدث هنا .

وانتبه القائد الأعلى ، وانتبهت كل حواس (هيثم) ؛ فاللهجة والأسلوب ، اللذين استخدمهما الدكتور (راشد) ، لإلقاء عبارته ، كان يوحى بأنه يواجه كارثة ..

كارثة رهيبة .

* * *

5 - زوريوم ..

لثوان ، عقــدت المفاجأة ألسنة الجميع ، داخل مقر زعماء المقاومة ، ووقــف الجميع يحدقون فى القادمين ، بكل دهشة الدنيا ، قبل أن تقطع (نشوى) حاجز الصمت ، وهى تندفع نحو أحد القادمين ، هاتفة :

ــ (محمود) .. ابنى .

لم تكن قد رأت ابنها الصغير منذ تركته هناك ، فى زمنها ، إلا أنه لم يكن من العسير على الجميع ، بلا استثناء ، تعرُّف الصغيرين ، (طارق) و(محمود) فى شبابهما ..

فــ (طارق) الصغير كان نسخة طبق الأصل ، من والده (نور) ، مع عينى أمه (سلوى) وحنانهما ..

أما (محمود) الصغير ، فقد بدا وكأنه نسخة من شقيقه (طارق) الكبير ..

مزيج من ملامح (نشوى) و(رمزى) ..

مزيج مدهش ..

وفور أن نطقت (نشوى) عبارتها ، اندفع الجميع نحو الصغيرين ، يعانقونهما ، ويصافحونهما فى لهفة ، وهتفت (سلوى) ، وهى تحتضن (طارق) الصغير ، بكل لهفة وحنان أمومتها :

ــ أأنت بخير ؟!

أجابها (محمود) ، بين والديه ، وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة :

ــ بالتأكيد .. لقد أنقذنى .

كان الذئب والدُّب يقفان صامتين منذ البداية ، فغمغم الثانى فى توتر ملحوظ :

ــ وكيف ؟!

أجابه (طارق) الصغير مبتسمًا :

ــ استعنت بعدد من رجال المقاومة ، وباغتنا رجال الحصن بهجوم من ثلاث جهات ، و ...

قاطعه الذئب فى عصبية ، لم يستطع إخفاءها :

ــ مفهــوم .

استداروا إليه فى صمت ، فأسرع يرسم على شفتيه ابتسامة ، وهو يردف :

ــ الآن اجتمع شمل الجميع .

لم ينطــق أحدهــم حرفًا ، فى حيــن اتجــه (طارق) نحو (محمود) الصغير ، وربَّت على كتفه بابتسامة كبيرة ، مغمغمًا :

ــ مرحبًا يا شقيقى الأكبر .

حدّق (محمود) الصغير فيه بدهشة ، قائلاً :

ـ أنحن شقيقان ؟!

ربّت عليه (نور) ، وقال فى سعادة ، وهو يتأمّل عائلته ورفاقه :

ـ هناك الكثير مما ينبغى أن تعلمه .

ثم شدّ قامته ، وأضاف فى حزم :

ـ والكثير مما ينبغى أن نعلمه أيضًا .

وانعقد حاجبا الذئب فى شدة ..

وصمت الدُب تمامًا ..

فهذا كان يعنى بداية مرحلة جديدة ..

مرحلة حاسمة ..

وخطيرة ..

للغـــاية ..

* * *

« ماذا تعنى بأنه قد اختفى ؟!.. »

هتف القائد الأعلى بالعبـــارة فى غضب هـــادر ، جعل الدكتور (راشد) يرتعد فى شدة ، وهو يقول :

ـ لا أحد يعلم .

صرخ فيه القائد الأعلى فى ثورة :

ـ المفترض أن تعلموا .. أنتم علماء .. بل صفوة العلماء .

قلب أحدهم كفيه ، مع عجز الدكتور (راشد) عن النطق ، وقال فى تردُّد شديد :

ـ هذا لم يحدث لنا من قبل قط .

أضاف آخر فى توتر :

ـ فكيف لنا أن نفهمه أو نعرفه ؟!

صرخ القائد الأعلى فى غضب :

ـ لو أنكم تعجزون عن فهم ما يحدث ، فما الفائدة من وجودكم ؟!

امتقعت وجوههم ، وتراجعوا فى ذعر ، فتدخّل (هيثم) ، قائلاً :

ـ إنكم تسجلون كل ما يحدث هنا .. أليس كذلك ؟!

هتف الدكتور (راشد) فى لهفة :

ـ بالطبع .. بالصوت والصورة .

أضاف عالم آخر فى انفعال :

ـ ويمكننا عرض التسجيل الهولوجرامى فورًا .

أشار القائد الأعلى بيده فى صرامة ، قائلاً :

ـ هيـا .

أسرع أحد العلماء يضغط زر العرض الهولوجرامى ، و ...

وبدأت تلك الأحداث مرة أخرى ..

وعبر فراغ الحجرة ، رأى (هيثم) والقائد الأعلى ذلك المشهد المثير ..

كان جسد (محمود) يرقد هناك ، مفتوح العينين ، تام السكون ، كما لو أنه تمثال من الشمع ، وكل مؤشراته الحيوية تشير إلى الصفر ..

ثم فجأة ، وبلا مقدمات ، راحت تلك المؤشرات ترتفع ..

وترتفع ..

وترتفع ..

ثم بدأ جسده يتألق فجأة ..

كان وكأنه يُشحن بالطاقة ، من مصدر مجهول ، فتفيض من جسده ، المصنوع من (الزوريوم) الحيوى ، كما لو أنه مصباح يضىء ، على نحو تدريجى ..

وعلى الرغم منه ، غمغم (هيثم) مبهورًا :

ـ يا إلهى !

زمجر القائد الأعلى ، قائلاً فى صرامة مقتضبة :

ـ اصمت .

أطبق (هيثم) شفتيه ، وعيناه المتسعتان تواصلان متابعة ذلك العرض الهولوجرامى المثير ..

لقد راح جسد (محمود) يتألق ويتألق ، ويغمر المكان كله بضوء متصاعد بلغ خلال لحظات قليلة ، حدًّا مذهلاً ، حتى لم يستطع أحد الحاضرين أن يواصل التحديق فيه ..

جميعهم أغلقوا أعينهم ، مع الضوء المبهر ..

فيما عدا القائد الأعلى ..

جفن ثالث أشبه بالأجفان الثالثة للطيور(*) ، أهبط أمام قرنيته ؛ ليخفف من شدة الضوء ، الواقع على شبكة العينين ..

وفى الوقت الذى عجز فيه الجميع عن الرؤية ، أو النظر إلى ذلك العرض الهولوجرامى ، كان هو يتابع ما يحدث فى اهتمام شديد ..

(★) تتميز الطيور ، وبعض أنواع الزواحف بجفن ثالث إضافى ، محوّر بحيث يصنع حاجزًا شبه معتم ، يقى عيونها ، عندما تواجه أشعة الشمس المباشرة ، خلال التحليق .

وحيرة حقيقية ..

وبالغــة ..

لقد راح جسد (محمود) ، مع ذلك الضوء شديد الإبهار ، يتفكك ، كما لو أنه يذوب أو يتطاير ..

ثم راحت جزيئات مادته تتشتَّت فى سماء الحجرة ..

وعلى نحو مدهش ومثير ، انجذبت إلى أجهــزة الفحص الرقمية ، فى قاعة الأبحاث العلمية ، وتلاشت فيها ..

تمامًا ..

وهنا فقط ، اختفى الضوء المبهر .

وشهق العلماء فى ذهول ..

فبالنسبة لهم ، ومع اختفاء الضوء ، كان جسد (محمود) قد تلاشى ، ولم يعد له وجود ..

أى وجود ..

ومع استعادة المشهد هولوجراميًا ، اتسعت عينا (هيثم) عن آخرهما فى ذهول ، فى حين غمغم الدكتور (راشد) ، وجسده كله يرتجف ، من فرط التوتر والانفعال :

ــ أرأيت ؟!

مع غمغمته ، انتهى العرض الهولوجرامى ، فالتفت القائد الأعلى فى بطء إلى أجهزة القاعة الرقمية ، وغمغم بدوره فى صرامة :

ــ رأيت .

ثم نهض فى حركة حادة ، واندفع خارج القاعة ، وهو يشير إلى (هيثم) بيده ، قائلاً :

ــ اتبعنى .

وأسرع (هيثم) خلفه ، وكيانه كله ينتفض انفعالاً ..

ففى هذه المرة أيضًا ، لم يفهم أى شىء ..

أى شىء على الإطلاق ..

* * *

على الرغم من كل محاولاته ، بدا الذئب شديد التوتر ، وهو يحاول أن يلخِّص لأعضاء الفريق الموقف كله ، داخل الأطلال القديمة ..

لم يكن يروى لهم شيئًا شديد التعقيد ، ولكنه ، وعلى الرغم من هذا ، وجد صعوبة عجيبة فى وصفه ..

روى لهم كيف حدثت الكارثة ، عقب اختفائهم ، فى بداية القرن ..

وكيف اشتعلت الحروب بعدها ..

وكيف صار الحال على ما هو عليه ..

حدَّثهم كثيرًا وطويلاً ، وهم يستمعون إليه فى اهتمام شديد ، دون أن يقاطعه أحدهم بحرف واحد ، حتى انتهى من روايته ، فساد صمت مهيب ، استغرق لحظات ، قبل أن يقطعه (نور) بقوله :

ــ إذن فأنتم ترون رجال الحصن أشبه بالمحتلين .

اندفع الدُب يجيب فى انفعال :

ــ إنهم كذلك .

سأله (رمزى) فى اهتمام :

ــ فقط لأنهم يمتلكون القوة ؟!..

أجابه الذئب فى حدة :

ــ بل لأنهم يحاولون قهر الجميع .

تساءلت (سلوى) :

ــ أليس من المحتمل أن ما تصفونه بالقهر ، هو مجرَّد محاولة لفرض النظام ، على عالم اجتاحته كارثة عنيفة ؟!

قال بنفس الحــدة :

ــ بالقــوة ؟!

قال (أكرم) فى صرامة :

ــ وهل تعرف وسيلة لفرض النظام سواها ؟!

غمغم (نور) فى حزم :

ــ القــانون .

سأله (أكرم) بنفس الصرامة :

ــ وكيف ستنفذ القانون ؟!

ثم التفت إلى الذئب ، واستطرد ، وهو يلوِّح فى وجهه بسبَّابته :

ــ كيف تنفذه أنت هنا ؟!

تراجع الذئب كالمصعوق ، وهو يهتف :

ــ أنــا ؟!

ثم أضاف فى عصبية :

ــ إننا لا نتحدَّث عنى أنا .

أشار (نور) إلى (أكرم) بالصمت ، ثم واجه الذئب ، قائلاً :

ــ ربما كانت محاورتنا فلسفية بعض الشىء ، وخاصة بعد كل ما واجهناه وشاهدناه هناك ، داخل ذلك الحصن ، ولكن دعنى أسألك : لماذا لم تحاولوا البحث عن مناطق أخرى متطوِّرة فيما حول الأطلال .

قال الدُب فى اندفاع عصبى :

ـ لا يوجد شىء خارج الأطلال .

بدا (رمزى) شديد الانتباه لما يقال ، وتبادلت (سلوى) نظرة قلقة ، مع (محمود) و(طارق) الصغيرين ، فى حين قالت (نشوى) فى حزم :

ـ هذا غير صحيح .. شبكة المعلومات الفائقة تعمل بكفاءة ، وما زالت تتصل بشبكات أخرى خارجية ، وهذا يعنى أنه هناك نظم متطورة ، ما زالت تتعايش خارج هذه الأطلال .

هزَّ الذئب رأسه نفيًا فى قوة ، وهو يقول :

ـ لا يمكنك الجزم .

قالت فى إصرار :

ـ بل يمكننى .

قال فى صرامة :

ـ شبكة المعلومات الفائقة يمكن إعدادها ، بحيث تخدعك تمامًا ، دون أن تدركى هذا .

ومال نحوها بشدة ، وهو يضيف فى تحد :

ـ هل يمكنك الجزم بأن تلك الأنظمة ، التى تزعمين اتصالك بها ، عبر شبكة المعلومات الفائقة ، لم تبث لك من داخل الحصن نفسه .

تراجعت (نشوى) فى توتر ، وهى تغمغم فى عصبية :

ـ يستحيل الجزم بهذا .

انعقد حاجبا (نور) ، وهو ينقل بصره بينها وبين الذئب ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ أهذا يعنى أنكم لم تبذلوا أية محاولة جادة ، للخروج من هنا ؟!

هزَّ الذئب رأسه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ من الواضح أنكم عاجزون عن فهم ما يحدث هنا .

قال (أكرم) بنفاد صبر :

ـ اشرحه لنا إذن .

أجابه الدُّب فى انفعال :

ـ الواقع أنه يستحيل الخروج من هذه الأطلال .

سأله (رمزى) فى قلق شديد :

ـ ولمـــاذا مستحيل ؟!

كان يتوقَّع جوابًا من الدُّب ، ولكنه فوجئ بالجواب يأتيه على لسان (مشيرة) ، التى اندفعت قائلة :

ـ سأخبرك أنا لماذا .

التفت إليها الجميع فى دهشة ، فالتصقت بزوجها (أكرم) ، وكأنها تنشد عنده الحماية ، وأكملت :

ـ طبيعتى الصحفية دفعتنى للبحث طويلاً فى هذا الأمر .

تبادل الجميع نظرة صامتة ، فى حين ضمها (أكرم) إلى جانبه ، وكأنما يؤكد حمايته لها ، حتى مال (نور) نحوها ، قائلاً :

ـ فليكن يا (مشيرة) .. كلنا آذان مصغية .

التقطت (مشيرة) نفسًا عميقًا ، ثم بدأت تتحدَّث ..

وكان حديثها مدهشًا ..

بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ ..

وربما أكثر ..

بكثير ..

* * *

« سنوقف كل الدوائر الرقمية فى المكان .. »

بدت الدهشة العارمة على وجه الرائد (هيثم) ، عندما ألقى إليه القائد الأعلى هذا الأمر ، وغمغم فى توتر :

ـ ولكن هذا مستحيل !

انعقـد حاجبا القائد الأعلى فى صرامة غاضبة ، فاستطرد (هيثم) فى سرعة وتوتر :

ـ أجهزة أمننا كلها تعتمد على الدوائر الرقمية ، وكذلك كل نظم المعلومات ، و ...

قاطعه القائد الأعلى بمنتهى الصرامة :

ـ ستوقفها ..

ارتبك (هيثم) وتوتَّر ، وهو يغمغم :

ـ فقط أخشى أن ...

قاطعه مرة أخرى فى صرامة مخيفة :

ـ الطاعة .. لا تفكير .. فقط الطاعة .

زفر (هيثم) فى توتر ، مغمغمًا فى عصبية :

ـ كما تأمر يا سيِّدى ... كما تأمر .

ثم عجز مرة أخرى عن كتمان سؤاله ، وهو يقول :

ـ ولكن كم من الوقت ...

قاطعه القائد الأعلى ، وكأنما أصبحت هذه سمة أحاديثهما :

ـ حتى أصدر أمرى بإعادة تشغيلها .

صمت (هيثم) لحظات ، وهو يقاوم انفعالاً جارفًا فى أعماقه ..

ما يطلبه القائد الأعلى أمر بالغ الخطورة ..

وغير مفهوم تمامًا ..

علميًّا ..

وعمليًا ..

وأمنيًّا أيضًا ..

فتوقُّف الدوائر الرقمية ، ولو للحظة واحدة ، يعنى أن يصبح الحصن بلا حماية أو تأمين ..

بلا ذرة واحدة من الحماية أو التأمين ..

وهذا شديد الخطورة ..

شديد الخطورة ، إلى أقصى حد ممكن ..

وأقصى حد محتمل ..

ثم إنه لا يدرى ما الحكمة من هذا ؟!..

ما الذى يقصده القائد الأعلى ، من إيقاف كافة النظم الرقمية ؟!

ما الذى يستهدفه ؟!..

وما الذى ينتظره ؟!..

أسئلة عديدة ، لم تجد لها جوابًا فى عقله ، فلاذ بالصمت التام ، وهو يؤدى التحية العسكرية ، ويستدير منصرفًا ، فاستوقفه القائد الأعلى ، قائلاً فى صرامة :

ــ مُر الدكتور (راشد) بالقدوم لمقابلتى .

غمغم ، وهو يقف أمام الجدار ، الذى تموج استعدادًا لخروجه :

ــ كما تأمر يا سيِّدى .

قالها فى لهجة أقرب إلى الشرود ، وذهنه منشغل بالبحث عن الأجوبة .. ولكن بلا أمل ..

على الإطلاق ..

فالواقع أن الأجوبة كانت تفوق قدرته على الفهم والاستيعاب ..

ألف مـــرة ..

* * *

شعرت (مشيرة) بأنفاسها تضيق نوعًا ما ، مع ذلك الانفعال الذى شمل جسدها كله ، وهى تقول :

ــ هناك حاجز ما ، يحيط بالأطلال كلها .. حاجز خفى ، أشبه بحواجز الطاقة الأمنية القديمة ، ولكنه أكثر قوة ، وتستحيل رؤيته تمامًا .

غمغمت (سلوى) فى اهتمام :

ــ الحواجز القديمة كانت تحــوى شرارات دقيقة ، تجعلها مرئية للأعين ، على الرغم من شفافيتها .

هزّت (مشيرة) رأسها ، وهى تقول :

ــ هذه تختلف كثيرًا .

قالت (نشوى) :

ــ لا ريب فى أنها تطوّرت ، كما تطوّر كل شىء ، فى هذا العصر .

رفعت (مشيرة) سبّابتها ، قائلة :

ــ السؤال هو : كيف حدث هذا التطوّر ، بعد كل ما أصاب العالم ، عقب الكارثة ؟

تمتم (محمود) الصغير :

ــ هذا ما أسأل نفسى عنه طوال الوقت .

انعقد حاجبا (طارق) ، وهو يغمغم :

ــ وما كان ينبغى أن أسأل نفسى عنه منذ البداية .

ضم (أكرم) (مشيرة) إليه أكثر ، وهو يقول :

ــ هذا العصر يصبنى بالتوتر أكثر ، مع كل ثانية أقضيها فيه .

تجاهل (نور) كل هذه التعليقات ، وهو يسأل (مشيرة) فى اهتمام :

ــ أهذه مجرّد أقاويل تتردّد هنا ؟!

هزّت رأسها نفيًا ، وهى تقول :

ــ لو أنها كذلك ، لما استحقت ما وصلت إليه من قبل ، فى مضمار الصحافة المرئية .

ثم مالت نحوه ، مضيفة فى لهجة خاصة ، توحى بمدى خطورة الأمر :

ــ لقد اختبرت هذا بنفسى .

هتف (أكرم) مستنكرًا :

ــ اختبرته ؟!

وسألتها (سلوى) فى قلق :

ــ وكيف هذا ؟!

اعتدلت (مشيرة) ، وهى تقول :

ــ لقد شددت الرحال إلى أطراف الأطلال ، ولمست ذلك الحاجز بنفسى .

قال (نور) فى اهتمام بالغ :

ــ لمســته ؟!..

أومأت برأسها إيجابًا ، فتابع فى اهتمام أكبر :

ــ وكيف كان ملمسه ؟!..

انعقد حاجباها ، كما لو أنها تستعيد ذكرى مخيفة ، وهى تشير بيدها ، قائلة :

ــ لم يكن ملمسه يشبه أى حاجزٍ عرفته من قبل .

تدخَّل الذئب فجأة ، قائلاً :

ــ إنه أشبه بالمخمل .

التفت إليه (نور) ، فتابع ، فى شىء من التوتر :

ــ وهذا لا ينفى صلابته .

قالت (سلوى) فى تركيز :

ــ صلب وأشبه بالمخمل ؟!.. أى ملمس هذا ؟!

غمغم الدُّب وصوته يرتجف ، على نحو لا يتفق مع مظهره :

ــ ملمس مخيف .

تمتم (طارق) الصغير فى قلق :

ــ ما الذى يمكن أن يصنع حاجزًا كهذا ؟!

التفت إليه (نور) ، وهو يقول فى حزم :

ــ السؤال هو : لماذا يصنع حاجزًا كهذا ؟!

أجابه الذئب فى توتر :

ــ ليمنعنا من الخروج .

تساءل (رمزى) باندفاع :

ــ لمــاذا ؟!

بدت الحيرة على وجه الذئب لحظة ، ثم لم يلبث أن قال فى عصبية :

ــ أخبرتك أنهم محتلون .

قال (نور) فى تفكير :

ـ ولماذا يسعى المحتل لمنع من يحتلهم من الخروج ؟!

قالت (نشوى) :

ـ للسيطرة عليهم .

وأضاف (طارق) :

ـ أو الاستفادة منهم .

غمغم (أكرم) فى عصبية :

ـ وهل حاولتم حتى الاستفادة منهم ؟!

قبل أن يجيبه (طارق) ، قال (نور) فى حزم :

ـ أو ربما لمنعهم من رؤية ما خارج الأطلال .

سألته (سلوى) فى اهتمام :

ـ ولماذا يمنعهم ؟!..

انعقد حاجباه ، وهو يقول فى حزم شديد :

ـ هذا ما سنعرفه .

ثم أدار بصره فى وجوههم ، قبل أن يضيف :

ـ عندما نذهب إلى هناك .

بدا شديد الحزم والصرامة ، مع استطرادته :

ـ إلى حيث تنتهى الأطلال .. ويبدأ المجهول .

ومع كلمته الأخيرة ، هبط صمت رهيب على الجميع ..

صمت متسائل ..

قلق ..

مخيف ..

إلى أقصى حـــد ..

* * *

6 ـ الرحلة ..

اتسعت عينا الدكتور (راشد) عن آخرهما ، فى دهشة وارتياع ، وهو يحدّق فى وجه الرائد (هيثم) ، مغمغمًا :

ـ نوقف الدوائر الرقمية ؟!.. هل جننت ؟!

انتبه فجأة إلى فداحة ما نطق به ، فاستدرك فى ذعر :

ـ معذرة أيها الرائد .. لم أقصد أن ...

قاطعه (هيثم) فى عصبية :

ـ أعلم .. أعلم .. ولكنها الأوامر .

اتسعت عينا الدكتور (راشد) مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ الأوامر ؟!.. أوامر من ؟!..

ثم عاد يتراجع فى سرعة ، مستدركًا فى عصبية :

ـ آه .. فهمت .

صمت لحظات فى مرارة شديدة ، وعجز لم يشعر بمثله من قبل ، ثم لم يلبث أن مال نحو (هيثم) ، مغمغمًا :

ـ ومتى سنفعل هذا ؟!

شدَّ (هيثم) قامته ، وكأنما يحاول بث بعض الشجاعة فى نفسه ، قبل أن يجيب فى عصبية ، لم يستطع كبتها :

ـ الآن .

انتفض جسد الدكتور (راشد) فى عنف ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ الآن ؟!

واستطرد فى عصبية :

ـ أمر كهذا يحتاج إلى استعدادات خاصة ، و ...

قاطعه (هيثم) فى صرامة عصبية :

ـ الآن .

احتقن وجه الدكتور (راشد) فى شدة ، وبدا من الواضح أنه يقاوم انفعالاً جارفًا فى أعماقه ، أفصح عن نفسه فى بحة صوته ، وهو يسأل :

ـ ألهذا علاقة بما حدث ؟!

التقط (هيثم) نفسًا عميقًا ، وغمغم :

ـ بالتـأكيد .

انخفض صوت الدكتور (راشد) ، وهو يقول :

ــ ولكننا لم نر شيئًا ، ولم نرصد شيئًا .

ارتجف صوت (هيثم) ، على الرغم منه ، وهو يقول :

ــ هو رأى .. رصد .

وصمت لحظة ، ثم أضاف ، بصوت أكثر ارتجافًا :

ــ حتمًا .

لم يحاول الدكتور (راشد) التعليق بحرف واحد ، وإنما اكتفى بالتحديق فى وجه (هيثم) لحظات ، قبل أن يومئ برأسه فى يأس مستسلم ، ثم يستدير إلى جهاز التحكُم فى الدوائر الرقمية ، و ...

وضغط الزر الرئيسى ..

وتوقَّفت كل الدوائر الرقمية .. تمامًا ..

بأوامر القائد الأعلى ..

شخصيًا ..

* * *

كانت الشمس تلقى أشعتها الأولى على الأطلال ، عندما ثبَّت (نور) حقيبة الظهر القديمة خلفه ، وهو يواجه رفاقه ، قائلاً :

ــ فريقنا سيذهب لاستكشاف حدود الأطلال ، مع تلك المعدات ، التى أمكنكم توفيرها لنا ، من بقايا تكنولوجيا عصرنا ، و(طارق) سيبقى هنا ؛ ليساعد فى تنظيم حركة المقاومة ، بما له من معلومات عن الحصن ، وسينضم إليه زعماء المقاومة .

تمتم (طارق) الصغير فى ضيق :

ــ أهذا يشملنا ، (محمود) وأنا ؟

وضع (نور) يده على كتفه ، وحاول أن يمنحه ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ــ (طـــارق) .. لا يمكنك أن تتصوَّر سعادتى برؤيتك رجلاً ناضجًا ، ما زال يحيا ويقاوم ، فى زمن عسير كهذا ، على الرغم مما حرمت منه ، من التمتُّع بمتابعة نموك وتطوّرك ، ومن التواجد إلى جوارك ، فى أهم مراحل حياتك .

دمعت عينا (سلوى) ، وهى تتمتم :

ــ لم نحظ بهذا فى حياتنا قط .

وأدرك الجميع ما تعنيه تمامًا ..

ابنتها (نشوى) نمت ، من الطفولة إلى الشباب بقفزة واحدة ..

وابنها الثانى غاب عنها لأكثر من ثلاثة عقود ، قفزت فيها مع الفريق كله إلى مستقبلهم ..

حتى حفيداها، لم تشاهدهما ينموان وينضجان ..

ويا لها من تركيبة عائلية عجيبة !..

ابنتهما (نشوى) ، تكاد تقاربها الآن عمرًا ..

وكذلك ابنها (طارق) ..

وحفيداها (طارق) و(محمود) ، صارا فى مثل عمرها وعمر ابنتها تقريبًا ..

ويا له من عمر !..

لم يحاول (نور) التعليق على عبارتها ، على الرغم من أنه يشاركها مشاعرها نفسها ، ولكن (نشوى) اندفعت نحوها ، وعانقتها فى حنان ، وانضم إليها (طارق) و(محمود) الصغير ، فى حين واصل (نور) حديثه مع (طارق) الصغير ، مكملاً :

ــ ولكننا الآن نواجه مستقبل عالمنا كله ، وواجبنا يحتم علينا طرح كل مشاعرنا الشخصية جانبًا ، والقيام بما ينبغى علينا القيام به .

غمغم الذئب فى قـوة :

ــ بالتأكيد .

وحاول (أكرم) كتمان مشاعره ، وهو يدفع شيئًا من الصرامة إلى صوته ، قائلاً :

ــ هل سنضيع يومنا كله ، فى هذه المناوشات العاطفية .

ابتسمت (مشيرة) ، وهى تلتصق به ، وتسند رأسها على صدره ، وكأنها تعلمـه أنها تفهم حقيقة مشاعره ، التى يحاول إخفاءها ، فضمها إليه ، وهو يواصل فى عصبية :

ــ دعونا نبدأ رحلتنا .

هتفت (مشيرة) :

ــ سأصحبكم .

أجابها (نور) و(أكرم) فى صرامة ، فى آن واحد :

ــ كـلاً ..

قالت فى عنـاد :

ــ لن أضيع فرصة كهذه لـ ...

قاطعها (أكرم) فى صرامة شديدة :

ــ قلت كلا .

ثم أبعدها عنه ، مضيفًا ، وهو يتحاشى النظر إليها :

ـ ستبقين هنا ، فى انتظار عودتنا .

تراجع رأسها فى دهشة عارمة ، ولكنه التفت إليها ، وبدا الحب واضحًا فى عينيه ، وهو يكمل مبتسمًا :

ـ كما كانت تفعل النساء ، فى الزمن الذى أعشقه .

ارتفع حاجباها فى تأثُّر شديد ، وهى تغمغم :

ـ سأنتظرك .

ابتسم فى حنان ، فى حين أطلَّت الدهشة من عيون الآخرين ، مع ذلك التحوّل الشديد والحاد فى شخصيتها ، فيما عدا (رمزى) ، الذى ابتسم ابتسامة هادئة ، تعلن عن فهمه لما حدث ، وتحرّك الدُب خطوتين إلى الأمام ، وهو يسأل فى انفعال :

ـ ومـــاذا عنّى ؟!

التفت إليه (نور) ، قائلاً :

ـ ستبقى هنـــا .

بدا عصبيًا وهو يقول :

ـ ولكننى ...

قاطعه (نور) ، وهو يضعِ يديه على كتفيه الضخمتين ، ويتطلّع إلى عينيه مباشرة ، قائلا :

ـ ستبقى هنا ، لحماية السيِّدة (مشيرة) ، وابنى ، وحفيدىَ .

اتسعت عينـــا الدُب فى انبهار ، وهو يقول بصوت مرتجف ، من فرط الانفعال الجارف :

ـ أنـــا .

أجابه (نور) فى حزم :

ـ أنا أثق بك .

انتفض جسد الذئب فى قوة ، وارتفع حاجباه فى تأثُّر وانفعال ، فى حين عقد الذئب حاجبيه فى شدة ، وأطلّت من عينيه نظرة لم تغب عن عينى (رمزى) ، وإن لم يحاول التعليق ، و (نور) يرفع يديه عن كتفى الدُب ، ويلتفت إلى الجميع ، قائلاً فى حزم :

ـ هيـــا بنـــا .

استعد الجميع للرحيل ، عندما أمسك الدُب ذراع (نور) ، وهو يقول فى قوة وانفعال :

ـ سأحميهم بحياتى .

مرة أخرى ، بدا من انعقـــاد حاجبى الذئب ونظرته ، أن هذا لم يرق له أبدًا ، ولكن (نور) قال للدُب فى حزم :

ـ كلى ثقة فى هذا .

انحنى (أكرم) يطبع قبلة حانية على جبين (مشيرة) ، التى تمتمت :

ـ سأنتظرك .

ربّت على خدها فى حنان وحب ، ثم اعتدل استعدادًا للرحيل ، لولا أن قال (محمود) الصغير مبتسمًا :

ـ عمى (أكرم) .. عندى هدية خاصة لك .

التفت إليه (أكرم) متسائلاً ، فناوله (محمود) الصغير علبة من الخشب ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ أعتقد أنها ستروق لك .

فتح (أكرم) العلبة فى تساؤل ، ولم يكد يلقى نظرة على محتواها ، حتى هتف فى سعادة :

ـ مسدس تقليدى ؟!

أشار (محمود) الصغير بسبّابته ، قائلاً :

ـ مع ذخيرة كافية .

نظر إليه (أكرم) بامتنان حقيقى ، وربّت على كتفه ، قائلاً :

ـ صدقنى .. هذه أفضل هدية تلقيتها .. ربما فى حياتى كلها .. كيف يمكننى أن أشكرك ؟!

أجابه (محمود) الصغير فى حزم :

ـ ابذل كل ما بوسعك ؛ لإنقاذ عالمنا .

بدا فى هذه اللحظة كصورة مجسّمة من جده (نور) ، فران الصمت على الجميع لحظات ، قبل أن يقطعه (نور) فى حزم :

ـ هيـــا .

ودوت كلمة إضافية ... بدأت الرحلة ..

رحلة الخطر ..

أو رحلة الموت ..

* * *

تحت ذلك الضـــوء العجيـــب ، وفى منتصـــف حجرته ، وقف القائد الأعلى يرفع وجهه إلى أعلى ، وينصت فى اهتمام ..

كان من الواضح أنه يستمع إلى شىء ما ..

حديث ما ..

أو حوار ما ..

لقد شحذ حواسه كلها ، فى انتباه شديد للغاية ، ولفترة زادت على الدقائق العشر ، قبل أن يقول :

ـ نعم .. كل شىء ما زال تحت السيطرة .. إنهم يتصورون أنهم يسيرون وفق منهجهم ، ولكن هذا غير صحيح بالمرة .

استمع مرة أخرى فى اهتمام ، إلى حديث لا يستقبله سواه ، ثم هزَّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ لا .. (نـور) وفريقـه لا يمثلـون تلك الخطورة التى تتصوَّرونها .. إننى مازلت أسيطر على الموقف كله .

انعقد حاجباه ، وهو ينصت فى اهتمام بالغ ، ثم قال فى عصبية :

ـ ما فعله ذلك المصنوع من (الزوريوم) ليس حاسمًا .. لقـد دفع مادته داخل الدوائر الرقمية ، ولقد أوقفتها كلها ، وهذا سيشتت مادته عبرها ، ولن يمكنه جمعها مرة ثانية أبدًا .

أنصت مرة أخرى ، قبل أن يضيف فى حدة :

ـ كلا .. لن يمكنه هذا ، والمفترض أن ما عرفتموه عن (الزوريوم) الحيوى ، يجعلكم واثقين من هذا .

عاد مرة أخرى إلى الاستماع باهتمام بالغ ، ثم عاد يهزُّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ حتى لو وصلوا إلى حدود الأطلال ، لن يمكنهم عبورها .

كان يستمع مـرة أخـرى ، عندما دوت فرقعة مكتومة فجأة داخل حجرته ، فانتفض جسده ، والتفت بحركة حادة إلى مكتبه ، قبل أن يقول فى عصبيةَ :

ـ وفقًا لنظم الأمن المتفـق عليهـا ، ينبغى أن أنهى الاتصال فورًا .

أنهى الاتصال بالفعل بوسيلة ما ، وتلاشى ذلك الضوء العجيب دفعةً واحدةً ، وتموَّج بعد ذلك الجزء من السقف لحظة ، ثم عاد لطبيعته ، فى حين اتجه القائد الأعلى إلى مكتبه ، ومال يفحص شاشة الاتصال فى قلق بالغ ، وهو يغمغم :

ـ تُرى أمن الممكن أن ...

قبل أن يتم تساؤله ، دوت تلك الفرقعة المكتومة مرة أخرى ، وارتجَّ معها المكان كله ارتجاجة خفيفة ، جعلته يغمغم فى عصبية ، ووجهه يستعيد ملامح (أيمن) القديمة :

ـ لا .. مستحيل !..

مع قوله ، بدت له نقاط صغيرة ، أشبه بقطرات من الفضة السائلة ، تتطاير عبر فراغ الحجرة ، فتراجع هاتفًا ، ومكررًا :

ـ مستحيل !.. لقد أغلقت كافة الدوائر الرقمية .

تلاقت تلك القطرات فى سرعة ، من كل مكان بالحجرة ، عند نقطة واحدة فى منتصفها ..

فى نفس المكان الذى كان يتلقى فيه الاتصال منذ لحظات ..

تلاقــت ..

وتجمَّعت ..

وتكثَّفــت ..

وتجسدت ..

وفى غضون ثانيتين فحسب ، كانت قد شكلت ما يشبه كيانًا من الزئبق السائل ، له تكوين بشرى ..

أو شبه بشرى ..

وبقفزة واحدة ، التقــط القائد الأعلى مسدسه الترددى ، وصوّبه نحو ذلك التكوين ..

وفى تلك اللحظة ، التى استغرقها هــذا ، كان ذلك التكوين قد اكتسب ملامحه وهيئته الأخيرة ..

تلك الهيئة ، التى لم يتوقع ، ولم يتمن رؤيتها ثانية أبدًا ..

هيئة (محمود) ..

ومن دون تفكير ، ضغط القائد الأعلى زر الإطلاق فى مسدسه ..

وانطلقت طاقته الترددية ..

المدمِّرة ..

* * *

فى توتر شديد ، راح الذئب يسير داخل مقر القيادة ، معقود الحاجبين ، صارم الملامح ، حــاد النظرات ، عصبى المسار ، حتى إن الدُب سأله فى قلق حائر :

ـ ماذا أصابك أيها الزعيم ؟!

توقَّف الذئب عن الحركة دفعة واحدة ، والتفت إليه فى غضب ، هاتفًا فى حدة :

ـ الزعيم ؟!.. أما زلت تخاطبنى بالزعيم ؟!.. ألم تتخذ بالفعل زعيمًا آخر ؟!

ارتفع حاجبا الدُب فى دهشة ، وهو يقول :

ـ زعيم آخر ؟!.. ماذا دهاك أيها الزعيم ؟!.. أى زعيم هذا ، الذى تتحدَّث عنه ؟!

لوّح الذئب بذراعه كلها فى حدة ، وهو يقول :

– (نور) .. الأسطورة .. لقد رأيت كيف كنت تتحدث إليه فى انبهار .

قال الدُب فى حيرة شديدة :

– ولكنه الأسطورة كما تقول أيها الذئب .. الأسطورة التى حلمنا بها طويلاً .. الأمل ، الذى استعدناه بعودته وعودة فريقه .

قال الذئب ، فى عصبية :

– إذن فقد كنت على حق .. إنه زعيمك الجديد .

هتف الدُب فى غضب :

– زعيمى الجديد ؟!.. وهل كان لى زعيم قديم ؟!.. أنا زعيم من زعماء المقاومة أيها الذئب ، ولدى جيش من الرجال ، يدينون لى جميعهم بالولاء .

قال الذئب ، فى عصبية أكثر :

– وأنا زعيم زعماء المقاومة ، أم أنك نسيت هذا ؟!

هتف الذئب :

– والأسطورة أكَّد أن كل شىء سيبقى على ما هو عليه .

أطلق الذئب ضحكة عصبية ساخرة ، وهو يقول :

– وأنت صدَّقت هذا ؟!

انتفض جسد الدُب فى غضب ، وهو يهتف :

– الأسطورة لا يكذب أبدًا .

ثم ضرب صدره بقبضته ، مستطردًا فى انفعال :

– لقد ائتمننى على حياة ابنه وحفيديه ، و ...

قاطعه الذئب ، هاتفًا فى حدة :

– ربما كان هو صادقًا .

ثم أدار ذراعه فى الهواء بكل العصبية ، مضيفًا :

– ولكن ماذا عن الآخرين ؟!.. هل سيقبلون بى زعيمًا لزعماء المقاومة ، فى وجود الأسطورة ، الذى حفظوا بطولاته ومعجزات فريقه عن ظهر قلب ، منذ نعومة أظافرهم ؟!

انعقد حاجبا الدُب الكثين ، وهو يقول :

– الأسطورة أكَّد أن ...

قاطعه فى حدة :

– لم تجب عن سؤالى بعد .

لم يستطع الدُّب مصارحته بالجـواب الحقيقى ، الذى قفز إلى ذهنه مباشرة ، وهو يقول :

ـ ليس المهـم ما يقبلونه .. المهم أن نصل إلى ما نبتغيه .. أليست هذه كلماتك أيها الذئب ؟

عقد الذئب كفيه خلف ظهره ، وترك حاجبيه معقودين ، دون أن يجيب ، فتابع الدُّب فى حزم :

ـ إننا نقاتل من أجل الحرية .. من أجل الكرامة .. من أجل (مصر) ... أليست هذه أيضًا كلماتك ؟!.. ليس المهم من يتزعم الركـب .. المهـم أن يسير الركب فى مساره الصحيح .. لو أننى ما زلت أذكر ، فهذه أيضًا كلماتك ..

صمت الذئب لحظات ، ثم لم يلبث أن غمغم :

ـ نعم .. هى كلماتى .

وعاد إلى صمته لحظات أخرى ، ثم أضاف فى عصبية :

ـ ولكن الحقيقة تختلف .

سأله الدُّب فى حدة :

ـ فيـم .

استدار إليه فى بطء ، مجيبًا فى صرامة :

ـ فى كونها حقيقة .

لم يزد على هذا حرفًا واحدًا ..

ولم يحاول الدُّب حتى أن يسأله عما يعنيه ..

ولكنه أدرك أنه حتمًا يعنى الكثير ..

والكثير جـدًّا ..

جـدًّا ..

* * *

« هل تدرك ما نحن مقدمون عليه يا (نور) ؟!.. »

ألقى (رمزى) سؤاله ، وهو يسير مع رفاقه ، عبر أطلال المدينة العظيمة ، التى كانت يومًا عاصمة وطنهم ، فأجابه (نور) ، وهو يواصل طريقه :

ـ بكل تأكيد .

قال (رمزى) ، وهو يسير إلى جوار (نشوى) و(سلوى) :

ـ إننا سنقطع نصف (القاهرة) الجديدة سيرًا على الأقدام ، وبعدها يعلم الله (سبحانه وتعالى) وحده ، كم علينا أن نسير بعدها .

قال (نور) فى حزم :

ـ أية وسيلة انتقال ستجذب إلينا الانتباه ، وسيسهل تعقُّبها .

أضاف (أكرم) ، وهو يتلفَّت حوله فى حذر ، ويده تلمس مقبض مسدسه التقليدى فى تحفُّز :

ـ وسيسهل اصطيادنا أيضًا .

أومأ (رمزى) برأسه ، موافقًا إياهما ، قبل أن يقول :

ـ هذا بالضبط ما عنيته يا رفاق .. لقد نجحنا فى الفرار من ذلك الحصن ، ووصلنا إلى قلب الأطلال ، دون أن نعلم بالضبط ما نحن مقدمون عليه ، ولا بد وأن أخبركم أننى ، كخبير فى علم النفس البشرية ، لا يمكننى الجزم بعد ، بأننا فى الجانب الصحيح .. أعنى بالنسبة لما يفيد مستقبل الوطن .

قالت (نشوى) فى سرعة :

ـ أنت على حق .. إننى لم أشعر بالارتياح بعد ، على الرغم من فرارنا من الحصن .

غمغم (أكرم) ، وهو يعقد حاجبيه :

ـ وأنا أيضًا .

قالت (سلوى) فى توتر :

ـ لم أستطع الوثوق بذلك ، الذى يطلق على نفسه لقب الذئب ، منذ اللحظة الأولى .

قال (نور) فى حزم :

ـ أعتقد أن هذا ينطبق علينا جميعًا .

قال (رمزى) فى حماس :

ـ لقد أدركت هذا ؛ عندما تجاهلته تمامًا ، وأنت توصى ذلك الدُّب بالآخرين .

غمغم (نور) :

ـ أتعشَّم ألا أكون قد فقدت قدرتى ، فى الحكم على الأشخاص .

ابتسم (رمزى) ، متمتمًا :

ـ لم تفقدها .

ران عليهما الصمت لحظات ، ثم قالت (سلوى) فى اهتمام :

ـ حديث (مشيرة) أقلقنى فى الواقع ، فهى تعرف جيدًا طبيعة حواجز الطاقة التى تعرفها ، ومع تأكيدها بأن ما سنواجهه يختلف ، أشعر أننا سنواجه مفاجأة .

تمتم (أكرم) ، وهو يمسك مقبض مسدسه بحركة غريزية :
ـ أو كارثة .

عقد (نور) حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أظننا اعتدنا كليهما ، منذ زمن طويل .

قالت (نشوى) :

ـ كنا نمتلك ما يكفى للمواجهة .

أجابها بنفس الصرامة :

ـ وما زلنا نمتلكه .

واشتد انعقاد حاجبيه ، وهو يضيف :

ـ الإيمـــان .

حسم قوله الموقف ، فلم ينطق أحدهم بعدها بحرف واحد ، لما يقرب من نصف ساعة كاملة ، وهم يسيرون عبر أطلال (القاهرة) القديمة ، والشمس تواصل رحلتها عبر السماء ، وتغمرهم بأشعتها الذهبية بعض الوقت ، ثم يحتمون منها بين الأطلال وقتًا آخر ..

ثم فجأة ، توقَّف (أكرم) ، ومدَّ ذراعه عن آخرها ، يحتجز بها (نور) ، الذى أشار إلى رفاقه بالتوقُّف ، وهو يسأله فى همس قلق :

ـ هناك ما يتبعنا .

تبادلوا جميعًا نظرة متوترة ، و(نور) يسأله :

ـ ما أم من ؟!

أجابه فى توتر شديد :

ـ ما يا (نور) ... ما .

ثم التفت إليه ، مضيفًا :

ــ ما يتبعنا ليس بشريًا .. على الإطلاق .

وتفجَّرت فى أعماقهم موجة ثلاثية ، من الدهشة والقلق والخوف ..

موجة عنيفة ..

للغـــاية .

* * *

7 ـ ذروة رقمية ..

مع انطــلاق تلــك الدفقــة الترددُيــة العنيفــة ، مــن سلاح القــائد الأعلى ، نحــو ذلــك الكيــان البشرى الواقف أمامه ، والمصنوع من (الزوريوم) الحيوى ، تألَّقت الحجرة كلها على نحــو مدهش ..

ولكن أنظمة الأمن الرقمية لم تعمل ..

لأن القائد الأعلى ــ شخصيًا ــ أوقفها ..

ولقد أصابت الدفقة الترددُية ذلك الجسد الزوريومى ..

وانفجــر ..

أو بدا وكأنه قد انفجر ..

لقد تشتَّت تلك القطرات شبه الفضية ، وتألَّقت تحت ضوء القاعة القوى ..

ثم حدثت تلك الظاهرة المدهشة ..

لقد بلغت تلك القطرات حافة الحجرة أو حوافها ، ثم ارتدَّت مرة أخرى ، فى قوة وسرعة ، كما لو أنها مربوطة بحبل مطاطى سميك ..

وعادت كل منها ، إلى الموقع الذى كانت تحتله بالضبط ..

وتكوَّن جسد (محمود) مرة أخرى ..

جسده المصنوع من (الزوريوم) الحيوى ، الذى لم تكتشف كل خواصه المدهشة بعد ..

ومع انعقــادة حاجبيــه الشديدة ، خفض القائد الأعلى فوهة مسدسه التردُّدى ، وهو يقول فى مقت :

ــ أنت .

عقد (محمود) ساعديه أمام صدره ، وهو يجيب فى حزم :

ــ نعم .. هو أنا .

قال القائد الأعلى فى عصبية :

ــ ولكن كيف ؟!.. لقد أوقفت انتشارك .

رفع (محمود) أحد حاجبيه وخفضه ، وهو يقول :

ــ نعم .. أنت أوقفتنى .

ثم أضاف بابتسامة ظافرة :

ــ وأنت أعدتنى .

سأله فى توتر حذر :

ــ كيــف ؟!

أشار (محمود) بسبابته إلى السقف ، وهو يجيب :

ــ باتصالك .

ردَّد القائد الأعلى فى توتر :

ــ اتصــالى ؟!

عقد (محمود) ساعديه أمام صدره ، وقال :

ــ نعم .. اتصالك هذا فتح قنــاة مدهشة ، ذات طاقة عالية للغاية ، ومن خلالها ، وجدت سبيل العودة .

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى شدة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فمال (محمود) حوله ، مضيفًا :

ـ وعلمت أنك زائف .

أجابه القائد الأعلى فى عصبية :

ـ إنك لم تعلم شيئًا .

اعتدل (محمود) ، وهو يهز كتفيه ، قائلاً :

ـ يكفى أننى علمت أنك شخص زائف .

أطلق ضحكة عصبية ، وهو يقول :

ـ أهذا كل ما لديك ؟!

قال (محمود) فى صرامة :

ـ وأنك ، على الأرجح ، لست بشريًّا .

لوَّح فى وجهه بسبَّابته فى حدة ، هاتفًا :

ـ وماذا عنك ؟!.. أأنت بشرى ؟!

بدا الضيق فى ملامح (محمود) ووجهه ، وهو يقول :

ـ ولكننى أنتمى إلى البشر .

بدا صوت القائد الأعلى قاسيًا غليظًا ، وهو يقول :

ـ خطـأ .

بدا التوتر على وجه (محمود) ، وشدَّد من عقد ساعديه أمام صدره ، فتابع القائد الأعلى ، وهو يخرج من خلف مكتبه ، ويدور حوله فى صرامة قاسية :

ـ ربما كنت تشبههم ، وتتفاعل مثلهم ، وربما ما زالت فى أعماقك بقايا حنين إليهم .

توقَّف خلفه تمامًا ، وهو يضيف ، فى قسوة شديدة :

ـ ولكنك حتمًا لا تنتمى إليهم .

أدار (محمود) وجهه قليلاً ؛ ليلقى نظرة على القائد الأعلى ، الذى تابع فى صرامة مخيفة :

ـ بل إلينا .

انتفض جسد (محمود) فى عنف ، وهو يهتف :

ـ مســتحيل !..

وضع القائد الأعلى يده على كتفه فى قوة ، وهو يقول ، فى مزيج من الصرامة الشديدة ، والقسوة البالغة :

ـ حقًا ؟!..

فى اللحظة الأولى ، شعر (محمود) براحة القائد الأعلى ، وكأنها يد من فولاذ ساخن ..

ثم فجأة ، امتزج بعقله شىء ما ..

شىء أتى حتمًا من هناك ..

من عقل القائد الأعلى ..

أو من أعماقه ..

وانتفض جسد (محمود) فى عنف ..

وانتفضت كل قطرة من مادة (الزوريوم) الحيوى داخله ..

واتسعت عيناه فى ذعر ..

فما اشتعل فى أعماقه ، وانتقــل من القائد الأعلى إليه ، كان قويًا ..

عنيفًا ..

قاسيًا ..

ومخيفًا ..

إلى أقصى حد يمكن تخيُّله ..

* * *

« أنت على حق يا (أكرم) .. »

قالتها (سلوى) فى توتر ، وهى تلصق سماعة جهازها القديم بالأرض ، وتراقب شاشته فى قلق ..

لم يكن قديمًا ، بالنسبة للعصر الذى أتوا منه ..

أو الذى توقَّف وعيهم فيه ..

وكان يكفى ..

بالنسبة إليها على الأقل ..

وفى اهتمام قلق ، سألها (نور) :

ـ ماذا يرصد جهازك بالضبط ؟!

صمتت لحظة ، وهى تتابع شاشة الجهاز ، قبل أن تجيب ، فى صوت حمل مشاعرها :

ـ زحـــف .

ردَّدت (نشوى) فى قلق :

ـ زحـــف ؟!

أومأت (سلوى) برأسها إيجابًا ، وقالت :

ـ شىء يزحف أسفلنا .

سألها (رمزى) :

ـ شىء مثل ماذا ؟!

تردَّدت لحظات ، قبل أن تجيب :

ـ ثعبـــان .

بدت الدهشة على وجوههم جميعًا ، و(نور) يقول :

ـ ثعبان ؟!.. وهل يمكن أن ...

قاطعته (سلوى) بصوت مرتجف :

ـ ليس ثعبانًا عاديًا .

سألها فى قلق ، شاركه فيه الجميع :

ـ ماذا تعنين بأنه ليس ثعبانًا عاديًّا .

أشارت بيدها ، مجيبة :

ـ الإشارات التى يلتقطها الجهاز ، تتطابق مع إشارات ثعبان يزحف تحت الأرض ، ولكنها مكبَّرة ألف مرة .

اتسعت عيونهم فى شىء من الذعر ، فأضافت فى خفوت :

ـ على الأقل .

أمسكت (نشـــوى) ذراع (رمزى) ، وكأنها تنشد لديه الحماية ، فى حين ســـحب (أكرم) مسدسه ، وانعقد حاجباه ، وهو يقول فى صرامة ، صنعتها عصبيته :

ـ ليس هذا ما سمعته .

ثم أشار بسبَّابته الحرة ، مضيفًا :

ـ ولا تنسوا أن تلك الفترة ، التى قضيتها وحدى ، عقب الاحتلال ، جعلتنى أكثركم قدرة ، على رصد الخطر البرى[*] ..

ارتبكت مشاعرهم ، بين التلفُّت حولهم فى حذر ، وانتظار تقرير (سلوى) النهائى ، عما يحدث تحت أقدامهم ، وقال (نور) يسأله :

ـ وهل أمكنك تمييز ذلك الذى سمعته ؟!

أشار (أكرم) بيده إشارة مبهمة ، وهو يقول :

ـ إنه شىء يزحف أيضًا ، ولكن ليس تحت أقدامنا .

ثم مال نحو (نور) ، مضيفًا فى حزم :

ـ بل خلفنــا .

التفتت (سلوى) خلفها فى قلق ، وهى تقول :

ـ ولكن الجهاز لم يرصد شيئًا .

(★) راجع قصة (رمز القــوة) .. المغامرة رقم (81) .

أشار (أكرم) بسبَّابته مرة أخرى ، قائلاً :

ـ لقد توقَّف عن الزحف ، فور توقُّفنا .

أشارت (سلوى) بسبَّابتها إلى الأرض ، قائلةً :

ـ ذلك لم يتوقَّف .

انعقد حاجبا (نور) ، وهو يقول :

ـ ربما هو الشىء نفسه ، ولكنه شق طريقه إلى ما تحت الأرض ، عندما توقَّفنا .

هزَّ (أكرم) رأسه فى قوة ، وهو يجيب :

ـ كــلاً .

ثم تحرك فى خفة بين الأطلال ، مضيفًا :

ـ إنه ما زال هناك .

تبعه (نور) ، وهو يقول فى حزم :

ـ لا تذهب وحدك .

سرى التوتر فى جسد (سلوى) ، عندما اختفيا وسط الأطلال ، فى حين سألتها (نشوى) ، وهى تقترب منها :

ــ ماذا عن الآخر .. أما زال يزحف ؟!

ارتجف صوت (سلوى) فى شدة ، وهى تقول :

ــ بل توقَّف .

واتسعت عيناها ، وهى تنظر إلى قدميها ، مستطردة :

ــ أسفلنا تمامًا .

تحرَّك (رمزى) و(نشوى) بحركة غريزية مذعورة ، وهما ينظران إلى الأرض ، هاتفين فى انزعاج :

ــ أسـفلنا .

عادت تتابع شاشة الجهاز فى توتر ، وهى تقول :

ــ ولكنه ثابت تمامًا ، لا تصدر عنه حتى اهتزازات الأنفاس ، حتى ليبدو وكأنه .. وكأنه ...

تردَّدت طويلاً ، فسألها (رمزى) فى اهتمام قلق :

ــ كأنه ماذا ؟!

رفعت عينيها إليه ، مجيبة :

ــ وكأنه ليس حيًّا .

ردَّدت (نشوى) فى دهشة ، امتزجت بشىء من الذعر :

ــ ليس حيًّا ؟!.. ماذا يمكن أن يكون إذن ؟!

لم يكد السؤال يتجاوز حلقها ، حتى ارتجَّت الأرض فجأة تحت أقدامهم ، وهتفت (سلوى) فى ذعر :

ــ إنه يتحرَّك .

مع آخر قولها ، وربما فى منتصفه ، بدأت الأرض من تحتهم ترتفع ..

وترتفع ..

وترتفع ..

ومع سرعـة ارتفاعها ، اختل توازن ثلاثتهم ، وصرخت (سلوى) بكل قوتها :

ـ (نــور) .

ومع صرختها ، اخترق ذلك الشيء قلب الأرض ..

وبرز أمامهم ..

واتسعت عينا (رمزى) عن آخرهما ، فى حين أطلقت (نشوى) صرخة عالية ..

صرخة مدوية ..

مرعوبة ..

* * *

ألقى (محمود) الصغير نظرة فاحصة على ما حوله ، عبر نافذة ذلك المقر الجديد ، الذى انتقل إليه ، وسط الأطلال ، قبل أن يلتفت إلى (طارق) ، قائلاً :

ـ ما يحدث هنا لا يروق لى أبدًا .

غمغم (طارق) الصغير :

ـ ولا لى .

نقل (طارق) بصره بينهما ، قبل أن يشدّ قامته ، قائلاً :

ـ أنتما على حق .. نظم الأمن لدينا لا تسمح بشن مثل تلك الغارة ، و ...

قاطعه (محمود) الصغير فى اهتمام :

ـ ليس هذا ما قصدته .

وأشار بيده ، مستطردًا :

ـ ما يقلقنى ولا يروق لى ، ليس ما يحدث هناك .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ بل ما يحدث هنا .

أشار إليه (طارق) الصغير بسبَّابته ، هاتفًا فى حماس :

ـ بالضبط .

نقل (طارق) بصره بينهما ، قائلاً :

ـ أتشيران إلى الذنب ؟!

اندفع (طارق) الصغير يجيب :

ــ بالتحديد .

عقد (طارق) ساعديه أمام صدره ، قائلاً :

ــ المفترض أنه زعيم زعماء المقاومة .

قال (محمود) فى حزم :

ــ المفتــرض .

ثم مال نحو (طارق) ، مستطردًا :

ــ ولكن من جعل منه هذا ؟!

أجابه (طارق) فى حذر :

ــ باقى الزعمـــاء .

واستدرك فى سرعة ، وهو يشير بكفه :

ــ كمــا يفترض .

سأله (طارق) الصغير بنفس الحماس :

ــ أى زعماء ؟!

عاد (طارق) يعقد ساعديه أمام صدره ، وكأنها وسيلته لتركيز أفكاره ، و(طارق) الصغير يكمل :

ــ الزعماء الآن هم (محمود) ، وأنـــا ، والدُّب ، وهو .. وكلانا هنا لا يقبل به زعيمًا للزعماء .

غمغم (محمود) الصغير فى حزم :

ــ وكلانا لا يثق به .

انعقد حاجبا (طارق) ، وهو يقول :

ــ هو من وضعكما فى منصبكما .

هزَّ (محمود) رأسه ، قائلاً :

ــ إنهما موقعان وليسا منصبين ، وإلا لكان من حقه عزلنا منهما ، كما وضعنا فيهما .

وهزَّ (طارق) الصغير كتفيه ، مكملاً :

ــ وهذا يفقدنا صفة الزعامة من أساسها .

نقـل (طـارق) بصره بينهما فى دهشـة ، قبل أن يبتسم مغمغمًا :

ـ رباه !.. لقد نضجتما كثيرًا بالفعل .

ثم حلّ ساعديه ، مضيفًا فى حزم :

ـ ولكنكما على حق .

تبادل (طارق) و(محمود) الصغيران نظرة ارتياح ، قبل أن يقول الأخير :

ـ إذن فأنت تتفق معنا .

أجابهما (طارق) فى خفوت :

ـ كلاً .. لست أتفق معكما .

بدت دهشة منزعجة على وجهيهما ، ولكنه شدّ قامته ، وأضاف بكل الحزم :

ـ بل أتفق مع صالح (مصر) .

أضاء وجهاهما ، وقال (طارق) الصغير فى حز وهو يمد يده إليـه :

ـ كلنا هذا الرجل .

التقت أياديهم ، وكأنها تعلن اتفاقهم فى جبهة واحدة ، قبل أن يقول (محمود) الصغير فى حزم :

ـ السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : كيف ننتزع ذلك الذئب ، من مقعد زعامة الزعماء ؟!

« هذا ما كنت أتوقّعه .. »

قالها الذئب فى توتر ، وهو يراجع تلك التسجيلات مع الدُب ، الذى ظلّ صامتًا محتقن الوجه ، والذئب يكمل فى غضب :

ـ ما إن اجتمعوا ، حتى قرّروا التخلُص منى .

والتفت إلى الدُب فى حركة حادة ، قائلاً :

ـ أليس هذا ما تنبأت به ؟!

غمغم الدُب بصوت مختنق :

ـ بلى .

مطّ الذئب شفتيه ، وقال :

ـ المعركة انتقلت من الخارج إلى الداخل ، ولولا أننى توقَّعت هذا ، وزرعت أجهزة التنصُّت فى ذلك المقر الجديد لحفيد (نور) ، لما علمت بخطتهم .

ورمق الدُّب بنظرة قاسية ، مضيفًا :

ـ وكنت تعارضنى فيما فعلت ، وتعتبره عملاً غير أخلاقى .

تمتم الدُّب ، بنفس الصوت المختنق :

ـ نعم .. كنت أعتبره كذلك .

جلس الذئب على مقعده ، وظل يحدج الدُّب بنظرة صامتة بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ والآن ، ماذا ينبغى أن نفعل ؟!

أجابه الدُّب فى صوت متحشرج :

ـ فيـم ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ فيما سمعته .

صمت الدُّب لحظات ، محاولاً هضم ما يحدث ، والسيطرة على انفعاله ، وهو يجيب فى بطء :

ـ ينبغى أن نصارحهم فيما عرفناه ، و ...

قاطعه الذئب بصيحة هادرة غاضبة مستنكرة :

ـ نصارحهم ؟!..

وهب من مقعده بحركة حادة ، جعلت الدُّب ينتفض ، على الرغم منه ، وهو يكرِّر صارخًا :

ـ نصارحهم ؟!.. بعد كل ما سمعته ؟!

بدا الدُّب منكسرًا ، وهو يقول :

ـ إنها عائلة الأسطورة .

صاح فيه الذئب :

ـ إنهم متآمرون على المقاومة .

قال الدُّب فى مرارة :

ـ ليس على المقاومة .

شدَّ الذئب قامته ، فى اعتداد غاضب ، وهو يقول :

ــ أنا زعيم زعماء المقاومة ، والتآمر علىَّ هو تآمر على المقاومة كلها .

عاد الدُّب يكرِّر ، فى مرارة شديدة :

ــ إنهم عائلته .

انعقد حاجبا الذئب فى شدة ، وهو يقول :

ــ عليك أن تحسم قرارك .

وشد قامته فى قوة ، مضيفًا :

ــ إما أنا ... أو هم .

رفع الدُّب إليه عينين مفعمتين بالمرارة ، وهو يقول :

ــ إنهم ..

قاطعه الذئب بكل قسوة وصرامة الدنيا :

ــ متآمرون .

لم يحر الدُّب جوابًا ، إلا أن الصراع المشتعل فى أعماقه رسم نفسه فى وضوح على ملامحه ، فعقد الذئب ساعديه أمام صدره فى قوة ، وبدا شديد القسوة والصرامة ، وهو يقول :

ــ أنا أم هم ؟!

واشتعل عقل الدُّب كالجحيم ..

اشتعل دون أن يهدأ ، ولو لحظة واحدة ..

ودون أن يحسم أمره ..

فبالنسبة إليه ، كان هذا أصعب قرار فى حياته كلها ..

أصعب قرار كان يتحتم عليه اتخاذه ..

أصعب قرار ... على الإطلاق ..

* * *

« لست أرى شيئًا هنا .. »

قالها (نور) فى قلق حذر ، وهو يدير عينيه فيما يحيط به من أطلال ، ولكن (أكرم) قال فى حزم :

ـ إنه هنا .

سأله (نور) :

ـ هل تراه ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ كـلاً .

ثم استدرك فى حزم :

ـ ولكننى أعلم أنه هنا .

غمغم (نور) ، وهو يعيد فحص كل ما حوله :

ـ هذا لا يكفى يا صديقى .

التقط (أكرم) نفسًا عميقًا ، وقال فى حزم :

ـ اسمع يا (نور) .. عقب الاحتلال ، الذى كنت أنت بطله[*] ،

(*) راجع قصة (الاحتلال) .. المغارة رقم (76) .

رحت أحارب من أجل البقاء ، وسط أطلال شبيهة بهذه ، وأيامها نمت فى أعماقى غريزة ، شبيهة بغريزة الحيوانات البرية .. غريزة تجعلك تشعر بوجود عدوك ، دون حتى أن تراه ، ومهما حاول أن يتوارى أو يتخفَّى .

شعر (نور) أنه صادق تمامًا فيما يقول ، فغمغم :

ـ وأنت تشعر أنه هنا ؟!

التقط (أكرم) نفسًا آخر أكثر عمقًا ، قبل أن يقول بكل الثقة والحزم :

ـ إنه هنـــا .

أدار (نور) عينيه فيما حوله بتمعُّن ، مغمغمًا :

ـ أين ؟!

فى نفس اللحظة ، التى ألقى فيهـا سـؤاله ، انطلقت صرخة (سلوى) ..

ثم أعقبتها صرخة (نشوى) ..

وبكل انفعاله ، صرخ (نور) :

ـ إنه هناك .

مع صرخته ، اهتزت الأطلال من حولهما بغتة ..

ثم برز ذلك الشيء ..

الرهيــب .

* * *

8 ـ الدفـاع والهجـوم ..

فى عصبية بالغة ، راح الذئب يدور فى مقر قيادة المقاومة ، وقد انعقد حاجباه ، وانقلبت سحنته على نحو عجيب ..

كان يدرك أنه يمرّ بأدق مرحلة فى حياته ..

أدقّها على الإطلاق .

عودة (نور) وفريقه ، ونزولهم إلى قَلْب الأطلال ، قَلَبَ كل شيء رأسًا على عقب ..

مجرَّد وجودهم داخل الحصن كان يفيده كثيرًا ..

كان يصنع الرمز ، الذى يحتاج إليه ، للإبقاء على جذوة الحماسة مشتعلة ، فى نفوس الجميع ..

وكان يراهن على أن أحدًا لن يسمح لهم بالخروج من الحصن قط ..

مصدره هناك أكَّد له هذا ..

أكَّد لهم أنهم سيبقون فى الحصن ..

إلى الأبد ..

وهذا بالضبط التوازن ، الذى كان يسعى إليه ..

أن يكونوا هناك ..

أن يصبحوا مجرَّد رمز ..

رمز يجعله هو أقوى ، وسط صفوف المقاومة ..

ويبقى عليه كزعيم للزعماء ..

يبقى على قوته ..

وسطوته ..

حتى عندما أتى بـ (طارق) و(محمود) الصغيرين ، كان يسعى للقوة ..

لاحتضان الرمز ..

فقط احتضانه ..

لقد درس شخصيتها جيدًا ، قبل أن يقدم على هذه الخطوة ..

راجع ما فيهما بمنتهى الدقة ..

ومنتهى التركيز ..

ولم يجد فى الملفين لمحة واحدة ، توحى بما صارا إليه ..

لقد كانا تمامًا كالباقين ، من قاطنى الأطلال ..

يقفان فى الظل ، ويتحاشيان المواجهات ما أمكنهما ..

وكان هو فى أمس الحاجة إلى رمز ، ينسى رجال المقاومة معه مصرع ثلاثة من زعمائهم ..

وهكذا أدار اللعبة ..

ومصدره المجهول داخل الحصن ، أكَّد له أنه يسير فى الطريق الصحيح ..

ولكن حدث ما ليس فى الحسبان ..

وضعهما فى موقع القيادة فجَّر داخلهما كل الصفات الوراثية ، التى اكتسباها من (نور) وعائلته ، وأيقظ الجينات النائمة والمستكينة ..

وأطلق طاقات زعيمين حقيقيين ..

فجأة ، تحوَّلا من كامنين إلى عملاقين ..

وهو الذى دفعهما إلى هذا ..

« غبــى .. »

هتف بها مؤنبًا نفسه ، وهو يلكم الجدار بكل قوته ، قبل أن يتابع فى حــدة :

ـ لقد أخرجت الجنى من المصباح .

وتوقَّف ، وانعقد حاجباه أكثر ، وبدا شديد الوحشية والقساوة ، وهو يضيف :

ـ وعلىَّ أن أعيده .

ألقى نظرة سريعة على ساعة يــده الرفيعة ، ثم التقط نفسًا بالغ العمق ، قبل أن يقول :

ـ وهذا يتوقَّف على أن يكون الدُّب قد حسم أمره .

صمت لحظة ، ثم استطرد فى وحشية :

ـ لصالحى .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها كلمته الأخيرة ، كان الدُّب يكمن خلف جدار قديم ، وسط الأطلال ؛ ليراقب ذلك المقر الخاص ، الذى لجأ إليه (محمود) و(طارق) الصغيران ..

كان ذلك الصراع الرهيب ما زال يشتعل فى أعماقه ، على الرغم من أنه قد أخبره أنه قد اختاره ..

وأنه سيطيع أوامره دون مناقشة ..

أيًّا كانت ..

ولكن ، وعلى الرغم من توقُّعه للمفاجآت ، جاءت أوامر الذئب لتصدمه بشدة ..

وبمنتهى العنف ..

والآن ، وهو يقف هناك ، على بعد أمتار قليلة من المقر ، كان يصارع ؛ ليحسم ذلك الصراع المخيف فى أعماقه ..

ومع تحسسه لمقبض خنجره المعلَّق فى حزامه ، حسم أمره ..

ثم شدَّ قامته ..

واتجه نحو المقر ..

كان يتحرَّك فى وضح النهار ؛ لذا فقد شدّ قامته ، واتجه إلى الباب مباشرة ، وطرقه ..

مضت لحظات قبل أن يفتح (طارق) الصغير الباب ، وهو يقول فى دهشة حقيقية :

ـ الدُّب ؟!.. ما الذى أتى بك على هذا النحو ، فى وضح النهار ؟!

شدّ الدُّب قامته أكثر ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه الثائرة ، وهو يقول :

ـ والدك أمرنى بحمايتكما .. أليس كذلك ؟!

قال (طارق) الصغير فى حذر :

ـ بلى ، ولكن ما الخطر الذى يحتاج إلى تواجدك الآن ؟!

تجاهل الدُّب سؤاله تمامًا ، ومدَّ عنقه ، محاولاً رؤية ما خلفه ، وهو يسأله :

ـ أين ابنا شقيقتك ؟!

أجابه (طارق) الصغير ، وقد تضاعف ذلك القلق العارم فى أعمق أعماقه :

ـ ليسا هنا .. لقد خرجا للقاء عمتى (مشيرة) .

سأله فى بطء :

ـ إذن فأنت وحدك .

سرى توتر شديد فى كيان (طارق) كله ، وهو يسأله فى حدة :

ـ ماذا تريد بالضبط أيها الدُّب ؟

استلّ الدُّب خنجره ، ودفعه أمامه إلى داخل المقر ، مجيبًا فى شراسة عصبية :

ـ سأخبرك .

قالها ، وصفق الباب خلفه فى عنف ..

ومن داخل المقر ، صدرت أصوات قوية ، توحى بنشوب قتال ..

قتال عنيف ..

شرس ..

ووحشى ..

* * *

أسرع الدكتور (راشد) الخطى ، عبر ذلك الممر الطويل ، الذى يقود إلى حجرة القائد الأعلى ، ولم يكد يتجاوز إشارة حمراء خاصة ، تبدو أشبه برسم خطى على الجدار ، حتى صدر ذلك الصوت الأنثوى الآلى الهادى ، داخل حجرة القائد الأعلى ، يقول :

ـ الدكتور (راشد) ، مدير مركز الأبحاث .

عقد القائد الأعلى كفيه خلف ظهره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ دعيه يدخل فورًا .

مع انتهاء الأمر ، تموّج ذلك الجزء من الجدار ، ثم تلاشى ، ليظهر خلفه الدكتور (راشد) ، وهو يقول :

ـ لقد طلبت مقابلتى على وجه السرعة ، يا سيِّدى القـ ...

بتر عبارته دفعة واحـدة ، وهـو يحدِّق فى ذهـول ، فى (محمود) ، الذى يقف ساكنًا جامدًا ، فى منتصف حجرة القائد الأعلى ، الذى قال فى صرامة مخيفة :

ـ انفض عنك دهشتك ، وادخل يا دكتور (راشد) .

تردَّد الدكتور (راشد) لحظات ، ثم عبر إلى الداخل ، وهو يغمغم ، فى لهجة حملت كل ذهول الدنيا :

ـ ولكن كيف ؟!

تموَّج الجدار من خلفه ، ليستعيد صلابته مرة ثانية ، والقائد الأعلى يقول بنفس الصرامة :

ـ ربما يدهشكم أمر كهذا .

ثم أدار عينيه إلى حيث يقف (محمود) ، مضيفًا :

ـ ولكنه لا يدهشنى .

نقل الدكتور (راشد) بصره ، فى توتر شديد ، بين جسد (محمود) الجامد ، ونظرات القائد الأعلى المخيفة ، قبل أن يكرِّر :

ـ ولكن كيف ؟!

تجاهل القائد الأعلى سؤاله ، وهو يقول :

ـ هل أعدتم تشغيل الدوائر الرقمية كما أمرت .

أجابه الدكتور (راشد) مضطربًا :

ـ فور تلقينا للأمر يا سيِّدى .

ثم عاد يسأل فى فضول شديد ، وهو يشير إلى (محمود) :

ـ كيف وصل إلى هنا ، دون أن يرصده أحد ؟!

عقد القائد الأعلى حاجبيه فى صرامة ، مجيبًا :

ـ ليس من الضرورى أن تعرف كل ما يدور هنا .

كان هـذا يكفى لإخراس الدكتور (راشد) تمامًا ، إلا أن فضوله العلمى أعجزه عن الصمت ، فقال فى لهفة :

ـ ماذا أصابه ؟!..

تألقت عينا القائد الأعلى فى ظفر ، وهو يقول :

ـ رأى .

لم يكن للجواب أى معنى واضح ؛ لـذا فقـد تساءل الدكتور (راشد) فى توتر :

ـ رأى مـاذا ؟!

جاءته الإجابة الثانية لتضاعف حيرته ألف مرة ، عندما قال القائد الأعلى فى بطء :

ـ ما لم يتصوَّر رؤيته .

حدَّق الدكتور (راشــد) فى جســد (محمود) الجامد بضع لحظات ، قبل أن يغمغم :

ـ وما الذى لم يتصوَّر رؤيته ؟!

استدار القائد الأعلى عائدًا إلى مكتبه ، وهو يجيب :

ـ الحقيقــة .

الأجوبة كلهــا لم تكن تحمل أى معنى واضح ، يمكنه تفسير ما حدث ، ولكنهــا دفعت الدكتور (راشد) إلى أن يتساءل فى حــذر :

ـ وهل تكفى أية حقيقة ، لتحويله إلى حالة الجمود هذه ؟!

جلس القائد الأعلى خلف مكتبه ، وعادت عيناه تتألقان ببريق ظافر مخيف ، وهو يجيب :

ـ إنه رد فعل مباشر للصدمة .

مرة أخرى ، لم يكن الجــواب شافيًا أو كافيًا ، فغمغم الدكتور (راشد) فى عصبية :

ـ صــدمة ؟!

هزَّ القائد الأعلى كتفيه ، وقال فى هدوء عجيب :

ـ إنكم لم تدركوا كل صفات ذلك (الزوريوم) الحيوى بعد .

الجواب هذه المرة بدا وكأنه يوجِّه تفكير الدكتور (راشد) ، إلى أن الأمر كله يتعلَّق بالصفات المجهولة لمادة (الزوريوم) الحيوى فحسب ..

ولكنه أيضًا لم يبد جوابًا كافيًا ..

أو شافيًا ..

ولكن الرجل أدرك أخيرًا أنه لن يحصل على أجوبة ..

أية أجوبة ..

لقد كان الرائد (هيثم) على حق ..

هناك شىء غامض ، يتعلَّق بالقائد الأعلى ..

شىء غامض ..

ومحيِّر ..

ومخيف ..

إنه يرى ما لا يرونه ، ويدرك ما لا يدركونه ، و ...

« لقد أحضرتك إلى هنا ، من أجل الأمر نفسه .. »

قالها القائد الأعلى فى صرامة ، فانتزع الدكتور (راشد) من أفكاره ، وجعله يقول فى توتر :

ـ أى أمر ؟!

بدا القائد الأعلى صارمًا قاسيًا ، وهو يجيب :

ـ (الزوريوم) .

انتفض جسد الدكتور (راشد) ، وهو يقول :

ـ بالطبع يا سيِّدى .. بالطبع .

أشار القائد الأعلى إلى جسد (محمود) الجامد ، وهو يقول :

ـ ماذا ستفعلون به هذه المرة ؟!

كان الدكتــور (راشــد) ينوى منحه اقتراحًا فوريًا ، إلا أنه سيطر على لسانه ، وهو يقول فى حذر :

ـ فى انتظار أوامرك .

تراجع القائد الأعلى فى مقعده ، وهو يقول :

ـ أريد وضعه فى تابوت من الرصاص .

كان هذا بالضبط ما ينوى الدكتور (راشد) اقتراحه ، وعلى الرغم من هذا فقد غمغم مندهشًا :

ـ من الرصاص ؟!

أكمل القائد الأعلى ، وكأنه لم يسمعه :

ـ تحت الأرض بثلاثة أمتار .

خُيِّل للدكتور (راشد) أنه لم يسمع العبارة جيِّدًا ، فمال برأسه نحو القائد الأعلى ، متسائلاً :

ـ عفــوًا .

ضرب القائد الأعلى سطح مكتبه بقبضته ، هاتفًا :

ـ أريده داخل تابوت من الرصاص ، مدفونًا على عمق ثلاثة أمتار ، تحت سطح الأرض .. أهذا أمر مفهوم ، أم يحتاج إلى تفسير ؟!

اعتدل الدكتور (راشد) بحركة حادة ، قائلاً :

ـ مفهوم يا سيِّدى .. مفهوم .

ثم ألقى نظرة حذرة على (محمود) ، قبل أن يستطرد :

ـ وحتى يتم تنفيذ الأمر ، ماذا سنفعل به ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ سيبقى هنا .

ردد الرجل فى ذهول :

ـ هنـــا ؟!

أجابه بمنتهى الصرامة :

ـ نعم .. هنا .

تراجع الدكتور (راشد) فى خوف واضح ، وهو يقول :

ـ كما تأمر يا سيّدى .. كما تأمر .

لم يكد الجدار يتموّج أمامه ، حتى وثب عبره فى سرعة ، وانطلق يعدو مبتعدًا ، وكأنما يطارده وحش رهيب ..

أما القائد الأعلى ، فقد ظلّ صامتًا خلف مكتبه ، حتى توقّفت تموّجات الجدار تمامًا ، ثم استدار فى بطء ، يلقى نظرة ظافرة على جسد (محمود) الجامد كالتمثال ، ثم نهض من خلف مكتبه فى بطء ، واتجه نحوه ، وهو يقول :

ـ الحقيقة موجعة .. أليس كذلك ؟!

دبّت الحيوية فجأة فى الجسد الجامد ، واستدار إليه (محمود) فى بطء ، وهو يقول فى مقت :

ـ لو أنها الحقيقة .

تألّقت عينا القائد الأعلى ، وهو يقول ، مع ابتسامته الظافرة :

ـ أنت تدرك أنها الحقيقة .

قال (محمود) فى توتر :

ـ ربما زرعتها فى رأسى فحسب .

قال القائد الأعلى فى سخرية :

ـ حقًّا ؟!

بدا (محمود) عصبيًا ، وهو يقول :

ـ لا تنس أننى جبت كل دوائركم الرقمية ، و ...

قاطعه فى حسم :

ـ أنت تعلم أنك لن تجد حرفًا واحدًا من الحقيقة ، فى نظامنا كله .

ثم مال نحوه ، مضيفًا فى سخرية :

ـ أعنى النظام الذى يمكنك ولوجه بالطبع .

قــال (محمــود) ، وهــو يحــاول عبثًا تحــريك ذراعيــه أو ســاقيه :

ـ وماذا عن النظام الآخر ؟!

لوَّح بيده ، قائلاً :

ـ لن يمكنك الولوج إليه .

كرَّر (محمود) فى إصرار :

ـ مــاذا عنه ؟!

أطلق القائد الأعلى ضحكة ساخرة ، وهو يعود إلى ما خلف مكتبه ، ويقول فى بطء :

ـ لن يمكنك كشف أغواره ... أبدًا .

هتف به (محمود) فى حدة :

ـ أنت لست بشريًا .

ابتسم القائد الأعلى فى سخرية أكثر ، وهو يقول :

ـ ألديك جديد ، أم أن هذا كل ما تجيده ؟!

قــال (محمود) فى غضب ، يثبت أنه يستعيد طبيعته الآدمية بالفعل :

ـ لن تنجو بفعلتك هذه .

هزَّ القائد الأعلى كتفيه فى استهتار ، قائلاً :

ـ ومن سيمنعنى ؟!.. ألم تنتبه بعد إلى أنك عاجز عن تحريك أى شىء فى جسدك ، باستثناء عنقــك وعينيــك ولسانك ؟!.. ألم تسمع بنفسك المصير الذى أعددته لك ؟!

ومال على سطح مكتبه ، مضيفًا فى تشفٍ :

ـ إنها بضع ساعات ، وستصبح مدفونًا داخل صندوق من الرصاص ، على عمق ثلاثة أمتار ، فى باطن الأرض .

ثم التقط نفسًا قويًا ، وعاد يتراجع مكملاً :

ـ ولأننى أعتبرك حالة خاصة جدًا ، فسأعمل على أن تستعيد حــالة نصــف الوعى هــذه ، داخــل تابوتك المصــنوع من الرصاص .. ولأن جســدك ليس بشريًا ، ومصنوع من مادة حيوية طويلة العمر ، فستبقى واعيًا داخل سجنك ، أو قبرك الجديد ... إلى الأبد .

بدا مصيرًا مفزعًا ، حتى بالنسبة لـ (محمود) ، الذى قال فى غضب :

ـ هذا لن ينهى الموقف .

قال القائد الأعلى فى استهتار :

ـ ومن يرغب فى إنهائه ؟!

هتف (محمود) ، وكأنه يستفزه :

ـ الرفاق سيواصلون القتال ، حتى آخر رمق .

عاد القائد الأعلى يميل نحوه ، قائلاً :

ـ هذا لو أنه ما زال لديهم رمق .

ثم استدار ، ومرَّر يده فوق دائرة حمراء ، على سطح مكتبه ، فتألَّقت منطقة فى فراغ الحجرة ، ثم ظهرت عندها شاشة هولوجرامية ..

وبمنتهى اللهفة ، أدار (محمود) عينيه إلى الشاشة الهولوجرامية ، فى نفس اللحظة التى قال فيها القائد الأعلى ، فى سخرية شامتة :

ـ لو أنك أحسنت رؤية هذا ، فستدرك أن نهاية رفاقك قد كُتِبَتْ بالفعل .

واتسعت عينا (محمود) فى ارتياع ..

فما قاله القائد الأعلى كان صحيحًا تمامًا ..

إنها النهاية ..

النهاية بلا ريب .

* * *

انتهى الجزء الرابع بحمد الله

ويليه الجزء الأخير بإذن الله

(نهاية العالم)

ملف المستقبل

سرى جدًا !!

صدر من هذه السلسلة

رقم الإيداع : ٢٣٣٧٢
٩٧٧ - ٣٧٨ - ٢٤٨ - ٤

نيران المستقبل

- صراع رهيب ، ذلك الذى خاضه (نور) وفريقه ، حتى أمكنهم الخروج من سجن المخابرات التكنورقمية ..
- وبين الأطلال ، بدءوا مرحلة جديدة .. مرحلة مقاومة لخصم يجهلونه ، وعدوّ لا يعلمون عنه شيئًا ..
- وعلى الجانب الآخر للأسوار ، توالت مفاجآت رهيبة ، واشتعلت نيران مخيفة .. نيران الخطر .. نيران المستقبل ..
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل مع (نور) وفريقه .. من أجل المستقبل .



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية



د. نبيل فاروق

ملف المستقبل
سلسلة روايات بوليسية للشباب من الخيال العلمى

159

الثمن فى مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم



مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

ملف المستقبل
سرى جدًّا !!

160

د. نبيل فاروق

نهايـــة العالم !



ملف المستقبل ..

فى مكان ما من أرض (مصر) ، وفى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجـد القيـادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسريَّة مطلقـة ؛ من أجل حماية التقدُّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجـل الحفـاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدّم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحـة من عالم الغـد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل .

د. نبيل فاروق

1 ـ ذلك الشىء ..

على الرغم منه ـ ارتجف جسد الدكتور (راشد) ، كبير علماء مركز أبحاث المخابرات التكنورقمية ، التى حلَّت محل المخابرات العلمية ، بعد تلك الكارثة الرهيبة ، التى تعرَّضت لها مصر كلها ، واختفى معها (نور) وفريقه ، لأكثر من ثلاثين عامًا ..

ارتجف جسده ، وهو يتطلَّع إلى جسد (محمود) ، المصنوع من (الزوريوم) الحيوى ، ورجال أمن الحصن يضعونه فى ذلك التابوت الرصاصى السميك ، استعدادًا لدفنه فى أعماق الأرض ..

كانت عينا (محمود) مفتوحتين ، تحدّقان أمامه بلا حياة ، وجسده جامد كتمثال من المعدن ، مما أورثه مظهرًا مخيفًا ، لم يستطع الدكتور (راشد) احتماله طويلاً ، فأشاح بوجهه عنه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هل سنمضى النهار كله فى هذا ؟!

أجابه أحد الرجال فى دهشة :

ـ الأمر لم يستغرق نصف ساعة بعد ..

فعليًا ، كان الرجل على حق تمامًا ، فلم يبدأ هذا الأمر ،

إلا منذ أقل من نصف الساعة بالفعـل ، ولكن الدكتور (راشد) كان يشعر وكأنه يقف أمام ذلك الجسد الزوريومى ، منذ دهر كامل ..

كان التوتر يملأ جسده كله ، وهو يحاول الانشغال عما يحدث ، باستعادة ذكريات قريبة نسبيًا ..

لقد شهد فى حداثته تلك الكارثة الرهيبة ، التى تعرَّضت لها مصر ، إثر مهمة خرج فيها (نور) وفريقه ، لاستكشاف كهف زاخر بغموض لا حدود له .. كهف قادهم إلى كشف حضارة هائلة ، تكمن فى باطن الأرض ، قبل أن تظهر حضارتنا إلى الوجود بآلاف السنين ..

حضارة نشأت قبلنا ، وتطوَّرت فى معزل عنا ، ثم بدأت تستطلعنا ، عندما أصبحنا نمثِّل خطرًا عليها ..

حضارة وجدت نفسها أمام خيار واحد لا غير ..

إما استمرارها ..

أو استمرارنا ..

فاتخذت قرارها ..

ودمرتنا ..

شهد هـذا فى حداثته ، ولكنه لم يستوعبه ، إلا عندما انضمَّ إلى المخابرات التكنورقمية ، بعد الكارثة بسنوات ..

أيامها ، كان يتصوَّر أنه قد استوعب كل شىء ، حتى فوجئ بعـودة فريق (نور) بغتة ، بعد أن سجَّل التاريخ اختفاءهم ، وافترض موتهم(★) ..

مع عودتهم ، بدأ القائد الأعلى يتصرَّف على نحو عجيب ..

لقد أحاطهم بحصار قوى ، حتى يمنعهم من معرفة ما يدور خارج أسـوار حصن المخابرات التكنورقمية ، وحتى يعزلهم تمامًا عن المقاومة الرهيبة ، التى تدور هناك .. فى قلب أطلال (القاهرة) الجديدة ..

وعلى الرغم من أن (نور) وفريقه قد أتوا من زمن سابق ، بالنسبة للعصر الذى استعادوا فيه وعيهم ..

وعلى الرغم من الفارق التكنولوجى الرهيب ..

ومن كل ما فعله القائد الأعلى ، للسيطرة عليهم ..

على الرغم من كل هذا ، قاتلوا ..

وقاوموا ..

وأنقذوا (مشيرة) ، التى احتجزها القائد الأعلى ؛ لإجبار (أكرم) على خيانة رفاقه ..

(★) راجع قصة (المفقودون) ... المغامرة رقم (153)

واستعانوا بـ (طـارق) ، حفيـد (نور) و(سلوى) ، وابن (نشوى) و(رمزى) ، وبطاقة (الزوريوم) الهائلة ، التى تسرى فى جسد (محمود) الجديد ، و ...

وفرّوا من الحصن ..

فرّوا إلى الأطلال ، حيث فصائل المقاومة ..

حيث الذئب ، الذى يقود كل الفصائل ..

حيث صار (طارق) الصغير ، ابن (نور) ، و(محمود) الصغير ، ابن (نشوى) ، زعيمين من زعماء المقاومة ..

وحيث عالم جديد ..

عجيب ..

مخيف ..

مثير للحيرة ..

والشك ..

عالم لم يمكنهم حسم موقفهم منه ..

هل يقاتلون إلى جوار المقاومة ؟!..

أم إلى جوار مخابرات الحصن ؟!..

كانوا قد كشفوا أن القائد الأعلى ليس كما يبدو عليه ..

وربما ليس بشريًا ..

على الإطلاق ..

وفى الوقت نفسه ، لم يمكنهم أبدًا أن يثقوا فى الذئب ، زعيم زعماء فصائل المقاومة ..

ثم إنهم قد كشفوا أن ذلك العالم ، محاصر بحاجز عجيب خفى ..

حاجز شبه مخملى ، ولكنه شديد الصلابة والقوة ..

حاجز يختلف عن كل ما عهدوه أو عرفوه من قبل ..

وفى نفس الوقت ، الـذى قرر فيـه القـائد الأعلى وضع (محمود) ، بجسده المصنوع من (الزوريوم) الحيوى ، فى تابوت سميك من الرصاص ، ودفنه فى أعماق الأرض ؛ ليعزله تمامًا عن أى مصدر للطاقة ، كان الدُّب يمضى ، بأوامر من الذئب ؛ للتخلُص من (محمود) و(طارق) الصغيرين ، وكان (نور) وفريقه يواجهون ذلك الشىء ..

ذلك الشىء الرهيب ..

جـدًّا(★) ..

(★) لمزيد من التفاصيل راجع الأجزاء الأربعة الأولى (عالم جديد) ، (أطلال الماضى) ، (حرب الغد) ، و(نيران المستقبل) .. المغامرات أرقام (156) ، (157) ، (158) ، (159) .

انتفض جسد الدكتور (راشد) ، قبل حتى أن يبلغ عقله نهاية ذكرياته ، عندما قال أحد الرجال فى توتر :

ــ انتهينا .

اتسعت عينـا الدكتور (راشـد) ، وهـو يحدّق فى بقعـة الأرض ، التى اختفى تحتها ذلك التابوت الرصاصى السميك ، الذى يحوى جسد (محمود) ، وظلّ لسانه عاجزًا عن النطق لحظات ، قبل أن يقول فى عصبية :

ــ سنصب فوقه أرضية من الأسمنت المصفّح .

بدت دهشة عارمة على الرجال ، وغمغم أحدهم :

ــ ولمـاذا كل هذا ؟!

لم يكن الدكتور (راشد) يملك جوابًا فعليًا ، عن هذا السؤال !!..

بل لم يكن يدرى حتى لماذا طلب القائد الأعلى كل هذا ؟!..

ولماذا يخشى (محمود) إلى هذا الحـد ؟!..

لمـاذا ؟!..

ولأنه لا يملك جوابًا ، فقد هتف بصاحب السؤال ، فى صرامة عصبية :

ــ نفذ الأوامر فحسب .

لزم جميع الرجال الصمت بعد هتافه ، وبدءوا فى تنفيذ الأمر بالفعل ..

وهناك ، تحت أقدامهم ، وداخل ذلك التابوت الرصاصى السميك ، كان (محمود) يرقد ساكنًا ، مفتوح العينين ، يحدّق فى الظلام أمامه ، وهو يدرك أنه سيظل يحدّق فيه لمئات السنين ..

ما لم يتغيَّر شىء ..

أى شىء ..

لم يكن يدرى ما الذى فعله به القائد الأعلى ، ووضعه فى تلك الحالة من شبه الجمود !!

ولكن ما أطلعه عليه ، قبل أن يضعه فى هذه الحالة ، كان رهيبًا ..

رهيبًا بحق ..

كان يكفى لتدمير ذلك الجزء البشرى منه ..

تمامًا ..

أما الأسوأ من هذا ، فهو ما أراه إياه ، مما يواجهه رفاقه ..

فوفقًا لما رآه ، سيكون مصير كل من يعرفهم هو الدمار ..

الدمار التام ..

بلا رحمة ..

* * *

اتسعت عينا الدُب عن آخرهما ، وهو يحدِّق فى وجه (طارق) ، الذى صوَّب إليه مسدسه التردُدى ، وهو يقول فى صرامة :

ــ أهذا ما أوصاك به جدى ؟!..

بدا صوت الدُب شديد التوتر والانفعال ، وهو يقول :

ــ لا تسئ تفسير الموقف .

رأى (محمود) و(طارق) الصغيرين يظهران ، من خلف كتفى (طارق) ، ورأى فى عيونهما نظرة اتهام مزَّقت مشاعره ، و(طارق) يقول :

ــ حقًّا ؟!.. تتسلَّل إلى هنا ، وخنجرك فى يدك ، ثم لا ينبغى أن أسىء تفسير الموقف .. هل يبدو لك هذا منطقيًا ؟!

انتفض جسد الدُب ، وهو يقول ، وقد تضاعف انفعاله :

ــ لم أتسلَّل إلى هنا لإيذائكم ..

قال (محمود) الصغير فى غضب :

ــ لماذا كان خنجرك إذن ؟!

أجابه منتفضًا :

ــ لحمايتى من أى هجوم مفاجئ .

صدمته نظرات الشك والاستنكار ، التى أطلَّت من عيون ثلاثتهم ، فاستطرد فى عصبية منفعلة :

ــ رجال الحصن خالفوا كل ما اعتدناه منهم ، وصاروا يخرجون إلى الأطلال ، ويعتقلون من يشاءون ، والأمور لم تعد كما كانت ، ولا بد للمرء من الحذر .

سأله (طارق) الصغير فى غضب :

ــ وستحمى نفسك بخنجر .

بدا تأثُّر شديد فى ملامحه وصوته ، وهو يقول :

ــ وماذا أملك سواه ؟!

لدقيقة كاملة تقريبًا ، ظلّ ثلاثتهم يحدقون فيه فى صمت ، وقد امتزجت مشاعرهم على نحو عجيب ..

فعلى الرغم من ضخامته ، بدا لهم الدُب بائسًا مسكينًا ، وهو ينطق عبارته الأخيرة ، حتى إن (طارق) خفض مسدسه ، وهو يميل نحوه ، قائلاً :

ــ أليس من المفترض أنكم تملكون بعض التكنولوجيا .

هزَّ الدُب رأسه نفيًا ، فى أسى أكثر ، وهو يغمغم فى بؤس :

ــ الذئب وحده يملكها .

سأله فى اهتمام :

ــ ولماذا لا تحظون كلكم بها ؟!

هزَّ كتفيه الضخمين ، قائلاً :

ــ لأن ما نملكه من التكنولوجيا ، لا يتجاوز ما رأيتموه فى مقر الزعيم .. إنه يستخدمها للتواصل مع رجلنا داخل الحصن فقط .

تبادل الثلاثة نظرة دهشة عارمة ، قبل أن يغمغم (طارق) :

ــ رجلكم داخل الحصن ؟!.. هــل يعمل أحــد أفراد الحصن لحسابكم ؟!

غمغم الدُب فى عصبية :

ــ كيف علمنا أن الفريق قد عاد إذن ؟!

اعتدل (طارق) ، وشرد ببصره بضع لحظات ، قبل أن يغمغم :

ــ رباه !.. هذا لم يخطر ببالنا هناك قط !!..

وخفض مسدسه إلى جوار جسده ، وهو يتحرَّك فى المكان مستطردًا ، وكأنه يحاور نفسه :

ــ ولكن كيف ؟!.. نظم الأمن لدينا شديدة التطوّر ، وهى تلتقط أى اتصال ، يمكن أن يتجاوز الأســوار ، فكيف يمكن لرجلكم أن يتجاوز كل هذا ، ويرسل إليكم معلوماته .

غمغم الدُب ، وهو يدير عينيه فى ثلاثتهم فى حذر :

ــ ربما هو أحد ذوى الشأن هناك .

انعقد حاجبا (طارق) فى شدة ، وهو يقول ، مواصلاً حواره مع نفسه :

ــ من ؟!.. ثلاثة فقط يمكنهم هذا .. القائد الأعلى ، والدكتور (راشد) ، و(هيثم) ..

توقَّف فجأة ، وازداد انعقاد حاجبيه على نحو عجيب ، جذب انتباه (طارق) و(محمود) الصغيرين بشدة ، وهو يقول :

ــ من المستحيل أن يكون (هيثم) ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يقول فى صوت خافت ، بدا أشبه بالهتاف :

ــ الدكتور (راشد) .

انعقد حاجبا الدُب الكثَّان فى هــذه اللحظة ، وهو ينقل بصره بين ثلاثتهم ..

(طارق) كان غارقًا فى المفاجأة ..

و(محمود) و(طارق) الصغيران يتابعانه ، فى لهفة وفضول ..

ولا أحد يراقبه ..

لذا فقد حسم أمره ..

و ...

وانقض ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

ذلك الشىء الذى برز من أعماق الأرض ، كان رهيبًا بحق ..

لم يكن كائنًا حيًا ، وإنما كان آلة ..

آلة عملاقة ، لها هيئة دودة هائلة ، ذات أسنان شديدة الحدة ، من الصلب القوى ..

وعينان تشتعلان لهيبًا ..

لهيبًا حقيقيًا ..

ولقد ارتفع ذلك الشىء الآلى العملاق أمام (سلوى) و(نشوى) و(رمزى) ، من أعماق الأرض ، ودار وكأنه ينظر إلى ثلاثتهم ، بالعينين المشتعلتين باللهب ..

كان كأنه يرصدهم أولًا ، قبل أن ينقضَّ عليهم ..

ومع شدة رعبهم ، تراجع الثلاثة فى صمت ، وقد اتسعت عيونهم عن آخرها ، وخفقت قلوبهم كما لم تخفق من قبل ..

ومن بعيد ، وصل مسامعهم دوى رصاصات ..

رصاصات تقليدية ، يستحيل أن تؤثِّر فى شىء كهذا ..

مستحيل تمامًا ..

ولقد دار ذلك الشىء حول نفسه ، والتفَّ على نحو عجيب ، وانكمش على نفسه ..

ثم انقضَّ ..

انقضَّ على ثلاثتهم ..

بكل قوته ..

قبل هـذا بلحظات ، كـان شىء مماثل ينقضَّ على (نور) و(أكرم) ، فى شراسة أكبر ، وعنف أكثر ..

وبكل قوته ، وثب (نـور) جانبًا ، يحتمى بجدار هائل قديم ، سقط نصفه وتهالك معظمه ..

كان عقله يمر بحالة عنيفة من التوتر والعصبية ، بعـد أن سمع صرخة (سلوى) تستنجد به ، وتناديه باسمه ..

ويواجه ذلك الشىء ، فى الوقت ذاته

وكان عليه أن يجد وسيلة لإنقاذ نفسه والذود عنها ، وعن ابنته ورفاقه ..

ومما يراه أمامه ، كان هذا يبدو مستحيلاً ..

وبكل المقاييس ..

أما (أكرم) ، فلم يعمل عقله بالسرعة نفسها ..

بل غريزته وحدها عملت ..

وبأقصى سرعة ..

لقد رأى ذلك الشىء ينقض ، وشاهد العينين الملتهبتين تشعَّان بكل الشر ، فاستل مسدسه التقليدى ، ووثب إلى الخلف ، وترك جسده يسقط على ظهره ..

وأطلق رصاصاته ..

أطلقها نحو العينين الملتهبتين مباشرة ..

لم يدرس الموقف ..

أو يحسبه ..

أو حتى يخشاه ..

فقط تحرَّك ..

وبكل بدائيته ..

وأطلق الرصاص ، و ...

وأصاب الهدف ..

وعلى نحو عجيب ــ انفجرت عينا اللهب بدوى مكتوم ..

ومع انفجارهما ، انطلق من كل منهما عمود طويل من النار ..

وعلى الرغم من أن ذلك العمود الأوَّل من اللهب ، قد مرَّ على مسافة متر كامل من (أكرم) ، إلا أنه شعر بلفحه ، كما لو كان حممًا ملتهبة ، تفجرت من بركان ثائر ..

أما عمود النار الثانى ، فقد أصاب ذلك الجدار ، الذى يختفى خلفه (نور) ، وشعر هذا الأخير بلفح النيران ، وبذلك الجدار القوى يتزعزع من مكانه ، فوثب إلى الأمام ، وتدحرج مبتعدًا عن بقايا الجدار ، الذى انهار أرضًا ، على قيد سنتيمترات قليلة منه ..

وعلى الرغم من لفح النيران ، وعنف سقوط الجدار ، وثب (نور) و(أكرم) واقفين متحفزين ، مستعدين لهجوم تالٍ ..

ولكن تلك الدودة الآلية العملاقة دارت مرة أخرى حول نفسها ، ثم انتصبت واقفة ، وكأنها عمود من الصلب ، وجمدت فى مكانها تمامًا ..

ثم فجأة ، فقدت تماسكها كله ..

وهـــوت ..

هوت كالحجر ، لترتطم بالأرض بمنتهى العنف ، على نحو ارتجّ له المكان كله ، واتسعت معه عينا (أكرم) ، وهو ينظر إلى مسدسه فى دهشة ، مغمغمًا :

ــ مستحيل !!.. هل من الممكن أن ..

لم ينتظر (نور) ليسمع عبارته ، وهو يهتف :

ــ الرفاق .

انتزع الهتاف (أكرم) من دهشته ، وجعله يعدو بكل قوته خلف (نور) ، وهو يهتف :

ــ رباه !.. لو أنه نفس الشىء ..

لم يتم عبارته بإرادته هـذه المـرة ، وكلاهما يعدوان نحو المكان ، الذى تركا فيه (سلوى) و(نشوى) و(رمزى) ..

كان الثلاثة يعدون فى كل الاتجاهات ، فى محاولة للفرار من تلك الدودة الآلية العملاقة ، التى راحت تدور حول نفسها ..

وتنقض ..

وتنقض ..

وتنقض ..

كانت فى كل مرة ، تضرب مبنى أو جدارًا ، فيتحطّم أو يتهدّم فى عنف ، و(سـلوى) تواصل صراخهـا ، وهى تعـدو مع (نشوى) ، محاولتين الفرار من ذلك الهجوم ، فى حين يبحث (رمزى) عن وسيلة لحمايتهما ..

ولكن تلك الدودة الآلية العملاقة التفّت حولهم فى مهارة ، توحى بأنها مزوّدة ببرنامج ذكاء اصطناعى شديد القوة ، وحاصرتهم فى مساحة ضيقة بين بقايا مبنيين قديمين ، واعتدلت ، وهى تحدق فيهم بعينيها الشبيهتين بجمرتين من الجحيم ، فاحتضنت (نشوى) زوجها ، وهى ترتجف ، قائلة :

ــ إنها النهاية ..

احتضنتها (سلوى) بدورها ، وهتفت من وسط دموع اليأس :

ــ (نور) .. أين أنت ؟!

مع هتافها تراجعت الدودة الآلية العملاقة ، استعدادًا للانقضاض ، و ... وهنا ، ظهر (نور) و(أكرم) ..

كانا يثبان نحوهم فى سرعة وخفة ، و(أكرم) يهتف :

ــ هنا أيها الوغد .. التفت إلىّ ..

بدا كـأن تلك الدودة المعدنية قد سمعته وفهمته ، فقد التفت إليه بالفعل ، وازداد لهيب عينيها اشتعالاً ، فاندفع (نور) نحو ابنته وزوجته وزميله ، فى حين رفع (أكرم) مسدسه ، وهو يكمل :

ــ هيا .. دعنى أرى عينيك الناريتين .

لا أحد يدرى أى برنامج هذا ، الذى تم تزويد تلك الدودة العملاقة به ، ولكن من المؤكد أنه برنامج شديد القوة ، أو أن ذلك الشئ يدار عن بعد .. وبوساطة عباقرة ..

أو غرباء ..

المهـم أنه ، وأيًا كانـت ماهيتـه ، أو ماهية مـن صـنعوه أو يديرونه ، قد أبدل هدفه ، وانقضّ على (أكرم) ..

وكما فعل فى المرة السابقة ، أطلق (أكرم) رصاصاته ..

أطلق رصاصة اخترقت إحدى العينين ، وأطلقت منها لسان النار المخيف ، الذى ضرب الأطلال ، وانعكس كالحمم على جسد (أكرم) ، الذى أطلق صرخة ألم عالية :

ــ أيها الوغـد .

ولكن المشكلة أن رصاصته الثانية لم تصب هدفها ..

لقد ارتطمت بالجسم المعدنى القوى ، على مسافة أقل من سنتيمتر واحد من العين الملتهبة ..

وانقضّ ذلك الشئ مرة أخرى ..

وفى هذه المرة ، كانت انقضاضته عنيفة للغاية ..

وسريعة إلى أقصى حـد ..

سريعة ، حتى إن (أكرم) لم يجد الوقت ، حتى ليعيد تصويب مسدسه .. وبكل القوة ، ضربته تلك الدودة العملاقة ..

ومع آلام رهيبة ، فى صدره وبطنه ، شعر بجسده يطير ..

ويرتطم بالجدارن القديمة ..

ثم يهوى ..

هوى مرتطمًا بالأحجار المتهدمة ، وشعر بمزيد من الآلام ، تنتشر فى كل مكان فى جسده تقريبًا ..

ودار ذلك الشئ ؛ لينقض عليه مرة أخرى ..

وهذه المرة ، كان يبرز أسنانه شديدة الحدة ..

وقبل حتى أن يرفع (أكرم) مسدسه ، كان ذلك الشئ ينقض بأسنانه ، ويطبقهما على هدفه ..

وبمنتهى القوة ..

* * *

2 ـ الأطــلال ..

صمت رهيب ، ران على حجرة القائد الأعلى ، وهو يجلس خلف مكتبه ، ويتابع ما تعرضــه تلك الشاشة الهولوجرامية الكبيرة أمامه ..

بوسيلة ما ، كان يرصد كل ما يحدث هناك ..

فى قلب الأطــلال ..

ولسبب ما ، كان شديد الاستمتاع بما يراه ..

(نور) وفريقه يقاتلون ذلك الشىء ..

ذلك الشىء الذى ينقض عليهم بعين واحدة ملتهبة ..

وبمنتهى منتهى العنف ..

كان قد رأى كيف واجه (أكرم) الدودة العملاقة الأولى ..

وكيف أسقطها ..

بمنتهى البدائية ..

آلة تكنولوجية عملاقة ، أسقطتها رصاصات تقليدية قديمة ..

رصاصات لم ينتظرها أو يتوقَّعها أحــد ..

على الإطلاق ..

ولكن (أكرم) لم يعد قادرًا على إسقاط الثانية ..

وها هى ذى تنقض عليه ، و ...

فجأة ، اختفت تلك الصورة الهولوجرامية ، وخفتت الإضاءة دفعة واحدة ، بلا مقدمات ..

ثم ظهرت تلك التموّجات العجيبة ، فى سقف الحجرة ، ومنها انبعث ذلك الضوء غير التقليدى ..

وعلى الرغم من غضبه ، نهض القائد الأعلى فى سرعة ، ووقف تحت ذلك الضــوء ، وراحت ملامحه تستعيد أصلها غير البشرى ، وهو ينصت فى اهتمام شديد ..

اهتمام بدا معه من الواضح أنه يتلقى اتصالاً ما ..

اتصال بالغ الأهمية ..

إلى أقصى حد ..

وفى عصبية ، غمغم :

ـ كلا .. ما زلت أسيطر على كل شىء .. إننى أدير الأمور ، منذ أكثر من ثلاثين عامًا ، دون أن تختل لحظة واحدة

أنصت مرة أخرى ، ثم أضاف ، فى عصبيّة أكثر :

ـ فرارهم لا يعنى شـيئًا .. إنهم ما زالوا تحت سيطرتى ، وما حدث لا يتجاوز ما يحدث بالفعل .. اختبار .

تزايدت التموجات فى السقف على نحو واضح ، فقال فى توتر :

ـ لا .. لا ينبغى أن أتدخَّل على نحو سافر .. لابد أن يسير كل شىء بأسلوب طبيعى للغاية ، حتى لا يتطرَّق الشكّ إلى أحد منهم .

صمت لحظات ، وتابع :

ـ أعلم أنهم يشكّون فيما يدور بالفعل ، ولكننى واثق من أنهم لا يتصوَّرون الحقيقةَ ، ولا تقترب عقولهم حتى منها .

كانت تلك التموّجات تختلف ، من الشدة إلى الهدوء ، ومن سرعة التغيير إلى بطئه ، على نحو يوحى بأنها حديث متصل ..

حديث غير أرضى ..

بانفعالات نعرفها أرضيًّا ..

بانفعالات تتراوح بين الصرامة ، والشدة ، والغضب ، والحسم ، والحزم ، والجدال ..

وكانت ردود أفعال القائد الأعلى ، هى خير دليل على هذا ..

ففى تلك اللحظة ، بدا عصبيًّا أكثر ، وهو يقول :

ـ مستحيل !.. مهما بلغ ذكاء عقولهم ، لن يمكنهم حتى تخيُّل الحقيقة ، ولا حتى الاقتراب منها .

عادت التموّجات تتزايد ، فى الشـدة والسرعة والحجم ، فقال فى صرامة ، امتزجت بعصبية :

ـ كثيرون أمكنهم الوصول إلى (كوباء) ، ولكن أحدًا لم ينجح فى اختراقه حتى الآن ، ولن ينجح أحدهم .. حتى هم ، لن يمكنهم هذا .

استمع إلى تلك التموّجات مرة أخرى ، ثم شد قامته ، على نحو شبه عسكرى ، وهو يقول :

ـ نعم .. إننى أتحمَّل المسئولية كاملة .

هدأت التموّجات تدريجيًّا ، حتى اختفت فى السقف تمامًا ، فغمغم هو ، وهو ، يستعيد وجه (أيمن) ، ويعود إلى مكتبه :

ـ أتحملها كاملة .

لم يكد يستقر خلف مكتبه ، حتى عادت تلك الشاشة الهولوجرامية للعمل ، ونقلت إليه صورة ما يحدث هناك ..

فى قلب أطلال الماضى ..

وفى شدة ، انعقد حاجباه ..

فمن الواضح أن ما رآه كان يختلف عما توقَّعه ..

كثيرًا ..

جـــدًا ..

* * *

انقضت تلك الدودة الآلية العملاقة على هدفها بكل قوتها ، وهى تبرز أنيابًا معدنية طويلة ، شديدة الحدة ..

وتراجع (أكرم) بقدر استطاعته ..

وشهقت (سلوى) ..

وصرخت (نشوى) ..

وارتجف (رمزى) ..

ووثـــب (نـــور) ..

وأطبقت تلك الأنياب الرهيبة ..

ولوهلة ، تصورَّ (أكرم) أن تلك الأنياب قد انطبقت على جسده ..

وأنها قد مزَّقته تمزيقًا ..

وبكل قوته ، أغلق عينيه ، ورفع يده ليحمى وجهه ، و ...

وسمع صوت تحطُّم زجاج سميك ..

وشعر بلفح لهيب رهيب ..

وارتفعت حرارة الصخرة التى سقط عليها إلى حد مخيف ، جعله يثب من فوقها ، مطلقًا صرخة محدودة ..

ومن المؤكَّد أن وثبته هذه قد جاءت فى موعدها ..

وبمنتهى الدقـــة ..

ففى اللحظة التالية مباشرة ، هوت تلك الدودة الآلية العملاقة ، على قيد سنتيمترات قليلة منه ، وكان لارتطامها بالأرض وقع رهيب ، ارتجَّ معه المكان كله ، وتهاوت معه قطع كبيرة من الصخور ، جعلت (نور) ورفاقه يتراجعون بحركة غريزية ، فى حين رأى (أكرم) قطعة كبيرة من الصخر تهوى نحوه ، فحاول تفاديها ، إلا أنه شعر بيد قوية تجذبه بعيدًا ، مع صوت خشن ، يقول فى لهجة ، امتزجت فيها الجدية بالسخرية :

ـ رأسك ليس صلبًا إلى هذا الحد ..

أغمض (أكرم) عينيه ، مع كمية الغبار الهائلة ، التى صحبت الانهيار ، ولكن فضوله الشديد جعله يفتحهما ، على الرغم من

هذا ؛ ليحدّق فى ذلـك الواقف أمامه ، فى نفس اللحظة التى تحرّك فيها (نور) فى توتر ؛ محاولاً حماية صديقه ، وهتفت فيها (سلوى) :

ــ رباه !.. من هذا ؟!

كان ذلك الرجل ، الواقف أمام (أكرم) وسط الغبار ، يبدو أشبه بصورة من كتاب تاريخ قديم ، أو من رواية تاريخية ، من روايات سير (والتر سكوت) العظيمة(*) ..

كان طويلاً ، متين البنيان ، يحمل قوسًا بدائيًا ، وعلى كتفه جعبة من أسهم ، ذات رءوس معدنية قوية ، التف على كل منها شكل زجاجى شبه كروى ، يمتلئ بسائل ما ..

وعندما اندفع (نور) و(رمزى) نحوه ، لم يبد اهتمامًا ملحوظًا ، وهو يتابعهما ببصره ، فى حين نهض إليه (أكرم) ، وسأله فى توتر ، لا يحمل أدنى أثر للضغينة ..

ــ من أنت يا رجل ؟!

(*) سير (والتر سكوت) : (1771 ــ 1832م) : شاعر روائى بريطانى ، تخرج من جامعة (أدنبره) ، ودرس فى (اسكتلندا) ، وبدأ حياته العملية بجمع الأشعار الشعبية فى بلدته ، من أشهر أعماله (سيدة البحيرة) عام (1810م) ، و(ايفنهو) ، عام (1830م) ، وروايته عن (صلاح الدين الأيوبى) (الطلسم) ، عام (1831م) .

أجابه فى هدوء ، لا يتفق حتى مع الموقف :

ــ يمكنـك أن تدعونى (إتش) ، كمـا كان يدعونى أصدقائى المقربون فيمـا مضى ، أما اسـمى الرسمى ، فهو (هاشم) .. ولست أظن للألقاب أية أهمية ، فى هذا العصر .

بلغه (نور) و(رمزى) فى هـذه اللحظـة ، ولكنهما لاذا بالصمت ، واكتفيا بتفحص الرجل ، الذى لم يبد أيضًا اهتمامًا بهذا ، و(أكرم) يشير إلى الدودة الآلية ، التى سقطت أرضًا ، متسائلاً :

ــ هل أسقطت هذا الشىء ، بتلك الأسهم البدائية .

ابتسم (هاشم) ، وهو يسحب أحد الأسهم ، ويشير إلى الرأس المعدنية ، والقارورة الزجاجية الملصقة بها ، قائلاً :

ــ ليست بدائية تمامًا كما تبدو .. تلك الرءوس مصنوعة من (السوبرتيتانيوم) ، وهى سبيكة جديدة نسبيًا ، تبلغ صلابتها ثلاثة أمثال صلابة مادة (التيتانيوم) القديمة ، وهى أخف وزنًا بمرتين على الأقل(*) ، أما تلك القنينة الملصقة بها ، فهى تحوى حمضًا أمينيًا شديد الفتك .

(*) (تيتانيوم) : عنصر فلزى ، أبيض فضى لامع ، (رمزه تين) تصنع منه سبيكة مع الصلب ، فيزيد من صلابته وقـوة شـده ، وهو يستخدم فى صنع المواد أو الأشياء ، التى تحتاج إلى مزيد من الصلابة والخفة ، مثل مكوك الفضاء .

ثم غمز بعينه ، مضيفًا :

ـ وسريع التأثير أيضًا .

نقل (أكرم) بصره ، بين (هاشم) وتلك الدودة العملاقة ، قبل أن يمد يده إلى الرجل ، قائلاً :

ـ لقد أنقذت حياتى .. شكرًا لك .

تجاهل الرجل اليد الممدودة إليه ، ورفع قوسه على ظهره ، وهو يقول ، فى استهتار عجيب :

ـ لم أسع إلى هذا فى الواقع ، ولكننى أبغض تلك الأشياء ، وخروجها إلى السطح ، كان فرصة لم يمكننى تفويتها .

استدار ، وكأنه يهم بالانصراف ، قبل أن يلتفت مرة أخرى إلى (أكرم) ، قائلاً :

ولقد جذبنى دوى رصاصاتك ، الذى اشتقت إلى سماعه طويلاً :

غمغم (أكرم) ، بشىء من الابتهاج :

ـ حقـًا ؟!

أدار (هاشم) عينيه فيهم جميعًا ، وتوقفت نظراته لحظات عند (سلوى) و(نشوى) ، قبل أن تتركز عند (نور) ، وهو يسأل فى حذر :

ـ أنتم هاربون مثلى .. أليس كذلك ؟!

جلس (نور) على جسم تلك الدودة الآلية العملاقة ، وهو يقول :

ـ أأنت هارب ؟!

هزَّ (هاشم) كتفيه بلا مبالاة ، وقال :

ـ أظننى أحاول هذا .

ثم ابتسم ابتسامة عجيبة ، فيها من الأسى أكثر مما فيها من السخرية ، وهو يضيف :

ـ منذ ثلاث سنوات .

تبادل الجميع نظرة متوترة ، قبل أن يسأله (رمزى) فى حذر :

ـ ومم تفر بالضبط ؟!

أشـار (نور) إلى (رمزى) ، وكأنه يعترض سؤاله ، وهو يسأل (هاشم) بدوره :

ـ وما الذى منعك من الفرار ؟!

انقلبت شفتا الرجل ، فى غضب وامتعاض ، وهو يقول :

ـ (كوباء) .

هتف (أكرم) مستنكرًا :

ـ مـاذا ؟!

لوّح (هاشم) بيده ، فى توتر ملحوظ ، وهو يجيب :

ــ ذلك الحاجز العجيب ، الذى يحيط بكل شىء .. حاجز حاولت اختراقه ، لأكثر من ثلاث سنوات ، ولكننى فشلت تمامًا .

احتقن وجهه ، وهو يضيف فى حــدة :

ــ إنهم يحتجزوننا هنا ، كما لو كنا حيوانات أليفة ، داخل قفص مخملى ، يستحيل اختراقه .

تمتمت (سلوى) فى توتر :

ــ ولكنهم محتجزون داخله مثلنا .. ألا يوحى هذا بأنهم صنعوه للحماية ، وليس للاحتجاز .

قال فى عصبية :

ــ هذا لو أنك تتصوّرين أنهم من يحكمون كل هذا .

جذبت العبارة انتباه (نور) فى شدة ، فسأله فى اهتمام :

ــ إلى ماذا تشير بالضبط يا هذا ؟!

أجابه فى صرامة :

ــ (هاشم) .. اسمى (هاشم) .

ثم مال نحو (نور) بشدة ، حتى لفحت أنفاسه وجه هذا الأخير ، وبدت عيناه وكأنهما تغوصان فى أعمق أعماقه ، وهو يضيف :

ــ ولو أن ما بلغنى صحيح ، وأن ذاكرتى لم يصبها الصدأ ، وبدت قلة الاستخدام ، فأنت المقدّم (نور الدين) .

واعتدل بحركة حادة ، وهو يدير عينيه فى الباقين ، مستطردًا :

ــ وهذا فريقك .. زوجتك (سلوى) ، وابنتك (نشوى) ، وخبير علم النفس الشهير ، الدكتور (رمزى) ، و ...

توقف بصره عند (أكرم) ، وصمت لحظة ، قبل أن يتابع :

ــ (أكرم) .

بدا كأن التأثر قد غلبه بضع لحظات ، ثم أضاف بصوت مختلج :

ــ مثلى الأعلى .

هتف (أكرم) فى فرحة غمرت توتره :

ــ أنــا ؟!

تنحنح (هاشم) على نحو عصبى ، وأشاح بوجهه عن (أكرم) ، وعاد يتطلّع إلى (نور) ، ورفاقه المشدوهين ، وهو يقول فى صرامة مفاجئة :

ــ ولكن ممن تفرّون أنتم .. يا أسطورة الماضى ؟!

لم يجب أحدهم سؤاله ، فى حين شدّ (نور) قامته ، وعقد ساعديه أمام صدره ، وهو يقول فى صرامة :

- لم تجب سؤالى بعد ؟!

ابتسم (هاشم) فى سخرية مريرة ، وهزّ رأسه فى بطء ، قائلاً :

- أنت الأسطورة .. اكشف هذا بنفسك .

قالها ، واستدار لينصرف ، فوثب (نور) نحوه ، وأمسكه من ذراعه ، وجذبه إليه ، وهو يهتف فى صرامة :

- انتظر .

أطلق الرجل صرخة قتالية مخيفة ، امتزجت بزمجرة وحشية ، ودار على عقبيه فى حركة شديدة السرعـة ، وانطلقت صرخة (سلوى) مدوّية ، وخنجره يهوى ...

على قلب (نور) مباشرة ..

* * *

منذ اللحظة الأولى ، أثبت الدُب أنه مقاتل شرس ، لا يشق له غبار ، وأنه ، وعلى الرغم من ضخامته ، خفيف الحركة إلى حد مدهش ..

ففى لحظة واحدة ، اختار خصومه ، وانقضّ على (طارق) ، وكبّل حركته بذراعه اليسرى ، وهو ينتزع منه مسدسه التردّدى بيمناه ..

وعندما اندفع (محمود) نحوه ، أطلق زمجرة مخيفة ، وهو يستدير ويركله فى صدره ركلة عنيفة ، دفعته حتى آخر الحجرة ، وضربته بجدارها فى قوة ..

وبكل ما يملك من إرادة ، انتزع (طارق) الصغير نفسه من المفاجأة ، ووثب يتعلّق بعنق الدُب ، الذى أطلق زمجرة أكثر قوة ، وتراجع دون أن يفلت (طارق) الكبير ، حتى ضرب (طارق) الصغير بالجدار خلفه فى عنف ، شعر معه هذا الأخير بآلام رهيبة فى عموده الفقرى ، اضطرته لإفلات عنق الدُب ، الذى دار حول نفسه فى خفة ، على الرغم من أنه ما زال يحمل (طارق) فى ذراعه اليسرى ، وركله ركلةً عنيفةً ، أسقطته أرضًا ..

وعندما استجمع (محمود) الصغير قـواه ، ونهض لمواصلة القتال ، وجد فوهة المسدس التردُّدى مصوّبةً إلى صدره ، و(طارق) الكبير يحاول عبثًا التخلُّص من ذراع الدُب الأقوى من الصلب ، فى حين سقط (طارق) الصغير أرضًا ، والدُب يضع قدمه على صدره فى قوة ..

ولقد شاهد هذا لحظة واحدة ، ففى اللحظة التالية ، دار الدُب نصف دورة ، وألقى (طارق) الكبير بكل قوته ، فارتطم بجسد (محمود) بمنتهى العنف ، وسقط الاثنان أرضًا ، والآلام تصرخ فى كل أنحاء جسديهما ..

وقبل حتى أن يستعيدا وعيهما ، كان الدُب يجلس أمامهما ، وسلاح (طارق) فى يده الضخمة ، مصوبًا إلى رأسيهما مباشرة ..

مرَّت ثانيتان من الصمت المتوتر ، قبل أن يقول (طارق) فى عصبية :

ــ ماذا تنتظر ؟!

ظلّ الدُب يحدّق فيه لحظات ، دون أن يحمل وجهه أية انفعالات ، ثم أدار مسدسه فى يده بحركة سريعة ، ومدَّ يده به إلى (طارق) ، وهو يمسكه من ماسورته ، وكأنه يدعو (طارق) للإمساك به ..

وللحظات ، تردَّد (طارق) ، الذى لم يستوعب ما فعله الدُب ، ثم لم يلبث أن مدَّ يـده إلى مقبض مسدسه فى حـذر ، فغمغم (محمود) الصغير ، فى توتر شديد :

ــ احترس .

ولكن (طارق) أمسك مقبض مسدَّسه ، وشدَّد قبضته عليه ، ثم جذبه من يد الدُب فى حذر ، وتخلّى عنه الدُب فى بساطة ، وظلّ يحدّق فى عينى (طارق) لحظة ، ثم لم يلبث أن نـهض ، واتجه نحو (طارق) الصغير ، وانحنى يساعده على النهوض ، وهو يقول بصوته الغليظ :

ــ هل يكفيك هذا ؟!

سأله (طارق) ، وهو ينهض فى حذر ، مصوّبًا مسدسه إليه :

ــ يكفينى لمـاذا ؟!

جلس الدُب على مقعد خشبى قريب ، وهو يقول :

ــ لتمنحنى ثقتك .

بدت الدهشة على وجوه ثلاثتهم ، وغمغم (محمود) الصغير :

ــ هل فعلت كل هذا لــ ...

قاطعه الدُب فى هدوء :

لكى تدركوا أننى ، لو كنت أنشد قتلكم ، لفعلت ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى غلظة :

ــ وما كنتم تستطيعون منعى .

وصمت لحظة أخرى ، ليتابع :

ــ كما رأيتم .

ران على ثلاثتهم صمت مهيب ، استغرق ما يقرب من دقيقة كاملة ، لاذ خلالها الدُب بالصمت التام ، وهو ينظر إليهم ، وهم يقتربون من بعضهم البعض ، و(محمود) و(طارق) الصغيرين ينظران إلى (طــارق) ، وكأنهما ينشدان المشـورة ، فوضع مسدسه فى غمده ، وهو يقول :

ــ لماذا أتيت إلى هنا متسلّلاً إذن ؟!

أجابه الدُّب فى حــزم :

ـ لقد سبق أن أخبرتك .

ثم مال نحوهم فى جلسته ، مضيفًا :

ـ كنت أحاول حمايتكم .

غمغم (طارق) الصغير ، فى دهشة مستنكرة :

ـ تحمينا ؟!.. مم ؟!

نهض الدُّب من مقعده القديم ، على نحوٍ مفاجئ ، زاد من الإحساس بضخامته ، وهو يلوِّح بيديه ، قائلاً :

ـ المفترض أنكم هنا فى منزل آمن ، ولكن الذئب لديه بالفعل عين ، داخل الحصن ، ولقد علم أن بعضهم كشف أمركم ..

مال نحوهم مرة أخرى ، مضيفًا فى حزمٍ غليظ :

ـ ويرغب فى القضاء عليكم .

مرة أخرى تبادلوا نظرة صامتة ، ثم قال (طارق) فى حزم :

ـ ما زال هذا لا يبرِّر تسلُّلك إلى هنا .

زمجر الدُّب ، قائلاً :

ـ لو رأونى لقتلونى أيضًا .

بدت إجابته شديدة المنطقية ، حتى إن الصمت غلَّفهم مرة أخرى ، حتى تحرَّك (طارق) الكبير ، وجذب مقعدًا ، جلس عليه قبالة الدُّب ، الذى عاود الجلوس بدوره فى توتر ، فمال (طارق) نحوه ، يسأله :

ـ وإلى أية جهة ينتمى أولئك ، الذين يسعون لقتلنا ؟!

هزَّ الدُّب رأسه فى عصبية ، مجيبًا :

ـ لست أدرى .

تفرَّس (طارق) ملامحه بضع لحظات ، فى تمعُّن شديد ، فشعر الدُّب بالتوتر ، وأشاح بوجهه ، وهو يقول فى عصبية أكثر :

ـ لقد أجبتك .

ظلَّ (طارق) يتفرَّسه بضع لحظات أخرى ، ثم لم يلبث أن تراجع فى مقعده ، وقال فى هدوء حازم :

ـ هل تعلم أيها الدُّب ، أننى فعليًا ، أصغر الموجودين هنا سنًّا ؟!

عاد الدُّب ببصره إليه فى حيرة ، فتابع بنفس الحزم :

ـ القياسات العمرية فى عائلتنا كلها مختلة ، على نحــو عجيب ؛ بسبب كل ما مرَّ به الفريق من أمور عجيبة وغريبة ، وكل ما خاضه من مواجهات ، من قاع المحيط ، وحتى أعماق الكون السحيق .

تمتم الدُّب فى حيرة أكثر ، امتزجت بتوتّر عنيف :

ـ لقد قرأنا هذا التاريخ .

تابع (طارق) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ إثر تجربة عجيبة من غرباء ، قلب فى المحيط ، قفزت أمى (نشوى) بغتة ، من الطفولة إلى الشباب ، حتى إن عمرها صار مقاربًا لعمر أمها وجدتى (سلوى)(*) ، ثم وبانتقالهم عبر الزمن ، لأكثر من ثلاثين عامًا ، قضوها فى غيبوبة عميقة ، وجد جدى وجدتى نفسيهما فى سن خالى (طارق) ، وشقيقى (محمود)(**) .. وفعليًّا أنا شقيق (محمود) الأصغر ، وهو يكبر خالى (طارق) ، وعـودة الفريق جعلت الرائد (نور) ، وزوجته (سلوى) ، يعيشان فى عمر متقارب ، مع ابنيهما وحفيديهما ، و ...

قاطعه الدُّب فى عصبية :

ـ ما الذى يعنيه كل هذا بالضبط ؟!

مال (طارق) نحوه بحركة مباغتة ، قائلاً :

ـ يعنى أننى قد نجحت فى استثارة أعصابك ، حتّى يمكننى كشف أغوارك .

(*) راجع قصة (سادة الأعماق) .. المغامرة رقم (62) .

(**) راجع قصة (عالم جديد) .. المغامرة رقم (156) .

حدّق فيه الدُّب بنظرة بلهاء ، فتابع فى صرامة :

ـ موهبة ورثتها عن والدى (رمزى) ، أسطورة التحليل النفسى ، وكشف أغوار الطبيعة البشرية .. موهبة جعلتنى أدرك أنك تكذب ، عندما تقول : إنك لا تعرف هوية من يسعون لقتلنا .

بدا الدُّب شديد العصبية ، وهو يقول :

ـ إنك تضيع وقتًا ثمينًا ، برواياتك العقيمة هذه .. إننا لم نكن نعلم علاقتك بالأسطورة وفريقه ، أما الباقى ، فأى طفل هنا يحفظه عن ظهر قلب ، وهذا بالتأكيد ليس الوقت المناسب لترديده ، فهم فى طريقهم إلى هنا .

صاح به (طارق) فى غضب :

ـ من هم ؟!

أجابه صوت (محمود) الصغير مرتجفًا :

ـ اخفض صوتك يا شقيقى .. إنهم هنا بالفعل .

وثب (طارق) من مكانه ، فى نفس اللحظة ، التى زمجر فيها الدُّب ، قائلاً فى غضب :

ـ أرأيت ؟!

وبنظرة واحدة ، عبر فرجة النافذة ، أدرك (طارق) أن الدُّب كان صادقًا بالفعل ..

لقد كان هناك جيش صغير يحاصر ذلك المنزل الآمن ، الذى يختبئون فيه ..

جيش مسلَّح بالأسلحة البيضاء ..

وبالقلوب السوداء ..

جــدًّا .

* * *

3 ـ الحصار الأسود ..

ليل أسود طويل ، ذلــك الذى سيمضيه (طارق) ، فى سجنه الضيق هذا ، حتى تنفد طاقة (الزوريوم) الحيوى من جسده ..

ليل بلا نهاية ..

حصار بلا حدود ..

حصار أسود ..

أســـود ..

بل شديد السواد ..

ووفقًا لتلك المعلومات ، التى تدفَّقت من (الزوريوم) الحيوى إلى عقله وأعماقه ، كان يدرس أن ذلك الحصار لن يستمر أعوامًا ..

بل سيستمر قرونًا ..

قرون طويلة ، قبل أن تنفد الطاقة ، ويعود جسده الزوريومى إلى ما كان عليه منذ البداية ..

فراغ ..

مجرَّد فراغ ..

وحتى هذا الجسد ، المصنوع من (الزوريوم) الحيوى ، والذى امتزجت به جيناته الأصلية ، يرقد فى حالة عجيبة من الجمود ..

المادة نفسها تزخر بالطاقة ، ولكنه لا يستطيع تحريك أنملة منه ، لسبب يجهله تمامًا ..

القائد الأعلى فعل به شيئًا ما ، عندما لمسه ..

شىء لا تستطيع حتى طاقة (الزوريوم) فهمه ..

شىء غير أرضى ..

وغير بشرى ..

حتمًا ..

ولكن ، على الرغم من هذا ، فالمشكلة ليست فى سجنه ، الذى يبدو أنه سيستمر ، إلى نهاية العالم ..

المشكلة فى رفاقه ..

إنهم يعانون ..

ويتعذبون ..

ويواجهون خطرًا ، لا قبل لهم به ..

هذا ما رآه ..

أو ما أراه إياه ذلك القائد الأعلى ..

شىء ما فيه اخترق عقله ..

وغاص فى أعماقه ..

وأراه ..

أراه ما يحدث ..

وما سوف يحدث ..

أراه الحاضر ..

والمستقبل ..

اخترق معه حدود الزمان والمكان ، وجعله يشاهد ذلك المصير الرهيب ، الذى ينتظر رفاقه ..

كلهم سيفنون ..

كلهم ..

وبلا استثناء ..

حتى هذا العالم ، سيفنى ..

وسيضيع ..

إلى الأبد ..

« لا .. » ..

تفجَّرت تلك الصرخة قوية فى أعماقه ، وارتجَّ لها جسده كله ..

لا .. لن يرقد هنا ساكنًا ، ويترك رفاقه يواجهون هذا المصير الرهيب ..

لن يستسلم لرؤية مستبقلية ..

فمهما كان وضوح الرؤية ، فالمستقبل لم يحدث بعد ..

والمستقبل بيد الله (سبحانه وتعالى) ..

أدهشه ذلك الشعور القوى ، الذى جاب كل خلية من خلاياه ، فور ذكره لاسم الله (عزَّ وجلَّ) ..

ومن أعمـــق أعماقه ، استيقظت مع الكلمـــة ، تلك المشاعر البشرية الجامدة ..

ومن كل خلجة من خلجاته ، انطلق الهتاف ..

هتاف باسم الخالق عزَّ وجلَّ ..

وانتفض جسده ..

انتفـــض ..

انتفـــض ..

وانتفض ..

ولسبب يجهله ، قفز إلى ذهنه اسم واحد ..

(س ــ 18) ..

ومع الاسم ، وثب سؤال مهم جدًّا ..

لقد عاد الجميع ..

فأين (س ــ 18) ..

ماذا أصابه ؟!..

مــــاذا ؟!..

* * *

« هنـــا » ..

نطق القائد الأعلى الكلمة ، فى صرامة شديدة ، وهو يواجه الرائد (هيثـــم) ، الذى حاول أن يتماسك ، مع ذلك الخوف العجيب ، الذى صار جزءًا من شخصيته ، منذ بدأ يرى القائد الأعلى بصورة جديدة ..

صورة مخيفة ..

مفزعة ..

ورهيبة ..

وفى تردد متوتر ، غمغم :

ـ هل نحتفظ به هنا ؟!

صمت القائد الأعلى لحظة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ ما الذى ذكرك به ؟!

لم يدر (هيثم) حقًّا بِمَ يجيب !..

لقد وثب الاسم فجأة إلى ذهنه ..

وثب ، وكأنما نبت من العدم ..

كان منهمكًا فى بعض الأعمال ، عندما وثب الاسم والسؤال إلى ذهنه ..

لقد عاد جميع أفراد الفريق ، والتاريخ يذكر الكثير عن لحظة اختفائهم ..

ولكن (س ـ 18) اختفى تمامًا ..

اختفى من التاريخ ..

ومن الوجود ..

وحتى من الأذهان ..

لا أحد يذكره ..

أو يتحدَّث عنه ..

أو يعلم حتى كيف يبدو ..

لا أحـــد ..

على الإطلاق !!..

فكيف هذا ؟!..

كيـــف ؟!..

« لم تخبرنى بعد ، ما الذى ذكَّرك بذلك الآلى ؟!.. »

بكل الصرامة ، انتزعـــه القـــائد الأعلى من أفكاره وتوتره ، فانتفض جسده ، وهو يقول فى سرعة :

ـ صدقنى يا سيِّدى .. لست أدرى !

كان يتوقَّع من القائد الأعلى ثـــورة أو غضبًا ، فتراجع بحركة غريزية ، وهو يلقى عبارته ، ولكن القائد الأعلى تراجع فى مقعده ، وتطلَّع إليه طويلاً ، ورفع سبَّابته ، يداعب بها ذقنه ، فى تفكير عميق ، قبل أن يقول ، وكأنه يردد قوله :

ـ لست تدرى ؟!..

صمت طويلاً ، وعلامات التفكير العميق تملأ وجهه ، ثم لم يلبث أن اعتدل ، وسأله فى اهتمام شديد :

ـ صف لى ما حدث بالضبط ؟!

حار (هيثم) فى الجواب ، فقلب كفيه ، مغمغمًا فى توتر :

ـ لســت أدرى حتّى ماذا حــدث يا سـيّدى .. كنت أؤدّى ما أمرتنى به ، وفجأة ، شعرت كأن السؤال قد اقتحم أعماقى ، وسيطر علىّ ، حتى إنه دفعنى للقدوم إلى هنا ، و ...

قاطعه القائد الأعلى بإشارة من يده ، فابلتع باقى عبارته على الفور ، وبدأ يتنفّس فى سرعة وتوتر ، وكأنه يواجه اختبارًا رهيبًا ، واتسعت عيناه نسبيًا ، وهو يحدّق فى القائد الأعلى ، الذى انعقد حاجباه فى شدة ، وبدا كأنه قـد استغرق تمامًا فى تفكير عميق ، قبل أن يعتدل فجأة ، قائلاً :

ـ على أية حال ، إننا نحتفظ بجسده الآلى المنيع هناك ، فى قبو الحصن .

ردّد (هيثم) بأنفاس مبهورة :

ـ فى قبو الحصن ؟!

أومأ القائد الأعلى برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ نعم .. فى القبــو السفلى .. داخل الحجرة الحصينة .. إنه هناك منذ زمن طويل .

ظلّ (هيثم) يحدّق فى القائد الأعلى لحظات ، وهو لا يدرى ، حتّى فى أعمق أعماقه ، لماذا ينبغى أن يثير هذا اهتمامه ..

إنهم يحتفظون بجسم (س ـ 18) هناك ..

داخل الحجرة الحصينة ، فى القبو السفلى للحصن .

ففيم يعنيه هذا ؟!..

ولماذا تصوَّر أنه يعنيه ؟!..

أو يمكن أن يعنيه ؟!..

لمــاذا ؟!

لم تستمر أفكاره طويلاً ، قبــل أن يقاطعه القائد الأعلى فى حسم ، قائلاً :

ـ هل تريد شيئًا آخر ؟!

انتفض جسده مرة أخرى ، وقال :

ـ مطلقًا يا سيّدى .

أشار إليه القائد الأعلى ، قائلاً فى صرامة :

ــ عد لإكمال ما أمرتك به إذن .

قالها ، وذلك الجزء من الجدار يتموَّج ، معلنًا انتهاء الزيارة ، فتراجع (هيثم) نحوه ، وهو يقول فى توتر شديد :

ــ فورًا يا سيِّدى .. فورًا .

وثب عبر الفتحـــة التى تكونت فى الجدار ، والتى اختفت فور خروجه ، وعاد الجدار يتموَّج مرة أخرى ، ثم استعاد قوامه الصلب ، فتراجع القائد الأعلى فى مقعده ، وقال لنفسه فى غضب :

ــ السؤال اقتحم أعماقه ، وسيطر على عقله !!.. من أقحمه إذن ، ولماذا ؟!

نهض مــن خلف مكتبـه ، ودار حــوله ، ليقف فى منتصف الحجرة ، مكملاً :

ــ من غيرنا يمتلك تلـك القـدرة ، على الغـوص فى عقول البشر ؟!.. من يمكنه هذا ؟!

تحرَّك مرة أخرى ، وهو يضيف :

ــ ولماذا (س ــ 18) ؟!

توقف فجأة ، وشردت أفكاره لحظة ، ثم استطرد فى صرامة :

ــ ولماذا (هيثم) ؟!

توقَّف لحظات فى تفكير عميق للغاية ، ثم اعتدل فى حسم ، وقال بمنتهى الحزم والصرامة :

ــ يبدو أنه لا مفر من تطبيق القاعدة الأساسية للقتال .. التضحية بالقطع ، التى يمكن ألا تجلب المتاعب ، لإخلاء الطريق أمام النصر .

اتجه مباشرة إلى جهاز الاتصال الهولوجرامى فوق مكتبه ، ومرَّر يده فوقه ، فظهرت شاشة الاتصال الهولوجرامية ، وعليها وجه قائد أمن الحصن ، الذى قال فى لهجة عسكرية صرفة :

ــ أوامرك أيها القائد الأعلى .

أجابه فى لهجة آمرة صارمة :

ــ الرائد (هيثم) قد يتجه ، فى أية لحظة الآن ، إلى الحجرة الحصينة ، فى القبو السفلى .. مرَّ من توليهم ثقتك من رجالك ، أنهم لو رأوه يفعل ..

صمت لحظة ، ثم أضاف بمنتهى الصرامة :

ــ أن يقتلـــوه .

على الرغم من الدهشة العارمة ، التى تملَّكت قائد أمن الحصن ، إلا أنه ظلَّ محتفظًا بلهجته العسكرية الصرفة ، وهو يقول :

ــ أمرك يا سيِّدى .

أنهى القـائد الأعلى الاتصال ، وصمت لحظـات ، وهو يقف وقفة مشدودة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ المشكلة أنك ، حتى لو تجاوزت كل هذا ، فلن تجد ذلك الآلى هناك أيها الرائد .. ولن تعرف أين هو أبدًا .. أبدًا .

نطقها بكل الصرامة ..

وكل الوحشية ..

كلهـا ..

* * *

عجيبة هى سرعـة رد الفعـل ، التى يكتسبها من اعتادوا مواجهة الخطر ..

وبخاصة من عايشوه طويلاً ..

وعرفوه ..

وألفـوه ..

وصار جزءًا من حياتهم اليومية ..

ففى نفس اللحظة ، التى ارتفع خنجر (هاشم) ؛ ليهوى على قلب (نور) ، وثب (أكرم) .

لم تكن المسـافة ، التى تفصله عـن (نور) كبيرة ، ولكن سرعة رد فعله كان لها تأثير كبير ..

كبير جدًّا ..

ففى أقل من الثانية ، كانت أصابعه الفولاذية ، تقبض على معصم (هاشم) ، قبل أن يبلغ نصل خنجره قلب (نور) ، بسنتيمتر واحد ..

وعندما اكتملت الثانية ، كان يلـوى معصم الرجـل فى قوة ، وهو يهتف فى صرامة شديدة :

ـ إياك و(نور) .

وفى الثانية التالية ، كان يضرب قدم (هاشم) إلى الأمام ، ويلوى ذراعه إلى الخلف ، فاختـل توازن الرجل ، وسقط منه خنجره ، وارتطم بالأرض فى عنف ، وجثم (أكرم) فوقه ، وهو يضيف :

ـ إنه صديقى .

المدهش أن (هاشم) لم يغضب ..

ولم يقـاوم ..

أو حتى يثور ..

إنه ، على العكس تمامًا ، ابتسم فى وجه (أكرم) ، مغمغمًا فى لهجة أشبه بالفخر :

ـ كان ينبغى أن أتوقَّع هذا .

استفزَّ هذا الأسلوب البارد (أكرم) ، فرفع قبضته المضمومة ، ليهوى بلكمة غاضبة على وجـــه (هاشم) ، إلا أنه فوجئ بيد (نور) من خلفه تمسك قبضته ، وسمع صوته يقول :

ـ لا تفعل .

وأضاف (رمزى) فى هدوء ، لا يتفق مع الموقف :

ـ إنه لم يقصد قتل (نور) .

قال (أكرم) فى عصبية :

ـ ولكنه كاد أن يفعلها .

أجابه (رمزى) ، وهو يشترك مع (نور) ، فى إبعاد قبضته :

ـ إنه رد فعل غريزى ، لمقاتل هارب ، يختفى وسط الأطلال وحيدًا ، منذ سنوات .

غمغم (هاشم) ، دون أن يقاوم :

ـ هذا صحيح .

حدَّق (أكرم) فيه بضع لحظات بلا اقتناع ، حتى قالت (نشوى) فى خفوت :

ـ لا بأس .. اتركه .

وأضافت (سلوى) فى توتر شديد :

ـ اتركه يا (أكرم) .. أرجوك .

أطلق (أكرم) زفرة عصبية طويلة ، قبل أن يقول :

ـ لا بأس .. مادمتم تصرّون .

أفلت الرجل ، وابتعد عنه فى عصبية ، فابتسم (هاشم) مرة أخرى ، واعتدل جالسًا ، وهو يقول :

ـ تمامًا كما قرأت عنك ، فى كتب التاريخ .

قال (أكرم) فى عصبية ، دون أن يلتفت إليه :

ـ لست مسنًّا إلى هذا الحد .

واصل (هاشم) وهو ينهض ، متجاهلاً تعليق (أكرم) تمامًا :

ـ قوى ، وكريم ، وعنيف ، وعطوف .. تملك أخلاقًا شديدة التحضُّر ، ولكنك تعبِّر عنها بأسلوب شديد البدائية .

تجاهله (أكرم) تمامًا هذه المرة ، حتى أضاف فى إعجاب واضح :

ـ لقد كنت ملهمى ، فى السنوات التى قضيتها بين الأطلال .

قال (نور) فى حزم ، وهو يربِّت على كتف (هاشم) :

ــ سيِّد (هاشم) .. من الواضح أنك شخص مثقف ، بالنسبة لأبناء هذا العصر .

قالت (نشوى) فى اهتمام :

ــ ولديك دراية علمية كبيرة أيضًا ، بدليل ذلك السلاح الذى صنعته ، وأسقطت به هذه الدودة العملاقة .

ألقى (هاشم) نظرة على الدودة الآلية ، قبل أن يعتدل نَحو (نور) ، قائلاً :

ــ ما زلت هناك واحدة .

سألته (سلوى) فى قلق :

ــ أهم ثلاث ؟!

هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ــ هذا ما أحصيته من قبل .

أشـــار (نـــور) إلى (رمزى) أن يتابع الحديث ، وهو يقول لــ (هاشم) :

ــ قالت : إنك تحاول الفرار منذ ثلاث سنوات ، بالنسبة لرجل مثلك ، لابد أنك قد اكتسبت خبرة كبيرة ، فى هذا المضمار .

هزَّ (هاشم) رأسه ، قائلاً :

ــ هذا صحيح .

صمت لحظة ، وكأنه سيكتفى بهذا القدر ، إلا أنه لم يلبث أن أضاف :

ــ ومع محاولاتى العديدة ، اكتسبت خبرة واحدة مؤكدة .

سأله (نور) فى هدوء :

ــ وماهى ؟!

مال نحوه بشدة ، مجيبًا فى حزم :

ــ إن اختراق ذلك الحاجز مستحيل .

بدا من الواضح أن (نور) كان يتوقع هذه العبارة ، فقد ظلت ملامحه حادة حازمة ، وظلّ ساعداه معقودين أمام صدره ، وهو يقول :

ــ بالنسبة إليك .

حملت كلمات (هاشم) بعض العصبية ، وهو يقول :

ــ اسمع يا هذا .. ربما يعتبرك أهل هذا العصر أسطورة ، ولكن تاريخك يقول : إنك مجرَّد رجل بارع ، ولم يستطع وفريقه من إنقاذ الأرض من الكارثة ، ولو أنك تتصور أنكم أبرع منى ، فأنت ...

قاطعه (رمزى) ، محاولاً تهدئته :

ــ (نور) يقصد أننا فريق علمى ، والأمور بالنسبة لنا تختلف .

أشار (هاشم) بسبَّابته ، وهو يقول فى عصبية :

ــ إنكم لم تخترقوا ذلك الحاجز بعد .

قال (نور) فى حزم :

ــ ربما لهذا نحتاج إليك .

قال (هاشم) ، فى استهتار عصبى مفتعل :

ــ ولماذا ؟!.. ألستم الأسطورة ؟!

كان (نور) يتخذ وقفته الحازمة الجامدة ، حتى هذه اللحظة ، ولكنه فاجأ الجميع باندفاعة مباغتة نحو (هاشم) ، جذبه خلالها من بقايا سترته القديمة ، وهو يقول فى صرامة :

ــ اسمع يا هذا .. أما زلت تسعى للفرار ، أم إن اليأس قد حوّلك إلى فأر مذعور ، كل ما يسعى إليه هو الاختباء من أنياب القط ؟!

انتفض (هاشم) محاولاً تخليص نفسه ، وهو يقول فى عصبية :

ــ لم أتوقَّف عن المحاولة لحظة واحدة .

اخترق (نور) عينيه ببصره ، وهو يقول ، فى صرامة أشد :

ــ فلنتعاون معًا إذن .

جذب (هاشم) سترته القديمة من يد (نور) ، وحاول تعديل ثيابه شبه المهترئة ، وهو يقول فى عصبية :

ــ وماذا يمكنكم أن تضيفوا ؟!.. كل ما أراكم تحملونه ، كومة من الآلات الرقمية القديمة ، فى مواجهة حاجز ، هو تحفة تكنولوجية حقيرة .

قالت (نشوى) فى ثقة :

ــ لا تقلق من هذا ، سنحصل على أدوات أحدث .

سألها فى حـــدة :

ــ من أين ؟!..

أشارت (سلوى) إلى الدودة العملاقة ، مجيبة :

ــ من هذه .

ولم يفهم الرجل ما تعنيه ..

ولم يكن بإمكانه أن يفهم ..

مطلقًا ..

* * *

التفّ ذلك الفريق حول المنزل الآمن ، أو الذى كان من المفترض أنه آمن ، وحاصره حصارًا كاملاً ، ليحيطه إحاطة السوار بالمعصم ، وهمس أحد الرجال إلى قائد الفريق :

ـ يفترض أنهم هنا .. أليس كذلك ؟!

أجابه قائد الفريق ، فى حزم واقتضاب :

ـ إنهم هنـــا .

سأله متوترًا :

ـ وما الذى علينا أن نفعله ؟!

التفت إليه القائد ، بنظرة شديدة الصرامة ، وهو يقول :

ـ تنفذ الأوامر .

ارتبك الرجل بشدة ، وبدأ يبتعد فى سرعة ، وهو يقول مضطربًا :

ـ أعلم هذا يا سيِّدى .. كنت فقط أتصوَّر أن هناك المزيد .

قلب قائد الفريق شفتيه فى ازدراء ، وهو يتابعه ببصره ، ثم لم يلبث أن انشغل عنه بتوجيه إشارة إلى باقى الفريق ، فتحرك الرجال فى حذر ، حتى صاروا قيد خطوات من المكان ، و ...

وانقضوا فجأة ..

وكانت انقضاضة احترافية بحق ..

لقد انقسموا ، لحظة الهجوم ، إلى ثلاث فرق ..

فرقة انقضّت على باب المكان ..

وثانية على نافذته الوحيدة ..

والثالثة اتخذت مواقعها ، تحسبًا لأية مفاجآت ..

وعندما اقتحموا المكان ، كانوا يتوقعون أن تنتهى العملية فى دقيقة واحدة على الأكثر ..

ولكن ، كانت فى انتظارهم مفاجأة ..

مفاجأة قوية ..

للغـــاية .

* * *

4 ـ المفـاجـأة ..

توتر عنيف ، ذلك الذى سرى فى جسد الدكتور (راشد) ، وهو يراقب آلات التصوير الرقمية السرية ، التى يحفظ أماكنها عن ظهر قلب ، والتى تراقب ذلك المعمل الخاص ، الذى لا يدخله إلا القائد الأعلى وحده ، منذ أكثر من خمسة أعوام .لقد تساءل لفترة طويلة ، عن سر ؛ إغلاق هذا المعمل بالتحديد ، وإحاطته بكل تلك السرية ، ووسائل الأمن شديدة التعقيد !!..

المفترض أنه رئيس أطقم العلماء ، العاملة فى الحصن ، والتى تعد أبرع عقول فى هذا العصر ، وعلى الرغم من هذا ، فلا هو ، ولا أى من العلماء ، مصرَّح لهم بدخول هذا المكان ، الذى يحمل لافتة معمل ..

فما الذى يمكن أن يحويه هذا المعمل ؟!..

أى سر يخفيه ؟!..

بل أى غموض ؟!..

توقَّف لحظات ، بكل التوتر فى أعماقه ، يتطلَّع إلى المعمل ، الذى لن يمكنه حتى بلوغ بابه ، دون أن ينكشف أمره ، وعاد يتساءل : ماذا لو أنه ليس معملاً فعليًا ؟!..

ماذا لو أن هذا الباب يخفى شيئًا آخر ؟!..

شيئًا لا ينبغى لأحد معرفته ، سوى القائد الأعلى .. أو من يعلوه ..

وهنا يكمن سؤال آخر ..

سؤال طرح نفسه لسنوات ، قبل أن يسجنه الجميع فى أعماقهم ، ويحبسونه خلف ألسنتهم ، ويخشون حتى مجرَّد الإفصاح عنه ..

من يعلو القائد الأعلى ؟!..

من يحكم البلاد فعليًّا ؟!

مـــن ؟!..

لا أحد يعلم ..

ولا أحد يدرى ..

ولا أحد حتى يسأل ..

فقط القائد الأعلى من يرون ..

ويعرفون ..

ويواجهون ..

فهل هو من يحكم البلاد فعليًّا ؟!..

ولو أنه كذلك ، فمن يأتيه بالأوامر ، التى يزعم دومًا أنه يتلقَّاها ؟!..

مـــن ؟!..

كان يراقب المكان ، حتى تناهى إلى مسامعه فجأة صوت خطوات تقترب ، فخنق قلبـه فى عنف ، وحبس أنفاسه فى شدة ، وهو يتراجع ، ويختبئ فى ركن مظلم ، أخفاه عن الأنظار ..

وراحت تلك الخطوات تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

ثم مرَّ به جسد يعرفه جيدًا ..

جسد القائد الأعلى ..

مرَّ به ، وتجاوزه دون أن يشعر به ، واتجه نحو ذلك المعمل مباشرة ..

ولهث الدكتور (راشد) فى أعمق أعماقه ..

القائد الأعلى يتجه نحو ذلك المعمل ، ولديه فرصة واحدة لرؤية ما بداخله ، عندما يفتح القائد بابه ..

فرصة ، قد لا تتكرَّر أبدًا ، لاختلاس نظرة واحدة إلى داخل المعمل ..

نظرة ، قد تمنحه فكرة واضحة عما يوجد هناك ..

أو عما يدور هناك ..

نظرة هى فرصة ، لا ينبغى كعالم أن يضيعها أبدًا ..

مهما كان الثمن ..

وبمنتهى الحذر ، مال الدكتور (راشد) برأسه ، وحاول أن يشاهد ما سيفعله القائد الأعلى ، عند المعمل الغامض ..

ومن منظوره ، وزاوية رؤيته ، توقَّف القائد الأعلى أمام ذلك المعمل ..

لم يتوقف أمام بابه ، وإنما أمام جداره ..

وبحركة هادئة ، مرر يده على جزء من ذلك الجدار ، ثم تراجع خطوتين ، واتخذ وقفة عسكرية صارمة ..

ولدهشة الدكتور (راشد) ، انبعث ضوء عجيب ، من عدة أماكن خفية بالجدار ، وراح يدور حـول القائد الأعلى ، الذى ظلَّ على وقفته العسكرية الصارمة ، متجاهلاً ما يحدث تمامًا ..

ولثوانٍ ، ظلَّت تلك الأضواء العجيبة تجوس جسد القائد الأعلى ووجهه ، قبل أن تحدث فجأة ظاهرة عجيبة ..

ظاهرة انتفض معها الدكتور (راشد) فى عنف ..

انتفض لأن ما رآه أمامه كعالم ، يخالف كل ما تعلّمه ورصده فى حياته ..

بل يخالف كل القواعد الفيزيائية المعروفة ، منذ بدء الخليقة ..

فى عالمنا على الأقل ..

لقد انفصلت تلك الأضواء العجيبة عن الجدار ، وراحت تدور حول جسد القائد الأعلى ، كما لو أنها ثعابين ضوئية ..

ثم راح ضوؤها يخبو ..

ويخبو ..

ويخبو ..

حتى اختفى تمامًا ..

وعندئذٍ ... عندئذٍ فقط ، تألق جزء مستطيل من الجدار ، ثم اختفى تمامًا ..

ولأوّل مرة فى حياته ، شاهد الدكتور (راشد) ما وراء الجدار ..

وماذا داخل ذلك المعمل الغامض ..

وكمن أصابه مس كهربى عنيف ، انتفض جسد الدكتور (راشد) بمنتهى القوة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، على نحو لم يحدث فى عمره كله من قبل ..

فما رآه هناك ، خلف ذلك الجدار ، كان مذهلاً ..

وبكل المقاييس ..

بل كان مفاجأة ..

مفاجأة عنيفة ..

قاسية ..

رهيبة ..

بلا حدود ..

* * *

فى دهشة حقيقية ، جلس (هاشم) فوق صخرة كبيرة ، يراقب ما تفعله (سلوى) و(نشوى) ، وما يعدُّه (نور) و(رمزى) ووضع قوسه على ساقيه ، وجعبة الأسهم إلى جواره ، وجاء (أكرم) ، فانضم إليه وناوله زمزميته ، قائلاً :

ــ ألم تشعر بالعطش بعد ؟!

هزَّ (هاشم) رأســه نفيًا ، دون أن يجيب ، فتناول (أكرم) جرعة ماء ، وراقب رفاقه بدوره ، وهو يقول :

ــ أنا أيضًا لا أستطيع استيعاب ما يفعلونه .

ابتسم (هاشم) ابتسامة خفيفة ، وهو يقول :

ــ أعلم هذا .

التفت إليه (أكرم) ، فى دهشة متسائلة ، فتابع فى هدوء :

ــ هذا ما ذكره عنك التاريخ .

قال (أكرم) فى ضيق :

ــ إشارتك المستمرة للتــاريخ ، تجعلنى أشعر كأننى مومياء قديمة ، انبعثت فى عصر حديث .

أجابه (هاشم) ، دون أن يلتفت إليه :

ــ إنك كذلك .

التفت إليه (أكرم) بحركة حادة غاضبة ، ولكنه تابع ، وكأنه لم يلمح هذا :

ــ كلكم كذلك .. لقد بعثتم مرة أخرى ، فى زمن لا تنتمون إليه على الإطلاق .

قال (أكرم) فى صرامة :

ــ ولكننا نتعايش معه .

ابتسم (هاشم) ، فى شىء من السخرية ، قائلاً :

ــ تحاولون هذا..

تفجَّر غضب كبير فى نفس (أكرم) ، فأمسكه من ذراعه فى قوة ، وهو يقول :

ــ اسمع يا هذا لو أنك لا تؤمن بفريقنا ، ولا تحترم وجودنا ، فلماذا تبقى معنا ؟!

ظهر (نور) فى هذه اللحظة ، وهو يقول :

ــ رويدكما .. دعونا ندخر كل طاقتنا ، فى مواجهة ذلك الحاجز العجيب ، ولا نضيعها فى خلافات ومشاجرات خفية ..

قال (أكرم) فى عصبية :

ــ دعــه يطبق شفتيه على أسنانه إذن ، لو أنه يرغب فى الاحتفاظ بها .

التفت إليه (هاشم) فى تحدٍّ ، قائلاً :

ــ عظيم .. دعنى أرى كيف ستفقدنى إياها ، فلن أطبق شفتىَّ أبدًا .

وعلى عكس المتوقَّع ، ابتسم (نور) ، وجلس إلى جوارهما ، قائلاً :

ــ هل تعلمان ما مشكلتكما ؟!

التفتا إليه معًا بنظرة متسائلة ، ملؤها التوتر ، فأردف :

ــ أنكما متشابهان .

قال (أكرم) فى عصبية :

ـ أوليس المفترض أن يجعلنا هذا أكثر تفهمًا ؟!

اقترب (رمزى) ، وهو يشير إليه بيده ، قائلاً :

ـ هـذا يعتمد على طبيعتكما الشخصية الأساسية ، فالمشكلة الفعلية أن كليكما يتمتع بروح زعامة ، تجعله غير قابل لطاعة الأوامر ، وروح التحدى داخلكما عالية ، ضاعف منهـا عمر التعايش مع مخاطر الأطلال لفترة طويلة ، وما يحدث الآن هو أن كلاً منكما يسعى لإثبات أنه الأفضل .

ابتسم (هاشم) فى سخرية ، فى حين قال (أكرم) ، بعصبيته التقليدية :

ـ ألم يقل إننى مثله الأعلى ؟!

قال (هاشم) فى برود مستفز :

ـ تاريخيًا ، وليس على أرض الواقع .

بدا من الواضح أن (أكرم) سيشترك معه فى نقاش حاد ، ولكن (نور) استوقفهما فى صرامة ، قائلاً :

ـ (سلوى) و(نشوى) حصلتا على أدوات مناسبة .

عبارته كانت كافية ، لجذب انتباههما معًا ، فأكمل فى حزم :

ـ وعلينا أن نتوجه الآن إلى ذلك الحاجز .

قال (هاشم) ، وهو ينهض فى حزم :

ـ (كوباء) يا رجل .. اسمه (كوباء) .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، فى حين سأله (رمزى) فى اهتمام :

ـ وكم يبعد (كوباء) هذا عنا ؟!

أدار (هاشم) بصره إلى الغرب ، وقال :

ـ مسيرة نصف يوم ، لو أننا لم نتوقف .

تطلع (نور) إلى حيث أشار ، وقال :

ـ والشمس توشك على المغيب ، مما يعنى أننا سنقطع مسافة قليلة ، قبل أن نضطر للتوقف .

قالت (سلوى) فى إرهاق :

ـ أو نعسكر هنا ، ونبدأ حركتنا مع أول ضوء ، من صباح الغد .

جلست (نشوى) لاهثة ، على حجر قريب ، وقالت :

ـ إننى أؤيد هذا الاقتراح .

اكتفى (رمزى) بهز كتفيه ، دون تعليق ، وأدار (نور) عينيه إلى (أكرم) ، الذى تبادل نظرة مع (هاشم) قبل أن يقول فى حزم :

ــ وأنا أرفضه بشدة .

أطلّت دهشة متوترة ، من عيـون (سلوى) و(نشوى) ، ولكنه تابع بنفس الحزم ، مضيفًا إليه شيئًا من الصرامة :

ــ لقد أسقطنا دودتين عملاقتين آليتين هنـا ، ومن حسن حظنا أنه لم يأت أحد للبحث عنهما بعد ، ولكن البقاء هنا بمثابة النوم فى مسرح الجريمة ، انتظارًا لوصول الشرطة .

غمغم (نور) مبتسمًا :

ــ هذا صحيح .

فأضاف (هاشم) ، فى حزم هادئ :

ــ والقاعدة الأولى ، للعيش وسط الأطلال ، هو ألا تبقى أبدًا فى مكان ، يمكن أن يدركه العدو ؛ فالريسة ينبغى ألا تتوقّف عن مناورة الصياد مطلقًا .

قالت (نشوى) فى توتر :

ــ هذا يعنى أننا الفريسة .

علّق (هاشم) جعبته على كتفه ، وحمل قوسه ، و(أكرم) يقول :

ــ بالتـأكيد .

نهضت (سلوى) فى صعوبة ، وعاونت (نشوى) على النهوض ، فى حين قال (رمزى) فى حزم ، وهو يتجه نحو الآلات الرقمية ، التى استخرجوها من الدودة العملاقة :

ــ الرجال سيحملون الآلات .

قال (هاشم) فى لا مبالاة :

ــ لن أحمل شيئًا .

أشار إليه (نور) ، قائلاً فى صرامة :

ــ ستحملها .

تردَّد (هاشم) لحظة فى عصبية ، فربَّت (أكرم) على كتفه ، قائلاً :

ــ كلنا سنحملها .

تحرك (هاشم) بالفعل نحو الآلات ، مع (أكرم) و(رمزى) ، وعندما انحنى ليلتقط إحداهما ، باغته (نور) ، قائلاً فى صرامة :

ــ من أين فررت يا (هاشم) ؟!.. وممن كنت تفر ؟!

كان يمكن أن يبدو السؤال عاديًا ، لولا رد فعل (هاشم) ..

لقد تسمَّر فى مكانه تمامًا ، وتجمَّد لحظة ، كما لو أنه قد تحوَّل إلى تمثال من الرخام البارد ، ثم لم يلبث أن عاود الحركة ، وهو يقول متحاشيًا النظر إلى (نور) :

ـ من كل شىء .

سؤال (نور) التالى ، بدا صارمًا أكثر :

ـ من بالتحديد ؟!

وفى هذه المرة ، لم يكن هناك مفّر ..

لقد نهض (هاشم) ، دون أن يحمل تلك الآلة ، واستدار فى بطء يواجه (نور) ، وهو يقول :

ـ إلى ماذا تسعى بالضبط ، أيها المقدَّم (نور) ؟!

شد (نور) قامته فى تحدٍّ ، واكتسب صوته صرامة أكثر وأكثر ، وهو يقول :

ـ اعتراف ؟

ولأول مرة ، بدا (هاشم) عصبيًا ، وهو يقول :

ـ اعتراف بماذا ؟!

كانت العيون كلها متجهة نحوه ، والتساؤل يطل منها جميعًا ، ممتزجًا بشىء من الدهشة والتوتر ، ولكن (نور) قال فى حزم :

ـ بأنك من رجال الحصن .

كان سـؤال (نـور) مفاجئًا للجميع ، واتسعت معه عيونهم جميعًا ، إلا أن هذا لم يقارن بما أصابهم ، عندما قال (هاشم) فى حزم ، بعد لحظة من الصمت :

ـ هذا صحيح .

وكانت مفاجأة ..

أكبر مفاجأة ..

* * *

شد الذئب قامته ، وعقد ساعديه خلف ظهره ، على نحو جعله أشبه بزعيم نازى قديم(*) ، وهو يواجـه (مشيرة) صامتًا ، فشعرت هذه الأخيرة بتوتر شديد ، يسرى فى كيانها كله ، وهى تقول فى عصبية :

ـ هيا .. أخبرنى لماذا ؟!

(*) النازية : اختصار لعبارة ألمانية ، تعنى (العنصرية المحلية) أو (الزهو العنصرى العرقى) ، ولقد بدأت بين الشباب الألمانى ، كتطوير للفاشية ، على الجانبين اليمينى واليسارى من السياسة ، ولكنها تحوَّلت إلى أسلوب حكم ، من عام 1933م ، مع تولى (هتلر) السلطة ، حتى عام 1945م ، عندما سقطت (ألمانيا) النازية ، عقب الحرب العالمية الثانية .

مضت لحظات من الصمت ، قبل أن يسألها فى برود :

ــ لمـاذا مـاذا ؟!..

قالت فى عصبية أكثر :

ــ لماذا أحضرتنى إلى هنا ؟!

ابتسم دون أن يجيب ، وتحرك فى المكان فى بطء نسبى ، قبل أن يتوقَّف ، موليًا إياها ظهره ، ويقول فى صرامة :

ــ يمكنك القول بأنك وثيقة تأمينى .

لم تفهم ما يعنيه ..

أو لم يمكنهـا اسـتيعابه ، على الرغم من تاريخهـا الطويل كصحفية لامعة ..

لم تفهم ، حتى إنها حدَّقت فيــه لحظــات ، وهو مازال يوليها ظهره ، ثم قالت فى عصبية ، امتزجت بالخوف هذه المرة :

ــ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

قال فى صرامة شديدة :

ــ الكثير .

ثم التفت إليها بحركة حادة مباغتة ، جعلتها تنتفض فى عنف ، وهو يقول ، فى لهجة أشبه بالصراخ :

ــ والكثير جدًّا أيضًا .

تراجعت (مشيرة) فى ذعر ، حتى حال الجدار بينها وبين الاستمرار ، فالتصقت به فى شدة ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، حتى كادت تفرغ ما بجوفها ، مع أنفاســه شـبه اللاهثة ، وهو يقول فى صرامة ، حملت الكثير من العصبية :

ــ ماذا لو أنهم عادوا ، من رحلتهم المميتة هذه ، وقرروا إزاحتى عن طريقهم ؟!.. ماذا ؟!

تلاحقت أنفاسها ، وهى تقول :

ــ لو أن هذا لصالح (مصر) ، فمن الــ ...

قاطعها بصرخة هادرة :

ــ هــراء .

صرخة جعلتها تلتصق بالجدار أكثر ، وتتمنى لو أنه استطاع ابتلاعها داخله ، وإنقاذها من ذلك الرجل ، الذى لم يبد أبدًا أشبه بذئب حقيقى مفترس ، مثلما بدا فى هذه اللحظة ..

وفى قوة ، انتفض جسدها كله ، وهو يتراجع بحركة عنيفة ، قائلاً ؛ وجسده أيضًا ينتفض ، من فرط الانفعال :

ــ لا تخبرينى بهذا الهراء ، الــذى تسيطرون به على العامة والدهماء .. لا تستخدمى معى اللعبة نفسها ، التى تستخدمها معهم .

امتقع وجهها ، وهى تقول :

ـ أهذا ما ترى الأمر به ؟!.. هراء ولعبة ؟!

عاد يميل نحوها ، على نحو شديد الحدة ، وهو يقول :

ـ لا تحاولى العبث يا امرأة .. أنت تعلمين مثلى أنها ، أولاً وأخيرًا لعبة سيطرة .. قوة .. سلطان .. اللعبة كلها تدور حول من يحتل القمة .. من يجلس على العرش .

والتمعت عيناه على نحو عجيب ، وهو يضيف :

ـ من يضم قبضته على الجميع ، ويملك أن يعتصرهم وقتما يشاء ، أو يفلتهم كيفما يشاء .. السلطة يا ملكة الإعلاميين .. السلطة .. نفس ما قاتلت أنت مـــن أجله ، عندما كنت رئيسًا لأنباء الفيدو .

قالت غاضبة ، على الرغم من ارتجافة صوتها :

ـ ليست السلطة ما كنت أسعى إليه يا رجل .. بل التفوّق .

انطلقت من حلقه فجأة ضحكة ساخرة عالية مجلجلة ، قبل أن يقول ، فى لهجة أقرب إلى الجنون :

ـ ألم أقل لك أنك تعبثين ؟!.. ما الفارق أيتها العبقرية ، بين التفوّق والسلطة ؟!.. التفوّق هو المصطلح الأنيق ، الذى يستخدمه

المثقفون ، لإخفاء نزعتهم إلى السلطة .. التفوّق يعنى أيضًا التواجد على القمة .. نفس اللعبة ، ولكن بمسميات مختلفة .

غلب غضبها خوفها ، وهى تقول :

ـ خطأ أيها المدّعى .. التفوّق أمر فردى ، فلو أنك تفوقت على أقرانك ، فستصبح على قمتهم ، ولكنك أبدًا لن تملك أية سلطة ، أو قدرة على السيطرة عليهم ، ولن تحاول حتى هذا ؛ لأسباب لن يمكنك استيعابها قط .

أطلق ضحكة ساخرة عصبية ، وتراجع مبتعدًا عنها ، ولكنها تابعت فى غضب :

ـ فالشخص الذى يسعى للتفوّق ، يؤمن حتمًا ، كجزء من تكوينه بالحرية ، وهـــذا يتعارض تمامًا مع السيطرة والسطوة وكل ما تتحدّث عنه .. هذا لأن الإيمان بالحرية يعنى إيمانك بحرية الآخرين ، تمامًا كإيمانك بحريتك .

هزّ رأسه فى عصبية ، وقال :

ـ محاضرة عبثية أخرى .

وعاد يستدير إليها ، قائلاً فى شراسة :

ـ ولن أستمع حتى إليها .

قلبت شفتيها فى امتعاض ، قائلة :

ــ وهل تتصوَّر أننى أهتم بسماعك إياها ؟!

صمت لحظات ، وهو يرمقها بنظرة شرسة ، قبل أن يقول :

ــ كـلاَّ .

ابتعد عنها ، واتجه نحو مقعـده ، وجلس عليه فى عظمة ، كما لو أنه يملك العالم ، ثم قال :

ــ زوجك ارتكب أكبر خطأ فى حياته ، عندما تركك خلفه هنا .

قالت فى مقت :

ــ لست أظن زوجى من يرتكب الأخطاء هنا .

ابتسم فى سخرية عصبية ، وتجاهل قوتها تمامًا ، وهو يضيف :

ــ وإن كنت أجهل حتى لماذا يوليك اهتمامًا .

بدا التوتر فى ملامحها ، وحاولت الإشاحة بوجهها ، وكأنما تحاول إخفاء علامات العمر ، المحفورة عليه ، إلا أنه تابع فى قسوة :

ــ إنه ، عمليًا ، يصغرك الآن ، بربع قرن على الأقل .

أصابتها عبارته فى الصميم ، واعتصرت قلبها فى عنف ، وحاولت أن تكتم دموعها فى أعماقها ، حفاظًا على كرامتها ، إلا أنها عجزت عن هذا ، فسالت الدموع مرغمة على وجنتيها ، مما أورثه شعورًا بالظفر ، جعله يتابع فى قسوة :

ــ متى نظرت إلى وجهك فى المرآة آخر مرة ؟!

تفجرت دموعها أكثر ، واختنق صوتها ، وهى تهتف غاضبة ، وإن عجزت عن كتمان تلك المرارة ، التى تفجَّرت كالبركان فى أعماقها :

ــ (أكرم) يحبنى .

قال الذئب فى سرعة :

ــ إلى متى ؟!

كانت ترغب فى إخفـاء دموعها عنــه بقدر الإمكان ، إلا أن سؤاله الأخير جعلها تلتفت إليه بحركة حادة ، فتابع ، وعلى شفتيه ابتسامة ذئب وحشى حقيقى :

ــ إنه يحيا الآن ثورة عاطفية ، ستغمر كيانه كله لعام أو يزيد على الأكثر ، ثم لن يلبث أن ينتبه إلى أنه قـد ربط حياته بعجوز شمطاء ، تتغضن ملامحها أكثر كل يـوم ، ويستهوى نفسه إلى صبية حسناء ، تتناسب مع رجولته وعنفوانه

تمتمت ودموعهـا تنهمر فى غزارة شديدة ، والمرارة تفوح من كل حرف من حروف كلماتها :

ـ هذا ليس (أكرم) .

التمعت عيناه فى ظفر ، وهو يقول :

ـ إنه رجل .

شهقت بدموعها ، وهى تصرخ فيه :

ـ أنت حقير .

نهض فى صرامة ، قائلاً :

ـ وواقعى .

شهقت بدموعها أكثر وأكثر ، وراحت تنتحب على نحو عنيف ، فالتقط هو نفسًا عميقًا فى ظفر ، واتجـه إليها مباشرة ، وأخرج زجاجة صغيرة من يده ، وهو يضيف :

ـ ولدىَّ الحل أيضًا .

على الرغم منها ، أدارت بصرها إلى تلك الزجاجة التى يحملها ، ثم رفعت عينيها إليه فى تساؤل متوتر ، جعله يستطرد :

ـ كما سترين بنفسك .

عاد إلى منضـدته ، وأخرج من تحتها قفصًا صغيرًا ، من أقفاص الطيور ، كمنت داخله هرة كبيرة خائفة ، أشار إليها ، قائلاً :

ـ هل ترين كم يبلغ حجمها ؟!.. بكم تقدرين عمرها يا سيِّدة (مشيرة) ؟!

لم تجب (مشيرة) ، وهى تنظر إليه فى توتر ، فأكمل ، وكأنه لم يكن ينتظر جوابًا منها :

ـ عمرها يبلغ عشر سنوات ، وبمقاييس أعمار الهرة ، وهى هرة عجوز .

وعاد يميل نحوها ، مردفًا بأسلوب بغيض :

ـ مثلك يا سيِّدة (مشيرة) .

قالت فى عصبية ، محاولة إخفاء خوفها :

ـ ماذا أصابك ؟!.. هل أصبحت مهذَّبًا فجأة .. كنت منذ قليل تنادينى يا امرأة ؟!

تجاهل عبارتها تمامًا ، وهو يكمل ، ملوِّحًا بالزجاجة الصغيرة :

ـ تُرى ماذا يمكن أن يحدث ، إذا ما وضعنا فى فمها قطرة أو قطرتين ، من هذا السائل .

ولم تجب (مشيرة) ..

ولكن قلبها خفق فى قوة ..

أمن الممكن أن يعنى ما فهمته ؟!..

هل يمكن أن يكون الحلم حقيقة ، إلى هذا الحد ؟!..

هـل ؟!..

فتح الذئب الزجاجة بالفعل ، ثم أسقط قطرة منها على فم الهرة ، التى لعقتها فى لهفة ، توحى بأنها شديدة العطش والظمأ ..

ولكن شيئًا لم يحدث ..

لقد لعقت الهرة قطرة السائل ، ثم استكانت على أرضية القفص ، وتطلّعت إليه فى لهفة ، وكأنها تنشد المزيد ، فرفع عينيه إلى (مشيرة) ، قائلاً :

ــ تابعى جيدًا .

وعلى الرغم من خفقات قلبها العنيفة ، حدّقت (مشيرة) فى تلك الهرة فى لهفة .

حدّقـت ..

وتابعت ..

وتلهّفت ..

وتطلعت ..

وامتلأت نفسها بالأمل ..

ولكن شيئًا أيضًا لم يحدث ..

لقد ظلّت الهرة ساكنة ، متلهفة على قطرة أخرى ، تتطلّع إلى الذئب فى ضراعة عجيبة ، و ...

وفجأة ، حدثت تلك الانتفاضة ..

انتفض جسد الهرة فى عنف ..

وانتفض معه جسد (مشيرة) ، على نحو أعنف ..

ففى المكان كله ، دوت صرخة الهرة المسكينة ..

وفى عنف ، تلوّى جسدها ..

ولكن ما حدث بعدها ، كان حقًّا مفاجأة ..

مفاجأة مذهلة ..

بشـدة ..

* * *

5 - عيـن الظـلام ..

ظلام شبه تام ، ذلك الذى أحاط بابن (نور) وحفيديه ، وهم يسيرون مع الدُّب ، عبر ذلك الممر الطويل ..

لم يكن أحدهم ، باستثناء الأخير ، يعلم إلى أين يقودهم هذا !..

وعلى الرغم من هذا ، لم ينطق أحدهم بحرف واحد ، لما يقرب من نصف ساعة كاملة ، قبل أن يتساءل (طارق) فى صرامة :

ـ إلى أين المفترض أن يقودنا هذا ؟!

أجابه الدُّب ، بصوته الغليظ ، ولهجته الصارمة :

ـ إلى منطقة آمنة .

عاد (طارق) يسأله:

ـ أين بالتحديد ؟!

مضت لحظات من الصمت ، قبل أن يقول الدُّب :

ـ مقر سرى ، مخفى بدقة وسط الأطلال القديمة ، على قيد أمتار قليلة من مقر الذئب .. مقر لا يعرفه سوانا .. هو وأنا .. كنا ندخره كمخبأ لنا ، إذا ما تعقَّدت الأمور .

غمغم (طارق) الصغير فى صرامة :

ـ كنتم تنوون الفرار من السفينة ، إذا ما أوشكت على الغرق ، وترك ركابها على سطحها وحدهم بلا قيادة ؟!

بدا صوت الدُّب عصبيًا ، وهو يقول :

ـ بل كنا نضمن لهم استمرار القيادة ؛ حتى لا ينفرط عقدهم .

قال (محمود) الصغير فى حدة :

ـ بهذه الوسيلة ؟!..

قبل أن يجيبه الدُّب ، قال (طارق) فى حزم :

ـ إنها وسيلة مشروعة .

هتف (طارق) و(محمود) الصغيران ، فى استنكار واحد :

ـ كيــف ؟!

أجابهما بنفس الحزم :

ـ إنها خطة قديمة ، تعتمد عليها كل الحكومات ، منذ قرون عديدة ، وتعد واحدة من أكثر الخطط الأمنية سرية ، بالنسبة لأى نظام حكم ، وهى تعتمد على وجود مخبأ خفى ، لا يعرف موقعه إلا قلة نادرة ، ممن يثق بهم النظام ثقة مطلقة ، وفور حدوث أية كارثة ، أو أى هجوم مباشر على البلاد ، يختفى الرئيس ، مع الحكومة كلها ، فى ذلك المخبأة ، المجهَّز بحيث يمكنهم منه

إدارة شئون البلاد ، وقيادة الجيوش ، وضمان استمرار سير كل الأمور ، دون أن يكشف العدو أمرهم ، أو تبلغهم الكارثة(*) .

غمغم (محمود) الصغير فى توتر :

ـ هل يضحّى الذئب بسر كهذا من أجلنا ؟!

قال الدُّب ، مزمجرًا فى خشونة :

ـ من الواضح أنكم شديدو الأهمية ، بالنسبة له .

قال (طارق) الصغير فى شك :

ـ إلى هذا الحد ؟!

أجابه الدُّب فى صرامة ، مكررًا العبارة نفسها بأسلوب مختلف :

ـ إلى هذا الحد .

ران عليهم الصمت لحظــات بعدها ، وهم يواصلون سيرهم ، متلمسين الجدار ، وسط ذلك الظلام الدامس المخيف ، قبل أن يقطع (طارق) ذلك الصمت ، وهو يسأل :

ـ من يحاولون القضاء علينا أيها الدُّب ؟!

صمت الدُّب طويلاً هذه المرة ، قبل أن يجيب ، فى عصبية ملموسة :

(*) حقيقــة .

ـ من يرون أن وجودكم يمثل خطرًا على وجودهم .

سأله (طارق) فى إصرار :

ـ مثــل مــن ؟!

لاذ الدُّب بالصــمت لفتــرة أطول هذه المرة ، قبل أن يجيب ، وقد تضاعفت عصبيته :

ـ الطامعون إلى الزعامة .

عاد (طارق) يسأل ، فى إصرار أكثر :

ـ من بالتحديد ؟!

اندفع الدُّب يقول فى حدة مباغتة :

ـ أنتم لا تعلمون الكثير مما يحدث هنا ، وإجابة سؤالك هذا يحتاج إلى شرح طويل مسبق .

قال (طارق) ، فى برود صارم :

ـ لدينا كل ما نحتاج من وقت .

توقَّف الدُّب فجأة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هذا ما تتصوَّره .

صمت لحظة ، ثم أضاف ، فى شىء من الحدة :

ــ لقد أوشكنا على الوصول .

قال (طارق) صارمًا :

ــ وهل ستجيب سؤالى عندئذ ؟!

طال صمت الـدُّب هذه المرة ، أكثر مما ينبغى ، فكرَّر (طارق) فى صرمة أكثر :

ــ هــل ؟!

قال الدُّب فى اقتضاب شديد الخشونة :

ــ اصـمت .

أخفى الظلام تلك الدهشة ، التى ارتسمت على وجوه ثلاثتهم ، قبل أن يضيف الدُّب فى عصبية :

ــ وأنصـت .

حبس الجميع أنفاسهم ، وسط ذلك الظلام الدامس ، وأرهفوا أسماعهم ، وهم ينصتون فى توتر ..

ثم اتسعت عيونهم عن آخرها ..

وخفقت قلوبهم فى عنف ..

فذلك الصوت ، الذى تناهى إلى مسامعهم كان مخيفًا .. مخيفًا للغاية ..

* * *

لم يتوقَّف جسد الدكتور (راشد) عن الانتفاض لحظة واحدة ، منذ عاد من تلك المنطقة ، حيث المعمل الغامض المحظور ..

فما رآه يحدث هناك ، كان بالنسبة إليه مذهلاً ..

مخيفًا ..

مرعبًا ..

وإلى أقصى حد ..

ولقد حاول أن يتشبَّث بحواف مكتبه ؛ فى محاولة لمنع جسده من الارتجاف ، وهو يسترجع تلك اللحظات الرهيبة ..

لقد شاهد ذلك الجدار يختفى ..

وشاهد ما خلفه ..

انتفض جسده مرة أخرى ، وهو يسترجع المشهد الرهيب ، و ...

فجأة ، انتفض جسده انتفاضة أخرى أكثر عنفًا ، عندما مس أحد العلماء كتفه ، ووثب من مكانه ، وهو يطلق صرخة ذعر ، جعلت ذلك العالم يتراجع مذعورًا بدوره ، وهو يهتف فى ارتباك شديد :

ــ معذرة .. لم أقصد أن ...

قاطعه الدكتور (راشد) ، وهو يلوّح بذراعيه ، ويلهث فى عنف :

ــ لا بأس .. لا بأس ..

بذل جهدًا خرافيًا للسيطرة على أعصابه ، وهو يضيف مشيحًا بوجهه بعيدًا ، محاولاً إخفاء توتره الشديد :

ــ كنت مستغرقًا فى التفكير فحسب .

لهث بضع لحظات أخرى ، لم ينطق خلالها ذلك العالم بحرف واحد ، قبل أن يعتدل ، ويقول :

ــ ماذا كنت تريد ؟!

أشار ذلك العالم بيده ، قائلاً فى توتر :

ــ الأجهزة ترصد شيئًا عجيبًا .

خفق قلب الدكتور (راشد) ، وهو يسأله بأنفاس مبهورة :

ــ مصدر للطاقة .

هزّ العالم رأسه نفيًا ، وقال :

ــ بل اهتزازات .

انعقد حاجبا الدكتور (راشد) ، وهو يردّد :

ــ اهتزازت ؟!

قال العالم فى سرعة :

ــ اهتزازات لا تتفق مع أى شىء رصدناه من قبل .. إنها ليست إرهاصات زلازل ، ولا حتى تحركات تحت أرضية ، أو حتى فوق أرضية ، وشاشات الرصد كلها لا ترصـد شيئًا يقترب أو يبتعد ، وأجهزة الفحص الحرارى تشير كلها إلى السلب واتجاه الترددات نفسه غير مألوف .

سأله متوترًا :

ــ ماذا تعنى ؟!

راح الرجل يشير بيديه ، وهو يجيب :

ــ إنها لا تسير فى اتجاه أفقى ، بل على نحو رأسى تمامًا ، ومن أسفل إلى أعلى ، كما لو أن شيئًا ما يخترق الأرض ، فى طريقه إلى هنا .

اتسعت عينا الدكتور (راشد) ، وهو يقول :

ـ إنه أمر بالغ الخطورة .. هل حدَّدتم موقعه بالضبط ؟!

اتجه الرجل إلى خريطة رقمية للحصن ، على شاشة كبيرة ، وأشار إلى نقطة منها ، قائلاً :

ـ هنـــا .

حدَّق الدكتور (راشد) فى تلك النقطة لحظة ، ثم هزَّ رأسه فى قوة وتوتر ، هاتفًا :

ـ مستحيل !

سأله الرجل فى دهشة :

ـ ولماذا مستحيل !

أجابه فى عصبية شديدة :

ـ لأنه مستحيل أن يمكننا التقاط أو رصد أى شىء ، عند هذه النقطة بالذات !

تضاعفت دهشة العالم ، وهو يسأله :

ـ ولماذا هذه النقطة بالذات ؟!

جاء دور الدكتور (راشد) ؛ ليلوِّح بيده ، هاتفًا فى انفعال :

ـ لأنه مغطـــاة كلهـــا بألواح هائلة ، من الأسمنت المدعوم بالرصاص ، ويستحيل التقاط أى شىء منها ؛ لأنه لا شىء يمكنه عبورها أبدًا .

وبدا شديد العصبية ، وهو يضيف :

ـ لا شىء على الإطلاق .

امتقع وجه العالم ، وهو يغمغم :

ـ ولكننا نلتقط شيئًا بالفعل .

انتفض جسد الدكتور (راشد) ، للمرة المائة ، فى هذا النهار ، وهو يقول بمنتهى العصبية :

ـ دعنى أرى ما تلتقطون .

كانت الشمس تميـل إلى الغروب ، عندما وقف أمام الشاشة العملاقة ، ورأى ما يرصدون ..

وفى هذه المرة ، كانت ارتجافته أقوى ..

وأشدّ ..

وأعنف ..

ومن أعمق أعماقه ، تصـــاعد شديد ، على كل ما درسه فى حياته ، ومن علوم وقواعد فيزيائية ..

فمرة أخرى ، وقبل أن تغرب شمس يوم واحد ، كان ما يراه أمامه ، وبكل المقاييس ، أمر مذهل ..

وبلا حدود ..

بالفعل ..

* * *

لحظات رهيبةَ من الصمت ، سيطرت على الجميع ، بعد أن أدلى (هاشم) باعترافه المخيف هذا ..

لحظات تطلَّع إليــه (نــور) خلالها ، فى هدوء يضاعف من غرابة الموقف ، وحدَّق فيها الباقون فيه مستنكرين ، فى حين شدَّ هو قامته ، على نحو أشبه بالتحدِّى ، وهو يسأله :

ـ كيف عرفت ؟!

هزَّ (نور) كتفيه فى بساطة ، وأجاب :

ـ لقد ذكرت اسم ذلك الحاجز (كوباء) ، فى بساطة توحى باعتيادك ترديد الاسم ، ولكن (مشيرة) زوجة (أكرم) ، وهى إعلامية قديمة ، لم تذكر اسمه ، وبالنسبة لإعلامى قدير ، تتميَّز شخصيته بالفضول ، وتفرض عليه مهنته السعى خلف المعرفة ، إلى حد أنها جازفت بعبور الأطلال ، ولمس ذلك الحاجز ، فقط

لتعرف طبيعته ، وكان من العجيب ألا تذكر اسمه ، وهى تروى القصة ، وكأنها لا تعرفه .

ثم مال نحو (هاشم) ، متسائلاً :

ـ فكيف تألفه أنت يا (هاشم) ؟!

صمت (هاشم) لحظة ، ثم أجاب فى برود :

ـ لأنه كان يتردَّد كثيرًا هناك .

واكتسب صوته صرامة عجيبة ، وهو يردف :

ـ فى الحصن .

قالها ، وأدار عينيه فى وجوه الجميع ، فى تحد عجيب ، جعل (أكرم) يغمغم فى غضبَ ، يمتزج بشىء من الإحباط :

ـ يا للوقاحة !

تابع (هاشم) متجاهلاً قوله :

ـ كانت هناك دوريات منتظمة لحراسته ، حتى أيقن طاقم العلماء من استحالة اختراقه ، بعد تجارب طويلة ، فلم يعودوا يبالون به .

قالت (سلوى) فى حزم :

ــ ربما كان أكبر خطأ ارتكبوه ، فى عمرهم كله .

ألقى عليها (هاشم) نظرة مستهترة ساخرة ، ثم عاد يلتفت إلى (نور) ، الذى سأله بنفس الهدوء :

ــ لماذا فررت من الحصن يا (هاشم) ؟!

أجابه (هاشم) فى سرعة ، وبانفعال عجيب :

ــ لأنهم أوغـــاد .

تمالك نفسه فى سرعة ، وعاد يتخذ تلك الوقفة الصارمة المتحدية ، فسألته (نشوى) فى اهتمام :

ــ هل كانوا يسيئون معاملتك ؟!

مضت لحظة ثقيلة من السكون ، قبل أن يهزّ رأسه فى بطء ، قائلاً :

ــ بل على العكس .. إنهم يمنحوننا كل نطلبه .

بدا الاهتمام الشديد على وجه (أكرم) ، فى حين راح (رمزى) يدرس انفعالات (هاشم) فى صـــمت ، شاركته فيه (سلوى) و(نشوى) ، فى حين قال (نور) ، بنفس ذلك الهدوء ، الذى لم يفهموا سببه :

ــ ولكـــن ؟!..

بدا من الواضح أن (هاشم) يكتم غضبًا شديدًا فى أعماقه ، وهو يضغط أسنانه لحظات ، قبل أن يجيب :

ــ لقد سبق وأن أخبرتكم .

ثم أضاف فى مقت واضح :

ــ إنهم أوغاد .

هزّ (نور) كتفيه بنفس الهدوء ، قائلاً :

ــ لم أفهم .

صمت (هاشم) لحظات ، وانفعالاته تتعالى تدريجيًا ، قبل أن ينفجر فجأة ، قائلاً :

ــ اسمع يا هذا .. ربما يطلقون عليك فى هذا الزمن لقب الأسطورة ، ولكن هناك الكثير مما تجهله ، فى هذا الزمن .

لم يفقد (نور) هدوءه الشديد ، وهو يقول :

ــ مثل تلك الأمور العجيبة ، والمثيرة للحيرة والشك ، والتى تحيط دومًا بالقائد الأعلى .

اتسعت عينا (هاشم) لحظة ، ثم عاد يتمالك نفسه فى سرعة ، ويغمغم فى عصبية :

ــ الأمور تفوق هذا .

مضت لحظات من الصمت والسكون ، و(نور) يتطلَّع إليه مباشرة ، ثم التفت لحظة إلى (رمزى) ، الذى أومأ برأسه إيجابًا ، فالتفت (نور) إلى (هاشم) ، وقال فى بهجة هادئة ، تحمل الكثير من الود :

ـ ولهذا نعتمد عليك يا (هاشم) .

رفع (هاشم) عينيه إليه فى دهشة كبيرة ، شاركه فيها (أكرم) و(نشوى) و(سلوى) ، فى حين ابتسم (رمزى) ، قبل أن يهتف (هاشم) :

ـ تعتمدون علىَّ أنا ؟!

وضع (نور) يده على كتفه ، قائلاً :

ـ إننا نثق فيك .

لم يفهم (أكرم) لماذا قال (نور) هذا ، ولكنه أضاف فى سرعة وحماس :

ـ بالتأكيد .

أدار (هاشم) عينيه إليـه ، فى تأثُّر شديد ، واختلجت شفتاه لحظات ، قبل أن يشدّ قامته ، ويقول فى حزم :

ـ أنا رهن إشارتكم .. سأخبركم بكل ما تريدون معرفته .

التقط (نور) نفسًا عميقًا فى ارتياح ، وقال :

ـ هذا ما ننتظره منك .

كان الصمت هذه المرة يختلف ..

كان صمت فريق ، يثق فى قائده ، وحسن تقديره للأمور ، ولكنه يحمل فى أعماقه طنًا هائلاً من التساؤلات ..

وفى هدوء ، تحدث (رمزى) ، قائلاً :

ـ هل نبدأ تحركنا ؟!.. الشمس توشك على المغيب ؟!

أشار (نور) بيده ، قائلاً :

ـ سنبدأ فورًا ؛ فعلينا أن نبتعد عن هنا بقدر الإمكان .

حمل الرجال الآلات ، وعاودوا السير ، فى اتجاه الغروب ، حيث ذلك الحاجز المخملى العجيب ، واقتربت (سلوى) من (نور) ، هامسة :

ـ (نور) .. هل تثق به حقًا ؟!

أجابها ، دون لمحة واحدة من التردُّد :

ـ نعـم .

هزَّت رأسها ، قائلة فى قلق :

ـ ليتنى أشاركك ثقتك هذه ..

قال فى حزم :

ـ سترين .

أومأت براسها ، دون معنى محدد ، ثم قالت :

ـ المهم أن نحصل منه على كل ما يعرفه ، عن ذلك الحاجز (كوباء) .

صمت (نور) لحظة ، ثم قال :

ـ إنه لا يعرف عنه شيئًا .

التفتت إليه فى دهشة عارمة ، هاتفة فى خفوت :

ـ فيم سيفيدنا إذن ؟!

لاذ بالصمت بضع لحظات أخرى ، ثم قال فى حزم شديد :

ـ سيفيدنا .. كما سترين .

« لا أستطيع فهم هذا .. »

قالتها (نشوى) فى خفوت متوتر ، وهى تسير إلى جوار زوجها (رمزى) ، الذى سألها فى حذر :

ـ وما الذى لا تستطيعين فهمه بالضبط ؟!..

أجابته ، من وسط توترها :

ـ كيف يثق العلماء تمامًا ، فى أن ذلك الحاجز يستحيل اختراقه ؟!

هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ ربما لأن التكنولوجيا والمعرفـة لا يتوافران ، بالنسبة لسكان الأطلال .

قالت فى قوة :

ـ كلاً .. العلماء كرجال الأمن ، لا يمكنهم أن يهملوا أدنى احتمال .. كانوا سيواصلون دوريات الحراسة على الأقل .

استغرق لحظات فى التفكير ، قبل أن يقول :

ـ المفترض أنك أنت الخبيرة فى هذا المضمار ، فما الذى يدور فى عقلك ؟!..

بدت شديدة الانفعال والحماس ، وهى تجيب :

ـ التكنولوجيا .

ابتسم ابتسامة حذرة ، قائلاً :

ـ وهذا ما اقترحه .

هزّت رأسها نفيًا فى انفعال ، وقالت :

ــ كنت أعنى التكنولوجيـا ، التى تـم صنع ذلـك الحـاجز بوساطتها .. العلماء يثقـون فى أن تلك التكنولوجيا تفوق أية معارف أرضية .

ارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يقول :

ــ لا تتركى العنان لخيالك ، إلى هذا الحد .

قالت فى حماس :

ــ احسبها أنت .. المفترض أن ذلك الحاجز ، الذى يطلقون عليه اســم (كوباء) ، يفصل بين منطقــة الأطلال ، وباقى المناطق الأخرى ، وهو مقام إما لمنع سكان الأطلال من الخروج منها ، أو منع غيرهم من الدخول إليها ، وفى الحالتين ، هناك ألف احتمال واحتمال ؛ لأن يسعى بعضهم لعبـوره ، كما هو الحـال مع (هاشم) ، فلا يمكن والحال هكذا أن يتركوه بلا حراسة دورية ، إلا لو كانوا واثقين ، مائة فى المائة ، مـن أن أحـدًا لا يمكنه كشف تكنولوجية وجوده أبدًا .

قال مفكرًا :

ــ (سلوى) وأنت أكدتما ، أن العــالم خارج الأطلال يواصل تطوّره المعتاد .

أشارت بسبّابتها ، هاتفة :

ــ وهذا ما يؤكد صحة نظريتى ، فهم حتمًا واثقون ، من أنه مهما تطوّر العالم خارج الأطلال ، لن يمكنه عبور ذلك الحاجز قط .

قال ، وقد بدأ التوتر يسرى فى كيانه :

ــ حتى التكنولوجيا لها حدود .

ارتجف صوتها ، على الرغم من انفعالها ، وهى تقول :

ــ إلا لو كانت تكنولوجيا غير أرضية .

وعلى الرغم منه ، شارك جسده صوتها ..

وارتجف ..

« ولماذا حدث هذا ؟!.. »

قالها (هاشم) فى اهتمام ، وهو يسير إلى جوار (أكرم) ، الذى أجابه فى حسم :

ــ (نور) يثق بك .

سأله مرة أخرى :

ــ لم أسألك عن ثقة المقدّم (نور) .. سألتك لماذا حدث أن شاركته هذه الثقة ؟

صمت (أكرم) لحظة ، وكأنه يبحث عن جواب مناسب ، ثم قال :

ـ إننى أثق فى (نور) ، فى حسن تقديره للأمور ، وتقييمه للأشخاص ، وما دام يثق بك ، فأنا أثق فى حكمه .

لم يرق الجواب للرجل ، فقال ، فى لهجة أشبه بالتحدّى :

ـ وماذا لو كنت أخدعكم ؟!

أجابه (أكرم) ، فى سرعة وحزم :

ـ مسـتحيل !

ثم استدرك فى سرعة وصرامة :

ـ لو أنك قرأت الكثير عنا كما تدّعى ، فستفهم ما حدث بالضبط .

قال (هاشم) فى برود :

ـ أتعنى إشارة الدكتور (رمزى) للقائد (نور) ؟!

أجابه (أكرم) :

ـ بالضبط .. لقد شعر (نور) بالثقة فى كلماتك ، دون أن ينطق بحرف واحد ، طلب مشورة (رمزى) ، أعظم خبير ومحلّل نفسى عرفه التاريخ ، وعندما أومأ (رمزى) برأسه إيجابًا ، كان يعطى إشارة إلى القائد ، أنه يثق فى أنك لست مخادعًا ، وأنا أثق فى تقييم (رمزى) ، أكثر من ثقتى فى مشاعرى نفسها .

ران عليهما الصمت لحظات ، قبل أن يقول (هاشم) فى خفوت ، حمل الكثير من التأثُّر :

ـ إنكم تستحقون حقًّا ما وصفكم به التاريخ .

ابتسم (أكرم) ابتسامة عصبية ، وهو يقول :

ـ ألن تكف عن الحديث عن التاريخ ؟!

هزَّ (هاشم) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ مستحيل !.. التاريخ هو الدروس التى نتعلمها ، حتى لا ترتكب الأخطاء نفسها فى المستقبل .

أطلق (أكرم) ضحكة متوترة قصيرة ، قبل أن يقول :

ـ هذا بالضبط ما يردّده (نور) دومًا .

تقمَّص أسلوب (نور) ولهجته ، وهو يبتسم ، مردفًا :

ـ المستقبل يكمن هناك .. فى أعماق التاريخ .

التفت إلى (هاشم) ، منتظرًا تعليقًا منه ، إلا أن هذا الأخير توقَّف فجأة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وتلفَّت حوله فى توتر ، جعل (أكرم) يسأله فى خفوت ، وقد انتقل إليه توتره :

ـ ماذا هناك ؟!

بدا صوت (هاشم) صارمًا شديد التوتر ، هو يقول :

ــ إنها تتابعنا .

سأله (أكرم) بأنفاس مبهورة ، وهو يتلفَّت حوله على نحو غريزى :

ــ ما هى هذه ؟!

أجابه (هاشم) فى توتر :

ــ العيــن .

ثم رفع نظره وسبَّابته إلى أعلى ، وارتجف صوته بانفعال عنيف ، وهو يضيف :

ــ عين الظلام .

وعلى الرغم منه ، اتسعت عينا (أكرم) ..

وانتفض جسده ..

بمنتهى العنف .

* * *

6 ـ وجهـًا لـوجـه ..

ذلك الشىء ، كان يتبعهم فى خفة ، عبر ذلك الظلام الدامس ..

لم تكن له خطوات بشرية ، وإنما خطوات رباعية ، توحى بأنه حيوان ، يسير على أربع ..

وفى ذلك الزمن ، ووسط تلك الأطلال ، لم يكن هذا أمرًا مألوفًا ..

بل لقد فجَّر فى أعماقهم جميعًا سؤالاً مهمًّا ، لم ينتبهوا إليه من قبل ..

فذلك العالم الجديد ، لم يكن يحوى أية حيوانات ..

فقط حشرات ، بعضها لم تألفه الأرض من قبل ، وكائنات آلية صناعية ، أضيفت إليه من مصدر ما ..

مصدر لا يعلمه أحد ..

من سكان الأطلال على الأقل ..

ولكن ذلك الشىء الذى يتبعهم ، كان حتمًا من الفصيلة الحيوانية ، أيًّا كانت ماهيته ..

ولقد حبس الجميع أنفاسهم ، وهم يتابعون خطواته تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

لم يكن من الممكن الجزم بما إذا كان حيوانًا مفترسًا ، أم أحد الحيوانات البرية ، التى تختفى فى الكهوف المظلمة ..

ولأنه لم يكن هناك سبيل للفرار ، فقد التصقوا بالجدار ، وسحب الدُّب خنجره ، و ...

وفجأة ، انتفض جسده كله فى قوة ، على الرغم من ضخامته ، وندت منه شهقة عنيفة ، وهو يغمغم فى خشونة عصبية :

ــ رباه !.. إنه .. إنه ..

سأله (طارق) الصغير بأنفاس متلاحقة :

ــ إنه ماذا ؟!

لهثت أنفاس الدُّب ، وهو يجيب :

ــ إنه يلعق ساقى ..

اتسعت عيونهم ، و(طارق) يسحب مسدسه فى توتر ، قائلاً :

ــ يلعقها ؟!.. أهو ...

قاطعه الدُّب ، فى خفوت عجيب ، حمل فيضًا من المشاعر :

ــ إنه كلب .

قفزت دهشتهم إلى ذروتها ، و(محمود) الصغير يهتف :

ــ كلب ؟!.. هنا ؟!

حمل صوت الدُّب الكثير من التأثُّر ، وهو يغمغم :

ــ كنت أملك جروًا صغيرًا فى طفولتى .

قالها ، وانحنى فى بطء ، مستترًا بالظلام الدامس ، وربَّت على ظهر الكلب ، الذى أطلق أصواتًا خافتة ، توحى بالألفة والسعادة ، مما جعله يحمله فى رفـق ، لا يتناسب مع ضخامته وطبيعته ، وهو يقول بلهجة بالغة التأثُّر ، كما لو أنه يبكى :

ــ لست أدرى حتى كيف نسيت هذا !

ران الصمت على الجميع بضع لحظات ، قبل أن يقول (طارق) فى حزم ، وهو يعيد مسدسه إلى غمده :

ــ كم تبقى لنا ، حتى نصل إلى ذلك المخبأ الآمن ؟!

انتزع الدُّب نفسه من تأثره ، وقال وهو يمسح دمعة تأثُّر ، أفلتت من عينيه :

ــ القليل .

وكان على حق تمامًا فى عبـارته ، فلم تمض دقائق أربع ، حتى كان يدفع بابًا خفيًّا فى أرضية المخبأ ، فتسلَّل إليهم شعاع من الضوء ، بعـد أن أعيا الظلام عيونهم طويلاً ..

ودون تبادل كلمة واحــدة ، جلسوا فى ذلك المكان الضيق ، جيِّد التأثيث ، والذى يحوى شاشة رصد كبيرة ، وجهاز كمبيوتر شخصى صغير ، ومنضدة من خشب قديم ، التفوا حولها ، وهم يتطلعون إلى ذلك الكلب أصفر اللون ، والذى استقر مطمئنًا بين ذراعى الدُّب ، الذى راح يسقيه من وعاء صغير ، فى حنان جعلهم يعيدون نظرتهم إليه ، والكلب يلعق الماء فى نهم ، ثم يلتفت ليعلق يد الدُّب ، بين الحين والآخر ، فى امتنان عجيب ، حتى قطع الدُّب نفسه ذلك الصمت ، وهو يقول فى تأثُّر :

ـ إنه يشبه جروى القديم .

قال (محمود) الصغير فى حزم :

ـ هذا أمر طريف ، ولكن لست أظننا سنترك كل شىء ، ونهتم بذكرياتك مع جروك القديم هذا .

انعقد حاجبا الدُّب فى غضب ، وانحنى يضع الكلب أرضًا ، ويضع أمامه إناء الماء ، ثم تحرك ليلتقط بعض الغذاء الجاف ، الذى يتم الاحتفاظ به فى المخبأ ، ويضعه أمام الكلب ، وربَّت عليه فى حنان ، ثم اعتدل يقول فى صرامة :

ـ ستقضون هنا بعض الوقت ، حتى يمكننى حسم الأمور ، والقضاء على المعارضين .

قال (طارق) فى سرعة وصرامة :

ـ كــلاً ..

تراجع الدُّب فى دهشة ، فتابع (طارق) بنفس الصرامة :

ـ لو أنه هنــاك خطر يتهدَّدنا ، أو يتهدَّد هــذا العالم ، فلن نختبئ هنا ، ونقف ساكنين ، بينما تعمل أنت ونئبك لإنقاذنا .

بدا الدُّب شديد التوتر ، وهو يقول :

ـ الأمر أخطر مما تظنون .

نهض (محمود) الصغير فى حزم ، وهو يقول :

ـ ونحن زعيمان ، ولن نختبئ هنا .

قال الدُّب ، وتوتره يتزايد :

ـ هــذا هو الغرض ، مــن وجــود المخبأ السرى .. حماية الزعماء .

بدت عبارته منطقية للغاية ، ولكن (طارق) نهض ، قائلاً :

ـ عظيم .. هذا لن ينطبق علىَّ إذن ، فلست زعيمًا مثلهما .

قال الدُّب ، وقد تحولَ توتره إلى عصبية :

ـ ولكنك ستبقى معهما .

كان (طارق) يهم بالاعتراض ، ولكن الدُّب استدرك فى سرعة :

ـ حتى مطلع الشمس فحسب .

سأله (طارق) فى توتر ، شاركه إياه خاله وشقيقه :

ـ ولماذا ؟!

التزم الدُّب بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ سأخبرك .

وعاد يتخذ مجلسه ..

وأخبرهم ..

وكان ما أخبرهم به مفاجئًا ومدهشًا ..

وإلى حـــد كبير ..

* * *

على الرغم من كل معــارفه وعلومه ، لم يستطع الدكتور (راشد) أبدًا فهم هذا الذى ترصده الأجهزة ، من البقعة التى تم دفن جسد (محمود) الزوريومى فى أعماقها ..

لقد تم دفن ذلــك الجسد ، الــذى يجمع بين الخلايا الحيوية لـــ (محمود) ، ومادة (الزوريوم) الحيوى ، الذى ما زال وطاقمه يجهلون الكثير عنها ، ويكشفون مفاجآت عديدة لها ، فى كل يوم ..

ولقد وضعوا جسد (محمود) داخل تابوت سميك من الرصاص ، يستحيل ، وفقًا لكل القواعد الفيزيائية المعروفة ، أن تخترقه أية طاقة ، مهما بلغت قوتها ، ولم يكتف القائد الأعلى بهذا ، وإنما غطى منطقة الدفن كلها بألواح سميكة ، من الأسمنت الرصاصى ، التى تصنع حواجز إضافية للطاقة ..

وعلى الرغم من كل هذا ، فما زالت الأجهزة تلتقط تلك الاهتزازات ، التى تأتى من البقعة نفسها بقوة ، وتتصاعد طوال الوقت ، من أسفل إلى أعلى ، كما لو أنها لشىء يهم باختراق الأرض ، وبلوغ الحصن ..

فماذا يمكن أن يكون هذا ؟!..

مـــاذا ؟!..

كان التوتر يغمر كل ذرة من كيانه ، من كثرة ما مرَّ به فى يوم واحد ، من أمور تتجــاوز كل علمٍ درســـه ، وكل نظرية علمية آمن بها ، حتى أنه لم يعد يحتمل ، ويوشك على الانفجار ..

ثم أن ما عرفه ، عندما دفعه الفضول إلى المعمل الغامض ، كان يفوق قدرته على حفظه كالسر الدفين فى أعماقه ..

كان ولابد له من أن يفصح عنه لمخلوق ما ..

أى مخلـــوق ..

بل إن واجبه قد يحتِّم عليه أن يفصح عنه لجموع العلماء ..

أو حتى لكل من داخل الحصن ..

إنه أمر قد يعنى مستقبلهم جميعًا ..

قد يعنى وجودهم ..

أو فناءهم ..

لذا ، لابد وأن يخبرهم ..

لابـد ..

امتدَّت يده ، لتضغط زر الاتصال العام ، وقد حسم الأمور فى أعماقه ، ولكن قبل أن تمس سبَّابته زر الاتصال ، اشتعلت الشاشة الهولوجرافية فجأة ، وارتسم وجه القائد الأعلى ، وهو يقول فى صرامة :

ــ دكتور (راشد) .. أريدك فى مكتبى .

انتفض جسـد الرجـل فى عنف ، وتراجع مبتعدًا عن شاشة الاتصال الهولوجرافية بحركة حـادة ، كمـا لو أن ظهور وجه القائد الأعلى قـد أصابه بصعقة كهربية ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، حتى إن القائد الأعلى قال فى صرامة :

ــ هل أفزعتك رؤيتى ؟!

أجابه الدكتـور (راشد) ، بعـد لحظات ، بذل خلالها جهدًا خرافيًا ؛ للسيطر على انفعاله :

ــ كلاً .. لقد فاجأتنى فحسب .

صمت القائد الأعلى لحظات ، ثم قال فى صرامة أكثر :

ــ أريدك الآن .

أنهى الاتصال بحركة أخرى مباغتة ، جعلت جسد الدكتور (راشد) ينتفض مرة أخرى ، قبل أن يلهث فى توتر ، وقد راح قلبه يخفق ، كما لم يخفق من قبل قط ..

ها هو ذا ما كان يخشاه بشدة ، منذ رأى ما رآه ، عند ذلك المعمل الغامض ..

أن يلتقى به ..

أن يقف أمامه وجهًا لوجه ..

راح يلهث بضع لحظات ، عاجزًا عن التغلُّب على ذلك الفيض الرهيب من المشاعر والانفعالات ، الذى تفجَّر فى أعماقه ، وقال محدثًا نفسه ، وكأنما يحاول تهدئتها :

ــ إنه لا يعلم أننى رأيت ما رأيت ، فلماذا أخشاه ؟!.. لابد وأن أواجهه فى ثقة .. إنه لن يفعل شيئًا ، ما دام لا يعلم شيئًا .

نهض فى توتر ، وعدَّل من هندامه ، والتقط نفسًا عميقًا ، فى محاولة لتهدئة أعصابه ، قبل أن يحسم أمره ، ويتجه إلى هناك ..

إلى حجرة القائد الأعلى ..

مباشرة ..

ولم يمضِ وقت طويل ، حتى كان يقف أمامه ..

وعلى الرغم من كل ما حول إقناع نفسه ، طوال الطريق إليه ، لم يستطع الدكتور (راشد) منع جسده من الارتجاف ، وهو يقـف أمام القائد الأعلى ، الذى تأمله فى إمعان بضع لحظات ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ التقرير الذى وصلنى ، من المعمل المركزى ، يقول : إنكم ترصدون اهتزازات رأسية ، تنبع من نفس المنطقة ، التى دفنتم فيها ذلك التابوت ، الذى يحوى الجسد الزوريومى .

تمتم الدكتور (راشد) :

ـ هذا صحيح .

لم يستطع مع الارتجافة ، التى خرجت مع كلماته ، وأعلنت توتره ، فتطلَّع إليه القائد الأعلى لحظات أخرى ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، متسائلاً :

ـ وهل توصَّلتم إلى ماهيتها ؟!

هزَّ الدكتور (راشد) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لا توجد وسيلة لهذا ، إلا إذا ..

بتر عبارته ، دون أن يكملها ، فتساءل القائد الأعلى فى صرامة أكثر :

ـ إلا إذا ماذا ؟!

تردَّد الدكتور (راشد) لحظات ، ثم قال :

ـ إلا إذا أخرجنا هذا التابوت ، و ...

قاطعه القائد الأعلى ، وهو يقول فى حدة :

ـ هكذا ؟!

ثم نهض من خلف مكتبه بحركة حادة ، جعلت الدكتور (راشد) يتراجع على نحو عنيف ، وانتفض قلبه بين ضلوعه ، والقائد الأعلى يدور حوله ، ويرمقه بنظرات قاسية صارمة ، مستطردًا :

ـ هذه هى الوسيلة إذن .. إثارة حيرتنا وتوترنا ، ودفعنا إلى إخراج ذلك التابوت ، و ...

« لقد شاهدتك هناك ... » ..

لم يدر الدكتور (راشد) أبدًا ، لماذا تجاوزت تلك العبارة حلقه ، ولكنه لم يكد ينطقها ، حتى جفّت الدماء فى عروقه ، ولعن تهوّره ألف مرة ، وتصوّر أن القائد الأعلى سيهاجمه فى عنف ، مما جعل جسده كله يتحفّز ، ولكن القائد الأعلى دار ، حتى وقف أمامه مباشرة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أعلم هذا .

ثم أشار بيده فى الهواء ، فتألقت شاشته الهولوجرامية الكبيرة ، فى منتصف الحجرة ..

وتراجع الدكتور (راشد) كالمصعوق ..

فعلى الشاشة ، وفى فراغ الحجرة ، ظهرت صورته ، وهو يراقب القائد الأعلى خفية ..

وفى اللحظة نفسها ، مال القائد الأعلى نحوه ، وبدت عيناه كجمرتين من اللهب ، وهو يقول :

ـ الآن عرفت .. ماذا تتوقّع بعدها إذن ؟!

ولم ينتفض جسد الدكتور (راشد) هذه المرة ..

لم ينتفض ، وإنما تجمّد كله فى رعب هائل ..

رعب بلا حدود ..

وبلا أمل فى النجاة ..

بلا أدنى أمل ..

* * *

اختفت الشمس بالفعل ، خلف الأطلال البعيدة ، واصطبغ الأفق بألوان الغروب البديعة ، التى تناقضت بشدة مع ما تحمله الأطلال من كآبة ، والتف أفراد الفريق كلهم حول (هاشم) ، يرفعون أعينهم إلى السماء ، و(سلوى) تتساءل فى قلق :

ـ أى عين تلك التى تتحدّث عنها يا سيد (هاشم) ؟!.. لست أرى شيئًا فى السماء .

قال فى توتر :

ـ لا يمكنك رؤيتها فى المعتاد ؛ فهى تتخذ نفس هيئة السماء ، بحيث يصعب تحديدها وسطها بالعين المجرّدة ..

سأله (أكرم) فى عصبية :

ـ كيف لمحتها أنت إذن ؟!

أشار (هاشم) بسبّابته ، مجيبًا :

ـ لقد مرّت لجزء من الثانية ، أمام واحدة من السحب .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى عصبية :

ــ ثم أننى أعرف بوجودها ، من أيام عملى بالحصن .

سأله (نور) فى اهتمام :

ــ كنت ضمن فريق علماء الحصن .. أليس كذلك ؟!

أجابه (هاشم) ، دون أن يلتفت إليه :

ــ لن أسألك حتى كيف عرفت ، ولكن الجواب هو نعم .. كنت ضمن فريق علمـــاء الحصن ، وأعرف الكثير عنه ... وعن تلك العين اللعينة .

سألته (نشوى) فى اهتمام :

ــ إنها عين راصدة .. أليس كذلك ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال وهو يخفض صوته ، وكأنما يخشى أن يسمعه أحد :

ــ بلى .. هى أكثر نشاطًا فى الليل ، منها فى النهار ؛ فهى ترصد الانبعاث الحرارى من الأجسام ، وتتابعها ، وتنقل إلينا مسارها طوال الوقت ، وربما تتولّى أمورها أيضًا ، إذا ما استلزم الأمر هذا .

تبادل الجميع نظرة متوترة ، قبل أن يقول (رمزى) :

ــ إذن ، فهى هجومية أيضًا .

كررّ (هاشم) متوترًا :

ــ إذا ما استلزم الأمر .

بدت علامات تفكير عميق على وجه (نور) ، وتوقّف ليجلس على صخرة قريبة ، من بقايا الأطلال ، ولاذ بالصمت التام ، واحترم الجميع صمته ، ووقفوا يتطلّعون إليه ، فمال (هاشم) على أذن (أكرم) ، يسأله :

ــ ماذا يفعل القائد ؟!

أجابه (أكرم) فى اقتضاب حازم :

ــ يفكّر .

قال (هاشم) ، فى دهشة مستنكرة :

ــ فى مثل هذه الظروف .

قال (أكرم) فى صرامة :

ــ تفكيره هو وسيلتنا ، للتغلّب على تلك الظروف .

ثم التفت إليه ، مستطردًا ومؤنبًا :

ــ أم أنك لم تقرأ من التاريخ ،سوى سيرتى فقط .

لم يحاول (هاشم) حتى إجابته ، وهو يتطلّع إلى (نور) فى اهتمام وانتباه ، حتى اعتدل (نور) فجأة ، وسأل (سلوى) و (نشوى) :

ـ ماذا وجدتما ، داخل تلك الدودة العملاقة ؟!

كانت (نشوى) أسرع من أجاب ، وهى تقول :

ـ آلات توجيه ، ورصد حرارى ، ومجسّات صوتية و ...

قاطعها فى حزم :

ـ ألا توجد بينها أجهزة ، يمكن أن تصدر إشارات عاليةَ التردُّد .

أدركت (سلوى) ما يعنيه على الفور ، فأجابته فى سرعة وحماس :

ـ ليس على نحو مباشر ، ولكننى أستطيع تعديل بعضها ، وإضافة جهاز إلى ثان أو ثالث ، وخلال ساعتين على الأكثر ، أستطيع منحك ما تريد .

أدار عينيه فى وجوه الجميع ، قبل أن يقول :

ـ وخلال الساعتين ، ستعمل على منع تلك العين الخفية ، من رصد ما تفعله هنا .

سأله (رمزى) فى اهتمام :

ـ وكيف هذا ؟!

أشار بيده إلى حيث يقف (أكرم) و(هشام) ، مجيبًا :

ـ هما لديهما خبرة بالعيش وسط الأطلال ، وسيجدان وسيلة .

انعقد حاجبا (أكرم) ، وشعر أن المسئولية قد ألقيت على عاتقه ، فقال متوترًا :

ـ إنها أكثر نشاطًا فى الليل ، منها فى النهار .

التفت إليه (هاشم) ، قائلاً :

ـ وترصد الانبعاثات الحرارية .

التقت نظراته بنظرات (أكرم) ، الذى أضاف فى حزم :

ـ والمثل القديم يقول : « لا يفل الحديد : سوى الحديد .. » ، وهذا يعنى أن مقاومة كاشف الحرارة تكون بـ ...

اندفع (هاشم) ليحسم الأمر ، مكملاً فى حماس :

ـ النار .

قالها ، وكلهم يعلمون أنهم لا يستطيعون رؤية عين الظلام ، ولكنها بالتأكيد ترصد كل ما يفعلونه ..

وربما كل ما قالوه ..

كل حرف منه ..

وبمنتهى الدقة ..

* * *

لم تتوقَّف دموع (مشيرة) لحظة واحدة ، وهى تجلس على أرضية تلك الحجرة الخفية ، التى سجنها فيها الذئب ، داخل وكره السرى ، وتضمّ ركبتها إلى صدرها ، مسندة ذقنها إليهما ، ومتطلعة فى مرارة إلى ذلك القفص ، الذى ترقد داخله تلك الهرة المسكينة ..

لقد أثبت لها الذئب ، بتجربة عملية ، أن لديه العقار ، الذى حلم به المغامرون ، منذ عشرات القرون ..

قطرة واحدة من ذلك العقار ، أعادت الهرة سبع سنوات إلى الوراء على الأقل وبقفزة واحدة ..

كانت هرة عجوز ، متهالكة ، لعقت قطرة من العقار المدهش ، فعادت هرة صغيرة ، مفعمة بالحيوية والنشاط ..

وهى لا تنسى كيف التمعت عيناه لحظتها ، وكيف واجهها ، قائلاً :

ــ الهرة عادت صغيرة .. شابة .. عادت أكثر جمالاً ، وحيوية ونضـــارة .. ألا تحلمين بالمـــرور بالتجربة نفسها ، يا سيِّدة (مشيرة) ؟.. ألا تحلمين بالعودة إلى نضارة وحيوية الشباب ، بين ذراعى زوجك المحب ؟!.. ألا يساوى هذا الحلم الكثير ؟!

لم تستطع لحظتها إجابته مباشرة ، من فرط انفعالها ، فحدَّقت فى عينيه بضع لحظات ، قبل أن تجيب فى صوت مبحوح مرتجف :

ــ من المؤكد أن الثمن سيكون باهظًا .

ابتعد عنها لحظتها ، وأشار بيده ، قائلاً :

ــ كل شىء فى الحياة له ثمن ، وعلينا أن ندفع الثمن نستحق أن نحيا .

ارتجف صوتها ، وهى تجيبه :

ــ أحيانًا ما يكون الموت أكثر قيمة من الحياة .

فوجئت به لحظتها يلوِّح بذراعه كلها ، وهو يقول فى حدة :

ــ هراء .. عبث .. خداع للنفس .. كلمات جوفاء ، يردِّدها أولئك الذين لا يجدون سبيلاً للحياة ، ويتصوَّرون أن سبيلهم الوحيد للتميُّز هو الموت .

ابتعد عنها أكثر ، قبل أن يهتف ، مكملاً فى عصبية :

ــ إنهم حمقى ، يشترون الموت ، ويسعون خلفه فى إصرار ، ويخسرون الحياة بجمالها ، ومتعتها ، و ...

قاطعته فى عصبية :

ــ وجبروت وسطوة من فيها .

صمت بغتة ، وهو يوليها ظهره ، ولم تشهد انفعالاته طويلاً ، قبل أن يقول فى صرامة شديدة ، دون أن يلتفت إليها :

ــ فليكن .

ثم استدار إليها فى حركة حادة ، جعلتها تنتفض على الرغم منها ، مع تلك النظرة المخيفة ، التى أطلّت من عينيه ، وهو يقول :

ـ حديثك الآن حديث انفعـال ، يفتقـر إلى العقـل والمنطق يا امرأة .. لذا ، فسأمنحك فرصة للتفكير والتدبير ، واتخاذ القرار .. وسأحتفظ بك حتى ذلك الحين هنا .

غمغمت بأنفاس متلاحقة :

ـ هنـا ؟!..

أكمل بنفس اللهجـة والنظرة المخيفتين ، وهـو يرفع قفص الهرة عاليًا :

ـ وستبقى هذه معك ، حتى ترينهـا أمامك طوال الوقت ، وتعيدين النظرة فى قرارك .

انتزعت نفسها لحظتها من خوفها وتوترها ، وهى تهتف :

ـ وما الثمن الذى يمكن أن تطلبه ؟!

عاد إليها بخطوات مسرعة ، جعلتها تلتصق بالجدار مرة أخرى ، ومال نحوها ، حتى ارتطمت أنفاسه بوجهها ، وهو يقول :

ـ أى ثمن يا امرأة .. عندما تتخذين قرارك ، سيكون عليك دفع أى ثمن أطلبه منك .. أى ثمن ، أيًا كان ، وبلا أدنى مناقشة .

« أى ثمن أيًا كان .. »

ترددت العبارة فى ذهنها عشرات المرات ، وهى تحدّق فى تلك الهرة الصغيرة ، التى سئمت الرقاد ، فنهضت داخل قفصها ، تداعب أسلاكه ، وتدور حول نفسها فى حيوية ..

ومع الدموع التى انسابت من عينيها ، راحت تستعيد كلمته ..

نعم إنه حلم ..

حلم أن تعود شابة ، جميلة ، ناضرة ، تملئ بالحيوية والنشاط ، وتستطيع أن تسعد زوجها وحبيبها (أكرم) ..

(أكرم) الذى كثيرًا ما كانت تتشاجر معه ، عندما كانا يعيشان فى منزل أنيق ، وسط عالم متحضّر ، والذى أدركت قيمته وعشقه ، وهما هنا ، بين الأطلال ..

(أكرم) الذى لم يبال بفارق العمر بينهما ، والذى صنعته قفزة (أكرم) عبر الزمن ، وضمها إليه بكل الحب والحنان ..

(أكرم) ، الذى تخشى فى كل لحظة أن يتركها ..

أن يدرك عمرها الحقيقى ..

وأن يسعى بالفعل ، خلف شابة صغيرة ، يانعة ، مفعمة بالحيوية وبكل نشاط الدنيا ..

من يدرى ؟!..

إنه ، كما قال الذئب ... رجل .

سرى الخوف ، مع ارتجافة باردة ، فى كل خلية من خلاياها ، ووجدت نفسها تهتف فى مرارة :

ـ لا يا (أكرم) .. لا تفعلها .

لم تكد تنطق بها ، حتى سمعت صوت باب يفتح ، فى مقر الذئب ، الذى يفصلها عنه جدار واحد ، وسمعته يقول فى صرامة :

ـ ماذا فعلت ؟!.. وما هذا ؟!

كان صاحب الخطوات هو الدُّب ، الذى وقف أمام الذئب ، حاملاً ذلك الكلب الأصفر ، الذى تبعه فى امتنان ، وكان يبدو متوترًا ، وهو يجيب بصوته الغليظ ولهجته الفظة :

ـ إنه كلب ضال ، عثرت عليه بين الأطلال ، و ...

قاطعه الذئب فى صرامة غاضبة :

ـ لا تحاول خداعى .

انعقد حاجبا الدُّب الكثَّان ، وهو يقول مستنكرًا :

ـ خداعك ؟!

أشار إليه بسبَّابته ، وهو يستطرد فى غضب :

ـ نعم .. خداعى .. كلانا يعلم أنه ، ومنذ تلك الكارثة ، لا توجد أية حيوانات بين الأطلال .

قال الدُّب فى عصبية :

ـ ولكنه كان هناك .

لوَّح الذئب بسبَّابته ، فى غضب شديد ، ولكنه لم ينطق شيئًا ، على الرغم من عينيه المشتعلتين ، ثم لم يلبث أن أعاد كفيه إلى ما خلف ظهره ، ليعقدهما معًا فى صرامة ، بدت واضحة فى صوته ، وهو يقول :

ـ تخلَّص منه .

ضمَّ الدُّب الكلب إلى صدره فى قوة ، وكأنه يحاول حمايته ، وهو يقول فى توتر شديد :

ـ مستحيل !..

اشتعل غضب عارم ، فى كل خلجة من خلجات وجه الذئب ، وبدا لحظات وكأنه سينفجر فى وجه الدُّب ، إلا أنه لم يلبث أن تجاوز هذا لسبب ما ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ماذا فعلت فيما طلبته منك ؟!

ظلّ الدُّب يضم الكلب إلى صدره ، وهو يقول :

ـ كل شىء صار كما خطَّطت له بالضبط .

سأله فى اهتمام :

ـ هل اقتنعوا بأنهم يواجهون خطر القتل ؟!

أجابه الدُّب فى سرعة :

ـ الرجال الذين أرسلتهم ، لم يكونوا يعلمون أنهم يهاجمون المنزل الآمن للزعيمين ، بل تصوَّروا ، كما أقنعتهم أنت ، أنهم يحاصرون منزل خائن ، باع أسرارنا للحصن ، ولكن الثلاثة رصدوا الحصار ، وجعلهم هذا يصدقون ما رويته لهم .

سأله فى اهتمام :

ـ وأين هم الآن ؟!

أجابه فى حسم :

ـ فى ذلك المخبأ الوهمى ... ينتظرون حتى صباح الغد ..

اقترب الذئب منه ، وهو يسأله :

ـ وهل صدَّقوا ما بررَّت به هذا ؟!

أومأ الدُّب برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ كل حرف منه .

التقط الذئب نفسًا عميقًا فى ارتياح ، فسأله الدُّب فى فضول :

ـ ولكن لماذا لم تطلب منى قتلهم مباشرة ؟!

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يجيب الذئب ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ لو أنهم قتلوا ، فسيثير هذا موجة هائلة من الغضب ، بين رجال المقاومة ، وستجرى حتمًا تحقيقات فى هذا الشأن ، ولو حدث وعاد (نور) وفريقه ، فلن تغيب الحقيقة عنهم أبدًا ، كما أكَّدت كتب التاريخ ، التى روت مغامراتهم ، أما ما وضعتهم فيه ، فقد لا يتجاوزونه أبدًا .

لهثت أنفاس الدُّب فى أعماقه ، وهو يسأله :

ـ أتعنى ذلك المخبأ .

هزَّ الذئب رأسه نفيًا ، والتمعت عيناه ، وهو يقول :

ـ ذلك المخبأ مجرَّد مدخل لشىء آخر .. شىء لم يواجهوه قط من قبل .. بل لم يتصوَّروا حتى وجوده .. وعندما يواجه المرء ما يجهله ، فهو حتمًا سيعجز عن مواجهته .

شعر الدُّب بخوف عجيب فى أعماقه ، وهو يتساءل فى حذر :

ـ أى شىء هذا ؟!

أجابه الذئب فى سرعة :

ـ شىء لا وجود له ..

وتضاعفت التماعة عينيه ، وهو يضيف فى وحشية عجيبة :

ـ العـدم .

وعلى الرغمِ من تلك الانتفاضة ، التى شملت جسده كله ، لم يفهم الدُّب شيئًا ..

أى شىء .

* * *

7 ـ العــدم ..

لدقيقة أو يزيد ، ظلَّ جسد الدكتور (راشد) جامدًا فى مكانه ، على الرغم من الارتجافة العنيفة ، التى ترج أعماقه ، والقائد الأعلى يدور حوله فى صـمت ، بعينيه الشبيهتين بجمرتين من اللهب ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ والآن ، ماذا رأيت بالضبط ؟!

لم يكن الدكتور (راشد) ينوى أن يجيب ، إلا إنه ، وعلى الرغم منه ، وجد نفسه يقول ، فى صوت شديد الارتجاف :

ـ عـدم .

توقَّف القائد الأعلى ، ورمقه بنظرة نارية ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ وكيف عرفت أنه عدم ؟!

من المؤكَّد أن الدكتور (راشد) أراد أن يكذب ، أو يخفى الإجابة الحقيقية لسبب ما ، إلا أنه فوجئ بلسانه يجيب ، وبنفس الارتجافة :

ـ فى البداية ، تصوَّرت أنه هناك ظلام رهيب ، يكمن خلف جدار ذلك المعمل ... ظلام لا يشبه أى ظلام عرفته من قبل .. حتى ما يطلقون عليه اسم (الظلام الدامس) .. إنه ظلام يملأ نفسك بالخوف والرعب ، لمجرَّد النظر إليه

صمت لحظات ، ازدرد خلالها لعابه فى صعوبة ، قبل أن يتابع ، فى صوت أكثر ارتجافًا :

ــ ظلام هو الرعب نفسه .

انتظر القائد الأعلى أن يكمل الرجل حديثه ، فلما طال صمته ، قال فى صرامة ، يستحثه على المواصلة :

ــ ثـم ؟!

امتقع وجه الدكتور (راشد) ، وكأنما مجرَّد ذكر الأمر ، يعيد إليه ذكرى تلك اللحظات الرهيبة ، إلا أنه لم يلبث أن غمغم ، وهو يحدِّق فى العينين الناريتين :

ــ ثم أدركت أن هذا يشبه ما انتزعناه من عقل (محمود) ، قبل أن يبدأ جسده الزوريومى فى العمل .

اعتدل القائد الأعلى ، وهو يقول فى صرامة :

ــ عندئذ أدركت أن هذا هو العدم ؟!

جف حلق الرجل فى شدة ، وهو يتمتم :

ــ أجـل .

صمت القائد الأعلى لحظات ، ثم سأل ، فى صرامة أكثر :

ــ ولكنك لم تعلم ماذا يوجد هناك ... فى قلب العدم ؟!

هزَّ الدكتور (راشد) رأسه نفيًا فى ارتياع ، وهو يجيب :

ــ لقد أسرعت أعدو مذعورًا ، فور رؤيتى هذا .

قال القائد الأعلى ، وصرامته تتزايد :

ــ ولم يغلبك فضولك العلمى للمعرفة ؟!

قال الدكتور (راشد) ، وهو يشارف الانهيار :

ــ رعبى كان أشدَّ .

شدَّ القائد الأعلى قامته ، وصمت بضع لحظات ، قبل أن يقول بلهجة مخيفة :

ــ خطـأ .

فى بطء مذعور ، استدار إليه الدكتور (راشد) ، فتابع بنفس اللهجة المخيفة :

ــ كان ينبغى أن يدفعـك فضولك العلمى للمعرفة .. أو لطرح السؤال على الأقل .

كلماته جعلت رجفة باردة تسرى فى كيـان الدكتور (راشد) كله ، قبل أن يسأل ، فى خوف وتردُّد شديدين :

ــ ماذا يوجد هناك ؟!

تألَّقت عينا القائد الأعلى ، وكان هذا السؤال هو بالتحديد

ما كان ينتظره ، وشدّ قامته أكثر ، وهو يقول :

ـ أمور لا يمكنك تخيُّلها أبدًا .

جف حلق الدكتور (راشد) ، وهو يقول :

ـ هذا ما توقَّعته .

مـال القائد الأعلى نحـوه ، وبدا صوته أشـبه بفحيح أفعى ضخمة ، من أفاعى الجحيم ، وهو يقول مكملاً :

ـ وما سيزيد من معارفك العلمية ، إلى حد لا يمكنك تصوُّره .

نجحت تلك العبارة الأخيرة ، فى استعادة الفضول العلمى ، فى أعماق الدكتور (راشد) ، حتى إن أنفاسه تلاحقت ، وهو يسأله :

ـ ماذا بالضبط ؟!

أومأ القائد الأعلى برأسه ، قائلاً :

ـ لا بد وأن ترى بنفسك .

ارتجف جسد الدكتور (راشد) فى عنف ، عند سماعه العبارة ، وبدت الكلمات وكأنها تنهار على شفتيه ، وهو يقول :

ـ هل ستتعـ ...

قاطعه القائد الأعلى فى حزم :

ـ لن يستغرق هذا وقتًا طويلاً :

حاول الدكتور (راشد) أن يكرِّر فى هلع :

ـ هـل ..

مرة أخرى قاطعه القائد الأعلى ، فى صرامة مخيفة :

ـ سنذهب إلى هناك معًا .

بدا صوت الدكتور (راشد) أشبه بصحراء جافة ، وهو يغمغم :

ـ معًا ؟!

التمعت عينا القائد الأعلى ، أو أنهما توهَّجتا فى شدّة ، وهو يجيب فى لهجة ، هى الرعب كله ، واضعًا يده فى قوة ، على كتف الدكتور (راشد) :

ـ الآن .

شعر الدكتور (راشد) بموجة باردة كالثلج ، تسرى فى كيانه كله ، من موضع يد القائد الأعلى ، وشعر بالمكان كله يظلم من حوله ، و ...

وفجأة ، لم يعودا فى مكتب القائد الأعلى ..

لقد صارا هناك معًا ..

فى قلب العدم ..

مباشرة ..

* * *

على نَحو لم ترصده عين الظلام من قبل قط ، اشتعلت مساحة كبيرة من الأطلال ، بعد قليل من غروب الشمس ..

مساحة واســعة ، سرت فيهــا النيران ، على الرغم من أنها تتكوَّن كلها من أحجار وأطلال جافة ..

وهناك ، فى قلب الحصن ، ومع ذلك المشهد العجيب ، غمغم (هيثم) مشدوهًا :

ــ رباه !.. كيف حدث هذا ؟!..

بدا العلماء فى حيرة أكبر منه ، وأحدهم يقول :

ــ المفترض ألا يحدث أبدًا .

هتف (هيثم) فى عصبية :

ــ ولكن عين الظلام ترصده .

قال عالم آخر ، فى عصبية لا تقلّ عن عصبية :

ــ سواء أكانت ترصــده أم لا ، هــذا لا يمكن أن يحدث ؛ فما نراه هنا ليس نيرانًا عادية .

قال (هيثم) بنفس العصبية :

ــ ما أراه يشبه أيّة نيران رأيتها ، فى عمرى كله .

أشار عالم ثالث إلى الشاشة ، وهو يقول :

ــ ولكنها تبــدو كذلك فحسب .. إنهــا لا تتأججُ كأية نيران معروفة .. إنها نيران متأرجحة ، كما لو أنها .. كما لو أنها ..

لم يطق (هيثم) صبرًا ، فهتف فى غضب :

ــ كما لو أنها ماذا ؟!..

قال رابع فى توتر :

ــ كما لو أنها نيران لعبة من الألعاب الرقمية ، التى كانت واسعة الانتشار ، قبيل تلك الكارثة .

تراجع فى دهشة هائلة ، وهو يردِّد :

ــ نيران لعبة رقمية ؟!!

ثم استعاد عصبيته ، وهو يضيف :

ــ مستحيل !.. لا يمكن أن يحدث شيئًا كهذا !!

« بل إنه أمر ليس عسيرًا ، بالنسبة لخبيرة مثلى .. »

قالتها (نشوى) فى حسم ، فحدَّق فيها (هاشم) فى دهشة بالغة ، وهم يقطعون الأطلال فى الظلام ، وهتف :

ــ ولكن كيف ؟! لست أرى حولنا أية نيران ، ولكنكم جميعًا تسيرون فى ثقة واطمئنان ، مؤكدين إن عين الظلام لن يمكنها رصدنا ؛ لأن كل ما سترصده ، مجرَّد مساحة واسعة من النيران ، تحجب أية حرارة أخرى .. فكيف هذا ؟!

أجابته (سلوى) فى حزم :

ــ إنه أمر يطلق عليه اسم (الخداع الرقمى) يا سيِّد (هاشم) .. تلك العين لا تملك عقلاً مفكرًا كالبشر ، ومهما بلغ نوع ذكائها الاصطناعى ، فهو لا يزال اصطناعيًا ، لن يمكنه أن يتفوَّق قط ، على الذكاء البشرى التقليدى .

أضاف (نور) ، عند هذه النقطة :

ــ إنها تمتلك مجسَّات حرارية ، ترصد أى مصدر حرارى ، وكل ما فعلته (سلوى) و(نشوى) ، هو أن أرسلنا إليها إشارة رقمية ، تحمل الشفرة نفسها ، التى تعمل فـور رصدها للحرارة ، لذا فهى ، وعلى نحو رقمى بحت ، تلتقط ما يبـدو لها أشبه ببث حرارى مرتفع ، من مساحة واسعة مـن الأطلال ، وهذا يشغل مساحة ذاكرتها كلها ، حتى إنها عاجزة الآن عن رصد أى شىء آخر .

قال (هاشم) فى انبهار :

ــ ألهذا نواصل مسيرتنا ، على الرغم من غروب الشمس ؟!

أجابه (رمزى) :

ــ كلنا مرهقون للغاية يا رجل ، ولكنها فرصة مثالية ، من الخطأ أن نضيعها .

تدخَّل (أكرم) ، قائلاً فى توتر :

ــ السؤال هنا هو : متى سنبلغ ذلك الحاجز ، لو واصلنا قطع الأطلال ، فى قلب الظلام .

مطَّ (هاشم) شفتيه ، وقال فى حذر :

ــ مع مطلع الشمس على الأرجح .

تمتم (أكرم) فى توتر :

ــ عظيم .

كان (نور) صامتًا خلال محادثتهما ، يتطلَّع إلى السماء فى انتباه ، حتى سألته زوجته (سلوى) فى خفوت :

ــ ماذا يشغلك إلى هذا الحد يا (نور) ؟!

صمت (نور) لحظات أخرى ، مواصلاً تحديقه فى السماء ، قبل أن يشير بسبَّابته إلى أعلى ، مجيبًا :

ــ النجــوم .

رفعت عينيها إلى السماء بحركة غريزية ، وهى تسأله فى قلق :

ــ ماذا عنها ؟!

ترَدَّد لحظة ، قبل أن يتوقّف ، قائلاً :

ــ ربما أكون مخطئنًا ، ولكننى أحتاج إلى دليل ما .

سألته فى قلق أكثر :

ــ أى دليل ؟!

لم يجب سؤالها ، وهو يسألها فى انتباه :

ــ هل عثرتما ، داخل تلك الدودة العملاقة ، على آلة تصوير رقمية ، من أى نوع ؟!

أجابته فى سرعة :

ــ ليس داخل الدودة العملاقة ، ولكن ذلك الذئب أعطانا واحدة .

مدَّ (نور) يده إليها ، قائلاً فى لهفة :

ــ أعطينى إياها .

التقطت من جيبها آلة تصوير رقمية صغيرة ، وقالت ، وهى تناوله إياها :

ــ إنها ليست قوية ، ولكن ...

قاطعها فى لهفة :

ــ لا بأس .

توَقّف الجميع يتطلعون إليه فى اهتمام ، وهو يضغط زر تشغيل آلة التصوير الرقمية ، ثم يضعها فى عناية على سطح مستو بقدر الإمكان ، بحيث توجَّهت عدستها إلى السماء ، فسأله (أكرم) فى توتر :

ــ هل تحاول التقاط صورة لعين الظلام ؟!

هزَّ (نور) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ــ بل للنجوم .

بدت الدهشة على وجوههم جميعًا ، قبل أن يقول (هاشم) ، فى شىء من العصبية :

ــ ربما يبدو هذا رومانسيًا ، ولكن فى ظروف كهذه ..

قاطعه (نور) فى صرامة :

ــ اصـمت .

ارتفع حاجباه فى دهشة مستنكرة ، وهو يطبق شفتيه بحركة غريزية ، فى حين لاذ الكل بالصمت التام ، وهم يحدقون فى آلة التصوير ، التى ظلّ (نور) يراقبها فى اهتمام ، لخمس دقائق كاملة ، قبل أن يضغط زر إيقافها ، ثم يلتقطها ، ويدير أزرارها ، ليشاهد الصورة التى التقطتها ، فمال بعضهم يتطلّع إليها بدوره ، وشاهدوا التماعة عينى (نور) ، وهو يسألهم

ـ ماذا ترون ؟!

أجابه (رمزى) ، فى دهشة حذرة :

ـ النجـوم .

سأله فى سرعة :

ـ فى أية هيئـة تبدو ؟!

أجابته (نشوى) هذه المرة ، فى اهتمام بالغ :

ـ على هيئة نقاط صغيرة مضيئة ، و ...

ثم شهقت فجأة ، ورفعت عينيها إليه ، هاتفة فى انفعال :

ـ وهذا مستحيل تمامًا ؟!

هتف (نور) فى حماس ، وهو يلوّح إليها بسبّابته :

ـ بالضبط !

بدا (أكرم) عصبيًا بحق ، وهو يهتف :

ـ هل يمكننا فهم سر استحالة هذه الصورة ؟!

كانت (نشوى) من التفتت إليه تجيبه ، وقد شملها انفعال جارف :

ـ وفقًا لأبسط قوانين الفيزياء ، فالأرض تدور حول نفسها ، مرة كل أربع وعشرين ساعة ، ولا تتوقّف عن الدوران لحظة

واحدة ؛ لذا ، فإذا ما حاولت التقاط صورة للنجوم ، عبر أسلوب التعريض الطويل ، الذى استخدمه أبى ، فهى تظهر أشبه بأقواس دائرية من الضوء ، ومن المستحيل أن تظهر كنقاط مضيئة ، إلا فى حالة واحدة .

أكمل (نور) عند هذه النقطة فى حزم :

ـ لو توقّفت الأرض عن الدوران .

صعقتهم عبارته فى عنف ، فتراجعت (سلوى) بحركة حادة ، واتسعت عينا (رمزى) عـن آخرهما ، وانعقد حاجبا (أكرم) فى شدة ، فى حين قال (هشام) فى عصبية :

ـ أى قول أحمق هذا ؟!

أشار (نور) إلى الكاميرا الرقمية ، قائلاً فى حزم :

ـ القول الذى أثبتته هذه الصورة يا رجل .. الأرض توقّفت عمليًا عن الدوران لسبب ما .

استمر ذهولهم المستنكر لحظات ، قبل أن تقول (نشوى) فى توتر :

ـ ولكن هناك استحالة فيزيائية أخرى لهذا .

التفت إليها (نور) ، يسألها :

ـ من ناحية ؟!

أشارت بيديها ، مجيبة :

ـ اليوم مازال يستمر على نحو عادى جدًا ، فنحن نشهد طلـوع الشمس ، وعبورهـا السـماء ، وحتى مغيبها خلف الأطلال ، وهذا يستحيل أن يحدث إلا لو كانت الأرض تواصل دورانها ، على نحو طبيعى .

غمغمت (سلوى) ، وقد حيرها هذا التناقض :

ـ هذا صحيح .

قال (هاشم) فى حذر :

ـ ربما كا هذا يعنى أن نظريتك خاطئة أيها الأسطورة !

زمجر (أكرم) ، قائلاً فى صرامة :

ـ استنتاجات (نور) دومًا صحيحة .

قال (هاشم) فى حدة :

ـ جلَ من لا يخطئ .

أجابه (نور) فى حزم :

ـ ونعم بالله .

فقال (هاشم) ، معقبًا فى سرعة :

ـ إذن فنظريتك خاطئة .

أجابه (نور) فى حزم أكثر :

ـ كلاً ، ولكن هناك تفسير حتمًا ، لهذا التناقض الفيزيائى .

غمغمت (سلوى) ، وهى تتلفَّت حولها ، فى توتر شامل :

ـ أمور عديدة فى هذا الزمن ، تحتاج إلى التفسير يا (نور) ، وتتناقض مع كل ما عرفناه .

أشار بيده ، قائلاً :

ـ فى المعتاد ، يكون هناك تفسير واحد ، لكل تلك الغوامض .. تفسير يجيب عنها جميعًا ، ويجعلها ، نسبة إليه ، منطقية تمامًا ، وقابلة للفهم .

سأله (رمزى) :

ـ ومتى يمكن أن نجد هذا التفسير ؟!

أجابه (نور) فى سرعة :

والتقط نفسًا عميقًا ، ليضيف :

ـ عند ذلك الحاجز .. (كوباء) ..

ودون اتفاق مسبق ، وعلى نحو متشابه تقريبًا ، حبس الكل أنفاسهم ..

بكل توتر الدنيا ..

* * *

« لا .. لن أحتمل هذا .. »

هتف (محمود) الصغير بالعبارة ، فى عصبية شديدة ، وهو ينهض من مقعده بحركة حادة ، فأشار إليه (طارق) ، قائلاً فى صرامة :

ــ اجلس .

هتف به (محمود) الصغير فى حدة :

ــ ليس من حقك أن توجِّه أوامرك إلىَّ .. أنت شقيقى الأصغر فحسب .

قال (طارق) الصغير فى غضب :

ــ وأنا خالك ، فهل من حقى هذا .

نقل (محمود) الصغير عينيه بينهما فى عصبية ، ثم قال فى حدة :

ــ لماذا صدقتم ذلك الدُب ؟!.. ما أدرانا أنه يقول الحقيقة ؟!.. هل سنجلس صامتين هنا ، فقط لأنه رجانا أن نفعل هذا ؟!

أجابه (طارق) فى خفوت :

ــ كلاً بالطبع .

ثم استدرك فى صرامة :

ــ ولكننى واثق من أنه يقول الحقيقة .

لوَّح (محمود) الصغير بيده فى وجهه ، هاتفًا فى غضب :

ــ وكيف يمكنك أن تثق فى هذا ؟!.. لم لا تكون خدعة أخرى للتخلُّص منا ، ونحن محبوسون هنا كالفئران .

قال (طارق) الصغير فى ضيق :

ــ لو أن هذا هدفه لفعلها هناك ، فى ذلك المنزل الآمن ، أو حتى داخل ذلك الممر دامس الظلام ، الذى سرنا فيه معًا ، ولكنه لم يفعل .

هتف (محمود) الصغير :

ــ وماذا لو ...

قبل أن يتم عبارته ، ارتجّ المخبأ كله فى عنف مباغت ، جعل ثلاثتهم يهبون من أماكنهم ، ويستلون أسلحتهم ، و(طارق) الصغير يهتف :

ــ ما هذا بالضبط ؟!

تلفَّت (طارِق) حوله فى توتر ، وهو يشهر سلاحه فى وضع التحفُّز ، قائلاً :

ـ لست أدرى ، ولكنه يبدو مثل ...

مرة أخرى ، وقبل أن تكتمل العبارة ، ارتج المكان ..

وفى عنف أكثر هذه المرة ..

عنف ، كاد يختل معه توازنهم ، ويسقطون أرضًا ، حتى أن (محمود) الصغير هتف فى عصبية شديدة :

ـ أرأيتم ؟!

مع نهاية هتافه ، طار أحـد جدران المخبأ فجأة ، وبفرقعة قوية ، صمت آذانهم ، وجعلتهم يغلقون أعينهم مرغمين ، مع الرياح القوية العنيفة ، التى هبَّت فى وجوههم ..

ثم فتحوا أعينهم ، فاتسعت عن آخرها ، فى مزيج من الذهول والارتياح والاستنكار ..

فما كشف عنه ذلك الجدار المنهار ، كان أكثر أمر مرعب رأوه فى حياتهم كلها ..

أمر جعلهم يتمنون لو أن الدُّب قد قتلهم بالفعل من قبل ..

فهو أمر يعنى أيضًا فناءهم ..

وعلى نحو بشع ..

إلى أقصى حد ..

* * *

ضحكة عجيبة ، تلك التى أطلقها الذئب ، بعد أن ألقى عبارته الأخيرة المفزعة ، على مسامع الدُّب ، الذى حدَّق فى دهشة ، تكاد تبلغ حد الذهول ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى بالعدم ؟!

أشار الذئب بذراعيه ، هاتفًا فى لهجة عجيبة ، أقلقت الدُّب بشدة :

ـ العدم يا رجل .. الفراغ .. اللا شىء .. ذلك المخبأ ، الذى قدتهم إليه ، والذى تصوَّرت أنه سيحميهم ، هو الباب إلى أكبر وأخطر شىء ، يمكن أن يواجهه بشر .. إنه الباب إلى الجحيم .. جحيم لم يأت ذكره فى أية كتب سماوية ..

انعقد حاجبا الدُّب الكثان ، وهو يقول فى عصبية :

ـ لم أفهم .

هتف به الدُّب ، وعيناه تلتمعان فى وحشية :

ـ إنه مكان حيث يتوقَّف كل شىء .. الزمن والتاريخ والأمل والمستقبل .. مكان يمكن أن تحيا فيه لآلاف القرون ، دون أن يكبر عمرك لحظة واحدة ..

عاد يطلق ضحكة أخرى أكثر وحشية ، قبل أن يضيف ، والتماعة عينيه تتضاعف ، على نحو مخيف :

ـ هل رأيت مصيرًا أبشع من هذا ؟!

سمعت (مشيرة) ذلك الحوار فى سجنها ، فاتسعت عيناها ، وهى تغمغم فى رعب :

ـ يا للوحشية !!.. يا للسادية الوحشية !!..

أما الدُب ، فقد تراجع فى توتر بالغ ، وانعقد حاجباه الكثان فى شدة ، وهو يحدّق فيه بدهشة مستنكرة ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ من أنت ؟!

التفت إليه الذئب بحركة حادة ، ورماه بنظرة نارية ملتهبة ، وهو يقول :

ـ ماذا دهاك يا رجل ؟!.. آلا تعرف من أنا ؟!

أجابه الدُب ، فى صرامة غاضبة عصبية :

ـ كلاً .. لست أعرف من أنت !

واجهه الذئب فى ثورة ، قائلاً :

ـ أنا الذئب .. زعيم زعماء المقاومة .

قال الدُب فى عصبية ، وهو يسحب خنجره :

ـ لا .. لست هو .. لست الرجل الذى عرفته منذ سنوات طوال .

زمجر الذئب فى وحشية ، وهو يقول :

ـ هل تجرؤ على مواجهتى ، ورفع خنجرك فى وجهى ؟!

انقض عليه الدُب ، صارخًا :

ـ أجـل .

وانطلقت زمجرة عالية رهيبة فى المكان ..

زمجر ذئب ..

حقيقى ..

مفترس ..

جـــدًا ..

* * *

8 ـ أنيـاب الخطـر ..

بكل رعب الدنيا ، راح الدكتور (راشد) يتلفَّت حوله ، محاولاً رؤية شيء ما ، في قلب العدم ..

أي شيء ..

كان ذلك الظلام الدامس الرهيب ، يحيط به من كل جانب ، وعلى الرغمِ من هذا ، وعلى الرغم من تعارضه مع كل قواعد الفيزياء ، كـان يرى القائد الأعلى في وضوح ، ويستطيع رؤية أجزاء جسده هو ، التي تقع في نطاق رؤيته ، ولكن فيما عدا هذا ، وفيما يخصّ كل ما حولهما بلا استثناء ، كان هناك ظلام ..

ظلام دامس ..

مخيف ..

رهيب ..

أو هو ليس ظلامًا بالمعنى المعروف ..

إنه العدم ..

شيء لم يره بشر من قبل .. وهو على قيد الحياة على الأقل ..

وفي لهجة خاصة ، تجمع ما بين الظفر والصرامة والشماتة ، قال القائد الأعلى ، وهو يتطلَّع إلى عيني الدكتور (راشد) مباشرة :

ــ أهذا كل ما رأيته ؟!

انحبست الكلمات في حلق الدكتور (راشد) ، واتسعت عيناه في رعب ، فاكتفى بإيماءةِ رأس ، جعلت القائد الأعلى يتراجع ، وهو يقول بنفس اللهجة :

ــ هذا يعني أنك لم تر شيئًا بعد .

ثم مررَّ يده على الهواء ، أو على العدم ، فبرز إثر تمريرته جسم آخر ..

جسم أشبه في تكوينه بالبشر ..

ولكنه ليس بشريًّا ..

على الإطلاق ..

وعلى الرغم من أنه لم يلتق به في حياته من قبل قط ، وعلى الرغم من أن معرفته به لا تتعدّى ما قرأه عنه ، وما استخدمه العلماء ، في محاولة صنع نموذج مطابق له ، إلا أنه تعرَّفه فور رؤيته ..

تعرَّفه بوجهه الأخضر ، وعينيه الحمراوين بلون الدم ، ورأسه الأصلع المميزّ ..

(س ـ 18) ..

ذلك المقاتل الأطلنطى الآلى ، الذى ارتبط اسمه طويلاً ، باسم (نور) وفريقه ، فى العديد من مغامراتهم(*) ..

كان يقف هناك .. فى قلب العدم ، غامضًا كعادته ، جامدًا كآليته ، صامتًا كالعدم المحيط به ..

وفى برود مخيف ، أشار إليه القائد الأعلى ، قائلاً :

ـ هل تعرفته ؟!

غمغم الدكتور (راشد) ، فى صوت مبحوح متحشرج .

ـ (س ـ 18) ..

مال نحوه مرة أخرى ، يسأله :

ـ هل تعرف ما الذى يمكن أن يفعله (س ـ 18) ؟!

بحَ صوته أكثر ، وهو يجيب :

ـ الكثيـــر .

أشار القائد الأعلى إلى (س ـ 18) مرة أخرى ، قائلاً :

ـ قدراته تتحدَّى كل ما وصل إليه العلم وبلغته التكنولوجيا فى هذا العصر .. قدرات هائلة ، تتجاوز كل ما يمكنك التفكير فيه .

(*) راجع قصة (المقاتل الأخير) ... المغامرة رقم (47) .

غمغم الدكتور (راشد) ، وصوته يزداد تحشرجًا :

ـ ولكنه لا يطيع سوى صوت (نور) .

تجاوز القائد الأعلى العبارة ، وتجاهلها تمامًا ، وهو يقول :

ـ من أهم قدراته الخارقة ، أنه يستطيع القيام برحلة مذهلة ، عبر الزمان والمكان .

اتسعت عينا الدكتور (راشد) فى ذهول ، فتابع القائد الأعلى فى صرامة :

ـ ولكن تلك الرحلة ستستهلك كل طاقته ، وخاصة لو أنه يحمل فى رحلته كائنًا آخر .

بدا صوت الدكتور (راشد) خافتًا عجيبًا ، وهو يسأل فى انفعال :

ـ أتعنى أنه يستطيع أن يحمل بشريًا ، فى رحلة عبر الزمان والمكان ؟

رفع القائد الأعلى سبَّابته أمام وجهه ، وهو يجيب فى حزم :

ـ يستطيع أن يحمل كائنًا واحدًا ، فى رحلة واحدة ، وبعدها سيفقد كل طاقته ، حتى آخر قطرة منها ، وإما أن يتحوَّل عندئذ إلى تمثال جامد من معدن لا يقهر ، أو يعمل نظام الأمن الخاص داخله ، فور نفاد طاقته ، ليفنى ذلك الجسد المعدنى الآلى ، حتى لا يقع فى يد قوة أخرى ، تسيئ استغلاله

غمغم الدكتور (راشد) ، وقد كاد صوته ينهار :

ـ أتعنى إعادة شحنه واستغلاله ؟!

صمت القائد الأعلى لحظات ، قبل أن يجيب فى بطء ، وهو يعاود النظر إلى عينى الدكتور (راشد) مباشرة وكأنما يرصد رد فعله :

ـ حتى الآن ، لا توجد وسيلة معروفة لهذا .. حتى نحن ، لا نملك الطاقة الكافية لإعادة شحنه .

ضغط عمدًا حروف (نحن) هذه ، وهو يواصل التطلّع إلى عينى الرجل ، اللتين اتسعتا عن آخرهما ، وهو يقول :

ـ أنتم ؟!

مررَّ القائد الأعلى يـده مرة أخرى على العدم ، فظهرت من خلفه عدة أجساد أخرى ..

أجساد لم يكد الدكتور (راشد) يراها ، حتى أطلق شهقة رعب قوية ، وهو يرتدّ فى عنف كالمصعوق ..

فقد كان ما رآه رهيبًا ..

بشعًا ..

إلى أقصى حـــد ..

* * *

انقضاضة رهيبة ، تلك التى انقضَّ بها الدُّب على الذئب ..

وزمجرة مخيفة ، تلك التى أطلقها الذئب ..

وصرخة مدوية ، تلك التى أطلقتها (مشيرة) ، عند سماعها ما حدث ..

لم تكن ترى ما يحدث ، ولكنها كانت تسمع أصوات القتال العنيفة ، ونباح ذلك الكلب الأصفر ..

وفى أقصى ركن من محبسها ، انزوت منكمشة فى رعب ..

فقد كان من الواضح أن القتال عنيف ..

إلى أقصى حـــد ..

كان الدُّب شديد القوة والضخامة ، بالغ الغضب والانفعال ، ويحمل خنجرًا ماضيًا ، مما يوحى بأن نتيجة المعركة محسومة مسبقًا ..

ولكن الذئب ، على الرغم مع فارق الحجم الملحوظ ، بينه وبين الدُّب ، لم يكن بالمقاتل الهيِّن ..

لقد كان يجيد مهارات قتالية يدوية خاصة ، تم تطويرها عبر الزمن ، ولا تبالى تقنياتها بفارق الحجم أو القـــوة ..

فمع انقضاضة الدُّب ، أطلق الذئب زمجرة مخيفة ، ودار حول

نفسه فى رشاقة مذهلة ، منحنيًا فى الوقت ذاته ، بحيث هوى خنجر الدُّب فى الفراغ ، وانثنى جسده الضخم على ظهر الذئب ، الذى اعتدل بحركة سريعة ، وأمسك ذراعه ، وأدارها فى حرفية ، فوجد الدُّب نفسه يطير فى الهواء ، على الرغم من جسد الضخم ، ويرتطم بالجدار بمنتهى العنف ..

وعلى الرغم من آلام عظامه ، نهض فى سرعة ، وهو يقبض على خنجره فى قـوة ، ولكنه فوجئ بالذئب يثب نحوه ، وشعر بقدميه تضرباته فى وجهه بمنتهى العنف ، فاصطدم رأسه بالجدار مرة أخرى ، وأفلت مقبض خنجره ، على الرغم منـه ، وعندما مد يده محاولاً التقاطه ، وجد نصله على عنقه ، وشعر بيد الذئب اليسرى تجذب شعره فى قوة ، ليجبر رأسه على التراجع ، وبيده اليمنى تكاد تغرس نصل الخنجر فى عنقه ، وبصوته الصارم يقول :

ــ رسميًا ، يمكننى اعتبار ما فعلته خيانة عظمى ، وفقًا لقانون المقاومة .

ثم التمعت عيناه ، وهو يضيف فى قسوة :

ــ وهذا يمنحنى الحق فى قتلك .

كان يضـغط نصـل الخنجر على عنقه بالفعل ، حتى بدأ عنقه يدمى ، وأيقن الدُّب من أنها النهاية ..

ولكن فجأة ، زمجر الكلب الأصفر فى غضب ..

ثم انقضّ على الذئب ..

كان يحمى صاحبه ، الذى أطعمه وسقاه ، وحماه وضمه إلى صدره ..

وكانت انقضاضته مباغتة تمامًا ..

انقضّ على معصم الذئب ؛ ليمنعه من ذبح الدُّب ، بخنجر هذا الأخير ، فأطلق الذئب شهقة قوية ، وتراجع مشتبكًا مع الكلب ، ومدافعًا عن نفسه ضد أنيابه ومخالبه ، مما أعطى الدُّب الفرصة ليقفز واقفًا ، وينقض على الذئب بدوره ، وهو يهتف فى تأثُّر :

ــ لقد أنقذنى .. لقد جازف من أجلى .

لم يكن بوسع الذئب ، مهما بلغت مهارته ، أن يواجه الاثنين فى آن واحد ، لذا فسرعان ما انتزع منه الدُّب الخنجر ، وهو يهتف فى ظفر :

ــ خسرت أيها الذئب .

صرخ الذئب ، وهو ما زال يقاوم أنياب ومخالب الكلب :

ــ ابعد هذا الشىء عنى .

أمسـك الدُّب كلبه ، وقـال له فى حنان عجيب ، لا يتفق مع الموقف كله :

ـ كفى يا صديقى .. كفى .

توقَّف الكلب فجأة ، وكأنما أطاعه مباشرة ، وتراجع بضع خطوات إلى الخلف ، وهـو يطلق زمجرات قصيرة متقطِّعة متحفزة ، فرمقه الذئب بنظرة بغض قاسية ، قبل أن يلتفت إلى الدُّب ، قائلاً فى غضب :

ـ ما زال هذا يعدّ خيانة عظمى فى قانوننا .

قال الدُّب ، قائلاً فى غضب عصبى :

ـ وماذا عما فعلته أنت ؟!.. ألم تهمّ بقتلى منذ لحظات ؟!

نهض الذئب فى حذر ، وهو يقول :

ـ لو أننى أردت قتلك ، لما احتاج منى هذا إلا لسحبة خنجر واحدة .. لقد كنت ادافع عن نفسى فحسب .. أنت هاجمت ، وأنا قاومت .. معادلة طبيعية للغاية .

أشار إليه الدُّب ، هاتفًا فى غضب :

ـ لقد أصابك جنون السلطة ، وغلبتك شهوة السطوة ، فتخلَّصت

من الفهد والليث والتمساح فى البداية ، حتى يخلو لك الجو ، وتنفرد بالسلطة ، ثم حاولت بعدها إقناعى بالتخلُّص من الثعلب والحرباء ، ورجل أمن الحصن السابق .. أليست هذه خيانة ؟!

اتجه الذئب فى هدوء ، نحـو براد صغير ، أخرج منه قنينة شراب ، صب منها الشراب فى كوبين ، وهو يقول :

ـ لمـاذا لم آمرك بقتلهم إذن ؟!.. بل ولمـاذا لم أحـاول التخلُّص منك فى البداية ، واتهامك بأنك المسئول عن قتل الفهد والليث والتمساح ؟!.. أجب عن هذه الأسئلة فى أعماقك ، وستدرك أنك تنظر إلى الأمور من زاوية خاطئة .. خاطئة تمامًا .

كان يولى ظهره للدُّب ، الذى لم ير تلك الزجاجة الصغيرة ، التى أخرجها الذئب من جزء خفى فى كم سترته ، وأضاف منها قطرتين إلى أحد كوبى الشراب ، قبل أن يعيدها إلى مخبأها ، ثم يلتقط الكوب ، ويستدير به إلى الدُّب ، وهو يواصل :

ـ السياسة أمر شديد التعقيد يا صديقى ، ولكى تدافع عن الوطن ، وتعلى شأن (مصر) ، قد تضطرك الظروف إلى فعل ما لا ترضاه فى الظروف العادية ..

التقط الدُّب الكوب فى حذر ، والذئب يرفع كوبه إلى شفتيه ، متابعًا :

ـ ثم إننا زعماء .. وفى قلب حـرب طاحنـة ، لاستعادة السيطرة على عالمنا ، وفى ظروف كهذه ، ولابد وأن تنحى قلبك ومشاعرك ، وأحيانًا كل مبدأ تؤمن به أيضًا ، من أجل أن تربح المعركة .

راقبه الدُّب جيدًا ، وهو يرتشف الشراب ، واطمأن قلبه كثيرًا ، عندما شاهده يرتشف جرعة كبيرة منه ، وخاصة عندما أضاف الذئب فى حماس كبير :

ـ من أجل (مصر) .

اخترقت عبارته الأخيرة قلب الدُّب ، وفجَّرت فيه حماسًا عجيبًا ، جعله يرفع كوب الشراب إلى شفتيه ، هاتفًا :

ـ نعم .. من أجل (مصر) .

والتمعت عينا الذئب فى شدة وظفر ..

فما هى إلا لحظات ، ويتحوَّل الدُّب الضخم ، إلى رضيع برئ ..

وينتهى زعيم آخر من زعماء المقاومة ..

إلى الأبد ..

* * *

بمنتهى الاهتمام والانتباه ، راقب (نور) قرص الشمس ، وهو يرتفع فى بطء ، من خلف الأطلال ، فجلست (سلوى) بمنتهى الإرهاق على أول بقايا جدار وجدتها ، وهى تقول :

ـ ماذا أيضًا هذه المرة ؟!

أشار إليها (نور) بالصمت ، ثم رفع آلة التصوير الرقمية ، وراح يلتقط الصور لقرص الشمس ، فى تتابع بطئ ، جعل (نشوى) تقول :

ـ قرص الشمس يفسد الصور فى المعتاد يا أبى .

قال فى حزم :

ـ هذا لو أنه قرص الشمس .

عبارته هذه أدهشت الجميع ، فتطلعوا بنظرة واحدة إلى قرص الشمس ، قبل أن يتساءل (أكرم) :

ـ ألا يبدو لك كذلك ؟!

أجابه (نور) فى هدوء :

ـ بلى .. إنه يبدو كذلك .

ثم التفت إليهم جميعًا ، مردفًا فى حزم :

ـ ولكن ليس كل ما يلمع ذهبًا .

قال (رمزى) فى توتر :

ـ (نور) .. إننى عاجز عن فهمك هذه المرة .

ولوَّح (هاشم) بيده ، قائلاً :

ـ وأنا توقَّفت عن محاولة الفهم ، منذ مساء أمس .

لم يبال (نور) بتعليقاتهم ، وهو يناول الكاميرا لابنته قائلاً :

ـ قومى بتكبير هذه الصور وفحصها ، وأخبرينا بِمَ توحى إليك .

التقطت (نشوى) الكاميرا ، وأوصلتها بجهاز الكمبيوتر الصغير معها ، وراحت تفحصها ، و(نور) يسأل (هاشم) :

ـ كم تبقى لنا ، حتى نصل إلى ذلك الحاجز .

أشار (هاشم) إلى نهاية الأطلال ، على مسافة مائة متر فحسب ، وهو يجيب :

ـ ها هو ذا .

أداروا أعينهم إلى حيث يشير ، وهزَّت (سلوى) رأسها فى توتر ، وهى تقول فى دهشة ، شاركها فيها الجميع :

ـ لست أرى شيئًا .

قال (هاشم) فى توتر عصبى :

ـ هذا هو سر قوته .. لا يمكنك أن تريه .. عند نهاية الأطلال تمتد صحراء صخرية ، إلى مدى البصر ، وهذه الصحراء يمكنكم رؤيتها ، ولكن لا يمكنكم أبدًا بلوغها ؛ لأن (كوباء) يفصلكم عنها .. عندما تبلغونه ، سترتطمون به ، وستحاولون تجاوزه بكل السبل ، ولكنكم لن تنجحوا أبدًا فى هذا .

قال (أكرم) فى صرامة :

ـ من وجهة نظرك فحسب .

بدا (هاشم) غاضبًا ، وهو يقول :

ـ لقـد فعلت كل ما يمكنُكم تصورُه .. استخدمت القنابل .. حفرت لستة أمتار تحت الأرض .. استعنت بجهاز ترددات بالغ القوة ، وكل هذا لم يفلح أبدًا .

قالت (سلوى) ، وهى تعيد فحص أجهزتها للمرة الأخيرة :

ـ ربما لم تكن تملك ما نمتلكه ، من أجهزة وخبرة .

رمقها بنظرة استهتار ، وقال :

— مع احترامى لأجهزتكم وخبرتكم يا سيِّدتى ، فهى تعود إلى عصر سابق .. عصر يتعبره علماء الحصن أشبه بعصر القاطرة البخارية ، بالنسبة لما توصلوا إليه هنا .

قال (رمزى) فى حسم :

— هذا لا يمنع من أننا قد نجحنا فى خداعهم ، وهزيمة تكنولوجيتهم ، والفرار من حصنهم ، على الرغم من الفارق الزمنى ، بيننا وبينهم .

قال (هاشم) فى إصرار :

— ولكنهم استخدموا كل تكنولوجيتهم ، فى محاولة لاختراق ذلك الحاجز ، ولم يمكنهم هذا .

استدار إليه (نور) ، يسأله فى اهتمام :

— كانوا يحاولون اختباره فحسب ، أم اختراقه بالفعل .

صمت (هاشم) لحظات ، وكأنما صدمه السؤال ، ثم لم يلبث أن قال فى توتر شديد :

— أخبرونا أنهم يختبرونه ، ولكن الواقع أنهم كانوا يحاولون اختراقه .

مال (نور) نحوه ، قائلاً :

— لأنهم لا يعلمون بالفعل ماذا يدور خلفه .

أجابه (هاشم) فى اقتضاب عصبى :

— هذا صحيح .

التفتت إليه (سلوى) ، تسأله فى حيرة :

— لماذا هذا الســؤال يا (نور) ؟!

لاذ (نور) بالصمت لحظات ، ثم قال فى حزم :

— لأنه لدى نظرية عجيبة ، قد يكون فيها تفسير لكل هذا الغموض ، الذى يحيط بكل شىء هنا .

سأله (رمزى) فى لهفة :

— أية نظرية هذه يا (نور) ؟!

تطلَّع (نور) إلى الأفق لحظات ، قبل أن يجيب :

— إنها نظرية مغرقة فى الخيال يا صديقى ، وشديد الغرابة فى الوقت ذاته ، ثم أنها تثير فى نفسى الكثير من الخوف ، على أرضنا التى عرفناها .

قال (أكرم) فى حذر متوتر :

— تقصد زمننا يا (نور) ؟!

هزَّ رأسه نفيًا فى بطء ، وتطلَّع إلى الأفق لحظة أخرى ، قبل أن يقول فى إصرار :

ــ بل أرضنا .

كان (رمزى) و(هاشم) و(سلوى) يهمون بإلقاء سؤال فضولى قلق ، عندما قطعت (نشوى) سؤالهم ، وكتمته فى أعماقهم وحلوقهم ، وهى تقول :

ــ رباه !.. كنت على حق يا أبى .

التفت الجميع إليها فى لهفة ، و(نور) يسألها فى اهتمام :

ــ أكان ما توقَّعته صحيحًا ؟!

أشارت إلى شاشة الكمبيوتر ، قائلة :

ــ إنها ليست الشمس التى نعرفها .

اتسعت عيون الجميع فى دهشة مذعورة ، وهتف (هاشم) مستنكرًا :

ــ ليست ماذا ؟!

التفتت إليه فى توتر ، مجيبة :

ــ انظروا إلى الصورة ، عندما قمت بتكبيرها مائة مرة ..

هذه الخطوط الأفقية فى الصورة ، ليست خاصة بخلايا الكاميرا الطبيعية ، إنها خطوط خاصة بالشمس نفسها .

تساءل (أكرم) ، فى حيرة حذرة :

ــ وهل تحوى شمسنا على خطوط ما ؟!

هزَّت (نشوى) رأسها نفيًا ، وهى تقول :

ــ كلاَّ بالطبع .. شمسنا هى نجم متوسِّط الحجم ، يتكوَّن سطحه من غازات ملتهبة ، أما ما نراه هنا تصوير هولوجرامى لها ، مزوَّد بإضاءة صناعية ، ومصدر حرارى مفتعل ، حتى تبدو وكأنها الشمس التى نعرفها .

هبط قولها عليهم كالصاعقة ، وألجم ألسنتهم فى حلوقهم ، مع مقدار هائل من الذهول والاستنكار ، باستثناء (نور) ، الذى هزَّ رأسه متفهمًا ، وهو يهتف ، قائلاً فى حزم :

ــ هذا يتفق مع نظريتى .

أمسكته (سلوى) من ذراعه ، وهى تهتف فى توتر :

ــ (نور) .. حان الوقت لتشرح لنا نظريتك .

أجابها فى حزم أكثر :

ــ ليس بعد يا عزيزتى .. ليس بعد .. عندما نبلغ ذلك الحاجز ، ونجد سبيلاً لعبوره ، سأجد الدليل على نظريتى ، وعندئذ ...

لم يكمل عبارته ، وهو يتحرك مكملاً مسيرتهم ، فهتف (هاشم) فى عصبية :

ــ هل سيحتفظ بنظريته لنفسه ؟!

قال (أكرم) فى صرامة ، وهو يتبع (نور) :

ــ اصـمت .

واصلوا سيرهم ، وتجاوزا منطقة الأطلال ، وتلفتت (سلوى) حولها ، وهى تقول فى توتر :

ــ مازلت لا أرى ذلك الحاجز ، الذى ..

قبل أن تكمل عبارتها ، ارتطمت فجأة بشىء ما ..

شىء مخملى ..

صلب ..

خفى ..

شىء جعلها ترتد مذعورة ، وهى تهتف :

ــ مستحيل !

توقف الكل دفعـة واحـدة فى انفعال ، وتقدم (نور) نحو (سلوى) ، ومد يده يتحسس ذلك الحاجز فى حذر ، وهو يعقد حاجبيه ، قائلاً :

ــ تمامًا كما وصفته (مشيرة) ... مخملى وصلب فى الوقت ذاته .

تقدمت (نشوى) تلمس الحاجز بدورها ، وتقول فى دهشة :

ــ عجيب أن يتفق هذا وذاك .

تقدم (رمزى) و(أكرم) بدوريهما يتحسسان ذلك الجدار الخفى ، فى دهشة وحذر ، فى حين بقى (هاشم) فى مكانه ، وهو يقول :

ــ إنه ليس مخمليًا كما تظنون ، إنها تردداته الفائقة للغاية ، التى تمنحكم ذلك الشعور الزائف بمخمليته .

التفت إليه (نور) لحظة ، ثم قال لزوجته :

ــ (سلوى) ، لو أنه يحوى ترددات فائقة ، فأنت الشخص المناسب للتعامل معه .

أشارت (نشوى) بيدها ، قائلة :

ــ وأنا أيضًا .

هزَّ (هاشم) رأسه نفيًا فى قوة ، وهو يقول :

ـ لن يجدى هذا .

أجابه (نور) فى صرامة :

ـ ربما .. ولكننا لم نعقد الاستسلام بهذه البساطة .. سنحاول حتّى آخر رمق .. وبكل الوسائل .

وأدار عينيه إلى تلك الأجهزة ، التى أحضروها من الدودة الآلية العملاقة ، وهو يضيف فى حسم :

ـ حتى غير التقليدية منها .

وانعقد حاجبا (هاشم) فى شدة :

فحديث (نور) ولهجته ، حملاً الكثير من الغموض ..

الكثيـــر ..

جـــدًا ..

* * *

9 ـ كـوبـــاء ..

بذل (هيثم) جهدًا خرافيًّا ، ليخفى خوفه وتوتره فى أعماقه ، وهو يعبر ذلك الجزء المتموّج من الجدار ، إلى حجرة القائد الأعلى ، الذى استقبله فى صرامة ، قائلاً :

ـ ماذا يحدث هنا بالضبط ؟!

أجابه (هيثم) ، فى توتر واضطراب :

ـ أمور عديدة يا سيّدى .. المنطقة القريبة من (كوباء) ، يحيط بها انبعاث حرارى قوى ، لا يستطيع العلماء تفسيره ، وتلك الاهتزازات ، من باطن الأرض تتواصل ، على نحو غير مفهوم ، وأجهزتنا سَجلت فيضًا من الطاقة ، فى بقعة من الأطلال ، على مقربة من منطقة تمركز المقاومة ، فى نفس الوقت الذى اختفى فيه الدكتور (راشد) تمامًا ، ولم يستجب لأى نداء ، مما وجهناه إليه ، ولم نعثر له على أدنى أثر ، فى الحصن كله .

استمع إليه القائد الأعلى فى اهتمام وانتباه ، ثم تجاهل كل النقاط ، فيما عدا نقطة واحدة ، اعتدل يسأله عنها فى صرامة :

ـ ذلك الانبعـاث الحرارى غير المفهوم ، هـل أتى من نفس البقعة ، التى اختفى عندها أثر (نور) وفريقه ؟!

أجابه (هيثم) فى سرعة :

ـ أجـل ؟!

تراجع القائد الأعلى مفـكرًا بضع لحظـات ، قبل أن يعتدل فجأة ، قائلاً بلهجة آمرة صارمة :

ـ فليكن .. فى هـذه الحالة ، اسـتمع إلىّ جيدًا ، ونفـذ ما سآمرك به .. وبالحرف الواحد .

فى نفس اللحظة ، التى كان يلقى فيها أوامره ، كانت (سلوى) تهزّ رأسها نفيًا ، وهى تلتفت إلى (نور) ، قائلة :

ـ لا توجد وسيلة بالفعل يا (نور) .. تلك الترددات ، التى تصنع هذا الحاجز الواقى ، أقصر من أية ترددات عرفتها فى زمننا .

غمغم (هشام) :

ـ وحتى فى هذا الزمن .

رمقته (نشوى) بنظرة خاوية ، وقالت :

ـ إنها أقصر حتى من كل ما يمكن تحقيقه ، وفقًا لقوانين الفيزياء .

غمغم (نور) ، مضيفًا :

ـ المعروفة فى أرضنا .

مرة أخرى ، التفت إليه الجميع ، وقال (أكرم) فى عصبية ، وهو يتحسَّس مسدسه التقليدى بحركة متوترة :

ـ مازلت تثير فى نفوسنا خوفًا مبهمًا يا (نور) .

قال (نور) فى لهجـة ، لا تقل غموضًا عما يقوله ، طوال الدقائق الماضية :

ـ ماذا عن الحقيقة إذن يا صديقى ؟!

سحب (أكرم) مسدسه فى عصبية ، وهو يقول :

ـ على الأقل ، الحقيقة يمكن مواجهتها .

قال (هاشم) فى سخرية :

ـ ليس بمسدسك .

رفع (أكرم) مسدسـه ، وأطلق منـه رصاصة ، فى حركة غريزية غاضبة ، نحو ذلك الحاجز الخفى ، وهو يقول فى حدة :

ـ مَن يدرى .

دوى صوت الرصاصة ، على نحو كاد الجميع يعترضون معه على ما فعله ، لولا أن اتسعت عيونهم جميعًا ، مع ما حدث فى اللحظة نفسها ..

لقد اخترقت رصاصة (أكرم) ذلك الحاجز ، وصنعت فيه مجموعة من الدوائر ، ذات المركز الواحد ، كما لو أنها بحيرة صغيرة من المياه ، سقط فيها حجر .. وخلال ثانيتن فحسب ، اختفت تلك الدوائر ، واختفى معها الحاجز ..

والأعجب أن رصاصة (أكرم) أيضًا ... اختفت ..

وفى ذهول ، حدَّق الجميع فى البقعة ، التى حدث فيها ذلك التأثير ، قبل أن تقول (نشوى) لاهثة ، من فرط الانفعال :

ـ لقد اخترقتها .

هتف (هاشم) فى حماس شديد ، وهو يربِّت على ظهر (أكرم) فى قوة :

ـ فعلتها يا رجل .. فعلتها .

بدا (أكرم) أكثرهم ذهولاً ، وهو يحدِّق فى مسدسه ، مغمغمًا :

ـ حقًا ؟!

هتف (رمزى) فى حماس :

ـ ماذا لو أطلق (أكرم) عليه عدة رصاصات ؟!

هزَّ (نور) رأسه نفيًا ، وهو يقول فى حزم :

ـ لست أظن هذا ... اختراق رصاصة (أكرم) للحاجز ، يحمل دلالات أخرى ، يمكننا الإفادة منها .

وافقته (سلوى) ، وهى تقول فى حماس :

ـ الرصاصة جسم معدنى .

أضافت (نشوى) :

ـ وتنطلق بسرعة فائقة .

أشار (رمزى) بسبَّابته ، مكملاً :

ـ ونحو نقطة بعينها .

التقط (نور) نفسًا عميقًا ، وهو يقول :

ـ بالضبط .. السؤال الآن هو : ماذا لو وضعنا جسدًا بشريًا ، داخل أسـطوانة معدنية ، ويمكننـا إطلاقها بنفس سرعة الرصاصة ، وفى اتجاه أفقى ، نحو ذلك الحاجز لتختفى مباشرة ؟!

تردَّدت (نشوى) ، وهى تقول :

ـ لا يمكننا الجزم بالنتائج ، لأننا ما زلنا نجهل الكثير ، عن طبيعة هذا الحاجز ..

قالت (سلوى) مضيفة ، فى قلق ملحوظ :

ـ وهذا محفوف بالكثير من المخاطر .

قال (نور) فى حزم :

ـ وكذلك وجودنا هنا .

ثم التفت إلى ما أحضروه من أجهزة ، مستطردًا بلهجة آمرة :

ـ لو استخدمنا هذه الأشياء ، وأمكننا صنع جسم أسطوانى منها ، فقد نستطيع صنع الأسطوانة المطلوبة ؛ لاختراق هذا الحاجز .

قال (رمزى) فى خفوت :

ـ هذا لو وجدنا الطاقة الكافية .

أجابت (نشوى) فى سرعة :

ـ يمكننى استخدام مصدر الطاقة ، الذى استخرجناه من تلك الدودة العملاقة ، لتأمين طاقة كافية .

وشحب صوتها مع وجهها ، وهى تكمل :

ـ لانطلاقة واحدة .

أومأ (نور) برأسه متفهمًا ، وهو يقول :

ـ إنها تكفى .

ثمَّ صفَّق بكفيه ، مضيفًا فى لهجة قائد :

ـ فلنبدأ العمل إذن .

قالت (سلوى) فى توتر :

ـ هذا يعنى أن نفقد كل ما لدينا من أجهزة ، ومصدر للطاقة !

أجابها فى حزم :

ـ إنها لم تفدنا .. أليس كذلك ؟!

حار سؤال على شفتيها لحظات ، وهى تكتمه فى خوف ، قبل أن تطلقه إلى شفتيها ، لتقول فى انفعال :

ـ (نور) .. لعلك لا تفكِّر فى ...

قاطعها وهو يشيح بوجه عنها ، ملتفتًا إلى (أكرم) ، ومشيرًا إليه ، قائلاً :

ــ (أكرم) .. أريد التحدُّث إليك قليلاً ، بينما يقوم الآخرون بعملهم .

أومأ (أكرم) إيجابًا دون مناقشة ، وتبعه إلى البقعة التى اختارها ، والتى ستحجبها حتمًا عن أنظار الآخرين ، فى حين أشارت (سلوى) إلى (رمزى) و(هاشم) ، قائلة فى عصبية واضحة :

ــ انضما إلينا .. سنحتاج إلى العديد من الأيدى ؛ لإتمام هذا العمل ، بالسرعة اللازمة .

اتجــه إليهــا (رمزى) مسرعًا ، فى حين تباطأ (هاشم) عمدًا ، وهو ينظر إلى حيث اختفى (نور) و(أكرم) ، وكل ذرة فى كيانه تتساءل : فيم يتحدثان ؟!

فيــم ؟!..

* * *

« إنهم ليسوا بشرًا ! »

هتف (محمود) بالعبارة فى عصبية ، وهو يسبح ، مع شقيقه وخاله ، فى ذلك العدم الرهيب ، فقال (طارق) الصغير فى توتر شديد :

ــ تكوينهم يشبه تكويننا الجسدى إلى حد كبير .

قال (طارق) فى خفوت ، حمل الكثير من الانفعالات :

ــ ولكن الوجوه .. هل رأيت كيف تبدو وجوههم ؟!

أجابه الدكتور (راشد) ، بصوت مرتجف :

ــ إنها بشعة !

صمت لحظة ، وكأنه سيكتفى بهذا القول ، إلا أنه لم يلبث أن أضاف ، فى صوت أكثر ارتجافًا :

ــ زرقاء شاحبة ، ذات عيون واسعة ، وأنياب بارزة ، وآذان طويلة .. تمامًا كوجوه أولئك الموتى الأحياء ، الذين كنا نشاهدهم ، فى أفلام السينما الأمريكية القديمة .

ارتجف صوت (طارق) الصغير بشدة ، وهو يقول :

ــ أتعنى أنهم ... سيلتهموننا ؟!

قــال (طارق) الكبير فى توتر ، وهو يتلفَّت حوله ، محاولاً اختراق ذلك الظلام الدامس الرهيب :

ــ أخشى ما هو أسوأ يا صديقى .

وصمت لحظة ، انتبه خلالها الجميع له ، قبل أن يردف ، وقد تضاعف توتره :

ـ أن يتركوننا هنا .. إلى الأبد .

قال (محمود) الصغير فى عصبية :

ـ إننى أفضل الموت .

قال الدكتور (راشد) فى مرارة :

ـ الموت يعدّ بمثابة جائزة ، لمن فى مثل موقفنا .

عاد (طارق) يتلفّت حوله ، وهو يقول :

ـ جدى (نور) كان يقول دومًا : إنه هناك سبيل للخروج ، من أى موقف كان ، مهما بدا ذلك مستحيلاً .

أجابه الدكتور (راشد) فى يأس :

ـ هذا ينطبق على عالمنا .

قال (محمود) الصغير :

ـ ربما توجد قواعد لهذا العالم أيضًا .

هزّ الدكتور (راشد) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لن يمكنك نعرفتها ؛ لأن كل شىء هنا يخالف ما نعرفه فى عالمنا .. إنها منطقة خارج الزمان والمكان ، ينفون فيها من يشكلون خطرًا عليهم مثلنا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى مرارة :

ـ حتى (س ـ 18) ، احتجزوه هنا .

هتف (طارق) الصغير فى لهفة ، اشترك معه فيها الجميع :

ـ (س ـ 18) .. أتقصد ذلك الآلى الأطلنطى الفائق ؟!

أجابه الدكتور (راشد) فى دهشة :

ـ بالطبع .. ألا ترونه حولكم .

لم يكن أحدكم يراه فى الواقع ..

حتى تلك اللحظة ..

فما أن ألقى الدكتور (راشد) سؤاله ، حتى بدا واضحًا لأعين ثلاثتهم بغتة ، كما لو أن السؤال قد أضاء بصيرتهم دون إنذار ..

وفى لهفة وأمل ، هتف (محمود) الصغير :

ـ وفقًا لنا قالته كتب التاريخ ، فوجود (س ـ 18) هنا قد يعنى ...

قاطعه الدكتور (راشد) :

ـ لا تتشبَّث بأمل زائف يا فتى .

قال (طارق) فى حزم :

ــ ولكن جدى أكَّد أن قدرات (س ــ 18) تتجاوز الخيال ، وقد نستطيع استخدامه ، ليحرّرنا من هذا العــدم .

هزَّ الدكتور (راشد) رأسه نفيًا ، وقال فى أسى :

ــ إنه لا يطيع سوى صوت (نور) .

قال (طارق) الصغير فى تردُّد :

ــ ربما أستطيع تقليد صوت جدى ، أو ...

قاطعه الدكتور (راشد) فى توتر :

ــ مستحيل أن تخدع برنامج ذلك الآلى .. وفقًا لما قرأته عنه ، فهو قادر على تمييز الأصوات ، بنسبة خطأ تبلغ واحد كل مائة مليار ، وهذا يعنى أنه حتى أجهزة الكمبيوتر ، لا يمكنها خداعه فى هذا الشأن .

قال (محمود) الصغير فى يأس :

ــ هذا يعنى أن خروجنا من هنا مستحيل .

لم يكد يتم عبارته ، حتى تناهى إلى مسامعهم صوت تأوّهات ، جعلتهم يتسمرون فى مكانهم ، لو أن هذا المصطلح يمكن استخدامه ، فى قلب العدم ، ثم لم يلبث (طارق) أن همس ، فى توتر شديد الحذر :

ــ هناك شخص آخر هنا .

وكما حدث مع (س ــ 18) ، لم يكد يذكر هذا ، حتى ظهر ذلك الآخر ، وهو يطلق آهة ألم ثانية ، ويتلفّت حوله فى ذعر هائل ، جعله أشبه بطفل هائل الحجم ..

وبكل دهشته وانفعالاته ، هتف (محمود) الصغير :

ــ الدُب ؟!

وكانت بالفعل مفاجأة ..

مدهشــة ..

جــدًا ..

* * *

قبل حدوث هذا بساعات قليلة ، كان الدُّب يرفع كوب الشراب إلى شفتيه ، ويهم بارتشافه ، وعنـدما رفع كلبه الأصفر عينيه إليه فى لهفة ، جعلته يخفض الكوب إليه ، وهو يقول :

ــ إنه أكثر احتياجًا له منى .

انعقد حاجبا الذئب فى توتر ، وهو يقول فى عصبية :

ــ هل ستسقى شرابى للكلب ؟!

ابتسم الدُّب ، وهو يربِّت على رأس كلبه فى حنان ، والكلب

يعلق الشراب فى لهفة ، وقال :

ــ ربما يتجاوز هذا حدود اللياقة ، ولكننى لا أستطيع مس الشراب وهو عطش .

حمل صوت الذئب كل غضبه وانفعالاته ، وهو يقول :

ــ هذا بالفعل يتجاوز كل الحدود .

ربَّت الدُّب على رأس كلبه مرة أخرى ، ثم اعتدل ، قائلاً :

ــ الآن ، وباعتبارنا زعيمين كما قلت ، المفترض أن تطلعنى على ما تنتويه ، بخطتك شديدة التعقيد هذه .

ظلّ بصر الذئب معلقًا بالكلب ، الذى يواصل لعق الشراب فى لهفة ، وقال محاولاً كظم غيظه :

ــ إنها ، كما قلت أنت شديدة التعقيد ، حتى أنك لن تستطيع استيعابها .

قال الدُّب فى غضب :

ــ جربنى .

التقط الذئب كرة معدنية لامعة ، من أحد الأرفف البسيطة فى مخبأه ، وهو يقول :

ــ لقد أجريت تجربتى بالفعل .

ثم التفت إلى الدُّب ، مستطردًا فى مقت :

ــ وفشلت .

لم يفهم الدُّب ما يعنيه ، فحاول أن يلقى سؤالاً استفساريًّا ، و ...

وفجأة ، أطلق كلبه عواءً عجيبًا !!..

وعندما التفت إليه فى جزع ، كان الكلب يتلوّى فى عنف ..

وعندما انحنى عليه فى لهفة ، انتفض الكلب المسكين فى عنف ..

وأمام عينيه المذعورتين ، بدا له وكأن كلبه ينكمش ..

وينكمش ..

وينكمش ..

وتراجع الدُّب كالمصعوق ..

الكلب لم يكن ينكمش فعليًّا ..

لقد كان يصغر !!..

كان يتحوّل ، فى لحظات قليلة ، من كلب ناضج ، إلى جرو صغير .

وفى ذهول ، حدَّق الدُّب فيما يحدث ، ثم أدار عينيه فى حركة غاضبة إلى الذئب ، الذى كان يصوِّب إليه تلك الكرة المعدنية ، وهو يقول ؛ فى هدوء عجيب :

— كان المفترض أن يحدث هذا لك .

اشتعلت عينا الدُب غضبًا ، وهو يندفع نحوه ، صارخًا :

— أيهـا الوغـد الحقير ..

لم ير الدُب ما الذى فعله الذئب بتلك الكرة المعدنية اللامعة ..

ولكنه شعر به تمامًا ..

شعر بصدمة قوية ، فى جسده الضخم كله .

صدمة دفعتـه إلى الخلف ، وضربته بالجدار ، بأعنف وأقوى مما يمكنه احتماله ، حتى أنه شعر بعظام جسده كله تتفتت ، قبل أن يسقط مرتطمًا بالأرض ، وكأنه جوال من الأحجار الثقيلة ..

كـان رأسه يدور فى شدة ، ولكنه حاول النهوض ، وبدت له صورة الذئب متهزّزة ، وهـو يقترب منـه فى هدوء ، ويعيد تصويب تلك الكرة اللامعة إليه ، وهو يقول :

— من الواضح أنك قوى بحق .

وهنا جاءت الصدمة الثانية ..

وفى هذه المرة ، لم يستطع الدُب احتمالها ، فارتطم رأسه بالأرض فى قوة ، مع انتفاضة جسده العنيفة ..

وأظلمت الدنيا بعدها تمامًا ..

وفى هدوء ظافر ، وقف الذئب يتطلّع إلى الدُب الفاقد الوعى ، قبل أن يقول ، وعيناه تلتمعان فى شدة :

— لا أحد يمكنه هزيمة الذئب يا رجل .. لا أحد .

قالها ، واستدار فى هدوء ، إلى جدار جانبى ، اتجه إليه ، وضغط ركنًا خفيًا ، فتحرك الجدار كله ، وانزاح كاشفًا تلك الفجوة ، التى يحتفظ فيها بـ (مشيرة) ، والتى تراجعت فى خوف ، ثم أطلقت شهقة فزع ، عندما وقع بصرها على الدُب الملقى أرضًا ، والجـرو الأصفر الصـغير ، الذى يدور حوله مذعورًا ، ويلعق وجهه محاولاً إيقاظه ، وشحب صوتها مع وجهها فى شدة ، وهى تقول :

— هل .. هل قتلته ؟!

مطَّ شفتيه ، قائلاً :

ليس بعد ... ربما أدخر له مصيرًا أسوأ ..

— ابتسم فى تشف مبتهج ، وكأنما يملأ الحديث عن السوء نفسه بالمتعة ، فسألته (مشيرة) فى خوف :

— وماذا عنى ؟!

صمت لحظة ، قبل أن يجيب فى صرامة :

ــ هذا يتوقَّف عليك .

قالت فى عصبية :

ــ لا أستطيع خيانة الفريق .

هزَّ كتفيه فى لا مبالاة ، قائلاً :

ــ سيقضون نحبهم فى كل الأحوال .

قالت فى حــدة :

ــ هذا ما تتمناه .

أشار بسبَّابته قائلاً :

ــ بل ما أصبحوا متأكدين منه هناك .

وأمال سبَّابته نحو الخارج ، مستطردًا ، فى لهجة ظافرة :

ــ فى الحصن .

حدَّقت فيه بذهول مذعور ، وهى تهتف :

ــ رباه !.. هل تخون المقاومة ؟!.. هل تعمل لحساب الحصن ؟!..

نظر إليها لحظة فى دهشة ، قبل أن يطلق ضحكة مجلجلة ، قائلاً :

ــ بل الحصن يعمل لحسابى .

قالت مستنكرة :

ــ لحسابك أنت ؟!..

تراجع قليلاً ، وكأنما يفسح لهـا السبيل للخروج ، وهو يقول فى زهو :

ــ أحد كبار قادتهم عين لنا ، وهو يبلغنا ما يحدث ، أوَّلاً بأوَّل .

سألته فى دهشة وحذر :

من منهم بالضبط !!

لم يجب سؤالها ، وهو يكمل :

ــ هو من أخبرنى بعودتكم ، وهو من يبلغنى تطوّرات الموقف أوَّلاً بأوَّل ، وهو نفسه من أخبرنى أنه تم رصد موقع الفريق ، عند (كوباء) ، وأن دورية خاصة فى طريقها إلى هناك ، مع مركبة جوية ، للقضاء عليهم جميعًا .

ارتجف قلبها لقوله ، وكادت تصرخ فزعًا وألمًا ، وهى تتخيَّل (أكرم) جثة هامدة ، بين تلك الأطلال ، ولكن كرامتها أبت عليها أن تطلق صرختها ، تمامًا كما أبت على دموعها أن تغرق وجهها ، وهى تقول :

ــ يمكنهم أن يحاولوا .

قال فى حزم :

ـ سيفعلونها .

هتفت فى عصبية :

ـ لماذا تطالبنى بالتعـاون معك ، وبخـداع أفـراد الفريق ، مادمت واثقًا هكذا ؟!

صمت لحظات فى ضيق واضح ، ثم لم يلبث أن هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ تحسبًا .

التقطت نفسًا عميقًا ، لم ينجح فى تهدئتها ، وهى تقول :

ـ لست واثقًا إذن .

أشار بيده إلى الجرو الصغير ، وهو يقول :

ـ أنـا واثق من أنك لن تضيعى فرصـة نادرة ، تحلم بها كل امرأة فى الوجود ، فى أن تظل شابة إلى الأبد .

ثم مال نحوها ، مكملاً فى ظفر مسبق :

ـ فى عينى الرجل الذى تحب على الأقل .

عبارته فجّرت فى أعماقها شعورًا قويًا ..

شعور لم يتوقَّعه هو قط ..

شعور بأن (أكرم) هو الشخص الوحيد فى الكون كله ، الذى لم ير أية علامات تقدُّم فى السن على وجهها ..

الوحيد الذى يراها شابة ، جميلة ، نضرة ، طوال الوقت ..

هذا لأنه لا يراها بعيون رجل ..

بل بعيون حبيب ..

حبيب لن يغفر لها أبدًا ، لو فكَّرت مجرَّد تفكير ، فى خيانة رفاقه ..

حبيب جعل جسدها كله ينتفض فى حزم وصرامة وانفعال جارف ، وهى تقول فى تحد :

ـ كلاَّ .

تراجع بحركة حادة ، واتسعت عيناه فى شدة ، وهو يردِّد غير مصدِّق :

ـ كلاَّ ؟!

نهضت قائلة فى حزم :

ـ نعـم كلاَّ وألـف كلاَّ .. لن أخـون (نور) وفريقه ، حتى لو منحتنى الخلود نفسه ، وليس الشباب فحسب ..

انتفض جسده ، فى انفعال عنيف ، وهو يهتف فى غضب :

ـ هل تدركين أية فرصة تضيعين ؟!

لوَّحت بسبَّابتها فى وجهه ، صائحة :

ـ هل تدرك أنت ما سأفقده ؛ لو وافقت على خطتك الدنيئة ؟

رفع الكرة المعدنية نحوها ، وهـو يرتجف من فرط الغضب ، هاتفًا :

ـ فى هذه الحالة .

تراجعت فى حركة غريزية ، على الرغم من جهلها بما تمثله تلك الكرة ، التى صوَّبها نحوها فى غضب ، و ...

وفجأة ، صدر أزيز عجيب ، من مكان ما فى الوكر ..

أزيز جعله يخفض كرته اللامعـة ، ويندفع نحـو جـزء من الجدار ، هاتفًا :

ـ ها هو ذا .

ضغط زرًّا خفيًّا فى الجدار ، فانزاح جانب منه ، كاشفًا شاشة رصد كبيرة ، ظهرت عليها صورة مكتب أنيق ، يجلس خلفه رجل مستتر بظل كثيف ، يخفى وجهه تمامًا عن الرؤية ..

شخص تحدَّث فور ظهوره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هل بلغت بك حماقتك هذا الحد ؟!

حدَّقت (مشيرة) ذاهلة فى تلك الصورة على الشاشة ، والذئب يجيب ، فى توتر شديد :

ـ أية حماقة تعنى ؟!

أجاب صاحب الصوت بنفس الصرامة :

ـ كشفت أمرك للدُّب ، وللسيِّدة (مشيرة) ، بدلاً من أن تتروَّى ؛ لترى كيف ستسير الأمور .

بدا الذئب شديد التوتر ، وهو يقول :

ـ مازالت احتفظ بهما ، ولكننى قد ...

قاطعه فى صرامة :

ـ ترتكب حماقة أخرى بالقضاء عليهما ؟!

ارتجف صوت الذئب ، من فرط التوتر ، وهو يقول :

ـ وماذا تقترح أن أفعل بهما .

لم تسمع (مشيرة) الجواب ، وهى تحدق فى تلك الصورة

على الشاشة فى ذهول تام ..

فذلك الشخص ، الذى وصفه الذئب بأنه عين له فى الحصن ، كان آخر شخص يمكن أن تتصوَّره ..

بل يستحيل ، مهما بلغت عبقريتها أن تتصوَّره ..

يستحيل تمامًا ..

تمامًا .

* * *

10- النظـريـة ..

ثنى (نـور) جسـده فى مرونة ، لتستوعبه تلك الكبسولة المعدنية ، التى تعاون الكل فى صنعها ، من كل ما لديهم من آلات وأجهزة ، وقال فى صعوبة :

ـ إنها ضيقة بعض الشىء ، ولكن لا بأس .. المهم أن تؤدّى مهمتها بنجاح .

قالت (نشوى) ، عاجزة عن كتمان توترها :

ـ احتمالات نجاحها فى عبور ذلك الحاجز ، تبلغ ثمانين فى المائة تقريبًا .

سألها (أكرم) فى قلق شديد :

ـ ولماذا ليست مائة فى المائة ؟!

أشارت إلى جهاز الكمبيوتر ، قائلة :

ـ لقد أدخلت كل العوامل فى برنامج الكمبيوتر .. وزنها ، ونوع مادتهـا ، ومقـدار الطاقة التى ستطلقها ، وسرعتها عند الاختراق ، ولكن هنـاك عامل ، ليست لدى معلومة واحدة ، يمكننى الاسترشاد بها بشأنه .

سألها ، فى مزيد من القلق :

ـ وما هى ؟!

ارتجف صوتها ، وهى تجيب :

ـ أبى .

التفت إليها الجميع ، فى تساؤل بالغ القلق ، فأكملت موضّحة :

ـ وجود عامل بشرى داخلها يخل بالمعادلة كلها ، فالتجربة العملية الوحيدة لدينا ، تخص الأجسام الصلبة ، التى تنطلق بسرعة كبيرة .

سرى قلق (أكـرم) وتوتر (نشـوى) فى نفوس الجميع ، فتساءل (رمزى) فى انفعال :

ـ وماذا يمكن أن يحدث فى رأيك ، فى حالة الفشل .

امتقع وجهها فى شدة ، وهى تجيب :

ـ ستعبر الكبسولة المعدنية .

سألها (هاشم) فى حذر متوتر :

ـ وماذا عن المقدّم (نور) ؟!

التمعت الدموع فى عينيها ، وهى تجيب فى خفوت :

ـ لن يعبر جسده .

اتسعت عينا (أكرم) ، وهو يقول :

ـ ولكنه داخل الكبسولة .

قالت فى إصرار ، ودموعها تنسال فى بطء على خديها :

ـ لن يعبر .

ثم أجهشت بالبكاء وفجأة ، وأخفت وجهها بين كفيها ، هاتفة :

ـ حيـاً .

اتسعت عينا (سلوى) ، وحدّقت فى (نور) فى لوعة ، مردّدة :

ـ لا .. ربــاه !!.. لا .. مستحيل !

وانعقد حاجبا (أكرم) ، وهو يندفع نحو الكبسولة ، قائلاً فى صرامة تموج بالعصبية والتوتر :

ـ اترك هذه الكبسولة يا (نور) .

أشار إليهم (نور) ، قائلاً :

ـ بعد كل ما فعلناه .

شمّر (اكرم) عن كميه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لن نخسر شيئًا .

وضرب صدره بقبضته ، مضيفًا فى عصبية :

ـ أنا سأذهب .

أزاح (هاشم) (رمزى) من أمامه ، قائلا فى حزم :

ـ بل أنا .. لن ينقسم الفريق فى زمنى ، بعد أن ظلّ كتلة واحدة عبر التاريخ .

بدأوا يتشاجرون فى توتر ، حول من منهم ينبغى أن يذهب ، حتى أخرج (نور) جسده من الكبسولة ، وقال فى صرامة ناهية :

ـ كفى .

التفت إليه الجميع فى توتر وانتباه ، فأضاف :

ـ هل يمكنكم أن تولونى ثقتكم ، هذه المرة أيضًا ؟!

كان (أكرم) أوّل من هتف :

ـ إننى أثق بك بكل جوارحى يا (نور) .

وقال (رمزى) فى حزم :

ـ كلنا هذا الرجل .

وقالت (نشوى) فى خفوت قلق :

ـ أى سؤال هذا يا أبى ؟!..

وسألته (سلوى) فى عصبية :

ـ بل لماذا هذا السؤال يا (نور) ؟!..

اكتفى (هاشم) بانعقادة حاجبيه ، و(نور) يجيب فى حزم :

ـ عندما قررتُ أن أعبر هذا الحاجز بنفسى ، كانت لى أسبابى ، التى تحتم قيامى شخصيًا بهذه المخاطرة ؛ فلو نجحت خطتنا ، وعبرت بى الكبسولة إلى الجانب الآخر ، فسيثبت هذا نظريتى ، التى أكاد أثق فى صحتها ، ثقة تجعلنى أخوض المجازفة عن رضى .

سأله (رمزى) فى بطء :

ـ وماذا لو ثبت خطأ نظريتك يا (نور) ؟!

هزّ (نور) رأسه ، وهو يقول :

ـ لن يصنع هـذا فارقًا كما تتصوّرون ؛ فكل قوات الحصن تستهدفنا وتعرف موقعنا الآن ، وكلنا يعلم أن خدعة الانبعاث الحرارى الزائف ، لن تخدعهم طـويلاً ، وسرعـان ما سنجدهم يحيطون بنا هنا ، ولحظتها لن نحظى بذرة رحمة منهم .

قال (هاشم) فى خشونة ، صنعتها محاولته لكتمان مشاعره :

ــ وهل سيغير إثباتك لنظريتك الموقف ؟!

صمت (نور) لحظة ، ثم أجاب فى حزم :

ــ أجــل .

ران عليهم صــمت مهيب ، بعــد كلمته الأخيرة هذه ، وأدار هو عينيه فى وجوههم ، قبل أن يعود إلى تلك الكبسولة ، قائلاً ، بنفس اللهجة الآمرة :

ــ والآن هيا نكمــل ما بدأنــاه ، فالوقت يمضى بأسرع مما تسمح به الظروف .

حشر جسده داخل الكبسولة ، مستخدمًا كل مرونته ، ونظر إليهم ، مضيفًا فى لهجة آمرة حازمة :

ــ هيــا .

تبادلوا نظرة متوترة ، ثم التقطت (نشوى) نفسًا عميقًا ، على نحو مسموع ، وهى تضغط زر أغلاق الكبسولة ، قائلة :

ــ ستنجح بإذن الله .

هتفت (سلوى) فى لوعة :

ــ (نور) .

منحها ابتسامة ثقة هادئة ، قبل أن تُغلق الكبسولة ، فتوقَّف الجميع حولها فى صمت ، يتطلَّعون إليها فى أسى ، وكأنهم يلقون نظرة وداع على (نور) ، حتى تنحنح (أكرم) فى صوت مرتفع ، وقال فى صرامة ، حاول أن يخفى بها تأثُّره :

ــ فلنطلقها .

تردَّدت (نشوى) لحظة ، ثم لم تلبث أن حسمت أمرها ، وانحنت تضغط زر إطلاق الكبسولة ، فتفجَّرت كل الطاقة التى زوَّدوها بها ، وانطلقت فجأة كالرصاصات ، بدوى عنيف ..

نحو الحاجز مباشرة ..

نحو (كوباء) .

وشهق الجميع ، قبل أن يحبسوا أنفاسهم فى قوة ..

وفى عقولهم جميعًا تفجَّر سؤال مخيف ..

هل ستنجح التجربة ، ويعبر (نور) الحاجز حيًّا ؟!..

هــل ؟!..

* * *

دون حتى أن تدرى ، راحت (مشيرة) ترتجف فى عنف ، وهى تصرخ :

ـ أيها الخائن .. أيها الحقير .

انعقـد حاجبا الذئب فى شـدة ، وهو يندفع نحوها ، ويمسك كتفيها بأصابع قاسية ، ويرجُها فى قوة ، صائحًا :

ـ لست خائنًا .. ولست أسمح لك حتى بقولها .. أنا زعيم زعماء المقاومة .. هل تفهمين ما يعنيه هذا ؟!.. أنا زعيم كل الزعماء ، الذين يقاومون الحصن ، ويسعون لاستعادة السيطرة على عالمهم .

صرخت فيه :

ـ أهذا ما تحاول إيهام الآخرين به ؟!.. أهذه هى العبارت ، التى تخدعهم بترديدها .

وارتفعت صرختها ، وهى تكمل فى ثورة :

ـ أيها الخائن .

انتفض جسده من فرط الغضب ، وهو يصرخ فيها ، فى انفعال حقيقى :

ـ قلت لك : لست خائنًا .

اتسعت عيناها ، وهى تحدّق فيه ذاهلة ..

ربما كانت تصرُفاته غير مقبولة ..

وربما تجاوز كل الحدود ..

وربما أعمته شهوة السلطة ..

ولكنه كان صادقًا تمامًا ، وهو يصرخ بعبارته الأخيرة ..

إنه لا يرى نفسه خائنًا للمقاومة ..

لا يظن حتى هذا ..

إنه ، مثل جميع من حوله ، مخدوع ..

إنه لم يكن يعلم من ذلك ، الذى أوهمه بأنه عين له ، من داخل الحصن ..

ذلك الذى استغله ، ليعبث بالمقاومة ..

وربما بهذا العالم كله ..

ذلك الذى ...

قطع أفكارها فجأة دوى عنيفا ، جعل جسدها كله ينتفض فى عنف ، وهى تطلق صرخة ، رعب هائلة ، عندما انفجر باب وكر الذنب ، وطار عبر الحجرة كلهـا ، ليرتطم بالجدار فى قوة ،

ويهوى على قيد خطوة واحدة من الذئب ، الذى دار حول نفسه فى سرعة ، ووثب محاولاً التقاط كرته اللامعة ، لولا أن رأى فوهات عشر مسدسا تتردُدية ، مصوبة إلى رأسه ، ورأى بينها وجه (هيثم) ، الذى عقد ساعديه أمام صدره ، قائلاً :

ــ مرحبًا أيها الذئب .. يا زعيم زعماء المقاومة .. أراهن أن وجودنا هنا مفاجأة .. أليس كذلك ؟!..

شحب وجه الذئب ، وهو يسأله ، بكل توتر الدنيا :

ــ كيف عرفتم مخبأى ؟!

هزَّ (هيثم) كتفيه ، قائلاً :

ــ إننا لم نجهله يومًا .

اتسعت عينا الذئب ، وهو يقول :

ــ أكنتم تعرفونه ؟!

أجابه فى صرامة :

ــ طوال الوقت .

نهض الذئب فى بطء ، وهو يقول فى غضب ، امتزج بدهشته :

ــ لماذا تركتمونى أقاومكم إذن ؟!

ــ التفسير يفوق قدرتك على الفهم والاستيعاب .

انتفض جسد الذئب فى غضب ، وهو يقول :

ــ من الواضح أنك لا تقدِّر ذكاء الذئب .

أطلق (هيثم) ضحكة قصيرة ، تجمع بين السخرية والصرامة ، وهو يقول :

ــ بل أنت الذى لا تقدِّر ذكاءنا .

لوَّح الذئب بسبَّابته فى وجهه ، صارخًا :

ــ لقد اخترقت حصنكم .

رفع (هيثم) مسدسه نحوه ، وهو يقول فى صرامة قاسية :

ــ ونحن سنخترق رأسك .

لم يجد الذئب جزءًا من الثانية ؛ ليستوعب معنى العبارة ، فقبل حتى أن تكتمل ، أطلق (هيثم) مسدسه ..

وأطلقت (مشيرة) صرخة أخرى مدوّية ..

أطلقتها عندما نسف مسدس (هيثم) رأس الذئب ، الذى سقط جثة هامدة ، وحول بقايا رأسه ، تكوَّنت بركة من الدم ، راحت تتسع فى بطء ، و(هيثم) يتجاوزها فى لا مبالاة ، ويتجه نحوها هى ، ويعقد كفيه خلف ظهره ، قائلاً بابتسامة وحشية عجيبة :

ـ لقد انتهى دوره ، ولم تعد لنا حاجة به .

اتسعت عيناها عن آخرهما ، وقالت بصوت متحشرج ، وهى ترتجف فى رعب :

ـ أنتم مخدوعون .

هزّ كتفيه فى لا مبالاة ، قائلاً :

ـ ربمـا .

ثم أعاد يده خلف ظهره ؛ ليصوب مسدسه إليها ، مستطردًا فى قسوة شديدة :

ـ ولكن أنتم حتمًا .. مهزومون ..

واتسعت عيناها أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

كالرصاصة انطلقت الكبسولة نحو ذلك الحاجز ، واخترقته فى قوة ، مع صوت قوى عجيب ..

صوت أشبه بصوت سقوط حجر كبير ، فى بئر عميقة ..

ولوهلة ، بدا لهم ذلك الجزء ، الذى اخترقته الكبسولة ، قد انضغط معها فى قوة ، ثم ارتدّ فى عنف ، كما لو أنه غلاف من المطاط الشفاف القوى ..

ثم ، وكما حدث تمامًا مع رصاصة (أكرم) ، تكوّنت حول بقعة اختراقها مجموعة من الدوائر الضخمة ، ذات المركز المشترك ..

دوائر هائلة ، شملت مساحة كبيرة جدًّا من الحاجز ، قبل أن تتلاشى فى سرعة كبيرة ..

وأيضًا ، كما حدث مع رصاصة (أكرم) ، اختفت الكبسولة تمامًا ، فور اختراقها للحاجز ..

كانت تلك الصحراء الصخرية تمتد خلفه فى وضوح ..

ولكن بلا أدنى أثر للكبسولة ..

وفى ارتياع ، هتفت (سلوى) :

ـ رباه !.. لقد تلاشت ..

اتسعت عينا (نشوى) ، هاتفة بصوت مكتوم :

ـ مسـتحيل !..

وتجمَّد (هاشم) و(رمزى) فى مكانهما ، فى حين اندفع (أكرم) نحو ذلك الحاجز ، وراح يضربه بقبضتيه فى قوة ، صارخًا :

ـ لا .. لن يحدث هذا لـ (نور) .. لا .

ظلَّ يضرب الحاجز بقبضتيه طويلاً ، فى غضب شديد ، قبل أن يتراجع عنه ، ويسحب مسدسه فى حدة ، ويصوِّبه إليه ، فصرخت (سلوى) :

ـ لا يا (أكرم) .. لا .

ووثب (رمزى) يمسك معصمه ، هاتفًا :

ـ إياك أن تفعلها .

قاومه (أكرم) فى شراسة ، صارخًا :

ـ اتركنى .

هتفت به (نشوى) فى ذعر :

ـ إنك قد تقتل أبى برصاصاتك هذه .

اتسعت عيناه فى ارتياع ، وخفض مسدسه ، متسائلاً :

ـ حقًّا ؟!

أجابته (سلوى) ، بمنتهى التوتر :

ـ نحن لا نعلم لماذا اختفت الكبسولة ، فور عبورها الحاجز ، كما اختفت رصاصتك من قبل ، ومن المحتمل أن كليهما قد انتقل إلى مكان آخر .

أضاف (رمزى) ، عند هذه النقطة :

ـ ولو أطلقت أنت رصاصاتك الآن ، فستنتقل حتمًا إلى المكان ذاته .

هتفت (نشوى) مكملة :

ـ وربما يقف أبى الآن ، حيث ستستقر .

اتسعت عينا (أكرم) مرة أخرى ، وكرر :

حقًّا ؟!

أما (هاشم) ، فقد هتف فى انبهار :

ـ رباه !.. قرأت وسمعت كثيرًا عن روح الفريق ، ولكنها المرة الأولى ، التى أشاهد فيها كيف تعمل .

تساءل (أكرم) فى انفعال ، عقب تعليق (هاشم) :

ـ أيعنى هذا أنه من المحتمل أن (نور) مازال على قيد الحياة هناك .. خلف هذا الشىء ؟!..

ارتجف صوت (سلوى) ، وهى تغمغم :

ــ لا يمكنك أن تتصورُ ، كم نأمل هذا .

أشار بمسدسه إلى الحاجز الخفى فى توتر ، وهو يسأل :

ــ وهل من وسيلة للتيقُّن ؟!

تبادلوا جميعًا نظرة قلق عارمة ، قبل أن تجيب (نشوى) فى خفوت ، وبكلمات أقرب إلى البكاء :

ــ كلاً للأسف .

لم تكد تنطق عبارتها ، حتى ظهرت تلك الأجسام فجأة ..

أجسام طائرة ، برزت من خلف الأطلال ، واندفعت نحوهم ، تحيط بهم من كل صوب ..

أجسام فى حجم كرات القدم ، ولكنها شديدة اللمعان والسطوع ، راحت تدور حولهم فى سرعة ، جعلت (هاشم) يرفع قوسه فى توتر ، و(أكرم) يصوِّب مسدسه ، هاتفًا فى عصبيةَ :

ــ ما تلك الـ ...

قبل أن يتم هتافه ، برز (هيثم) ورجاله حولهم ، وهو يقول فى صرامة ، تحمل قدرًا هائلاً من الظفر والسخرية والشماتة :

ــ انصحك ألا تحاول حتى يا سيِّد (أكرم) ؛ فهذه الكرات سوف تتخذ رد فعل هجوميًا ، فــور إطلاقك رصاصة واحدة عليها ، وستطلق عليكما جميعًا أشــعة حارقة قوية ، ربمــا قبل حتى أن تبلغها رصاصاتك ، وستشويكم جميعًا أحياء فى لحظات .

تراجع الكل فى توتر شديد ، والتف رجال (هيثم) حولهم ، وهذا الأخير يضيف ، فى شماتة هائلة :

ــ ثم إن نقطة ضعفك قد عادت إلى قبضتنا .

ومال نحوه ، وأكمل ، وعيناه تلتمعان فى شدة :

ــ زوجتك (مشيرة) .

انعقــد حاجبا (أكرم) ، فى غضب واضــح ، ولكنه خفض مسدسه ، وهو يقول فى حدة :

ــ أيهــا الأوغــاد .

وتبادل الباقون نظرة عصبية ، التمعت لها عينا (هيثم) أكثر ..

فقد صار من الواضح أن الحصن قد ربح المعركة ..

وبكل جدارة ..

* * *

شعور رهيب ، ذلك الـذى انتـاب (نور) ، مع عبور تلك الكبسولة للحاجز الرهيب ..

فى البداية ، شعر بدوى هائل ، ينبعث فى أعمق أعماق عقله ، وبتيار عنيف ، أشبه بالتيار الكهربى ، يسرى فى كيانه كله ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، مع شعور بارد كالثلج ..

ومع انتفاضة جسده العنيفة ، دوت فى كيانه فرقعة أخرى ..

ودار رأسه فى عنف ، لم يشعر بمثله من قبل قط ، فى حياته كلها ..

ثم ارتجَّت الكبسولة ارتجاجة بالغة القوة ..

واستقرَّت دفعة واحدة ..

ولثوان ، لم يقـو (نـور) على تحريك أنملة ، مع الآلام الرهيبة ، التى انتشرت فى جسده كله ، والتى جعلته يطلق أهة مكتومة ، ويغلق عينيه فى تهالك ، ويغيب عن الوجود ، فيما بدا له دقيقة أو دقيقتين على الأكثر ..

ثم انتفض جسده مرة أخرى ..

انتفاضة فتح معها عينيه ، واستعاد به نشاط عقله وجسده ، فدفع باب الكبسولة ، ودفع جسده خارجها ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلَّع إلى ما خارجها ..

ولم يكن الأمر يحتاج إلى الكثير من الوقت ..

أو حتى إلى الذكاء أو الخبرة ..

نظرة واحدة لما حوله ، كانت كافية ليدرك تمامًا أن نظريته كانت صحيحة تمامًا ، وأن ذلك العالم ، لم يكن أبدًا كما تصوَّروه طوال الوقت ، مِنذ استعادتهم وعيهم ..

وعلى الرغم منه ، وعلى الرغم من أن ما يراه لم يكن يختلف كثيرًا عما توقَّعه ، فقد سرت فى جسده ارتجافة أكثر برودًا من جليد القطبين ، وهو يرفع عينيه إلى أعلى ..

فالحقيقة ، على الرغم من كل اتفاقها مع نظريته ، كانت مفزعة ..

رهيبـــة ..

محبطـــة ..

بلا حدود ..

* * *

11 - الحقيقــــة ..

« ليس هناك أمل .. »

نطقها (محمود) الصغير فى مرارة ، فاتسعت عينا (طارق) الصغير فى ذعر ، وهو يقول :

ــ أيعنى هذا أننا سنبقى هنا .. فى قلب العدم ؟!

تلفَّت الدُّب حوله فى رعب ، وهو يبحث عبثًا عن خنجره فى حزامه ، قائلاً :

ــ العدم ؟!.. ماذا تعنى بالعدم ؟!.. أين نحن بالضبط ؟!

غمغم الدكتور (راشد) فى مرارة :

ــ فى مكان لم تحلم به ، حتى فى أبشع كوبيسك يا هذا .

اتسعت عينا الدُّب ، وهو يقول ، فى عصبية شديدة :

ــ هل أرسلنى الذئب هنا ؟!.. ولكن كيف ؟!

ثم دفع بصره على (س ــ 18) ، فارتدّ بحركة عنيفة ، صارخًا :

ــ وما هذا ؟!

أجابه (طارق) فى توتر :

ــ (س ــ 18) .

لم يفهم الدُّب ما قاله (طارق) ، ولكنه قال عصبية :

ــ أهو من يستخدمه الذئب ، لاعتقالنا هنا ؟!

تبادل جميعهم نظرة متوترة ، قبل أن يقـول (طارق) فى صرامة :

ــ من الواضح أنك لا تدرك شيئًا مما يحدث أيها الرجل .

انتفض جسد الدُّب ، فى عصبية امتزجت برعبه ، وهو يهتف :

ــ لست مجرَّد رجل .. إننى الدُّب .. أحد زعماء المقاومة .

قال الدكتور (راشد) فى استسلام مرير :

ــ هنا لا توجد مقاومة ، ولا يوجد أمل فى النجاة .

اتسعت عيناه فى رعب ، وهو يقول :

ــ لا أمل .. ماذا تعنى يا رجل ؟!

وضع (طارق) يده على كتفه ، فانتفض الدُّب فى قوة ، وتراجع بحركة حادة متحفزة ، فاعتدل (طارق) ، وقال فى حزم :

ــ دعنى أشرح لك كل ما يحدث هنا .. كل شىء .

فى نفس الوقت الذى بدأ يشرح فيه الأمر ، كان (نور) يقف خلف ذلك الحاجز ، فى المنطقة التى لم يصل إليها أحد سكان

الأطلال ، أو ربما رجال الحصن قط ، يدير عينيه فيما حوله ، ويتأمَّل المكان فى اهتمام ، قبل أن يغمغم فى خفوت :

ــ كنت على حق بالفعل .

كان يقف وسط فارغ هائل ، لا يشبه قط ، فى أية تفصيلة منه ، تلك الصحراء الصخرية ، التى وجدها خلفه ..

هذا لأنه كان فراغًا صنعته كائنات عاقلة ، ولم تصنعه الطبيعة ..

كان يقف على أرضية لامعة ، مصقولة ، من معدن برَّاق ، يبث حرارة متوسطة ، يشعر بها عند قدميه ، وهى تمتد لمسافة ستة أمتار تقريبًا ، لتنتهى عند جدار من معدن قوى ، يرتفع لمتر واحد ، قبل أن تمتد منه قبة هائلة ، من زجاج بالغ السماكة ، يبلغ سمكه خمس سنتيمترات على الأقل ..

أو هى مادة أشبه بالزجاج ..

مادة أكثر شفافية ، أو أكثر صلابة ..

ومن خلف تلك القبة شديدة الشفافية والصلابة ، كان يرى ما لم يتوقَّع رؤيته بهذه السرعة ..

الفضـــاء ..

فضاء شاسع ، سرمدى ، لا نهائى ، تتراص فيه ملايين النجوم ، ومليارات الكواكب والأقمار !!..

وكان هذا يعنى أنهم بالفعل ليسوا على الأرض ..

ليسوا على أرضهم التى عرفوها ..

وربما منذ البداية ..

التقط (نور) نفسًا عميقًا ، وهو يقول فى مرارة :

ــ كانوا يخدعوننا طوال الوقت .

تألَّقت على مقربة منه مساحة من فراغ المكان ، فالتفت إليها فى بطء ، دون تهتز فى جسده شعرة ، فى حين راح ذلك التألق يتكثف ، ليتحوَّل إلى هيئة يعرفها جيدًا ..

هيئة القائد الأعلى ..

كان يقف أمامه واثقًا ، مشدود القامة ، عاقدًا ذراعيه خلف ظهره ، ويحمل على شفتيه ابتسامة واثقة ظافرة ، فقال (نور) فى هدوء غير متوقَّع :

ــ كنت أعلم أنه أنت .

قال القائد الأعلى فى صرامة :

ــ ولكننى لم أتوقَّع ، والحق يقال ، أن يمكنك التوصَّل إلى الحقيقة .

واجهه (نور) بنصف التفاتة ، وهو يقول ، فى صرامة مماثلة :

ــ ألأنها ، من وجهة نظركم ، كانت أعقد من أن يتصورها أحد ؟!

مطّ القائد الأعلى شفتيه ، وأجاب :

ـ ربمـا .

ثم أضاف فى مقت :

ـ ولكن يبدو أننا لم نقدّرك وفريقك حق التقدير .

هزّ (نور) كتفيه ، وقال :

ـ هذا خطأ كل من واجهونا .. وأنتم فعلتم كل ما بوسعكم ، لجعلنا نعيش حقيقة وهمية .. العالم الوهمى الذى صنعتموه ، وذلك الحاجز (كوباء) ، الذى لم يكن مجرّد حاجز ، يمنع من داخله من عبوره ، ومن معرفة الحقيقة ، التى تكمن خلفه ، بل هو أيضًا شاشة عرض هولوجرامية عملاقة ، نصف كروية ، تعرض طوال الوقت ، وبلا انقطاع ، صورة ثلاثية الأبعاد للسماء والشمس ، بحيث يشعر الكل ، وكأنهم مازالوا على كوكب الأرض .

تألّقت عينا القائد الأعلى ، وهو يقول فى ظفر :

ـ لا يمكنك أن تنكر أنها كانت شديدة الاتقان ، فلم يتمكّن أرضى واحد من كشفها ، طوال ما يزيد عن ثلاثين عامًا أرضية .

وافقه (نور) بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ـ متقنة بالفعل ، فيما عدا ليلها ... ونجومها .

مطّ القائد الأعلى شفتيه ، وقال فى ضيق :

ـ النجوم الثابتة .. كانت هذا عيبًا حتميًا للأسف ، لأنه حتى البرامج الهولوجرامية ، لابد لها من ساعات سكون ، حتى يمكنها الاستمرار .

وصمت لحظة ، ثم استطرد ، فى شىء من الحدة :

ـ ثم إن أحدًا لم ينتبه إليها قط ، طوال السنوات السابقة .

قال (نور) فى هدوء ، لا يتناسب مع موقفه :

ـ ربما لأن الناس يعتادون ما يرونه باستمرار ، وبعد ثلاثة عقود من الاعتياد ، ولن ينظر أحد إلى السماء قط ، ويتساءل : لماذا لا تتحرّك النجوم ، ولكننا استيقظنا هنا بقفزة واحدة أو لم نملك الوقت لاستيعاب خلل الظاهرة أو اعتياده .

أومأ القائد الأعلى برأسه ، وغمغم فى مقت :

ـ كان ينبغى أن ننتبه إلى هذا بالفعل .

ابتسم (نور) ، وهو يقول :

ـ أمور كثيرة ، كان ينبغى أن تنتبهوا إليها ، عندما أعدتمونا إلى وعينا .

انعقد حاجبا القائد الأعلى ، وهو يقول :

ـ عودتكم إلى وعيكم لم تكن بإراداتنا .. كان أمرًا لم نستطع فهمه ، حتى هذه اللحظة ، كما لم نستوعب بعد قدرات ذلك (الزوريوم) الحيوى ، الذى هبط على الأرض منذ ملايين السنين ، من عالم آخر ، فنى قبل حتى أن تولد حياتكم على الأرض ، وعثرنا عليه نحن قبلكم ، و ...

قاطعه (نور) فى دهشة متوترة :

ـ قبلنا ؟!

ثم استطرد بسرعة فى حماس :

ـ الآن اكتملت المنظومة ، واتضحت كل جوانب اللغز ، وفهمت ما خفى عنى من أركانه .

ازداد انعقاد حاجبى القائد الأعلى ، دون أن ينطق بحرف واحد ، فتابع (نور) بنفس الحماس :

ـ إننا نسبح ، بكل هذا العالم فى الفضاء ، داخل ما يبدو أنه مركبة هائلة ، إلى حد استيعاب عالم كامل ، ولكنكم لستم من سكان أى كوكب آخر .. أنتم مثلنا .. من سكان الأرض .

بدا من الواضح أن حديث (نور) يحنق القائد بشدة ، فقد انقلبت سحنته على نحو عجيب ، و(نور) يكمل فى انفعال :

ـ أنتم تلك الحضارة ، التى نشأت فى أعماق الكوكب ، قبل حضارتنا بزمن طويل .. أنتم حضارة الزئبق الحى(*) .

حمل صوت القائد الأعلى كل مقته ، وهو يقول :

ـ أنت بالفعل عبقرى ، أكثر مما كنا نتصوَّر .

تابع (نور) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ وما أظنه هو أن كل هذا مجرَّد تجربة .. اختبار لقدرات حضارتنا ونظم تفكيرنا .

تألَّقت عينا القائد الأعلى ، وهو يقول :

ـ فى هذا أخطأت أيها العبقرى .

ثم بدأ يتحرَّك فى المكان ، ومستطردًا فى ظفر :

ـ لقد درسنا أساليبكم ونظم تفكيركم ، منذ سنوات طوال .. وربما منذ بدأت حضارتنا الحديثة بالفعل ، حتى آخر لحظة ، قبل نهاية عالمكم كله .

اتسعت عينا (نور) ، وهو يردِّد بأنفاس مبهورة :

ـ نهاية عالمنا .

(*) راجع الأجزاء الثلاثة (المفقودون) ، (الزئبق الجاف) ، و(الكهف) .. المغامرات أرقام (153) ، (154) ، و(155) .

تألّقت عينا القائد الأعلى أكثر ، وهو يقول فى شماتة :

ـ نعم .. نهاية عالمكم يا (نور) .. قنبلتنا التى أشعلناها ، بدأت سلسلة تفاعليته مدمِّرة ، بحيث أننا ، عندما غادرنا الأرض ، كنا نترك خلفنا كوكبًا يفنى ، وحضارات تباد .. وبمنتهى السرعة .

اتسعت عينا (نور) فى ارتياع لما يسمعه ، وغمغم فى غضب شديد :

ـ أيها الأوغـاد .

شدَّ القائد الأعلى قامته ، وهو يقول :

ـ كان قدرًا لابد منه .

صرخ فيه (نور) ، بكل غضب الدنيا :

ـ أى قدر هذا ، الذى تتحدَّث عنه ؟!.. هل تصوَّرتم أنكم مبعوثو العناية الآلهية ؛ وأن فناء الأرض هو مهمتكم ؟!.. هل أصاب العيش تحت الأرض عقولكم بالخبل ، حتى لم تعودوا تعرفون الصواب من الخطأ .

لوَّح القائد الأعلى بسبَّابته فى وجهه ، وهو يهتف فى غضب :

ـ لقد أسرعنا بما تقودون أنفسكم إليه فحسب .. إنكم تدمرون عالمكم بكل وسيلة ممكنة .. تخترعون أسلحة دمار ، بأكثر مما

تصنعون وسائل الرفاهية والراحة والسعادة .. وكل منكم لا يكتفى بمـا لديـه ، ويسـعى لتدميـر الآخـرين ؛ للاسـتيلاء على ما يملكون .. ووسائل التدمير لديكم تتطوَّر بسرعة ، حتى صارت تهدِّد ليس حضارتكم فقط بالفناء .. بل وحضارتنا أيضًا .

صاح فيه (نور) :

ـ ولماذا لم نتعايش معًا فى سلام ؟!

صرخ القائد الأعلى فى وجهه :

ـ نحن وأنتم ؟!.. يا للهراء !.. إنكم لم تنجحوا فى التعايش سلميًا ، مع بعضكم البعض ، فكيف كنا نتوقَّع منكم أن تتعايشوا سلميًّا معنا ؟!.. إنكم تجرون تجارب أسلحة الدمار الشامل لديكم فى باطن الأرض .. فى قلب منطقتنا ، التى حاولنا أن نجعلها آمنة .

صاح (نور) :

ـ بتدميرنا .

صرخ القائد الأعلى :

ـ لم يكن هناك بديل .

وعقد حاجبيه ، على نحو مخيف ، وهو يضيف :

ـ إما أنتم أو نحن .

ثم مال نحو (نور) بشدة ، مستطردًا :

ـ ماذا كنتم ستختارون ، لو أنكم فى موضعنا ، وتملكون أقوى مما نمتلك ؟!

ران على كليهما الصمت لحظات ، وكلاهما يتطلّع إلى عينى الآخر ، فى تحد ، قبل أن يقول (نور) فى صرامة :

ـ وهل دمَّرتم الأرض ، لتنقذوا حضارتكم ؟!

التقط القائد الأعلى نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ لم يكن هناك من سبيل آخر .

صمت (نور) ، يستمع إليه فى اهتمام وانتباه ، والقائد الأعلى يواصل :

ـ القضاء على حضارتكم لم يكن ممكنًا ، دون تدمير حضارتنا معهـا ، أو دون تعريضها لخطـر هائل على الأقـل ، وبقـاء حضارتكم كان يعنى حتمية دمار حضارتنا ؛ لأن ما فعلتموه تحت الأرض ، جعـل وجودنا كله مهدَّد بالخطـر .. وعبـر سنوات طوال ، رحنا نبحث عن كوكب يصلح لحياتنا ، حتى تنتقل إليه حضارتنا ، بعد أن صار استمرارنا فى قلب الأرض مستحيلاً ، ولقد عثرنا بالفعل على كوكب ، يبعد عن الأرض مسافة مائة سنة ضوئية ، وقررنا الانتقال إليه .

سأله (نور) فى حذر :

ـ وكيف عثرتم على كوكب كهذا ؟!.. إننا لم نرصد أية كوكب ، يمكن أن تستمر الحياة عليها ، فى هذا النطاق .

ابتسم القائد الأعلى فى سخرية ، وقال :

ـ هذا لأنكم ترصدون الفضاء ، عبر مسارات مستقيمة مباشرة ، أما نحن فنستخدم تكنولوجيا أكثر صعوبة وتعقيدًا ، جعلتنا ندرك أن الفضاء يمكن أن ينكمش للغـاية ، لو عبرته من خلال مسار دودى ؛ لذا فالكوكب الـذى نتحدث عنـه ، سترصدونه أنتم ، لو استطعتم ، باعتباره يبعد عنكم ألفى سنة ضوئية على الأقل ، ولا تحاول فهم أو استيعاب هذه القواعد الفيزيائية الأنها تفوق عقولكم بآلاف السنين من التطوّر .. على الأقل .

سأله (نور) ، فى فضول واهتمام :

ـ وماذا كانت خطواتكم التالية ؟!

أجابه بابتسامة ظافرة متشفية :

ـ عندما وصلتم إلينا ، فى باطن الأرض ، كان كل شىء معدًا للانطلاق ، وكل شىء معـد للنقلة الحضارية ، ووصولكم غيَّر مفاهيمنا ، حول ذكاء من على السطح ، ودفعنا إلى إعادة دراسة هوية من نحتاج إليه منكم .

كانت مفاجأة جديدة لـ (نور) ، الذى غمغم :

ـ من تحتاجون إليه منا ؟!

ثم رفع صوته ، وهو يكمل فى صرامة :

ـ أهـذا يفسّر صنعكم لهذا العالم الوهمى ، على متن المركبة الفضائية العملاقة ، التى تنقلكم إلى العالم الجديد ، واحتفاظكم بكل من عليه من بشر ؟!.. هل كنتم تحتاجون إلى من يعاونكم ، على بناء عالمكم الجديد ؟!

قال القائد الأعلى فى سخرية :

ـ يعاوننا ؟!

ثم أطلق ضحكة ساخرة عالية ، قبل أن يقول :

ـ إننا لم نحتفظ بكل هؤلاء البشر ، لأننا نحتاج إلى معاونين ؛ فالواقع أن ما نحتاج إليه هناك هو ...

صمت لحظة ، مال خلالها نحو (نور) ، ثم أضاف ، فى لهجة تحمل سخرية وشماتة وظفر الدنيا كلها :

ـ عبيـد .

وانتفض جسد (نور) فى قوة ..

فما سمعه كان صدمة رهيبة ..

صدمة تفوق كل قدرته على الاحتمال ..

ألف مرة ..

على الأقل ..

* * *

عقد الرائد (هيثم) كفيه خلف ظهره ، فى ظفر وصرامة ، وهو يدير عينيه فى وجوه الجميع ، قائلاً :

ـ كان ينبغى أن تعلموا أن انتصاركم علينا ، ونجاحكم فى الفرار منا مستحيل !

هتفت به (مشيرة) فى غضب ، وهى تلتصق بـ (أكرم) :

ـ المستحيل هو أن نخون وطننا ، كما تخونه أنت .

ابتسم فى سخرية ، وقال :

ـ لا تحاولى استخدام هذه الأكاذيب الصحفية معى يا سيّدة (مشيرة) ، فلقد قرأت تاريخك كله ، ولن يمكنك خداعى أبدًا .

هتفت به (سلوى) فى غضب :

ـ أنت أيضًا ، لن يمكنك خداعنا ، لا أنت ، ولا قائدك الأعلى .

قالت (مشيرة) فى عصبية :

ــ إنه خائن أيضًا .

أدهش قولهـا الجميع ، على الرغـم من وجودهـم داخل محبسهم ، والتفتوا إليها متسائلين ، و(هاشم) يغمغم :

ــ خائن ؟!.. يخون من ؟!.. ولحساب من ؟!

واحتضنها (أكرم) ، محاولاً تخفيف توترها ، وهو يقول :

ــ حبيبتى .. اهدأى .. هل تأثَّرت إلى هذا الحد ، بوجودك وسط رجال المقاومة .

قال (هيثم) فى صرامة :

ــ لقد غسلوا مخها ، واقنعوها بأن تمرُّدهم على السلطة الشرعية ، هو مقـاومة مشروعة .. كان ينبغى أن تسأليهم أوَّلاً يا سيدة (مشيرة) .. من يقاومون ، ولأى هدف يقاومون .

صاحت (مشيرة) فى غضب :

ــ ألم تسأل أنت نفسك ، من أنشأ هذه المقاومة ، ويغذيها من داخل الحصن .

قال (هيثم) ، فى غضب صارم :

ــ لا شأن للحصن بالمقاومة ، ولا يعرفون حتى ماذا يدور هنا .

حاولت (سلوى) بدورها تهدئتها ، ولكن (مشيرة) اندفعت تقول ، وجسدها كله ينتفض فى غضب :

ــ حقًّا ؟!.. كيف علمت المقاومة بعودة (نور) وفريقه إذن ، قبل فرارهم من هنا ؟!.. كيف حصلت على تلك الأجهزة الحديثة ، التى وجدتها هناك ، فى وكر الذئب .

انعقد حاجبا (هيثم) فى توتر ، دون أن ينطق بحرف واحد ، وإن أدار أسئلتها فى عقله ، وهى تلتفت إلى الباقين ، هاتفة :

ــ منذ البداية ، كان الذئب يؤكِّد أن له عينًا داخل الحصن ، ولقد حاولت أن أعرف من يعنى ، حتى حدث اتصال مرئى ، بينه وبين عينه فى الحصن ، لم يكن وجهه مرئيًا فى وضوح ، ولكننى تعرَّفت صوته ، وديكورات مكتبه .

سألها (رمزى) فى لهفة ، اشترك فيها الجميع :

ــ من هو يا (مشيرة) ؟!.. من ؟!

بدا (هيثم) شديد الصرامة والسخرية فى آن واحد ، وهو يسألها بدوره :

ـ نعم .. من هو أيتها العبقرية ؟!

التفتت إليه بمنتهى الحدة ، قائلة :

ـ آخر شخص ، يمكن أن يخطر ببالك أيها المتبجح .

واشتعلت عيناها بكل غضب الدنيا ، وهى تصرخ مضيفة :

ـ قائدك .. القائد الأعلى .. شخصيًا .

وشهق (هيثم) فى قوة ..

وشهق معه الجميع ..

فقد كانت مفاجأة ..

مذهـلة ..

* * *

لما يقرب من دقيقة أرضية كاملة ، ظلّ (نور) يحدّق فى وجه القائد الأعلى ، الـذى بدا شديد الظفر والشماتة ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ لم تكن تتوقّع هذا .. أليس كذلك ؟!

أجابه (نور) فى جمود ، بعد فترة أخرى من الصمت :

ـ أعترف بهـذا .

ثم أضاف فى غضب :

ـ وهذا يعنى أنكم أكثر حقارة ، من كل ما تصوّرت .

أطلق القائد الأعلى ضحكة ساخرة ظافرة عالية ، وكأنما يسعده هذا التصريح ، وقال :

ـ بل إننا عباقرة ، أكثر من كل ما تصوّرته .

بدا غضب شديد على وجه (نور) ، فتابع القائد الأعلى فى ظفر واضح :

ـ كل ما عشتموه كان مجرّد خدعة كبيرة ، أعددناها نحن ، بمنتهى منتهى الدقة والبراعة .. كنا نحتفظ بكم لدراستكم ، داخل حصن وهمى ، صـنعناه ليخفى مركز تشـغيل مركبتنا الفضائية العملاقة ، التى يديرها ويرعاها البشر ، متصورين أنهم يرعون عالمهم ، ويحافظون على أمنهم .. الرحلة إلى الكوكب الجديد تحتاج إلى مائتى عـام ، من السباحة فى الفضاء السرمدى .. صحيح أن متوسّط أعمارنا يفوق متوسط أعماركم بكثير ، ولكنه لن يصمد حتى نصل إلى هناك ، لذا ، فقد تم وضع شعبنا كله ، فى حالة سبات صناعى ، ليبقى حتى نصل إلى هناك .

قال (نور) فى غضب :

ـ شعبكم كله ، أم سادته فحسب ؟!

صمت القائد الأعلى لحظات ، ثم أجاب فى صرامة :

ـ العامة لا يستحقون استمرار العيش .

قال (نور) ممتعضًا :

ـ لذا فقد تركتموهم خلفكم .

ابتسم فى سخرية ، قائلاً :

ـ تركناهم يفنون مع قومك .

قال (نور) ، وقد امتزج غضبه باشمئزازه .

ـ وانقذتم السادة فحسب .

تجاهل القائد الأعلى عبارته تمامًا هذه المرة ، وتابع وكأنه لن يتوقّف ، للدخول فى هذا الحوار الجانبى :

ـ السادة كلهم فى سبات ، فى أعماق المركبة ، وعشرة منا فقط ، يتولون أمر كل شىء .. يديرون هذا العالم الصناعى ، ويسيطرون على كل شىء فيه ، بمعاونة ثلاثة آلاف بشرى ، يتصوّرون أنهم يدافعون عن كيانهم هم .

والتمعت عيناه ، وهو يضيف :

ـ ولا يخطر ببال أحدهم ، أن طاقتهم هى التى تساعد المركبة على المضى فى سبيلها .

التقى حاجبا (نور) ، وهو يقول فى مقت :

ـ وتركتموهم يقاتلون بعضهم البعض .

هزّ القائد الأعلى ، قائلاً :

ـ كانوا سيتقاتلون ، سواء أدفعناهم إلى هذا ، أم لم نفعل .. إنها طبيعتكم أيها البشر .. السيطرة .. تسـعون دومًا نحوها ، وترتكبون كل حقارات الدنيا للفوز بها .

قال (نور) فى حدة :

ـ وماذا عنكم ؟!

شدّ القائد الأعلى قامته فى اعتداد ، وقال فى زهو :

ـ أنا أنشأت المقاومة .

غمغم (نور) :

ـ كان ينبغى أن أتوقّع هذا .

تابع القائد الأعلى ، دون أن يتوقّف عند تعليقه :

ـ لو ظلوا متآلفين ، ستستقر بهم الأمور ، ويبدأون فى التفكير فى أحوالهم ، وربمـا .. ربمـا عندئذ ، يكشف أحدهم الحقيقة ، أما لو ظلوا متحاربين متقاتلين طوال الوقت ، فمن سينتبه إلى ما يحدث فعليًا ، فى خضم القتال والكراهية والعنف وإراقة الدم ؟!.. من ؟!

قال (نور) فى مرارة :

ــ وكلهم تبعوك ؟!

ابتسم ، مجيبًا فى ظفر :

ــ كلهم بلا اسـتثناء .. كل مهمتى كـانت إذكاء نيران الحقد بينهم ، واشعال رغبـة التفـوق والسيطرة فى نفوسهم .. بذا يبقون منشغلين طوال الوقت .

ثم التقط نفسًا بالغ العمق ، قبل أن يستطرد :

ــ ونبقى نحن .

بدا (نور) شديد المرارة ، وهو يقول :

ــ فرّق تسد .. أسلوب الاستعمار منذ الأزل .

هزّ القائد الأعلى كتفيه ، قائلاً :

ــ وسيبقى إلى الأبد .. الكل يعرفه ، والكل تعلّمه ، ولا أحد احتاط منه أو تحاشاه .

وعاد يميل نحوه ، مستطردًا ، وعيناه تلتمعان بكل الظفر :

ــ هذه سيمتكم أيها البشر .

قال (نور) فى غضب :

ــ وما سيمتكم أنتم ، يا شياطين الأرض ؟!.. الحقارة ؟!

تراجع مبتسمًا فى سخرية ، وهو يقول :

ــ شياطين الأرض ؟!.. تروق لى التسمية كثيرًا ، وما دمت قد أطلقتها ، فدعنى أقدّم لك باقى فريقنا .. فريق الشياطين .

لم يكد ينهى عبارته ، حتى تألّقت أجزاء أخرى من الفراغ حول (نور) ، ثم برز باقى الفريق ..

فريق المحتلين العشرة ، الذين يقـودون ذلك العـالم الوهمى الرهيب ..

واتسعت عينا (نور) عن آخرهما ..

فالحقيقة التى رآها أمامه ، كانت مفزعة ..

ومرعبة ..

إلى أقصى الحدود ..

* * *

12 ـ الـوحـوش ..

لم يكن أفـراد الفريق ، أو (هاشـم) وحدهم من أصيب بالذهول ، لما صرَّحت به (مشيرة) ، فقـد شاركهم (هيثم) ذهولهم ، مع عاصفة من الغضب والاستنكار ، وهو يصرخ :

ـ هل بلغت بك الوقاحة هذا الحد ؟!.. بل هل بلغ بك الجنون ، حد اتهام القائد الأعلى بأنه يخون الحصن ، الذى يمثل رمز قوته وسطوته ؟!.. أى منطق يمكن أن يكمن فى هذا ؟!

قال (رمزى) فى توتر صارم :

ـ لو أننى فى موضعك ، لما استنكرت الأمر ورفضته بهذه السرعة ، فقائدكم الأعلى محاط بالكثير من الشكوك .

صرخ فيه (هيثم) ، وهو يصوِّب إليه مسدسه :

ـ هل صدّقت جنون هذه الوقحة المجنونة ؟!

انعقد حاجبا (أكرم) ، فى غضب هادر ، وهو يزيح (مشيرة) ، ليحميها بجسده ، مواجهًا (هيثم) فى قوة :

ـ حذار من ترديد بذاءاتك هـذه يا رجل ، ولا تتصوَّر أن أسلحتك أو أسلحة رجالك ، قد تكفى لكبحى ، عندما أنقضّ عليك لأؤدِّبك ، على إساءتك لزوجتى .

صرخ (هيثم) ، بكل انفعالاته :

ـ ألم تسمع ما قالته يا هذا ؟!

أجابه (هاشم) فى خشونة :

ـ ألم تسأل أنت نفسك ، من يحكم (مصر) الآن ؟!

صرخ فيه :

ـ لا شأن لهذا بما قالته ؟!

قالت (سلوى) ، وهى تلهث فى انفعال :

ـ بل هو تساؤل وثيق الصلة بكل ما يحدث ؛ فالمفترض أن المخابرات ، أيًا كانت ماهيتها ، هى جهـة معلومات ، ومهمتها هى الحفاظ على أمن وأسرار البلاد ، والزود عنها ، ضد كل من يحاول المساس بها ، وهى دومًا تتبع رئيس الجمهورية ، فمن الرئيس الذى تتبعه ، فى هذا الزمن ؟!

على الرغم مـن تمسُّكه بنظراته الصارمة ، ظهرت علامات الحيرة على وجه (هيثم) وهو يقول فى حدة ، اصطنعها ليخفى توتره الشديد :

ـ هذا ليس شأننا .

قالت (نشوى) فى صرامة :

– بل هو شأن كل مواطن ، يحيا على أرض (مصر) .. هيا .. أخبرنا يا رجل .. من رئيس دولتك ؟!..

لم تقو حيرة (هيثم) على التوارى خلف صرامته وحدته هذه المرة ، فحفرت نفسها فى وضوح على وجهه ، وانتقلت حيرته إلى رجـاله ، وبدت واضـحة فى ارتعاشة أيديهم ، التى تحمل أسلحتهم ، والتى لم تعد تصوّبها إلى الرفاق بنفس الصرامة والتحفز ، فأضاف (أكرم) ، وهو يشد قامته فى قوة ، وكأنه هو الذى يسيطر على كل الأمور :

– دعنى أطوّر السؤال إلى : ما الذى تعرفونه حقًّا ، عما يدور خارج هذه الأطلال ؟!

قال (هيثم) ، فى ارتباك ملحوظ :

– إننا نراقب الأطلال طوال الوقت .

قال (أكرم) فى صرامة :

– لم يكن هذا سؤالى .

وأضاف (هاشم) ، قائلا :

– إنكم لا تذكرون حتى ، متى ولا كيف حدثت تلك الكارثة ، التى قادت عالمنا إلى كل هذا .

واتسعت عينا (هيثم) فى شدة ..

نعم ... كل ما يقولونه صحيح ..

إنهم جميعًا ، داخل أسوار الحصن ، لا يعلمون شيئًا ..

منذ وعت عيونهم الدنيا ، والحصن هو كل ما يعرفون ..

لقد نموا ونشأوا داخله ..

ولم يعرفوا سواه ..

القائد الأعلى لم يمنحهم أية فرصة ، لمعرفة أى شىء ..

أى شىء على الإطلاق ..

وحده كان يعلم كل شىء ..

هم كانوا فقط ينفذون أوامره ..

دون مناقشة ..

ودون حتى محاولة فهم ..

« لا ... » ..

انتفض جسده فى قوة ، وهو يطلق الصرخة ، ثم رفع مسدسه ، يصوّبه نحو (أكرم) ، صارخًا :

– إنهم يحاولون إرباكنا .. أطلقوا النار يا رجال

وفى تلك المساحة الضيقة ، دوت الطلقات الترددية ..

بمنتهى العنف ..

* * *

مشهد رهيب بالفعل ، ذلك الذى أحاط بـ (نور) ..

مشهد أشبه بأعنف أفلام الرعب ..

أو هو رعب حى ..

رعب من أعماق الأرض ..

الرجال العشرة ، الذين يحيطون به ، كانت لهم هيئة عجيبة ، تتناسب مع حياتهم ، التى يقضونها فى باطن الأرض ..

وجوه زرقاء شاحبة ..

عيون حمراء واسعة ..

ملامح قاسية متغضنة ..

أنياب حادة رفيعة ..

لم تكن ملامحهم تحمل أية انفعالات ، وهم يحيطون بـ (نور) ، فى دائرة تضيق تدريجيًا ، مع ابتسامة القائد الأعلى الظافرة ...

ولكن (نور) تماسك تمامًا ، وهو يقول :

ـ أنت تشبههم .. أليس كذلك ؟!

هزَّ القائد الأعلى كتفيه ، مجيبًا ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره :

ـ إنهم قومى .

تساءل (نور) فى سخرية :

ـ الأوغـــاد ؟!

انعقد حاجباه فى غضب ، وهو يقول فى حدة :

ـ سخرية عجيبة ، لشخص مقدم على الموت .

مال (نور) نحوه ، قائلاً فى صرامة :

ـ وهل تتصوَّر أننى أخشاه .. لقد دمَّرتم كوكبى ، وقضيتم على كل أمل لنا فى النجاة ، وتحملوننا معكم إلى كوكب جديد ، يبعد مائة ســنة ضوئية ، بمقاييس تكنولوجيتكم ، فـــأى هدف يدعونى للتشبث بالحياة ، بعد كل هذا ؟!

بدا توتر ملحوظ ، على وجه القائد الأعلى ، الذى شدَّ قامته أكثر ، وهو يجيب فى صرامة :

ـ الفضول .

تراجع (نور) فى دهشة متسائلة ، فتابع هو بنفس الصرامة :

ـ أسئلة عديدة ، مازالت ترغب فى معرفة أجوبتها ، قبل أن تموت .. شخصيتك المتلهفة دومًا إلى المعرفة ، ستدعوك إلى هذا ، وستمثل هدفًا يدعوك إلى التشبث بالحياة .

سأله (نور) فى حذر :

ـ أسئلة مثل ماذا ؟!

أجابه ، فى شىء من الشعور بالتفوق :

ـ لماذا احتجنا إليكم بالفعل ، ومن أين أتى (طارق) ، ولماذا احتفظنا بكم منذ البداية ، ولم نحاول التخلص منكم ، قبل عودتكم إلى وعيكم ؟!

صمت (نور) لحظات ، ثم عقد ساعديه أمام صدره ، قائلاً :

ـ كلى آذان مصغية .

كانت الدائرة الجهنمية تزداد ضيقًا حوله ، ولكنه بدا شديد الاهتمام والانتباه ، على نحو جعل القائد الأعلى يقول فى دهشة :

ـ إلى هذا الحد ؟!

هزّ (نور) كتفيه ، قائلاً :

ـ أنت قلتها .. شغف المعرفة .

ابتسم فى ظفر ، وهو يقول :

ـ ربما لن يكفيك الوقت ، لتعرف كل شىء ، فما الذى ترغب فى معرفته أولاً ؟!

أجاب (نور) ، فى اهتمام واقتضاب :

ـ (طارق) .

أجابه فى سرعة :

ـ ابنتك كانت تحمله بالفعل ، عندما بدأتم هذه المغامرة ، وعنـدما فقدتم وعيكم فى الكهـف ، وقررنا تجميدكم ، كشف علماؤنا هذا ، فاستخرجنا الجنين من رحمهـا ، وقمنا بإكمال فترة حضانته صناعيًا ، وكانت فرصة ممتازة ؛ لدراسة تطوّركم الجنينى خطوة بخطوة ، أما احتفاظنا بكم ، فكان أيضًا لأغراض علمية .. كنا ننتظر وصول المركبة إلى هدفها ، حتى نستخلص جيناتكم ، ونحاول مزج عبقرياتكم بسمات الجيل القادم منا .

قال (نور) فى سخرية :

ـ جيل الأوغاد العباقرة .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى غضب ، وقال :

ـ هذا يقودنا إلى السؤال الأخير ، الذى ستدرك معه من المنتصر الحقيقى فى هذه المعركة .

قال (نور) ، فى حذر مترقب :

ــ قلت إنكم قد احتفظتم بالبشر كعبيد .

قال القائد الأعلى :

ــ كان هذا هو الغرض الثانى .

سأله فى قلق شديد :

ــ وماذا عن الغرض الأول ؟!

ابتسم القائد الأعلى ابتسامة متشفية ، مجيبًا :

ــ الكوكب الذى ستصل إليه مركبتنا ، فى نهاية رحلتنا ، كوكب يصلح لحياة البشر ، ولكن الحياة لم تنشأ عليه بعد ، وهذا يعنى أن السادة ، عندما يصلون إليه ، سيكون بحاجة إلى مصدر لـ ...

بتر عبارته ، واتسعت ابتسامته المتشفية ، وبدت وحشية أكثر من ذى قبل ، وهو يميل نحو (نور) ، مستطردًا :

ــ الغذاء .

سرت فى جسد (نور) ارتجافة باردة كالثلج ، وهو يردِّد فى فــزع :

ــ غــذاء ؟!

اعتدل القائد الأعلى ظافرًا ، وهو يقول :

ــ تمامًا كما سيحدث لك الآن .. إننا لن نقتلك .. بل سنلتهمك .

والتمعت عيناه على نحو مخيف ، وهو يبرز أنيابًا تشبه أنيابهم ، مضيفًا بكل الوحشية :

ــ حيًّا .

أدار (نــور) عينيه فى وجوههم الشاحبة المخيفة ، ورآهم يبرزون أنيابهم ويتجهون نحوه فى تحفُّز ..

ورأى وجه القائد الأعلى يتموَّج ، ويفقــد ملامحه البشرية ، الشبيهة بملامح الرائد (أيمن) ، ويستعيد هيئته الحقيقية الشبيهة بباقى فريقه ..

الوجه الشاحب الأزرق ، والعينات الواسعتان الحمراوان ، وتلك الأنياب الحادة ، التى تخيلَّها (نور) تنغرس فى أجساد رفاقه وبنى قومه ، فهتف فجأة فى صرامة ، تتعارض مع موقفه :

ــ المشكلة أنكم نسيتم عاملاً مهمًّا .

ازدادوا اقترابًا منه ، والقائد الأعلى يقول فى سخرية :

ــ ما هو أيها العبقرى .

وبتجاوز لكل قواعد المنطق ، بدا (نور) قويًّا صلبًا ، وهو يجيب :

ـ (محمــود) .

في نفس اللحظة التى نطقها فيها ، صدر ذلك الدوى العنيف ، وتحطّمت تلك الأرضية اللامعة المصقولة فى قوة ..

ووثب عبرها ذلك الجسد الزوريومى الخارق ..

جسد (محمود) ..

وتراجع أصحاب الوجوه الشاحبة فى ذعر :

فقد كانت هذه المفاجأة تعنى أن الأمور كلها ستنقلب رأسًا على عقب .

وبمنتهى القوة ..

* * *

سلاح (هيثم) كان مصوبًا نحو (أكرم) مباشرة ، وطاقة الغضب فى أعماقه لم تكن لتمنعه من إطلاق النار ، ولو لجزء من الثانية ..

لذا ، فقد أطلق النار ..

نحو الهدف مباشرة ..

ولكن فى اللحظة نفسها ، وثب (هاشم) ، صارخًا :

ـ لا .. ليس (أكرم) .

جاءت وثبته فى توقيت مدهش ، جعل جسده يعترض طريق تلك الطلقة الترتُدية ، التى أصابته فى صدره ، ودفعته إلى الخلف فى قوة ، فارتطم بـ (أكرم) ، الذى ارتطم بـ (مشيرة) بدوره ، وسقط ثلاثتهم أرضًا ، و(نشوى) تطلق شهقة رعب ، و(سلوى) تصرخ :

ـ خــونة .

أما (رمزى) ، فقــد اندفع نحو (هيثم) فى غضب ، فأدار هذا الأخير مسدسه الترددى نحوه ، و ...

وفجأة ، ارتجّ المكان كله فى عنف ..

وطاشت طلقة (هيثم) الثانية ، وارتطمت بالجدار ، لتصنع ارتجاجة ثانية عنيفة ، لم توقفه ، أو توقف (رمزى) ، الذى انقض عليه ، صارخًا :

ـ دمنا ليس رخيصًا أيها الوغد .

وربما كان (رمزى) محللاً نفسيًّا عبقريًّا ، ولكنه لم يكن أبدًا مقاتلاً قويًّا أو محترفًا ..

لذا ، فقـد استقبله (هيثم) بلكمة قوية ألقته أرضًا ، قبل أن يصوِّب إليه مسدسه ، صارخًا ، كمن فقد عقله من شدة توتره :

ـ بل رخيص .. ربما أكثر مما تتصوَّرون .

دفع (أكرم) جسد (هاشم) جانبًا ، ووثب محاولاً إنقاذ رفيقه .. وكانت انقضاضته مفاجئة بحق ..

رجال (هيثم) انقضوا عليه ، وكبلوا حركته فى قوة ، وأحدهم يهتف فى عصبية شديدة :

ـ لا يا سيِّدى .. ليس فريق (نور) .

سيطروا عليه فى لحظة واحدة ، وانتزع أحدهم مسدسه التردُّدى فى صرامة ، قائلاً :

ـ التاريخ أكَّد أنه من المفيد أن نستمع إليهم .

قاومهم (هيثم) فى شراسة ، صارخًا :

ـ إنهم يحاولون تشكيكنا فى قائدنا .. يحاولون خداعنا .

أجابه آخر فى صرامة :

ـ التاريخ يقول : إن ما يتوصلون إليه دومًا هو الحقيقة ، مهما بلغت غرابتها .

وأضاف زميله :

ـ وحديثهم جعلنا نتساءل : من يخدعنا بالضبط ؟!

خفَّت مقاومته كثيرًا ، عند هذه العبارة الأخيرة ، وغمغم فى انكسار مباغت عجيب :

ـ ربما .. ربما كانوا على حق .

تركه (أكـــرم) فى هذه اللحظة ، وعاد إلى (هاشم) يحاول انعاشه ، ولكن هذا الأخير فتح عينيه فى صعوبة ، وحاول أن يبتسم ، على الرغم من كل ما يشعر به من آلام ، وهو يغمغم :

ـ مثلى الأعلى .. ألنت بخير ؟!

حمل (أكرم) كتفيه ، وهو يقول فى تأثُّر شديد :

ـ أنا بخير .. ماذا عنك ؟!

تنهَّد (هاشم) فى ارتياح ، وهو يغمغم :

ـ حمدًا لله .

أغلق عينيه لحظة ، ثم عاد يفتحهما ، وغمز بإحداهما ، قائلاً بابتسامة واهنة متراجعة :

ـ يبدو أننا قد بدأنا طريق النصر يا رجل .

قال (أكرم) فى أسى :

ــ وستحيا بإذن الله ، لتشهد نهايته يا صديقى .

تهلّلت أسارير (هاشم) فى ضعف ، وهو يقول :

ــ صديقك ؟!.. بالنسبة لى ، هذه لحظة النصر ، التى لم أحلم بأعظم منها يا .. يا صديقى .

قالها ، وتراجع رأسه ، دون أن يفقد ابتسامته ، وفقد جسده كل أثر للحياة ، وتراخى بين ذراعى (أكرم) ، الذى قاوم دموعه فى صعوبة ، وهو يقول :

ــ ارقد فى سلام يا صديقى ، وأعدك أن يأتيك النصر ، قبل أن يبرد جسدك الطاهر .

كان المكان يغرق فى صمت مهيب ، والكل بلا استثناء ، يتطلعون إلى (أكرم) فى تأثُّر وحزن ، وهو يُرقد صديقه فى حرص شديد ، حتى استقر جسده أرضًا ، فمد يده يغلق عينيه فى خشوع ، ثم التفت إلى (هيثم) ، الذى يمسك به رفاقه ، وصرخ :

ــ أيها الوغد .

قفز من مكانه بكل غضـبه ؛ لينقض على (هيثم) ، فصرخ هذا الأخير بدوره ، محاولاً حماية نفسه :

ــ لم أكن أقصد هذا .. أقسم لك .

ووثب (رمزى) يمسك معصم (أكرم) ، هاتفًا :

ــ رويدك يا (أكرم) .. إنه لم يقصد هذا فعليًا .

صرخ فيه (أكرم) :

ــ ولكنه قتل صديقى .

صاح به (رمزى) فى صرامة :

ــ وما الذى سيجعلك تختلف عنه ، إذا ما تركت لغضبك العنان دون تدبير ؟!.. أى مثل سنضربه لهم ، لو أننا فقدنا بصيرتنا مع غضبنا ، كما يفعل أى أحمق ؟!

التفت إليه (أكرم) فى حدة ، فنظر فى عينيه مباشرة ، مكملاً :

ــ الله (سبحانه وتعالى) لا يفعل شيئًا عبثًا يا صديقى .. عودتنا إلى وعينا هنا ، كان لحكمة بالغة .. إنها مسئولية يا رجل .. مسئوليتنا أمام مستقبلنا .. أمام مستقبل عالمنا كله .

كانت عينا (أكرم) تشتعلان بكل الغضـب ، الذى تموج به أعماقه ، ولكن كلمات (رمزى) جعلته يدير الأمور فى رأسه ، قبل أن يقول فى عصبية حاول كبحها :

ــ لقد وعدت (هاشم) .

تقدَّم أحد رجال (هيثم) إليه ، ووقف أمامه وقفة عسكرية ثابتة ، ثم رفع يده بالتحية العسكرية ، قائلاً :

ــ سيِّد (أكرم) .. نحن نحتاج إلى قائد .. حاليًا .

نطقها ، ثم رفع يده إلى (أكرم) بمسدس تردُّدى ، فقال (أكرم) فى عصبية :

ــ لن يصلح هذا .

هتفت به (مشيرة) :

ــ أنت أفضل من يقودهم يا (أكرم) ، فى ظل هذه الظروف .

وأضافت (نشوى) مغمغمة :

ــ حتى عودة أبى .

أضافت (سلوى) :

ــ بإذن الله .

هزَّ (أكرم) رأسه ، وهو يقول فى توتر :

ــ قلت لن يصلح هذا .

سأله (رمزى) فى قلق :

ــ ولمــاذا ؟!

كتم (أكرم) تأثُّره ، وهو يقول فى عصبية :

ــ إننى أفضِّل مسدسى التقليدى .

فهم الرجال ما يعنيه هذا ، فخفض (هيثم) رأسه فى انكسار ، فى حين اتخذ رجاله وقفتهم العسكرية ، وأدوا التحية فى قوة للقائد الجديد ..

لــ (أكرم) ..

ولكن فى اللحظة نفسها ، التى أدوا فيها التحية ، أرتجَّ المكان مرة ثانية ..

وبعنف أكثر ..

وفى صعوبة ، منع الجميع أنفسهم من السقوط ، وهتف (أكرم) فى عصبية شديدة :

ــ ما الذى يحدث هنا ؟!

وكان هذا هو السؤال ، الذى يدور فى أذهان وقلوب الجميع ..

ماذا يحدث ؟!..

مــاذا ؟!

* * *

13 - الأمـل الأخيـر ..

ظهور (محمود) المفاجئ قلب الأمور كلها بحق .. وبمنتهى العنف ، وجعل أولئك الوحوش يتراجعون بحركة حادة ، والقائد الأعلى بملامحه الجديدة يهتف فى ذهول :

ـ مستحيل !..

وقف (محمود) يدير عينيه فى وجوههم القبيحة فى تحد ، فى حين قال (نور) فى صرامة :

ـ أعلم أنك سجنته فى تابوت من الرصاص السميك ، ودفنته فى أعماق مركبتكم ، وتصورت أن هذا سيعزله تمامًا ، عن أى مصدر للطاقة ، وهذا صحيح من الناحية الفيزيائية ، ولكن هناك طاقة واحدة ، لا تستطيع أية مادة فى الوجود كبحها ، ومنع انطلاقها .

ومال إلى الأمام ، وهو يشير إلى رأسه ، مضيفًا :

ـ طاقة العقل .

أكمل (محمود) فى صرامة :

ـ (الزوريوم) منح عقلى انطلاقة جبارة ، مكنتنى من

الاتصال بعقل (نور) ، قبل أن يخترق ذلك الحاجز ، الذى توحى صورته الهولوجرامية بامتداد الصحراء الجبلية إلى ما لا نهاية ، فى حين أنه يقود إلى أعماق مركبتكم الفضائية العملاقة ، التى تحمل على متنها عالمًا وهميًا كاملاً :

غمغم (نور) :

ـ لا ريب فى أنها مركبة بحجم مدينة كاملة .

نقل القائد الأعلى بصره بينهما لحظات فى عصبية ، ثم قال ، وهو يستعيد ثقته ، بعد زوال أثر المفاجأة :

ـ إنها كذلك .. مركبة بحجم نصف قاهرتكم تقريبًا ، ولهذا كان علينا أن نفجّر قنبلتنا ، حتى يتسنى لها الصعود من قلب الأرض إلى الفضاء ، والجميع منشغلون بالدمار الناشئ .

قال (محمود) فى صرامة قاسية :

ـ الدمار هو مصيركم أنتم يا رجل .

ثم أردف فى تحد :

ـ هل تذكر تلك الصورة المخيفة ، التى انتزعتموها من عقلى ، عند عودتى من نهر الزمن ؟!..

اتسعت عينا القائد الأعلى ، وهو يتراجع بحركة حادة ..

نعم .. إنه يذكر ذلك المشهد الرهيب ..

مشهد المركبة العملاقة ، بكل العالم الذى تحويه ، والنيران تشتعل فيها ، وهى تهوى فى قلب نجم هائل ، يفوق حجمه حجم شمسنا ألف مرة ..

صورة جعلته يصرخ مرتجفًا :

ــ لا .. لن يكون هذا مصير السادة .

ثم رفع يديه نحو (محمود) ، صارخًا :

ــ لقد نسيت أننى أفوقك قوة .

كان يتوقَّع أن تنطلق الطاقة من راحتيه ، لتضرب (نور) و(محمود) فى عنف ، ولكن الأوَّل قال :

ــ معذرة أيها الوغد ، ولكن حوارنا العقلى ، (محمود) وأنا ، جعلنا نعلم الكثير عنكم .

أكمل (محمود) :

ــ (نور) استنتج الموقف ، قبل عبوره ذلك الحاجز ، وأخبر (أكرم) عن اتصالى العقلى به ، وعن أنه طلب منى استخدام قدراتى

العقلية ، لتحفيز المحرِّك الرئيسى للمركبة ، وهذا ما صنع تلك الاهتزازات ، التى عجزتم عن فهما ، والتى أمدَّتنى بطاقة خافية ؛ لاختراق ذلك التـابوت الرصاصى ، وعندئذ ، عدت أغوص فى نظامكم الرقمى مرة أخرى .

جاء دور (نور) ، ليقول :

ــ وعندئذ كشف أنك وحدك ، من دون رفاقك ، من يمتلك هذه القوة الفائقة ، والتى تزوِّدك بها بطارية طاقة خاصة ، ترتبط بالزى الذى ترتديه .

هزَّ (محمود) كتفيه ، قائلاً :

ــ وببساطة ، أوقفها .

اتسعت عينا القائد الأعلى فى ارتياع ، وهو يتراجع نحو أجهزة المركبة الرئيسية ، قائلاً :

ــ إذن فلنتفق .. سنتعايش سلميًا ، جنبًا إلى جنب ، و ...

قاطعه (نور) فى صرامة :

ــ ومن يأمن شركم ؟!

تراجع القائد الأعلى بضع خطوات أخرى ، وهو يقول :

ــ سأمنحكم الضمانات اللازمة ، و ...

وفجأة ، بتر عبارته ، ووثب نحـو أحـد أجهزة المركبة ، وحاول دفع ذراع قصيرة فى إحداها ، و ...

وتحرّك (محمود) بسرعة خرافية ..

وثب وثبة هائلة ، اسقطته بين القائد الأعلى وذلك الجهاز ، وقال فى صرامة وغضب :

ــ أرأيت كم أنت حقير ؟!

ثم هوى بقبضته على ذلك الجهاز فى قوة ، فصرخ الوحوش العشرة فى آن واحد ..

ــ لا ... ليس هذا .

ولكن قبضة (محمود) سبقتهم ، وهوت على الجهاز بكل قوته ..

ودوى الانفجار ..

انفجار محدود ، كان له دوى يفوق حجمه ، ولكنه أسقط الجميع أرضًا ، ولكن الوحوش نهضوا فى سرعة ، والقائد الأعلى يصرخ فى انهيار ..

ــ لماذا ؟!.. لماذا ؟!.. الذراع لم تكن لتؤذيكم .. كانت فقط ستفصل المركبـة الإضافية ، التى تضـم أجساد السادة ، حتى تواصل رحلتهـا إلى الكوكب البديل بدونكم ، وعنـدما حطمت الجهاز كله ، قطعت عنهم سـبل الإعاشة ، ولن يستيقظوا الآن من سباتهم الصناعى العميق أبدًا .

انهار أرضًا على ركبتيه ، فى حين تجمَّد باقى الوحوش تمامًا ، كما لو أن ما حدث قد أصابهم بصدمة رهيبة ، وتابع القائد الأعلى فى انهيار تام :

ــ لقد قضيت على حضارتنا كلها .. قضيت على الحضارة التى أعادتك إلى الحياة .. والحضارة التى تضمن لك الاستمرار فيها .

ثم شمله غضب عصبى ، وهو يشير إليه ، صارخًا :

ــ بدون هذا الجهاز ، لـن يستمر (الزوريوم) على حيويته ، وسينهار جسدك هذا ، خلال مائة ساعة على الأكثر .

انعقد حاجبا (نور) فى صرامة ، وهو يقول :

ــ قلت بنفسك أنكم لم تتوصّلوا إلى كل سمات (الزوريوم) الحيوى بعد .

قال (محمود) فى توتر :

ــ لا بأس يا (نور) .. سيكون هذا مصيرًا عادلاً .. لقد أفنيت للتو حضارة كاملة ، وأبدت بقايا شعب بأكمله .

نهض القائد الأعلى ــ يقول فى انفعال :

ــ بل أفنيت عالمين يا هذا .

تطلَّع إليه (نور) و(محمود) فى توتر ، فأكمل فى شىء من التحدى والصرامة والتشفى :

ـ توقُّف الأجهزة ، سيعنى خلل نظم التوجيه فى المركبة ، وسيضيع مسارها فى الفضاء ، وربما تحوَّل المشهد ، الذى أتيت به من نهر الزمن ، إلى حقيقة مفزعة ، بعد أن صار عالمكم كله ضائعًا فى الفضاء ، مع إعاشة تكفيه لأسبوعين ، على أقصى تقدير .

قال (نور) فى توتر شديد :

ـ هناك حتمًا سبيل لمنع هذا .

بدا القائد الأعلى هادئًا أكثر مما ينبغى ، وهو يقول ، وكأنه يُحدِّث نفسه :

ـ كل ما يمكن أن تبلغه عقولكم ، لن يكفى لفهم لمحةً واحدة من تكنولوجيتنا ، وما تبقى لكم مـن وقت لن يكفى حتمًا لفهم خيوطها الأولى ، فهى تسبق تكنولوجيتكم بعدة آلاف من السنين .

قال (محمود) فى صرامة ، مشيرًا إليه :

ـ وماذا عنكم ؟!.. لو فنى هذا العالم ستفنون معه .

اقترب الوحوش كلهم من القائد الأعلى ، والتفوا حوله ، وهو يبدو أكثر شرودًا ، ويقول :

ـ لقد فشلت مهمتنا ، ولم تنجح فى الحفاظ على السادة ، وهذا يعنى ضرورة أن نفنى أيضًا .

ثم خفض بصره إلى (نور) و(محمود) ، مضيفًا فى هدوء عجيب :

ـ ولو أردتم نصيحتى ، فأفضل ما تفعلونه هو أن تنضموا إلى الباقين .

التصق به الكل ، وهو يقول مكملاً :

ـ فى العدم .

تألَّقت أجسادهم على نحو عجيب ، و(نور) يهتف :

ـ أى عدم تعنى يا رجل ؟!

وثب (محمود) نحو (نور) فى هذه اللحظة ، صارخًا :

ـ احترس يا (نور) .

ومع صرخته ، دوى الانفجار الثانى ..

وتحطم جزء من الجدار الشفاف السميك فى عنف ، وأعقبه صوت رهيب ، وفراغ الفضاء يشفط كل ما داخل المركبة إلى الفضاء السرمدى ..

بمنتهى القوة ..

ومنتهى العنف ..

ومنتهى السرعة ..

* * *

مع ذلك الانفجار الثانى ، بدا للجميع أن هناك أمر غير مألوف يحدث .. أمر جعل (نشوى) تقول :

ــ أحرب تنشأ ، أم قتال يدور .

هتفت (سلوى) :

ــ هناك خلل ما حدث .. لقد شعرت به .

هتف (رمزى) :

ــ وأنا أيضًا .

تلفَّت (أكرم) حوله فى عصبية ، وهو يقول :

ــ ربما كانت محاولة لإنقاذنا .

قال (هيثم) متوترًا :

ــ لا .. هذا أمر لايمكن أن يحدث منطقيًا .. الحصن لا يمكن أن يرتج على هذا النحو ، إلا بأمر جلل .

سألته (مشيرة) مرتجفة :

ــ مثل ماذا ؟!

هزَّ رأسه فى حيرة ، قائلاً :

ــ لست أدرى .

تردَّدت (مشيرة) لحظة ، ثم قالت فى خفوت :

ــ ربما حدث شىء هناك .

التفتوا إليها متسائلين ، فتابعت فى تردُّد أكثر ، وهى تنكمش فى جسد (أكرم) ، محتمية به :

ــ فى ذلك المكان ، الذى أرسلوا إليه الدُّب .

سألها (رمزى) فى قلق :

ــ أى مكان هذا ؟!

ارتجف صوتها ، وهى تقول ، وكأنها تستعيد لحظات رهيبة :

ــ ذلك المكان ، الذى لا يحوى شيئًا .. الظلام الرهيب ، الذى يثير فى نفسك ألف رعب ورعب ، بمجرَّد النظر إليه .

أمسك (أكرم) كتفيها ، وهو يسألها فى توتر بالغ :

ــ أى مكان رهيب تصفين يا (مشيرة) ؟

أتاه الجواب من مدخل المكان :

ـ العــدم .

التفت الجميع إلى مصدر القول فى لهفة ، وهتفت (سلوى) فى فرحة :

ـ (نور) .

اندفعت نحوه تعانقه ، فأحاطها بذراعيه ، وطبع قبلة على جبينها ، فى نفس اللحظة التى ظهر فيها (محمود) من خلفه ، وهو يقول فى توتر :

ـ إننا نواجه خطرًا رهيبًا .

سأله (هيثم) منفعلاً :

ـ أين القائد الأعلى ؟!

أجابه (نور) ، وهو يضمّ (سلوى) إليه :

ـ لقد فنى مع فريقه ، وعرضونا كلنا لخطر مخيف ، فى مركبتهم الفضائية هذه ، ولولا قدرات (محمود) الخارقة التى يغذّيها ذلك (الزوريوم) الحيوى ، والتى مكنتنا من عبور (كوباء) فى اللحظة الأخيرة ، لفنينا معهم .

تفجّر الذهول فى قلوب ووجوه الجميع ، وارتجف صوت (نشوى) ، وهى تردّد :

ـ مركبة فضائية ؟!

أشار إليها (نور) ، قائلاً فى حزم :

ـ سأشرح لكم كــل شىء باختصار ، فى حين يقوم (هيثم) باستدعاء جميع الموجودين فى الحصن ؛ فلابد وأن نتعاون جميعًا ، وبأسرع وسيلة ممكنة ، فقد يمكننا بهذا إنقاذ عالمنا الوحيد المتبقى من الفناء .

اتسعت عينا (أكرم) فى ارتياع ، وهتف (هيثم) فى صوت مبحوح ، من شدة الخوف .

ـ ما الذى تعنيه بكل هذه الغوامض المفزعة أيها الأسطورة .

أجابه (نور) فى صرامة :

ـ ستعرف كل شىء ، بعــد أن يجتمع الكــل يا (هيثم) .. ستعرفون جميعًا كل شىء ..

كان الأمر صدمة للجميع بالفعل ، عندما اجتمعوا فى ساحة الحصن ، وشرح لهم (نور) ذلك الموقف الرهيب ، الذى يهدم عالمهم ، ويحطم معتقداتهم كلها دفعة واحدة ، وينذرهم بأن آخر من تبقى من الجنس البشرى ، فى طريقه إلى نهاية واحدة .. الفنــاء ..

وعندما انتهى من الشرح ، ساد المكان صمت رهيب ..

صمت ملئوه الفزع ..

والهلع ..

والمرارة ..

واليأس ..

صمت دام ، حتى قطعه صوت أحد العلماء ، وهو يقول : فى لهجة أقرب إلى البكاء :

ــ أين الدكتور (راشد) ؟! لماذا اختفى عندما كنا فى أمس الحاجة لقيادته العلمية وفكره المستنير ؟!.. لماذا ؟!

برز (محمود) فى هذه اللحظة ، وجسده يتألّق على نحو خافت ، وهو يقول فى جمود :

ــ أظننى أعلم أين هو .. وأين الباقين أيضًا .. لقد توغّلت فى النظام الرقمى الفائق لهم ، بحثًا عن أية وسيلة لتفادى نهاية العالم ، وعلمت الكثير .. الكثير جدًّا .

هتف به أحد العلماء فى لهفة وأمل :

ــ وهل عثرت على وسيلة ما ، لإنقاذنا من هذا المصير البشع ؟

صمت (محمود) لحظات ، ثم قال فى أسى :

ــ لقد كان ذلك الوغد على حق فى كل ما قاله .. لا توجد أية وسيلة لتفادى هـذا .. إنها النهاية أيها السادة .. نهاية هذا العالم .. ونهاية البشر .

وكانت الصدمة أكثر هولاً من أن توصف ..

ألف .. ألف .. ألف مرة ..

* * *

جمود رهيب ، ذلك الذى أصاب أفراد الفريق ، وهم يجلسون معًا ، فيما كان سابقًا حجرة القائد الأعلى ..

جمود جعلهم يحدقون جميعًا فى الفراغ ، دون أن ينطق أحدهم بحرف واحد .. إنهم لا ينتظرون نهايتهم فحسب ..

بل نهاية العالم ..

ونهاية البشرية ..

نهاية آخر فرد منها ..

ولقد كان (أكرم) أوّل من قطع ذلك الصمت الرهيب ، قائلاً :

ــ كنت أعلم أنه هناك نهاية حتمية لهذا التطوّر التكنولوجى اللعين ، ولكننى لم أتصوّرها قط على هذا النحو .

هزّت (نشوى) رأسها فى مرارة ، قائلة :

ـ ولم أتصوّر أبدًا أن تأتى نهاية البشرية ، على مسافة سنوات ضوئية عديدة من الأرض .

غمغم (نور) :

ـ البشرية لن تنتهى .. مازال ابنى وحفيدىَّ هناك ، آمنين فى العدم ، الذى لن يتسع للجميع للأسف .

قال (رمزى) فى ألم :

ـ وهــل تتصورّ أنهم محظوظون بوجودهم هناك ؟!.. إنه مصير أبشع مما سنواجهه نحن هنا يا (نور) .

قال (نور) فى حزم :

ـ ولكنه يضم الأمل يا صديقى .. الأمل فى أن يكونوا يومًا السبيل الوحيد ؛ لاستمرار البشرية .

قالت (سلوى) فى جمود ، يشفَّ عن صدمتها :

ـ وكيف سيحدث هذا دون نساء ؟!.. ألا يحتاج استمرار البشرية إلى ذكر وأنثى على الأقل ؟!

قال (محمود) متردّدًا :

ـ لدىَّ طاقة تكفى لإرسال أنثى إليهم ، ولديهم (س ـ 18) هناك ، وقد ...

قفز (نور) من مكانه ، يسأله فى لهفة :

(س ـ 18) هناك .

بدا الاهتمام والأمل على الجميع ، و(محمود) يجيب :

ـ نعم .. إنه هناك يا (نور) ، ولكنه لن يطيع سواك .

هتف به (نور) :

ـ أرسلنى إليهم إذن .

سأله فى توتر :

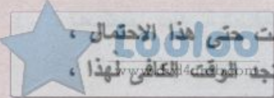
ـ هل ستبقى هناك يا (نور) ؟!

أجابه فى انفعال :

ـ بل سآمر (س ـ 18) بالعودة إلى طاقته ، ومحاولة استخدام قوته وقدراته اللا محدودة ، فى انقاذنا من هذا الموقف .

قال (محمود) فى يأس :

ـ مستحيل يا (نور) !.. لقد درست حتى هذا الاحتمال ، ووجدت أن قدرات (س ـ 18) لن تجد الوقت الكافى لهذا ،



فعندما انفجر هؤلاء الوحوش ، ونسفوا جزءًا من جدار المركبة ، حدث خلل رهيب فى التوازن داخلها ، ونحن نفقد الأكسجين بسرعة خرافية الآن ، ولن تمضى ساعات ست ، حتى نختنق جميعًا من نقص الأكسجين ، ونقضى نحبنا فى غضون دقائق .

قالت (سلوى) فى فزع :

ــ يمكنه إصلاح ذلك الجزء من الجدار على الأقل .

مط شفتيه ، قائلاً :

ــ سيمنحنا هذا يومًا إضافيًا على الأكثر .

عاد وجوم ترقُّب الفناء يسيطر على الجميع ، قبل أن يزدرد (نور) لعابه فى صعوبة ، قائلاً :

ــ فليكن .. لن نموت دون حتى أن تحاول .

وواجه (محمود) ، قائلاً فى حزم شديد :

ــ أرسلنى إليهم .

صمت (محمود) لحظات ، ثم قال :

ــ سيحتاج هذا إلى طاقة هائلة يا (نور) ، لم تعد متوافرة ، بعد تدمير بطارية الطاقة فى المركبة .

غمغم (أكرم) فى مرارة ، وهو يضمّ (مشيرة) إليه فى قوة :

ــ لا يوجد أمل إذن .

شدّ (محمود) قامته ، وهو يقول :

ــ بل ما زال هناك أمل وحيد ، بعد رحمة الله (عزّ وجلّ) .

سأله (رمزى) فى لهفة :

ــ وما هو ؟!

بدا متوترًا بعض الشىء ، وهو يقول :

ــ طاقة (الزوريوم) الحيوى .. طاقتى .

مضت لحظات من الصمت ، قبل أن يقول (نور) فى صرامة :

ــ لا .. لن أسمح بأن تضحى بنفسك من أجلنا مرتين(*) .

ابتسم (محمود) فى مرارة ، مغمغمًا :

ــ نفسى ؟! لو أنها نفسى حقًّا ، لما تردَّدت فى التضحية بها من أجلكم الف مرة يا (نور) ، ولكنه مجرَّد تواجد وهمى ، ومشاعر بشرية ستنهار حتمًا ، كما سمعت ذلك الوغد يقول ، قبل مصرعه .. ومن المؤسف أنه كان محقًّا فى هذا ، ثم إن الفناء ينتظر البشرية كلها ، أو ما تبقى منها ، فأى شرف اكتسبه ، من أن يكون آخر ما أفعله ، هو محاولة إنقاذها .

(*) راجع قصة (الزمن = صفر) ... المغامرة رقم (100)

ران عليهم جميعًا صمت مهيب ، قبل أن يسأله (نور) فى صوت مبحوح ، حاول أن يكتم به تأثره :

ـ هل تعلم كيف نصل إليهم ؟!

أجابه (محمود) :

ـ بالتأكيد .

تخلَّى (أكرم) عن (مشيرة) فى هذه اللحظة ، واندفع خلف (محمود) ، هاتفًا :

ـ انتظر .

التفت إليه (محمود) ، فمد يده يصافحه فى قوة ، قائلاً :

ـ من المؤسف جدًّا أن يفقد المرء صديقين بطلين فى يوم واحد ، ولكننى أردت أن أخبرك أنه من دواعى فخرى ، فى هذه اللحظات الأخيرة ، أننى تشرَّفت بالعمل معك .

صافحه (محمود) فى تأثر ، قائلاً فى خفوت :

ـ وأنا أيضًا يا (أكرم) .. صدقنى .. وأنا أيضًا .

تصافحوا جميعًا فى صمت ، فيما عدا ما قالته (سلوى) ، بين ذراعى (نور) :

ـ عد إلينا .

ربَّت عليها فى حنان ، ومسح دمعة انسالت على وجنتها ، وطبع قبلة على جبينها ، ومنحها ابتسامة هادئة ، ثم انصرف مع (محمود) ..

كان عليه أن يبذل كل ما تبقى من جهد ، فيما تبقى له من عمر ، من أجل الأمل ..

الأمل الأخير ..

للبشرية ..

* * *

14 - نهـاية العـالم ..

« ليس هناك أدنى أمل .. » ..

قالها (طارق) فى مرارة ، وهو يسبح مع الباقين وسط العدم ، قبلِ أن يستطرد :

ـ (س ـ 18) لا يستجيب إلا لصوت جرى بالفعل .

هزَّ الدكتور (راشد) رأسه ، وقال فى يأس :

ـ صدقونى .. لقَـد قضى لنـا أن نبقى هنا إلى الأبد .. وأنا أعنى الأبد حرفيًّا ، وليس مجازيًا .

قال (محمود) الصغير فى توتر :

ـ ترى هل يبحثون عنا فى الخارج ؟!

هزَّ الدكتور (راشد) رأسه مرة أخرى ، وقال بنفس اليأس :

ـ إنه ليدهشنى أن ذلك القائد لم يرسلهم إلى هنا .

قال (طارق) الصغير :

ـ لو أرسل أبى إلى هنا ، لوجدنا الحل للخلاص .

قال الدكتور (راشد) :

ـ لو أرسل القائد (نور) إلى هنا ، لكانت أكبر حماقة ارتكبها فى حياته .

لم يكد يتم عبارته ، حتى دوت فرقعة عجيبة وسط الفراغ ، فهبَّ الدُب من مكانه المفترض ، وهتف :

ـ ربـاه !.. هـل ..

قبل أن يتم هتافه ، ظهر (نور) و(محمود) فجأة وسط العدم ..

(نور) ارتطم بالدُّب ، و(محمود) سبح فى استرخاء عجيب ، وأطرافه كلها مرتخية على نحو عجيب ..

وهتف الجميع فى آن واحد :

ـ مسـتحيل !

كان (نور) يتمنى الاندفاع نحوهم ، بكل ما فى كيانه من لهفة وعاطفة ، إلا أنه اندفع نحو (محمود) ، وهو يهتف :

ـ رباه !.. هل ..

لم يكن هناك من داع ليكمل عبارته ، فقد كانت كل لمحة فى كيان (محمود) توحى بأنه قد فقد كل علامات الحياة و الطاقة ..

وفى حزن مرير ، ربَّت عليه ، (نور) ، مغمغًا :

ـ وداعًا يا صديق العمر .. وداعًا .

التف ابنه وحفيداه و الدكتور (راشد) والدُّب حوله ، يراقبون معه جسد (محمود) ، الذى تألَّق فى خفوت ، وراح يتلاشى تدريجيًا ، وهمس الدُّب فى خفوت :

ـ ماذا أصابه أيها الأسطورة ؟!

أجابه (نور) فى خشوع :

ـ دفع حياته ، من أجل ما يؤمن به .

انتقل خشوعه هذا إلى الجميع ، فلاذوا بالصمت التام ، حتى تلاشى الجسد الزوريومى تمامًا ، ثم همس (طارق) الصغير :

ـ هل فعلها معك ذلك القائد الأعلى الزائف يا أبى ؟! .

التفت إليهم (نور) ، قائلاً :

ـ بل جئت بإرادتى ؛ فى محاولة أخيرة لإنقاذ ما تبقى من البشرية .

اتسعت عينا الدكتور (راشد) ، وهو يقول :

ـ البشرية ؟!.. ماذا تعنى يا سيِّد (نور) ؟!

وكما حدث للجميع ، أصابهم شرح الحقيقة المفزعة بصدمة قاسية ، أفقدتهم النطق طويلاً ، قبل أن يغمغم الدُّب ، فى ذهول بأس :

ـ إذن فكل ما عشناه كان مجرَّد وهم .. وهم صنعوه ، وغرسوه فى عقولنا ، وأفسدوا به حياتنا لسنوات طوال .

تمتم (محمود) الصغير :

ـ لهذا لم نكن نذكر تفاصيل الكارثة .

وقال (طارق) الصغير :

ـ ولهذا لم يحاول الحصن أبدًا تصفية المقاومة .

وهتف الدكتور (راشد) فى مقت :

ـ يا لى من غبى !.. يا لنا جميعًا من أغبياء حمقى .. كانت كل الدلالات تشير إلى حدوث أمـور غامضة ، ولكننا لم نحاول التصدِّى أو المقاومة .

تمتم الدُّب :

ـ نحن قاومنا .

أجابه (طارق) فى حنق :

ـ كقطع شطرنج ، يحركها هو ، على رقعة من صنعه .

ران عليهم الصمت لحظات أخرى ، قبل أن يسأل الدُّب فى قلق :

ــ وهل أتيت لتخرجنا من هنا أيها الأسطورة ؟!

اندفع الدكتور (راشد) يهتف فى ذعر :

ــ لا .. لا أريد الخروج إلى عالم ، فى طريقه إلى الفناء .. بقاؤنا هنا هو أملنا الوحيد فى النجاة .

هتف (طارق) مستنكرًا :

ــ أى قول هذا يا رجل ؟!

واجهه (نور) ، قائلاً فى حزم :

ــ ما يقوله الدكتـور (راشد) هو الحقيقة يا (طارق) .. وجودكم هنا هو أمل البشرية فى الاستمرار .

قال (محمود) الصغير :

ــ ولكن البقـاء هنا هـو عذاب ما بعـده عذاب يا جدى .. سنبقى أبد الدهر ، وسط عدم لا يمضى فيه الزمن أبدًا .

قال (طارق) الصغير فى تردُّد :

ــ ربما كان هناك حـل آخـر .. ربما يستطيع (س ــ 18) إنقاذنا .. مرة بذلك يا أبى ، وسيفعل بإذن الله .

التمعت عينا الدكتور (راشد) ، وهو يهتف :

ــ نعم .. ربما يستطيع (س ــ 18) إنقاذنا ، ولكن ليس بأية طريقة تفكرون بها .. هناك وسيلة وحيدة ، تحدَّث عنها القائد الأعلى .

قال (نور) فى حزم :

ــ نفس الوسيلة التى أتيت لأستعين به من أجلها .

سأله (طارق) فى توتر :

ــ أية وسيلة يا جدى !!

أجابه بكل حزم الدنيا :

ــ الزمــن .

« ماذا تعنى بهذا يا (نور) ؟!.. »

ألقت (سـلوى) سـؤالها على (نـور) ، بعـد أن أعاده (س ــ 18) وحده من العدم ، ووقف ثابتًا جامدًا ، فى انتظار أوامر أخرى ، فأجابها (نـور) ، وهو يدير عينيـه فى وجوه الجميع ، موجًا حديثه إليهم :

ــ (س ــ 18) قادر على القيام برحلة واحدة ، مع شخص

واحد ، عبر الزمان والمكان .. رحلة ستستهلك كل طاقته ، حتى آخر قطرة منها ، ولكن تلك الرحلة ستكون آخر أمل لنجاة البشرية من الفناء .

سأله (أكرم) فى حيرة :

ــ كيف هذا ؟!

أجابه (نور) فى انفعال :

ــ سيعود (س ــ 18) بواحد منا ، إلى أرضنا التى نعرفها ، ولأنه من المستحيل أن تتواجد المادة مرتين فى زمن واحد ، فالشخص الذى سيذهب ، سيمتزج بكيانه مع الكيان الموجود ، فى الزمن الذى سيصل إليه ، ولكنه سيحتفظ بذاكرة هذا الزمن ، مما سيجعله قادرًا على تحذير العالم ، وفعل كل ما يلزم ، لمنع حدوث تلك الكارثة ، التى أفنت الحياة على الأرض ، وقادتنا إلى ما نحن فيه الآن .

سألته (مشيرة) :

ــ وهل سيعنى هذا أن كل ما ترتَّب على الكارثة لن يحدث ، وأننا لن نأتى إلى الفضـاء ، على متن هـذه المركبة العملاقة ، التى تقودنا إلى الفناء .

تمتـم :

ــ أتعشَّم هـذا .

ثم عاد يدير عينيه فى وجوههم ، مستطردًا :

ــ والآن ، من سيقع عليـه الاختيـار ، ليكون أمل الأرض والبشرية الأخير ؟!

أجاب (أكرم) فى سرعة :

ــ أنت يا (نور) .

ثم ضم (مشيرة) إليه فى حب ، وهو يضيف فى حزم :

ــ فمهما كـان ما سيحدث ، لن أتخلى عن حب حياتى ، فى اللحظات الأخيرة .

التصقت به (مشيرة) فى حب ، وقالت :

ــ كانت لدى فرصة للعودة إلى الشباب .

قبلَّها فى حب ، قائلاً :

ــ أنت أجمل شابة عرفتها فى حياتى .

قال (نور) فى حزم :

ــ الأمر يحتاج إلى خبير علمى .

ضمته (سلوى) ، قائلة :

ــ لن أرحل دونك .

صمت لحظة ، ثم قال فى مرارة :

ــ ستذهب (نشوى) .

لم تنطق (نشوى) بحرف واحد ، وكأنها كانت تنتظر هذا وتتوقَّعه ، ولكن (رمزى) هتف معترضًا :

ــ ولماذا (نشوى) ؟!

كانت (نشوى) هى من أجابته ، قائلة فى حزم :

ــ لأنه من واجب كل أم ، أن تبذل المستحيل ، من أجل أبنائها ، ولو أن هذا نجح ، أكون قد فعلت كل ما أمكننى من أجلهما ..

هتـــف :

ــ وماذا لو لم تنجح ؟!

أجابت فى سرعة وحزم :

ــ سيكفينى شرف المحاولة .

وحاولت أن تبتسم ، وهى تضيف :

ــ ولن يصنع هذا فارقًا ، فكلنا سنفنى فى كل الأحوال .

عبارتها جعلتهم يصمتون جميعًا ، قبـل أن يلتفت (رمزى) إلى (نور) ، ويقول مقاومًا دموعه :

ــ لقدانقذت ابنك وحفيديك ، وتحاول الآن إنقاذ ابنتك أيضًا .

أجابه (نور) فى صلابة ، لم تنجح فى إخفاء حقيقة مشاعره :

ــ إننى أحاول إنقاذ البشرية يا صديقى .

لم تمض لحظـات على قوله هـذا ، حتى وقف (نور) أمام (س ــ 18) ، وشرح له المطلوب منه فى حزم ، ثم أزدرد لعابه فى صعوبة ، وقال بصوت أجش ، من فرط الانفعال :

ــ (س ــ 18) .. انطلق فى مهمتك .

أجابه (س ــ 18) بتلك العبـارة الوحيـدة المسجَّلة فى برنامجه ، بكل لغات الدنيا :

ــ (س ــ 18) فى خدمتك يا سيِّدى .

ثم أحاط (نشوى) بذراعيه ، وراح جسده يتألَّق على نحوٍ عجيب ، ويزداد تألُّقه فى سرعة ، حتى أغشى أبصارهم جميعًا ..

وبعدها دوت فرقعة ..

فرقعـة مكتومة ، تلاشى بعدها تألّقه تمامًا ، وفتح الجميع

عيونهم ، لتطلق (سلوى) شهقة لوعة قوية ، ويضمها (نور) إليه فى حنان ، وكأنما يحاول حمايتها من مشاعرها ..

لقد اختفى (س ــ 18) مع (نشوى) ، وتركا خلفهما سؤالاً واحدًا كبيرًا ..

هل ستنجح خطة (نور) لإنقاذ البشرية ؟!

هــل ..

* * *

« (نشوى) .. استيقظى يا بنيتى .. »

انتفض جسد (نشوى) ، عندما لمستها تلك الأصابع ، على الرغم من دفئها ، وفتحت عينيها عن اتساعهما ، تحدّق فى وجه الدكتور (حجازى) ، الذى ابتسم فى حنان ، قائلاً :

ــ هل أفزعتك ؟!

اعتدلت على ذلك الفراش الوثير ، وتلفّتت حولها فى دهشة ، تتأمّل حجرة العيادة ، التى ترقد داخلها ، وهى تقول فى انفعال :

ــ أين أنا ؟!

ابتسم الدكتور (حجازى) ، وهو يجذب مقعدًا ، ويجلس إلى جوارها ، قائلاً :

ــ فى عيادة مبنى المخابرات العلمية .. ألم تأت هنا من قبل قط ؟!

لم تدر لماذا تشعر بالحيرة لتواجدها هنا !!..

ولا لماذا تشعر وكأنه عليها القيام بعمل ما ؟!..

هناك جزء ما من عقلها ، مشوّش للغاية ..

جزء حائر ..

مرتبك ..

مظلم ..

جزء جعلها تسأله فى حذر ، لم يكن له منطقيًا ما يبرره :

ــ ماذا حدث لى ؟!

أجابها فى هدوء وحنان :

ــ غيبوبة مفاجئة .. وصفوا أنك انتفضت فجأة ، كما لو أن صاعقة خفية قد أصابتك ، ثم سقطت أرضًا ، وأنت تهزين بكلمات غير مفهومة .

سألته فى قلق :

ــ كلمات مثل ماذا ؟!

هزَّ كتفيه ، مجيبًا :

ـ كلمات عن المستقبل ، وإنقاذ العالم ، والفضاء .. وحتى أعماق الأرض ، والمدهش أنهـــم وجدوا (س ـ 18) فى حجْرتك ، ولكنه جامد تمامًا ، كتمثال من الصلب .

وعاد يبتسم ، قائلاً :

ـ من الواضح أنك ترهقين نفسك كثيرًا فى العمل .

اتسعت عيناها ، وهى تحدّق فيه نجواء ..

المستقبل .. إنقاذ العالم .. الفضاء .. أعماق الأرض .. كلمات تبدو غير مترابطة ، ولكن شيئًا ما فى أعماقها ، يوحى إليها بأنه هناك رابط منطقى ، يربط كل هذا ..

شىء يصارع ، للصعود إلى عقلها الواعى ..

شىء هام للغاية ، ولكنه يختفى هناك ، فى ركن مظلم من عقلها ..

« لقد أوصيت باختبار حمل ... »

قالها الدكتور (حجازى) فى حنان ، فحدَّقت فيه مرة أخرى ، متسائلة :

ـ هل تعتقد أننى ...

قبل أن تتم سؤالها ، اندفع (نور) و(سلوى) إلى العيادة ، والأوّل يهتف فى جزع :

ـ (نشوى) ماذا أصابك يا ابنتى ؟!

واحتضنتها (سلوى) فى قوة ، هاتفة :

ـ رباه !.. لقد هرعت إلى هنا ، فور أن أخبرونى بما أصابك .

وبمنتهى الحيرة ، حدَّقت فيهما (نشوى) ..

أمها وأبوها ... هناك شىء ما ، يربطهما بكل ما سبق ..

يربطهما بالمستقبل ، والفضاء ، وأعماق الأرض ، وإنقاذ العالم ..

ولكن ما هذا ؟!..

لماذا لا تذكر ذلك الشىء ؟!

لماذا لا يصعد إلى سطح ذاكرتها ..

سمعت (نور) يسأل الدكتور (حجازى) ، فى قلق واهتمام :

ـ هل تعانى من شىء ما ؟!

ابتسم الدكتور (حجازى) ، قائلاً :

ـ شىء جيد .

التفتت إليه (سلوى) ، تسأله فى دهشة :

ــ شىء جيد ، يصنع بها هذا ؟!

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ــ لقد طلبت بعض الفحوص المؤكدة .

اندفع (رمزى) و(أكرم) و(مشيرة) إلى الحجرة ، فى اللحظة نفسها ، وهتف الأوّل :

ــ (نشوى) .. ماذا أصابك يا حبيبتى ؟!

وأضافت (مشيرة) فى قلق :

ــ لقد أفزعتنا .

ولسبب ما شعرت (نشوى) بالدهشة ، من جمال وشباب ونضارة وجه (مشيرة) ، وحدّقت فيها فى حيرة ، وهى تغمغم :

ــ (مشيرة) .. أنت جميلة جدًا .

ضحك (أكرم) وهو يحتضن (مشيرة) ، قائلاً :

ــ إنها دومًا كذلك .

تملّصت منه (مشيرة) فى ضيق ، وهى تقول فى عصبية :

ــ ليس فى كل زمان ومكان يا (أكرم) .

واتسعت عينا (نشوى) مع العبارة ..

الزمان والمكان ...

هذا هو كل ما يدور فى عقلها ..

الزمان والمكان ..

تراصت مشاهد سريعة خاطفة فى ذهنها ، ضاعفت من حيرتها وتوترها كثيرًا ..

مشاهد لعالم عجيب ..

ووحوش آلية ..

و(محمود) بقدرات هائلة ..

وقتال وسط أطلال ..

و ...

« ماذا بك ؟! »

انتزعتها (سلوى) من أفكارها بالسؤال ، الذى ألقته فى توتر قلق ، قبل أن تضيف :

ــ لقد شحب وجهك بشدة .

اعتدلت (نشــوى) ، وهزَّت رأسها وكأنها تنفض عنه تلك المشاهد غير المترابطة ، وقالت :

ـ أنا بخير .

نطقتها فى شحوب ، ولكنها نهضت بعدها من فراشها ، مستطردة فى حزم :

ـ أنا مستعدة للعودة إلى العمل فورًا .

التفت (نور) إلى الدكتور (حجازى) ، يسأله :

ـ هل يمكنها هذا ؟!

مطَّ الدكتور (حجازى) شفتيه ، وقال :

ـ هذا يتوقَّف على نوع العمل .

قالت هى فى حزم :

ـ أنا مستعدة لأى عمل .

تردَّد (نور) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أنه لدينا مهمة جديدة ، ولكن لو أنك ...

قاطعته فى توتر :

ـ أنا مستعدة يا أبى .

بدا عليه مزيد من التردُّد ، وسألته (سلوى) فى اهتمام :

ـ أية مهمة تلك يا (نور) ؟!

أجابها فى اقتضاب :

ـ بعثة جيولوجية ، اختفت دون أن تترك خلفها أى أثر ، والقائد الأعلى يريدنا أن نجد تفسيرًا لهذا .

سرى التوتر فى كيانها بشدة مع حديثه ..

بعثة جيولوجية ..

كهف جاف ..

زئبق جاف ..

كلها أمور أضيفت لما سبق فى ذهنها ، وبدا وكأنها كلها تصنع منظومة واحدة ..

منظومة تختفى هناك ، فى جـزء مظلم ، من أعمق أعماق عقلها ، ويبدو أنها تقاتل للصعود إلى السطح ..

حاولت أن تنقض تلك المشاعر المتوترة عن عقلها ، و(أكرم) يقول ضاحكًا :

ـ يبدو أنها ستكون مهمة تقليدية جديدة ..

غمغمت (مشيرة) فى حدة :

ـ كل كـارثة تخوضونهـا ، يطلق عليها (مهمة تقليدية جديدة) .

ابتسم ، قائلاً :

ـ أليست كلها كذلك .

سرت ارتجافة باردة فى جسد (نشوى) مع عبارته ، وصرخ ذلك الشىء الكامن فى أعماقها بأنها لن تكون أبدًا مهمة تقليدية ..

أبـدًا ..

وفى استسلام عجيب ، ودَّعت الدكتور (حجازى) بابتسامته الحانية ، وخرجـت مع أفراد فريقهـا ، وكيانهـا كله يحاول استخراج ما يشتعل فى عقلها ..

ولكن هل ستنجح فى هذا ؟!..

هل سيستيقظ عقلها ، من صدمة رحلته عبر الزمن ، واندماجه بكيانها الآخر، ويستعيد كل ذكرياته ، قبل أن يكرِّر الزمن نفسه ؟!

هـل سيمكنها حقًا أن تؤدى الدور ، الـذى عبرت من أجله حاجز الزمن ؟!

وهل ستفعل هـذا ، قبل أن تخطـو الأرض ، وتخطو البشرية خطواتها الأخيرة ؟!

أم أن النهاية ستسبق كل شىء ، وتنتصر على الزمان والمكان ؟!

نهاية البشرية ..

ونهاية العالم .

* * *

ملف المستقبل

صدر من هذه السلسلة

1 — لمحة الموت .
2 — اختفاء صاروخ .
3 — مدينة الأعماق .
4 — غزاة الفضاء .
5 — القنبلة الغامضة .
6 — زائر من المستقبل .
7 — جنون طائرة .
8 — الارتجاج القاتل .
9 — صراع الحواس .
10 — الفارس المجهول .
11 — منطقة الرعب .
12 — طريق الأشباح .
13 — الزمن المفقود .
14 — نداء النجوم .
15 — مثلث الغموض .
16 — الوباء الجهنمى .
17 — نبض الخلود .
18 — ظلال الفزع .
19 — عيون الهلاك .
20 — العقول المدفنية .
21 — أطياف الماضى .
22 — ليلة الرعب .
23 — بصمات السحرة .
24 — الضوء الأسود .
25 — صحوة الشر .
26 — لعنة الفضاء .
27 — القط الزجاجى
28 — النهر المقدس .
29 — الإيقاع المفترس .
30 — النار الباردة .
31 — رنين الصمت .
32 — القلق الأخضر .
33 — حارس الأرواح .
34 — وحش المحيط .
35 — مرآة القدر .
36 — الموت الأزرق جـ 1 .
37 — السماء المظلمة جـ 2 .
38 — من وراء النجوم جـ 3 .
39 — الثلوج الساخنة .
40 — علامات الخوف .
41 — مملكة النار .
42 — الأرض الثانية .
43 — ثقب فى التاريخ .
44 — الغارقون .
45 — السحاب الأحمر .
46 — الكوكب الملعون .
47 — المقاتل الأخير .
48 — سجن القمر .
49 — غزو الأرض .
50 — الأسطورة .
51 — الخلية القاتلة جـ 1 .
52 — العدو الخفى جـ2 .
53 — أمطار الموت .
54 — عبر العصور جـ 1 .
55 — أسرى الزمن جـ 2 .
56 — شيطان الأجيال جـ3 .
57 — منطقة الضباع .
58 — معركة الكواكب جـ 1 .
59 — جحيم أرغوان جـ 2 .
60 — أرض العمالقة .
61 — الكابوس .
62 — سادة الأعماق جـ 1 .
63 — المحيط الملتهب جـ 2 .
64 — السيف البلورى جـ 1 .
65 — أبواب الموت جـ 2 .
66 — الشمس الزرقاء .
67 — شيطان الفضاء .
68 — عقول الشر .
69 — العالم الآخر .
70 — الستار الأسود .
71 — أمير الظلام .
72 — ابن الشيطان جـ 1.
73 — مبعوث الجحيم جـ2 .
74 — الصراع الجهنمى جـ3.
75 — الجولة الأخيرة جـ4 .
76 — الاحتلال جـ 1 .
77 — المقاومة جـ 2 .
78 — الصراع جـ 3 .
79 — التحدى جـ 4 .
80 — النصر جـ 5 .
81 — رمز القوة .
82 — حصن الأشرار .
83 — أرض العدم .
84 — كنز الفضاء .
85 — الأمل الفيروزى .
86 — الإمبراطور .
87 — نصف آلى .
88 — الانفجار الحى .
89 — البركان .
90 — رعب فى الأعماق .
91 — ضد الزمن .
92 — الرحلة الرهيبة .
93 — نقطة الصفر .
94 — الساحر .
95 — القوة السوداء .
96 — بذور الشر .
97 — لهيب الكواكب .
98 — نيران الكون .
99 — الانفجار .
100 — الزمن - صفر .
101 — العرباء .
102 — التوءم الرهيب .
103 — الأرض المفقودة .
104 — أنياب ومخالب .
105 — وجوه من ثلج .
106 — بلا أثر .

سرى جدًا !!

107 — لعنة الدم .
108 — مصيدة الفضاء .
109 — الدوامة .
110 — الفجوة السوداء .
111 — كوكب الطغاة .
112 — بصمة الموت .
113 — حرب الفيروسات .
114 — الرعب .
115 — العدو الخارق .
116 — العاصفة النووية .
117 — فارس الزمن .
118 — ألف عصر .
119 — زمن الدم .
120 — الفارس الثانى .
121 — المجهول .
122 — الظلال الرهيبة .
123 — دائرة الظل .
124 — الغـزاة .
125 — كرة النار .
126 — لهيب الرعب .
127 — طريق النجوم .
128 — الزمن الآخر .
129 — وراء العقل .
130 — القـوة .
131 — العاصفة .
132 — الرمال الحية .
133 — نقطة التماس .
134 — سادة الكون .
135 — فودو .
136 — الأحراش الأسطورية .
137 — الشر .
138 — الأعماق .
139 — حرب الأشباح .
140 — فراسنة الزمن .
141 — الثعابين .
142 — أنياب .
143 — بلا جسد .
144 — العقل .
145 — الغسم الرهيب .
146 — البقعة المظلمة .
147 — الصحوة الكبرى .
148 — عودة الشر .
149 — ؟ .
150 — آخر العمالقة .
151 — بلا وعى .
152 — الفيروس .
153 — المفقودون .
154 — الزئبق الجاف .
155 — الكهف .
156 — عالم جديد .
157 — أطلال الماضى .
158 — حروب الغد .
159 — نيران المستقبل .
160 — نهاية العالم .



رقم الإيداع : ٩٧٧ - ٣٧٨ - ٢٤٤ - ٤
٨٨٢٢ ٢٣٧٧٢

نهاية العالم !

- تواصل الصراع فى المستقبل ، بين (نـــور) وفريقه ، وذلك السر الغامض ، الذى يختفى خلفه القائد الأعلى ..
- فرار الفريق من الحصن ، نقل الصراع إلى قلب الأطلال ، وبحثهم عن ذلك الحاجز المحيط بها ، قفز بالصراع إلى مستويات جديدة ..
- وعلى كل الجبهات اشتعلت حرب الغد ، وسـط أطلال الماضى ، لمحاولة إطفاء نيران المستقبل ، والسيطرة على عالم جديد ..
- ومع المفاجأة المذهلة فى النهايـة ، خاض الفريق أصعب وأعقد وأعجب وأشرس معاركه ، قبـل (نهاية العالم) ..
- اقـرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتـل مع (نـــور) وفريقه معركتهم الأخيرة .. من أجل التاريخ .. تاريخ المستقبل .



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية



د. نبيل فاروق

ملف المستقبل
سلسلة روايات بوليسية للشباب من الخيال العلمى

160

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الامريكى فى سائر الدول العربية والعالم

